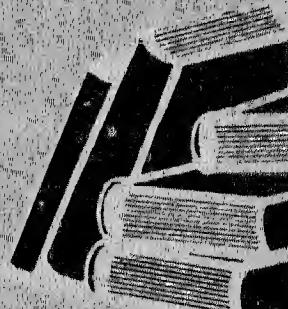


كتاب مصطفى

الطب والجراح
في مصر في العصر العثماني
ومن فنونه في مصر

الجزء الأول

دار الماء الماين



0023868



Bibliotheca Alexandrina

النَّارِيْخُ الْعَرَبِيُّ وَالْمُؤْزَخُونُ
وَرَايَةٌ فِي تَطْوِيْرِ عِلْمِ التَّارِيْخِ
وَسَعْيٍ لِرَجَالِهِ فِي اِسْلَامِ

١

شَاكِرْ مُصطفىٰ

التارِيخُ الْعَرَبِيُّ وَالْمُؤْرِخُونَ

دِرَاسَةٌ فِي تَطْوِيرِ عِلْمِ التَّارِيخِ
وَمَعْرِفَةِ رِجَالِهِ فِي الْإِسْلَامِ

المُخْزَءُ الْأَوَّلُ

دار العِلْمِ الْمُمْلَكِيَّنَ

ص.ب ١٠٨٥ - بيروت

دار العام الماليين

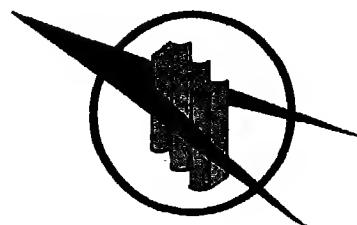
مؤسسة مهتمة بالتأليف والتزجيم والنشر

شارع مسالايسان - تلف ٣٢٧٦٥٣٠

منب ١٨٥ - متلورت ١ - ٣٤٤٩ - ٨٦٦٣٩

برقيا، متلارين - تلعن ٢٣١٦٦، متلارين

بيروت - لبنان



جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى ١٩٧٨

الطبعة الثالثة

شتموز (يوليو) ١٩٨٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بَيْنَ يَدَيِّ الْكِتَابِ

يوم كانت مادة هذا الكتاب تجتمع على الصمت والتکاثر بين يدي سنة بعد سنة حتى بلغت ما يزيد على خمسة عشر ألف بطاقة ، عدا مئات الكتب ومئات الأبحاث ، ما كان في خاطري أن تأخذ طريقها إلى دراسة كهذه الدراسة في علم التاريخ الإسلامي ولا إلى كتاب من مثل هذا الكتاب . كنت أريدها ملوف آخر ما يزال يتکامل عندي حول « مصادر التاريخ الإسلامي » وما أزال أرى إلى فراغه الواضح في المكتبة العربية وأتألم وأعمل على السداد وأأمل أن أستطيعه عن قريب .

على أن مصادرة المصادر التاريخية جرتني — دون أن أدرى — إلى النظر في مناهجها ونسيجها الفكري وتقنيتها العلمية الدقيقة وخصائصها من خلال تاريخ التدوين وتطوره على تطبي الزمن ، كما جرتني — دون أن أدرى أيضاً — إلى معايشة المؤرخين ، ذلك الرعيل الكبير الذي رافق مسيرة التاريخ العربي الإسلامي كله وأغارنا عيونه والأقلام لنرى ونعرف تلك المسيرة من خلاله ... حيادياً كان أم ذاهباً مع الأهواء ، نافذ بصيرة أو أعمى المؤاد ، في ألوف

المجلدات التي كتب ... ووجدتني بين هذا وذاك أيام موضوع جديد لم يكتب بعد ، وقد تكاملت على أوراقي جوانبه « فلم يبق إلا صورة اللحم والدم » ، لم يبق إلا أن توضع له الكلمات ... وهكذا وجد هذا الكتاب الذي يتحدث عن علم التاريخ العربي في مختلف أطواره وعصوره وعن المؤرخين الذين أقاموا ، على الأطوار والعصور ، هذا العلم .

ولقد حسبت أول الأمر أني باللغ ما أريد من هذا كله في مدي مجلدا واحدا ، محدود الجهد والمدى . ولكن البحث اتسع ثم اتسع - وكل بحث مثله إلى اتساع - ثم ما زال يفتح من نفسه وبنفسه فألحق ... وما زالت حاجة الاستكمال تلتح فأزيد ... ومن نقطة هنا إلى ناحية ما بربحت مجهلة هناك إلى سؤال عابر يفتح باباً بعد باب ، إذا بمجلدات خمسة ضخمة قد اجتمعت من كل أولئك ثم اذا بها تتبلع ، كأشداق الحجم ، الوقت والجهد والفكير حتى ظنت أنها ليست إلى انتهاء أبداً ولم أجده مناسقاً من الملة أطراف البحث على هون وإن شابها النقص وعدم الإحاطة ، ثم دفعه ، تخلصاً من عوبله الذي يشبه عوبل بنات « السيرين » في نشدان الكمال ، إلى رصاص المطبعة لعله يحمد فيها على حال . وأعترف أني صرفت النظر مرات ومرات عن الجاز هذا الكتاب وإصداره للناس ولكني كنت كلما انصرفت عنه أعادتني إليه برغبتي دواع ملحة عديدة :

أولاً : أن التاريخ - في اعتقادي - علم عربي إسلامي أو يمكن اعتباره كذلك . ومع أن الإنسان - لحد كبير - « حيوان مؤرخ » كما أنه « حيوان ناطق » ومن قبل أن يخلق هيرودوت بكثير ... ومع أن كافة الأمم تشارك في الترعة التاريخية التي تكاد لعمقها وثباتها واستمراريتها وأثرها التلقائي الفعال ندعوها « بالغرizia التاريخية » ، مع ذلك كله فانتا نلاحظ أنه ما من أمة في الأرض قبل العصور الحديثة ، كتبت في التاريخ وألفت فيه المؤلفات الضخمة جداً الضخامة وفرعت الفروع العديدة وسجلت دقائق ما عاشت من الأحداث مثل ما كان في العهد العربي الإسلامي . وإذا كانت الفلسفة أو الطب أو الحساب

والفلك والعلوم العملية الأخرى أو النشاطات الأدبية والشعرية قدرًا مشركًا بين مختلف الأمم تقريبًا فقد تميزت الحضارة العربية الإسلامية بالتنوعة التاريخية الواضحة التي تجلت في ظهور حوالي خمسة آلاف مؤرخ على الأقل فيها وما يزيد على عشرة إلى إثنى عشر ألف كتاب تاريخ — في أقل التقدير — لديها. وبعض هذه الكتب في خمسين وثمانين ومائة مجلد . التراث التاريخي الفضم هو ميزة من ميزات هذه الحضارة وحدتها وليس ذلك ناجمًا فقط عن صيغة انتشار الورق وصنعه لدى العرب منذ القرن الثاني المجري ولكن له أيضًا جذوره النفسية والدينية والمادية فيهم . وهذا ما أعطاه الرواج والرجال والمؤلفات عن سعة ، كما أعطاه في النهاية المخطوط الأولى لفلسفته وتحوله إلى علم منهجي — في حدود تلك العصور — على يد ابن خلدون .

ومع ذلك وهذا هو الداعي الثاني : فإن علم التاريخ الإسلامي مثله كمثل كافة نواحي النشاط الفكري في التراث لم يبحث بعد : لا درس رجاله ولا أحصيت مؤلفاته ولا جرى مسح عامٌ لميدانه ولا رسم فلكه الفكري الأعمق ولا كشف عن مناهجه وطريقه وفلسفته في بحث واسع جاد كامل . بل . وجدت أبحاث عديدة في هذا الميدان وبعضها على مستوى عال من الجدية والجودة . وقد خصصناها بعد هذه الكلمة بالاستعراض وجعلنا ذلك نوعاً من المقدمة لكتاب اعتبرناه منا بجهود السابقين وتقديرًا لتلك الجهود . ولكنها كانت جمیعاً — عدا واحدة منها هي دراسة فرانز روزنثال — إما مختصرات تكتفي باللامع الفامضة التعبيمية والسرعة دون العمق . وإما مباحث متفرقة تتصل ببعض المؤرخين دون آلاف الآخرين . وإما أخيراً متصلة بعصر محدود . فالمسار الأكمل لهذا العلم في مختلف عصوره وبقاعه وأنواعه ورجاله ، مفقود أو غامض الحدود .

الثالث : إن معاناة البحث في التاريخ الإسلامي تضع أمام الباحثين الشباب الكبير من الصعوبات والخلافات . إن لها فلكها الفكري وعلوها ولغتها الميزة والطق . ولقد طلما شعرت وأنا أجمع أطراف هذا الكتاب أن مصادر

التاريخ الإسلامي وان كانت عربية اللغة إلا أنها ميدان مملوء باشارات الاستفهام ومواطن التساؤل . الأسئلة – الساذجة أحياناً – التي كان يواجهني بها طلابي الباحثون كانت تكشف لي مدى القصور الذي نواجه به هذا الفرع من المعرفة التراثية ، ومدى السطحية التي نستخدم بها ذلك التراث وكانت أحجار إلى أي مصدر أردّ طلابي وهم يسألون عن المؤرخين ومؤلفاتهم ؟ أو عن طريق نقل وتسجيل المعلومات التاريخية في الإسلام ؟ وعن موقف المؤرخ المسلم من الآثار والوثائق وعن فلسفة المؤرخين أو عن علاقة التاريخ بالأدب أو بالدين ، أو عن هذا المؤرخ أو ذلك ، مدى موضوعية الأول وقيمة المصدر الذي كتبه الآخر ... كانت حاجتهم إلى أن يجدوا بين أيديهم بعض الكلمات التي تهدي إلى أصحاب المصادر وإلى المسيرة بين سطور ومبارات المصادر تعدل حاجتهم إلى معرفة تلك المصادر ذاتها ومعرفة أصحابها .

والرابع أخيراً : أن هذا الجانب ، من جوانب الثقافة العربية الإسلامية ليس كأي جانب آخر من مثله . اذا كانت علوم الدين أو الطبيعة أو الرياضيات أو الفلسفة وما إليها إنما « تعلم » الحياة العربية الإسلامية وترسم لها آفاقها النظرية ومساربها العملية التي يجب أن تسلك ، فالتاريخ إنما « يصفها » فقط . يصف رجالها وأحداثها كما كانوا وكانت ، في الواقع الحي الذي درج . انه « الشاهد » الوحيد . هو نحن بكل ما أناخت القرون في شرائينا وبكل ما وسبت الأحداث وتمرد العنفوان . أليس من الغبن ان لم يكن من الخيانة للذات العربية أن يظل هذا الشاهد مغمور العيون والخذور في تراب الأرض والآهمال ؟ وإذا كان التاريخ العربي الإسلامي – مثله كمثل كل تاريخ آخر – عملية مزدوجة : هو ملحمة الحياة من جهة وهو تسجيل ملامح تلك الحياة في المعرك من جهة أخرى . هو الزمان ومرأة الزمان معًا في المعنى البحدلي لهذه العلاقة المتناقضة . أليس من الواجب العلمي والوفاء القومي أن نكشف كل تلك الظلال والألوان التي قد تكون أصحاب عملية التسجيل ؟ أن نعرف إلى أي مدى كانت تلك المرأة صادقة

الصورة فيما عكست للناس ؟ أن نعرف الأداة التي سجلت التاريخ بكل ضعفها وقوتها ومؤثراتها بقدر ما يجب أن نعرف - ولكي نعرف أيضاً - ذلك التاريخ على الصدق والصحة ؟

ولعلني أستطيع أن أضيف هنا ما اكتشف به مشروعى الأوسع الذي أعمل عليه لتأريخ المؤرخين والأدب التاريخي الإسلامي فالكتاب الذي بين يديك والذي قد يزيد على خمسة مجلدات هو أحد كتاين اثنين هما ان شئت في التراث التاريخي ومصادر التاريخ العربي الإسلامي وإن شئت في علم التاريخ الإسلامي ومؤلفاته ورجاله فالامر ، عند الغاية التي نرجو منها سواء . وما الغاية إلا أن يقينا « شاهد » التاريخ العربي على رجاله حياً سوياً ، في سبيل صلة أعمق وأكثر حياة وصدقًا بمنابع الذات العربية الأولى ومسارها التاريخي العينيد .

وهذا الكتاب ليس على أي حال أكثر من محاولة تطمح في كثير من التواضع إلى أن ترسم بعض الخطوط والملامح في تاريخ علم التاريخ جواباً على الحاجتين الأولى والثانية وإلى أن تكون نوعاً من المصباح الهادي لفهم المصادر التاريخية في معارضها والمسالك تالية للمحاجة الثالثة . كما ترجو أخيراً أن تكون إحدى المنافذ للاتصال على الإحاطة والألفة بهذا الفرع من فروع النشاط الفكري في الثقافة العربية الإسلامية ، تمهدًا لاستعراض ثمرات ذلك النشاط في الكتاب الثاني القريب . معجم التاريخ الإسلامي والمؤرخين .

فإن قصر هذا الكتاب في بعض جوانبه أو أخطأ السبيل فإن صاحبه ليأمل أن يعينه أخوانه الزملاء بالتجاوز وبالارشاد على سد القصور وتقويم الخطأ « وما أوتيم من العلم إلا قليلاً » .

شاكر مصطفى

الكويت ، كانون الثاني (يناير) ١٩٧٥

مُقدَّمة

في الأبحاث والدراسات

لتي سبقت إلى رأسي علم التاريخ الإسلامي

١ - في التراث

لقد يكون من الظلم أن نطلب في كتب التراث بحثاً للتاريخ كعلم ذي موضوع وحدود ومنهج ما نعرف ونبحث اليوم . ولكن مع ذلك لا نعدم أن نجد عدداً من الدراسات التي عالجت هذا العلم :

ويأتي في الدرجة الأولى تلك الفصول المختلفة طولاً وقصراً والتي عقدها بعض الفلاسفة لفلسفة العلوم وتصنيفها منذ القرن الثالث الهجري . في هذه الفصول يوضع التاريخ من خلال النظرة الشاملة لجوانب المعرفة في مكانه وتحدد أهدافه من خلال ذلك ومناهجه . ولعل أقدم محاولة في هذا الباب هي تلك التي قام بها الفيلسوف العربي يعقوب الكندي (المتوفى سنة ٨٧٣/٢٦٠) في كتابيه (أقسام العلم الانسي) و (ماهية العلم وأصنافه) ولكن هذين الكتابين لم يصلا إلينا . وقد كتب عدد من العلماء في القرن التالي (الرابع) في الموضوع ذاته ومن تلك الكتب :

— كتاب في أقسام العلوم لأبي زيد سهل البلخي المتوفى سنة ٩٣٤/٣٢٢ .
وهذا الكتاب ضائع ولكن الكتب التي تلته موجودة مثل :

— مفاتيح العلوم ، محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي الكاتب
المتوفى سنة ٩٦٧/٣٨٧ وقد خصص في الباب السادس (١٦ صفحة من أصل
١٥٠) لموضوع الأخبار والتاريخ وجعل هذه الصفحات فصولاً تسعة تكلم
فيها عن المصطلحات التي ترد في تواريخ الفرس والعرب والروم واليونان
واليمن ...

— احصاء العلوم ، للفارابي أبي نصر محمد بن محمد المتوفى سنة ٣٨٨ .

— رسائل إخوان الصفا (من أواسط القرن الرابع) وهي معروفة .

— جواجم العلوم ، لابن فريغون ^(١) تلميذ أبي زيد البلخي من أواسط
القرن الرابع أيضاً .

وقد أراد المؤلف من كتابه أن يصنف العلوم على طريقة التشجير :
اللغة العربية ، الكتابة ، السياسة ، الحرب (والأخبار) والأخلاق ، القصيدة ،
العبادة ، علم النجوم ، الرؤيا : الفراسة ، القيافة علوم الأوهام :
السحر ، الطلسات ، الكيمياء ، وكل اهتمام المؤلف منصرف إلى تصنيف
العلوم من وجهة نظر فلسفية .

والكتاب خطوطات عديدة في استانبول (أحمد الثالث رقم ٢٦٧٥

(١) هناك اختلاف في اسم الرجل فأن محمد ابو الفضل ابراهيم يحمل الاسم ابن فريغون بلون اعجم
وبفتح الراء وكسرها (انظر التراث العربي - سزكين ، المقدمة صفحة ٩) ويعطيه اسم :
المتنبي أو المتنبي دون تأكيد) وأما روزنتال فيجمله فريغون أو فريغون اعتماداً على شهود
هذا الاسم الفارسي واستشهد على ذلك بوجود اسم يماثله لدى ابن الجوزي في المتنظم (ج ١٠
ص ٦٤) - انظر الطبعة الانكليزية لروزنثال ص ٣٢ ولكن هذا الاسم في الترجمة العربية
لروزنثال ص ٥٢) ورد بشكل فريغون . وهناك عالم من القرن الرابع المجري باسم فريغون
ذكره الشعالي في تسمة يسمية الدهر (٤/٢٧٥ - نشر عباس اقبال) .

في ٨٠ ورقة ، ورقم ٢٧٦٨ في ٨٦ ورقة) وخطوطات آخران في (مكتبة معارف عامة رقم ٥٢٨ ، و ٥٢٩ ، وخطوط في الاسكورتيل (رقم ٩٥ في ٨٤ ورقة).

— ثم جاءت رسالة في أقسام العلوم العقلية لابن سينا المتوفى سنة ١٠٣٧/٤٢٩.

— ورسالة مراتب العلوم ، لابن حزم الأندلسي المتوفى سنة ١٠٦٤/٤٥٦ (طبعت ضمن رسائل ابن حزم — تحقيق احسان عباس . القاهرة).

وإذا كنا لا نعرف موضع التاريخ في الكتب الضائعة التي كتبها الكندي والبلخي فانا لا نجد للتاريخ مكاناً أيضاً في تصنيفات الفارابي وابن سينا . وربما كان للتصنيف الإغريقي للتاريخ في عداد الآداب أثره في غياب اسم التاريخ لدى هؤلاء الفلاسفة بينما اضطر الخوارزمي في مفاتيح العلوم واخوان الصفا في رسائلهم وابن فريغون إلى الاعتراف بهذا الفرع الهام من المعرفة الإنسانية الإسلامية ، بعد أن كثرت مؤلفاته الإسلامية وكثير رجاله . وقد وضعه الخوارزمي بين علوم الشريعة وما يقترن بها من العربية وجعله الباب الأخير وسماه « أخبار التاريخ »^(١) وبالرغم من أن كتابه في الأصل إنما كان يهدف إلى تفسير التعريف المغلقة في العلوم فان الموضع الذي وضع فيه التاريخ يكشف أن هذا العلم قد بدأ يحتل مكانته ودوره بين الفروع الثانوية للمعرفة . أما اخوان الصفا فرضعوا بين العلوم الرياضية التسعة وجعلوه بدورهم آخر تلك العلوم وسموه قريباً من تسمية الخوارزمي علم السير والأخبار^(٢) ، وأما ابن فريغون فيصنفه مع علوم الحكمة في الفصل الثاني . وأما ابن حزم فاعترف بالتاريخ ولكنه أعاده إلى العلوم الفقهية واعتبره مساعداً لها .

وهذا كله يعني أن « التاريخ » قد أخذ يشغل — كعلم خاص ونشاط

(١) انظر الخوارزمي مفاتيح العلوم (طبع القاهرة ١٣٤٩ / ١٩٣٠) ص ٦٠ - ٨٢ .

(٢) انظر رسائل اخوان الصفا (طبع القاهرة ١٣٤٧ / ١٩٢٨) ج ١ ص ٢٠٢ .

ثقافي – أذهان المفكرين في القرنين الرابع والخامس ، وان لم يبحثه هؤلاء في ذاته ، وفي دراسات خاصة به . وقد استمر الأمر على ذلك أيضاً في القرن السادس وما بعده في مؤلفات :

- كتاب طبقات العلوم ، للأبيوردي أبي المظفر محمد بن أحمد الأموي المتوفى سنة ٥٠٧/١١١٣ .
- كتاب الأimali في كل فن ، للزمخشري أبي القاسم محمود بن عمر المتوفى سنة ٥٣٨/١١٤٤ .
- حدائق الآثار في حفاثة الأسرار ، الذي كتبه بالفارسية فخر الدين الرازي المتوفى سنة ٦٠٦/١٢٠٩ .
- نفائس الفنون في عرائس العيون ، الذي صنفه سنة ٧٣٩/١٤٣٠ محمد ابن محمود الأموي .
- موضوعات العلوم ، لعبد الرحمن البسطامي المتوفى سنة ٨٥٨/١٤٥٤ .

وهؤلاء وأمثالهم إنما كانوا يرون ببحث التاريخ من خلال الفلسفة باعتبارها عندهم أمّ العلوم فكانت مثل هذه النظرة الشاملة لكل معرفة إنسانية جزءاً أساسياً من مؤلفاتهم . جاؤوا ببحث التاريخ من باب الفلسفة ولم يدخلوه من بابه نفسه كعملية فكرية إنسانية مميزة . ويبدو كأن طغيان أحداث التاريخ قد ألهى المؤرخين وغيرهم وشغلتهم عن النظر في ماهية هذا العلم نفسه كمارسة فكرية لها موضوعها والمناهج والحدود .

ويجب أن ننتظر حتى النصف الثاني من القرن التاسع والقرن العاشر التالي له لظهور أول الأبحاث الإسلامية الخاصة بعلم التاريخ نفسه . وقد ظهرت فجأة في أربعة أو خمسة أعمال متتابعة وظهرت في مصر خاصة وحملت في الغالب طابع « الدخاع » عن هذا اللون من النشاط الثقافي أكثر مما حملت من طابع التعمق والتحليل لكنه ومامنته ومناهجه الفكرية . وكان أول ما طرح الموضوع في كتاب :

— المختصر في علم التاريخ ، لمحبي الدين محمد بن سليمان الكافيجي المتوفى سنة ١٤٧٤ / ٨٧٩ وهي رسالة في عشرين ورقة ^(١) انتهت منها في آذار سنة ٨٦٧ حسب ما ذكره السخاوي ^(٢) ، ثم تلاه :

— كتاب الإعلان بالتوبيخ لمن فم التاريخ ، للسخاوي أبي الحير شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد المتوفى سنة ١٤٩٧ / ٩٠٢ (وقد طبع في دمشق كما طبعة روزنفال وطبع مع الترجمة) .

— الشماريخ في علم التاريخ ^(٣) ، للسيوطى جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر المتوفى سنة ١٥١٦ / ٩١١ ، وقد طبعت في ليدن سنة ١٨٩٤ من قبل سيبولد ثم نشرت في بغداد مؤخرًا من قبل ابراهيم السامرائي سنة ١٩٧١ .

— زهر الشماريخ في علم التاريخ ، من وضع أبي زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفارسي المتوفى سنة ١٠٩٦ و منها نسخة مخطوطة في خزانة عبد الحى الكتانى في فاس بال المغرب ضمن مجموعة رقمها ٤٥ و نسختان أخرىان في مكتبة الرباط برقم ٥٦ د : و رقم ٤٨٧ د .

أما رسالة الكافيجي فتأخذ أهميتها من أنها « أقدم رسالة إسلامية معروفة لدينا عن نظرية علم التاريخ » ^(٤) . أنها محاولة أولية هامة سبق بها صاحبها إلى طرح عدد من المسائل المتعلقة بخصائص علم التاريخ وغرضه وأهدافه وفوائده ،

(١) نشر روزنفال هذه الرسالة في كتابه عن علم التاريخ عند المسلمين (الطبعة الانكليزية من ٤٦٨ - ٤٠١) وهي في الترجمة العربية ما بين ص ٣٢٥ - ٣٧٠ .

(٢) انظر كتاب السخاوي — الإعلان بالتوبيخ (طبعة روزنفال — الترجمة العربية) ص ٤٣٧ .

(٣) ذكر صاحب كشف النقون (١٠٥٩ / ٢) كتاباً آخر يعنون الشماريخ في علم التاريخ تبعه إلى (. . . ابن طولون حسن بن أحمد الشامي المتوفى سنة . . .) ولم أثغر على ابن طولون هذا ولا على كتابه فيما بين يدي من المصادر والمراجع . وليس بين كتب المؤرخ محمد بن علي ابن طولون الصالحي الدمشقي (المتوفى سنة ٩٥٣ / ١٥٤٦) على كثرة تأليفه كتاب بهذا العنوان .

(٤) روزنفال (علم التاريخ — الترجمة العربية) صفحة ٣١٨ .

وأجاب باختصار عليها محاولاً " وضع نظرية للتاريخ وأصوله ومسائله من خلال ذلك في الباب الثاني خاصية من الرسالة ، وقد طبق المنهج الفقهي وأراد استخراج منهجه للبحث والتدوين التاريخي من خلاله لكنه سرعان ما يقطع البحث « خوفاً - كما قال - من سامة المخواطر من الأطناط ... وفيما ذكرنا كفاية لكل ذهن سليم » وانصرف في النصف الثاني من الرسالة إلى ذكر بعض القصص عن الأنبياء ، وآدم وبابليس وفرعون ونوح والسفينة ثم عالمة الرسالة المحمدية وخلاصة صغيرة عن النبي والخلفاء الراشدين وفضل أهل العلم ... وقد عرض الكافييجي مرة أخرى لبعض المعضلات التاريخية في كتاب آخر كتبه بعنوان : كتاب النصر القاهر والفتح الظاهر ^(١) .

وأما الشماريخ في علم التاريخ للسيوطى فرسالة أخرى صغيرة الحجم لا تزيد على عشرين صفحة وهي دون شك أقل شأناً بكثير من الناحية الفكرية من رسالة الكافييجي لأن السيوطى لم يحاول ايجاد مشكلة فكرية جديدة تتعلق بالتاريخ كعملية علمية واكتفى بأن قسم الرسالة إلى ثلاثة أبواب : الأول في مبدأ التاريخ أي الحوادث التي تتحذّب بدءاً لتواريخ الناس كهبوط آدم وبناء البيت والميلاد والهجرة ... والثاني في فوائد التاريخ وكلها ذات طابع ديني - أخلاقي ... والثالث جمع فيه بعض المعارف التاريخية ومنها حساب التاريخ بالشهور والأيام .. فكأنما أراد لا بحث ماهية التاريخ ولكن وضع بعض الأسس لعملية التدوين التاريخي بين أيدي الناس . ولا تخرج رسالة (زهر الشماريخ) عن هذا الإطار نفسه سوى أنها منظومة نظماً في أرجوزة تلاؤت ورقات (من ٢٢ سطراً) .

... وبعد فال تاريخ علم واسع
والاعتبار فيه منه نافع
فيه من الأنواع والتصنيف ...
وقد رأيت أن أخلص هنا
ما ليس يخلو أن يلعن المني .. الخ .

(١) المصدر ذاته صفحة ٣٢٠

أما أهم وأضخم كتاب تناول الموضوع فهو دون شك كتاب السخاوي :
الإعلان بالتوبيخ . لم يظهر قبله ولا بعده كتاب مثله تناول علم التاريخ
الإسلامي ، كعلم ، بالبحث والدرس ولو أن حدود المؤلف كفقيه محدث قد
وقفت به دون العمق ، وحولته إلى مجرد جامع للمعلومات المتفرقة . كانت
رسالة الكافيجي هي الدافع للسخاوي كي يكتب كتابه ، وهذا فほど عرض
للسائل ذاتها التي عرض لها سابقه .

بدأ فعرف التاريخ لغة واصطلاحاً ثم عرض موضوع التاريخ في أسطر
وغرق بعد ذلك في تبيان فائدة التاريخ من الناحية الدينية خاصة . وفي خلصة
علوم الدين في السندي وفي المتون . ثم في ذكر قصص النبوة والناس وتثبيت
الرسالة والتهديب والتحث على العمل الطيب . وانصرف بعد ذلك إلى ذكر ما
رواه عدد كبير من المؤرخين في مقدمات كتبهم خاصاً بشرف التاريخ وحمله
وفائدته ... وقضى في ذلك خمسين صفحة ليخلص منها إلى ذم ناقدى التاريخ
وبيان الفرق بين الغيبة المذمومة وقول الحق . ثم عطف على بيان شروط
المؤرخ ، وكلها شروط وحدود مستقاة من روح العلوم الدينية . وبعد أن ذكر
ظهور التاريخ الهجري وسببه ، والتاريخ الذي أرخت بها الأمم الأخرى .
خصص النصف الأخير من كتابه لذكر مصنفات التاريخ . ولعل هذا القسم
من أجمع وأهم المساردين للتراجم التاريخية في الإسلام .

كتب السخاوي كتابه في الواقع ، من وجهة نظر العالم الديني ، لا وجهة نظر
المؤرخ وقد صد إلى الدفاع عن الثقافة التاريخية لا إلى تحليل ماهيتها . ومفهوم
التاريخ لديه لم يكن يتعلق بأحداث السياسة والحياة والناس ولكن يتعلق خاصة
بالتراجم وبما يخص أصحاب علوم الدين منها ، ولعل رسالة الكافيجي كانت
في هذه التواحي أكثر عمقاً من كتابه وأكثر أصالة . ولم يستطع الاستفادة من
المقتطفات التي رتبها بعضها وراء بعض بياناً لفوائد التاريخ ، في استخلاص
نظريّة شاملة لهذا العلم . واقتصر الرأي الذي أتى به في النهاية لكشف هذه
الفوائد على جمع ما تفرق من الآراء في صيغة متصلة واحدة حملت طابع

الجمع لا العمق الشمولي . ومع كل أولئك فإن كتاب السخاوي يظل — لما قال روزنثال — عرضاً جميلاً لعلم التاريخ الإسلامي وأماله ومعضلاته لمن يعرف كيف يقرأه ... فهو صورة مضبوطة لأنجازاته النهاية ولمواطن فشه ... »^(١) حتى القرن العاشر الهجري .

ولم تظهر بعد هذه الدراسات في التراث دراسات أكثر جدية منها ولا أكثر شأناً .

(١) روزنثال - علم التاريخ (الطبعة العربية) صفحة ٢٧٢ (الطبعة الانجليزية ص ١٩٦) .

٢ – الأبحاث والمؤلفات الحديثة باللغة العربية

لم تصدر ، مع الأسف دراسات واسعة من الباحثين العرب في موضوع التاريخ الإسلامي . فإذا استثنينا الموجزات التي عالجته في إيجاز أو نظرات عامة في فصول بعض الكتب فنکاد لا نجد كتاباً واحداً شاملًا أو موسعاً تناول علم التاريخ بالدراسة . وما انتهت إليه معرفتنا يتناول مجموعة محدودة من الكتب . منها :

– أحمد ، أحمد عبد الرزاق :

– دراسات في المصادر المملوكيّة المبكرة (١ – المصادر التاريخية) القاهرة ١٩٧٤ ، هو دراسة في حوالي ٢٠٠ صفحة من القطع الصغير يدو بوضوح أنها نقلت تقلاً عن دراسة الباحث الأمريكي (دونالد ليتل) ، في كتابه مدخل إلى التاريخ المملوكي . ومن المؤسف أن الدكتور أحمد عبد الرزاق ، وهو بعد في أول المشوار العلمي ، لم يشير إلى ذلك أدنى إشارة . وتقرأ المقدمة التي صدر بها الكتاب . فإذا هو صاحب الفكرة والبحث : وهو الذي انتقى أخبار السنوات (٦٩٤ ، ٦٩٩ ، ٧٠٥ هـ) نفسها للتحليل والمقارنة لأسباب ذكرها ، وهو الذي تتبعها لدى ٢٢ مؤرخاً (بالعمام والكمال) « ... بسبب احتكارنا المباشر بتلك المخطوطات – كما يقول – واطلاعنا على كثير منها أثناء دراستنا للدكتوراه في جامعة باريس ... » والكتاب رواية بالعربية لكتاب الانكليزي فيه تحليل أخبار السنوات المذكورة

من خلال ٢٢ مؤرخاً قد قسموا فيما بينهم إلى مصادر مصرية معاصرة وشامية معاصرة ومصادر متأخرة ، ومصادر ثانوية . ولا ينقص هذه الرواية حتى نقل الموراث .

وقد عفا الدكتور عبد الرزاق عن الناحية الثانية في كتاب (ليتل) وهي مقارنة ترجم (قره ستقر) من خلال ثلاثة مؤلفين للترجم . ولقد قرر أن يجعلها جزءاً ثانياً للدراسات : (٢ - كتب الترجم) ! على أن له على أي حال فضلاً مشكوراً هو أنه قدم لقراء العربية بحثاً قد لا يتوفّر لكثيرين الوصول إليه بالإنكليزية ...

- حاطوم (نور الدين ، بالاشتراك مع ن . العاقل ، أ . طربين ، ص . مدنى)
- المدخل إلى التاريخ ، مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٥ .

والكتاب في الأصل استعراض لتاريخ علم التاریخ في الحضارات المختلفة ومن بينها الحضارة الإسلامية . وقد عقد للتاريخ الإسلامي الفصل الثالث الذي يمتد ما بين الصفحتين ١٢٤ - ٣٠٢ . والبحث واف شامل ، يكاد يكون بذاته كتاباً كاملاً في تاريخ التدوين التاریخي ، منذ الفترة السابقة لالسلام (ورواتها في الإسلام) إلى ظهور التأريخ لدى المسلمين وأساليبه . وقد أكد المؤلفون على الميزات التي تميزت بها حركة التدوين التاریخي من أصلية واستقلال ، ومن عناية بتاريخ الإسلام خاصة ، وعدم تسخير الأقلام للتاريخ الرسمي ، واستخدام للتقويم الهجري وحرص على ذكر مصادر الأخبار وسندتها . كما درس المؤلفون أسباب تدوين التاریخ ، ثم التدوين في العصر الأموي .

ثم صرف البحث بعد ذلك إلى كبار المؤرخين الذين سجلوا السيرة النبوية في مختلف العصور ثم إلى مؤرخي الطبقات ومؤرخي فتوح البلدان ثم تواریخ البلدان والترجم وأصحابها ثم التواریخ العامة وكبار المؤرخين منذ أبي حنيفة الدینوري والطبری حتى ابن خلدون . ولو لا أن ترجم المؤرخين هي التي

تطغى على هذا البحث الواسع وأن تطور العلم نفسه يضمر حتى ليكاد يغيب في النصف الثاني منه ليجعل محله المؤرخون أنفسهم والترجم . لكان هذا الفصل من أوفي الدراسات لعلم التاريخ الإسلامي .

— حسن ، محمد عبد الغني

— الترجم والسير ، ١١٠ صفحات (ط . دار المعرف ، القاهرة ١٩٥٥) .

وهو كتيب آخر يشتمل على دراسة عامة آفاقية موزعة على أربعة فصول :

الأول : الترجم ونشأتها — الترجم الذاتية

الثاني : السير النبوية . السير النبوية الشعرية .

الثالث : أنواع كتب الترجم ، التنظيم الحولي فيها والتنظيم على أساسطبقات .

الرابع : حول كتابة الترجم

واستعراض الكتاب يعطي فكرة إيجابية عن الموضوع لمن يريد بعض المعرف العامة حوله ولعل هذا هو الغرض منه .

— حسن ، محمد عبد الغني

— علم التاريخ عند العرب ، الكتاب التاسع من سلسلة « مع العرب » القاهرة ١٩٦١ (٢٦٤ صفحة صغيرة) .

وهو كتاب غرضه استعراض التاريخ عند المؤرخين المسلمين في تبسيط ثقافي يضع الخطوط العريضة للموضوع مع بعض ترجم المؤرخين البارزين . لكن طابع الاختصار والتعميم يمنعه من متابعة الكثير من الملاحظات الهامة .

ويأخذ الكتاب شكل المقالات المتتابعة التي تروي أولاً بعض مشاكل التاريخ الإسلامي مثل : قائمة التاريخ - كما قررها المؤرخون المسلمين - ثم الموقف الشرعي منه . ثم مدى صدق وحياد المؤرخين أو ميلهم مع الموى . ثم ينبع في فصول تالية إلى تشابه بعض الأسماء في التاريخ وإلى روح النقد التاريخي لدى بعض المؤرخين وإلى أثر المعاينة في كتابة التاريخ وإلى أساليب الكتابة التاريخية ثم كيفية ذكر المصادر والمراجع ونقل المؤرخين بعضهم عن بعض ، وتنظيم التاريخ على أساس السنين أو المواضيع . والقسم الآخر من الكتاب فصول متفرقة عن حالة المجتمع العربي واستبطاطها من كتب الحسبة ، وعن المؤرخين العرب من غير المسلمين ، وجهود المستشرقين في تاريخ العرب والإسلام ومناهج بعض المؤرخين وكتاب التراجم ومناقشة آهام ابن خلدون بالشمولية . وهو يصل في كثير من المواضيع إلى طرقها إلى التاريخ المعاصر وتردد لديه أسماء شوقي وفيليب حتى وزيدان ونقولا زيادة .

ولعل شأن الكتاب الأساسي هو في أنه أول كتاب حاول ملامسة مواضيع التاريخ العربي بشكل شامل ومبسط سريع .

- الخطيب ، محمد عجاج

- لمحات في المكتبة والبحث والمصادر ، بيروت - دمشق ١٩٧١ .

وهو نموذج لعدد من الكتب صدر بعضها في حلب وبعض في العراق غرضها معاونة الطلاب الجامعيين على البحث العلمي . وهذا الكتاب مثل منها . وهو يتحدث - كما يبنيه عنوانه - عن المكتبات الإسلامية وتاريخها وأشهر مكتبات العالم المعاصر وعن المخطوطات العربية ثم عن طرائق البحث والمناهج فيه . وما كان ليدخل في نطاق الكتب التي تستعرض لولا أن قسمه الثالث يتناول حركة التأليف عند المسلمين في مختلف العلوم مع ذكر أهم المصادر فيها . ومع أن هذا القسم يمتد على ١٧٠ صفحة إلا أنه يعتمد البحث المبسط والمراجع القرآنيةتناول مما يجعله إلى الثقافة العامة أقرب . ولئن كان قد يخدم

بعض طلبة الجامعات إلا أنه يقصر عن معونة الباحثين العلميين في شيء .

— الدوري ، عبد العزيز

— بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ، بيروت ١٩٦٠ .

وهو بحث قيم ، عميق لفجر التدوين التاريخي العربي ومثلثه الأول في ١٣٦ صفحة يتبعها زهاء ثلاثة صفحات من النصوص . وقد كشف المؤلف بصورة خاصة مدرستي التاريخ الأساسيتين في صدر الإسلام : مدرسة المدينة الميالة للحديث مع أبرز رجالها ، ومدرسة العراق الميالة للخبر مع رجالها وبداية القصص التاريخي ودفاوع الكتابة التاريخية . و شأن الكتاب الهام هو في أنه أول بحث واسع بالعربية وضع فجر التاريخ العربي في النور الواضح ولامس في عمق ودقة باللغة وإيجاز شامل واستناد واسع للمصادر الأولى كافة العوامل والظروف التي رافقت نشأة هذا العلم في القرون الثلاثة الأولى للهجرة .

— زيدان ، جرجي

— تاريخ آداب اللغة العربية ، ٤ أجزاء ، طبع أكثر من مرة في القاهرة

ثم في بيروت ، آخرها طبعة دار مكتبة

الحياة — بيروت ١٩٦٧

بالرغم من أن هذا الكتاب صدر قبل الحرب العالمية الأولى ، منذ أكثر من ستين سنة ، ومن أنه في «آداب» اللغة العربية ، إلا إن سعة اطلاع مؤلفه : ونطجه العلمي ، ومحاولاته الاتيان بمؤلف عربي يضافي تلك المؤلفات الاستشرافية التي ظهرت في مطلع هذا القرن ، بمختلف اللغات الأوروبية ، عن تاريخ الأدب العربي ، وكان من أبرزها كتاب بروكلمان ، كل ذلك أعطى كتاب زيدان قيمة خاصة ، وجعله — فيما يتعلق بعلم التاريخ واستعراض المؤرخين خاصة — أهم من كتابه الأول في تاريخ التمدن الإسلامي . وإذا اكتفى في هذا الكتاب الأخير بدراسة بعض الملخص العامة لهذا العلم ، فإنه في تاريخ

آداب اللغة العربية قد حاول أن يعطي بجانب هذه الملامح سرداً هاماً لترجمات عدد كبير من المؤرخين يزيد على المائة والخمسين عدداً ، مع ذكر مؤلفاتهم المطبوعة ، ومكان وجودها إن كانت مخطوطة . وهذا ما جعل الكتاب هاماً ، ومفيداً حتى اليوم – ونجد هذه الترجمات :

في الجزء الأول : ص ٢٢٣ – ٢٢٥

في الجزء الثاني : الصفحات ٤٥٣ – ٤٥٩ ؛ ٤٠٠ – ٥٠٩ ؛ ٦٢٤ – ٦٣٥ .

في الجزء الثالث : الصفحات ٦٥ – ٨٧ ؛ ١٥٦ – ٢٤٤

أما الرابع فيتعلق بالعصر الحديث . ولا بد أن نضيف إلى هذه الصفحات ما ورد في الكتاب من المعلومات عن الحغرافيين الإسلاميين خاصة وغيرهم من شارك ، من علماء العلوم الأخرى ؛ في الانتاج التاريخي .

– عبد العزيز سالم ، سيد

– التاريخ والمؤرخون العرب ، الاسكندرية ١٩٦٧ (٣١٠ صفحات) .

والكتاب قسمان : يعرض الأول في استيفاء واضح بحث الكتابة التاريخية عند العرب نشأة وتطوراً ومنهجاً وتنوع صورة . ثم يتناول في القسم الثاني مصادر التاريخ الإسلامي في الآثاريات وفي المصادر المكتوبة . وينتقل البحث بمحفظات من الكتب الحغرافية والتاريخية . على أن المؤلف اكتفى بالأسلوب الوصفي : ذكر في الفصل الأول : ظهور التقويم المجري ثم آراء مؤرخين العرب في فائدة التاريخ ثم أنحطاء المؤرخين في نظر ابن خلدون ثم الشروط الواجب توفرها في الكتابة التاريخية حسب آراء ابن خلدون والسعاوي .

ثم استعرض في الفصل الثاني نشأة علم التاريخ عند العرب من الباهلية حتى مدرسي المدينة وال العراق ، وعرض في الفصل الثالث تطور الكتابة التاريخية في عدة ملاحظات عامة . وانتقل إلى ذكر مناهج المؤرخين الإسلاميين في

تسجيل التاريخ على أساس حولي أو حسب الموضوعات (الدول ، الطبقات ، الأنساب) . ثم ذكر تنوع صور المادة التاريخية فمنها التاريخ العالمي ومنها التاريخ المحلي (الدنيوي والديني) ومنها التاريخ المعاصر والمذكريات . ثم يلي ذلك البحث في مصادر التاريخ الإسلامي ؛ في النصف الثاني من الكتاب .

- علي ، جواد

- موارد تاريخ الطبرى ، بحث يقع في ١٨٤ صفحة كبيرة نشر في الأعداد الثلاثة الأولى من مجلة المجمع العلمي العراقي لسنوات ١٩٥٠ ، ١٩٥٢ ، ١٩٥٤ (العدد الأول لسنة ١٩٥٠ من ص ١٤٣ حتى ص ٢٣٢ ، العدد الثاني لسنة ١٩٥٢ من ص ١٣٥ حتى ص ١٩٠ ، العدد الثالث - الجزء الأول لسنة ١٩٥٤ من ص ١٦ حتى ٥٦) .

ولا يصور العنوان واقع البحث لأن سعة موارد الطبرى سمحت لصاحب البحث أن يكتب في الواقع نشأة علم التاريخ الإسلامي كله حتى عهد ذلك المؤرخ . ومن هذه الناحية فالباحث يشكل مؤلفاً فائماً بذاته في هذا الموضوع وقد حرص صاحبه على أن يستعرض في دقه الواضحة وسعة اطلاعه المعروفة عنه ، كافة الإخباريين والمؤرخين في القرون الثلاثة الأولى للهجرة ويدرسهم من خلال المصادر التي نقل عنها الطبرى . في مختلف أقسام تاريخه قسماً بعد قسم ، فأرخ بذلك عملياً كافة النشاط التاريخي السابق له . وخرج من ذلك ببحث هام قيم وبعدد كبير سديد من الملاحظات الموضوعية وبناقشة علمية طيبة لعدد من مشاكل التاريخ الإسلامية في فترة نشأته الأولى .

- العمري ، أكرم ضياء

- بحوث في تاريخ السنة المشرفة . مطبعة الإرشاد ، بغداد ١٩٧٢ .
والكتاب في الأصل كان مقدمة لرسالة علمية ثم أفرده صاحبه في مؤلف وأضاف إليه الكثير . ويبحث فيه الوضع في الحديث وجهود العلماء في مقارنته

الموصفات في علم الرجال حتى القرن الخامس ثم أسس تنظيم كتب هذا العلم ونشاط الرحلة في طلب العلم كما بحث تدوين الحديث وأهم الكتب التي روتة. ومع أن الكتاب يتصل بعلم الحديث في موضوعه كله إلا أنه يطل على علم التاريخ من الباب الأوسع لأنه يتناول جانباً هاماً من هذا العلم هو جانب الرجال والترجم . وقد ساعدت النهجية في البحث وسعة الاطلاع وكثرة المصادر على جعل الكتاب من أهم وأبرز الكتب في موضوعه في الوقت الذي سمح له أن يكون مرجعاً يعتمد عليه في بحث بعض جوانب علم التاريخ .

— غربال ، محمد شفيق

— أساليب كتابة التاريخ عند العرب ، مجلة جمجم اللغة العربية — القاهرة (الجزء ١٤ سنة ١٩٦٢) وهو بحث قيم هام في مناهج تدوين التاريخ وأساليبه عند المؤرخين المسلمين الأساسيين .

— فؤاد سيد ، أيمن

— مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي ، طبع المعهد العلمي الفرنسي — القاهرة ١٩٧٤ (٥٤٠ صفحة) .

قد يكون الكتاب أهم وأجمع محاولة تمت حتى الآن لوضع مصادر التاريخ اليمني تحت نظر الباحثين . فقد اهتم المؤلف ، معتقداً في ذلك على خبرات أبيه من قبله ، في جمع أسماء المخطوطات اليمنية وتحديد أماكن وجودها وأنبع ذلك بدراسة لمنهج الكتابة التاريخية عند اليمنيين ثم عمد إلى ترتيب المخطوطات زمنياً حسب وفاة المؤرخين مع ذكر مصادر الترجمة لكل مؤلف والمؤلفات الخاصة بتاريخ اليمن وضم إلى الكتاب ملحقين الأول بالأبحاث والدراسات الحديثة حول الموضوع والثاني بقوائم السلاطين والأئمة في تاريخ اليمن . ويتصدر الكتاب مقدمة بالفرنسية . ولا شك أن هذا العمل إسهام

واضح في خدمة تاريخ هذه البقعة العربية التي لم تدخل أصوات التاريخ الواضحة حتى الآن .

— كحالة ، عمر رضا

— التاريخ والبغرافية في العصور الإسلامية — المطبعة التعاونية بدمشق ١٩٧٢ والكتاب حلقة في سلسلة من الكتب أصدرها المؤلف تناول فيها تاريخ مختلف العلوم عند العرب المسلمين : اللغة العربية وعلومها ، الفنون الجميلة ، العلوم العملية ، الأدب العربي ، الدراسات الاجتماعية ، الفلسفة الإسلامية وملحقاتها ، علوم الدين الإسلامي ... ومن يعرف الدأب العلمي الذي اتصف به المؤلف ، ويذكر ما قدمه حتى الآن عن المعاجم الكبرى للباحثين كمعجم المؤلفين (١٥ مجلداً) وأعلام النساء (٥ مجلدات) ومعجم قبائل العرب (٣ مجلدات) يعرف عن أي خلفية علمية واسعة مدققة يصدر في كتبه ويعرف لكتاب (التاريخ والبغرافية في العصور الإسلامية) قيمته كنظرة كلية شاملة لتطور علم التاريخ عند العرب المسلمين . وقد استعرض في ١٩٠ صفحة ظهور هذا العلم في الإسلام في القرن الأول والثاني ثم عرض لكتاب المؤرخين : الطبرى ، مسکویه ، المسعودي ، ابن الجوزي ، ابن الأثير ، ابن العبرى ... إلى ابن خلدون . ناشراً هنا وهناك ملاحظات قيمة . ثم يعطى إلى كتب التراجم فيتحدث عنها على الطريقة نفسها ثم يتناول الأنساب ثم التاريخ المحلي : لمصر والمحجaz وإيران والشام . كما يتناول التاريخ المعاصر والمذكريات ولا ينسى الحديث عن أسلوب الكتابة التاريخية ودخول الشعر في التاريخ وينتهي هنا البحث ليخصص القسم الباقى من الكتاب وهو يزيد على النصف لسرد كتب التاريخ العام ومؤلفيها مع نبذة قصيرة عن كل كتاب ويتبع ذلك كتب الرجال ثم المناقب ثم كتب الدول والوزراء والولاة والقضاة ثم الحكماء والأطباء والمتكلمين والصوفية وتراجم القراء والمحدثين والفقهاء والتراتيج الأخرى للأدباء والشعراء واللغويين والنحاة لتأتي بعد ذلك كتب التاريخ المحلي ...

على أن الكتاب رغم فائدته والجهد المبذول فيه ، وسداده بعض الفراغ في موضوعه يحتاج إلى لمسات التنظيم العلمي الحديث وإلى الفكر المنهجي الإنساني الذي يستفيد من هذه المعلومات الغزيرة في إعادة تكوين علم التاريخ ورجاه ، وفي تقسيم البحث إلى فصول واضحة ومواضيع محددة تركيبية . وقد تأثر المؤلف بكل التأثير بباحث روزنثال حول علم التاريخ عند المسلمين واتبعه سنته مضيقاً في النهاية مائة صفحة من عنوانين الكتب والمؤلفين مما أضاع عليه فرصة إعطاء أول استعراض تاريخي شامل لعلم التاريخ في الإسلام . وقد كان هذا هدفه الأصلي .

- محمد حسن ، زكي

- دراسات في مناهج البحث في التاريخ الإسلامي ، بحث في مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة . المجلد ١٢ (ج ١ مايو سنة ١٩٥٠) من الصفحة ١٥٢ إلى ١٧٧ .

- دراسات في المازنة بين المؤرخين في دار الإسلام والمؤرخين الأوروبيين في العصور الوسطى ، بحث في مجلة كلية الآداب والعلوم - بغداد ، الجزء الثاني ، حزيران ١٩٥٧ (صفحة ٣١ - ١) .

- نصار ، حسين

- نشأة التدوين التاريخي عند العرب (مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٥٦) .

وهو رسالة تقارب في الدراسة من بحث الدكتور الدوري ومن بحث سبقهما للمستشرق هوروفيتش وتستعرض في عمق وجهد الأعمال الأولى في تدوين التاريخ الإسلامي .

٣ – الأبحاث باللغات الأجنبية

لعل اهتمام المؤلفين من المستشرقين كان أكثر من اهتمام الباحثين العرب بعلم التاريخ الإسلامي . ونستطيع أن نجد لهم جملة واسعة من الأبحاث بمختلف اللغات وبعضاها هام ودقيق وشامل . ومنها :

— Blachère, Régis

— *Histoire de la Littérature Arabe*

وصاحب الكتاب مستشرق فرنسي (توفي مؤخراً في أيلول ١٩٧٣) معروف باطلاعه العريق على اللغة العربية والأدب (ترجم القرآن ودرس الحافظ) . وفي الصفحات ٧٨٠ – ٨١٠ من الجزء الثالث من هذا الكتاب بحث نشأة التدوين التاريخي في الإسلام . وبالرغم من أن زاوية نظر المؤلف أدبية بحثية إلا أنه مع ذلك استطاع أن يأتي بعدد جيد من الملاحظات التاريخية الهامة في الموضوع .

— Gibb, Hamilton A.R.

Tarikh, (Art. Enc. Is., Ancient edition), Sup. I, pp. 233-245
(Leide — London 1938)

كتب هذا المستشرق المعروف هذا البحث عن التاريخ الإسلامي لدائرة المعارف الإسلامية ، وقد نشر في الطبعة القيمة لها (في الملحق الأول) سنة ١٩٣٨ ثم في كتاب *Studies on the Civilization of Islam* كما نشر في الترجمة العربية لدائرة المعارف (ج ٤ ما بين ص ٤٨٣ – ٥١٦) وفي الترجمة

لكتاب الدراسات (ترجمة عباس . نجم . زايد . بيروت ١٩٦٤) الصفحات ١٤٣ - ١٨٢ . ولا شك أنه ، رغم قصره ، من أوفى وأكمل الدراسات التي ظهرت عن علم التاريخ الإسلامي حتى الآن . وقد وضع فيه صاحبه الخطة الأولى والأساسية لكل دراسة موسعة فيما بعد لهذا الموضوع . وحشد فيه ، في تكثيف واضح ، عدداً هاماً من الملاحظات حول تطور هذا العلم تستند إلى اطلاع طيب ودقة منهجية واضحة واحتاطة بالموضوع من كافة جوانبه وفي مختلف الأصقاع الإسلامية . بدأ البحث بما هو مأثور عن العهد البخاري من أفكار تاريخية ثم ما روي في الإسلام عن تاريخ ما قبل الإسلام ثم أخذ في دراسة علم التاريخ في عهد الخلافة والمؤثرات التي أثرت في نشأته . ولئن لم يكن بحثه عميقاً وافياً في هذه الناحية فإن ملاحظاته عن علم التاريخ منذ القرن الرابع ملاحظات ناضجة استعرض فيها التواريχ الإقليمية والتواريχ العامة ونشوء كتب التراجم واختلاطها بالتاريخ .

ولعل أهم ما في بحثه أنه تعمد احتواء التواريχ الإسلامية الفارسية والهندية أيضاً ضمن البحث فهو ينبع إلى ظهور التواريχ باللغة الفارسية منذ القرن الرابع ، وإلى دخول العلوم الرياضية والفلكلورية على التاريخ ودخول بعض أهل الذمة ميدان التاريخ العام والخاص . وبعد أن يسجل قضية دخول التراث الفني المسجوع إلى التاريخ في القرن السادس يتتبع تطور التاريخ وأبرز المؤرخين في العصر الأيوببي ثم المملوكي ثم العثماني . كما يذكر مؤرخي اليمن والأندلس في تلك الفترة . ويشير إلى ظهور معاجم التراجم الكبرى فيها .

وقد خصص معظم النصف الأخير من المقال ل الكلام عن تطور علم التاريخ بالعربية وبالفارسية في إيران (ولا سيما في العهد المغولي ثم التيموري) وبالتركية والعربية لدى سلاجقة الروم ثم في ظل العثمانيين وأنهى المقال ببحث التاريخ الإسلامي في الهند ، وفي إيران خلال العهد الصفوی .

وقد كتب جب بالإضافة إلى هذا البحث ، أبحاثاً أخرى قد تكون بالنسبة لموضوعنا أقل أهمية .

- ١ - بحث في (تفسير التاريخ الإسلامي) نشره في كتابه *Studies on the Civilization of Islam* السابق الذكر (دراسات إسلامية المترجم للعربية بقلم إحسان عباس وزملائه) ولكنه يتعلّق بتاريخ الإسلام .
- ٢ - بحث في التاريخ الإسلامي أيضاً في دائرة المعارف البريطانية (الطبعة ١٤)
- ٣ - بحث في المصادر العربية عن حياة صلاح الدين .
- ٤ - بحث في كتب الترجم . (نشره في كتاب : مؤرخو الشرق الأوسط الذي نشرته جامعة أكسفورد بإشراف برنارد لويس وب . م . هولت سنة ١٩٦٢ : وقد جاء في خمس صفحات (ص ٥٤ - ٥٩) ويبحث فيه أسباب ظهور أدب الترجم وقواعد اختيار المترجمين لترجمتهم ، وتكوين الترجمة ، ومراجعة المعلومات فيها . وقيمة كتب الترجم في الدراسات التاريخية . ورغم قصر البحث فإنه يتميّز بما تميّز به أبحاث جب من إحكام ومنهجية واضحة وملحوظة دقيقة .

— Guidi, Ignatius

- *L'Historiographie chez les Semites.*
(Rev. Biblique, III, 1906, pp. 509-519)

وهو بحث قصير وقدّيم . ولكنه مع ذلك يحوي على عدد من الملاحظات المقارنة ما بين تدوين التاريخ لدى اليهود ولدى العرب .

— De Goeje, M.J.,

- *Die Arabische Literatur in "Kultur Der Gegenvart"* hsg. Von P. Hinneberg, I, IV, Berlin. Leipzig, 1906, S. 132-160.

وهو بحث في تاريخ الأدب العربي وترانه على صورة التاريخ السياسي والثقافي للإسلام ، وبالرغم من قيمة مادته إلا أن فائدته في بحث علم التاريخ وتطوره محدودة .

- **Gonzalez Palencia, Angel,**
 — *Historia de la Litteratura Arabigo-Espanola,*
 Madrid 1928, 2nd edition (Collection Labor, n. 164-165).
 Madrid 1945.

وهو دون شك من أهم الكتب في دراسة تاريخ الفكر الأندلسي عامة وتطور علم التاريخ لدى الأندلسين خاصة . وصاحب الكتاب يعد في القمة من الاستشراق الأسباني المعاصر ، وقد توفي منذ فترة قريبة تاركاً من آثاره هذا الكتاب الذي يبحث في آفاق التراث الأندلسي كله : الشعر في أنحاء الأندلس ، والأدب والنحو والمعاجم والفلسفة والحديث والفقه والرياضيات والفلك والطب والتباينات وفي أدب المستعربين والمستعجمين وأثار الأدب الأندلسي في إسبانيا . وقد خصص لعلم التاريخ حوالي ١٢٠ صفحة من الكتاب أعقبها بحوالي ١٥ صفحة عن الحغرافيا . ودرس كتب التاريخ العام في عصر الخلافة ، وعصر الطوائف وعصر المرابطين والموحدين وملكة غرناطة وكتب التراجم والمهارات وتأريخ الأدب وتاريخ النواحي . لكن دراسته كانت تعتمد خاصة على تراجم المؤرخين وتحليل كتابهم . ترجم هذا الكتاب إلى العربية بعنوان : تاريخ الفكر الأندلسي من قبل الدكتور حسين مؤنس وطبع باشراف الجامعة العربية — القاهرة سنة ١٩٥٥ .

- **Huart, Clément,**
 — *Littérature Arabe*, Paris 1902 (4e ed. 1923).

وقد ظهر هذا الكتاب بالفرنسية . مع ظهور كتاب بيتسى الإيطالى ، وعند ظهور كتاب بروكلمان الألماني في مطلع هذا القرن وقد غطى هذا الكتاب الأخير على الاثنين وبحث علم التاريخ فيه محدود ويدخل ضمن بحث الأدب .

- **Kremer, A.V.,**
 — *Kulturgeschichte Der Arabischen Literature (Die Literaturen Des Ostens in Einzeldarstellungen 1, 2)* Leipzig, 1901.

وهذا الكتاب كان المحاولة الألمانية الثانية لجمع مادة التراث العربي بعد

كتاب بورغشتال . وتنظر قيمة الجهد المبذول فيه حين نعرف أنه كان في بعض الحالات أحد المصادر الأساسية التي اعتمدتها بروكلمان في تصنيف كتابه المعروف عن (تاريخ الأدب العربي) . وقد ترجمته خداجنثش إلى الإنكليزية (طبع كلكتا سنة ١٩٢٠) حاذفاً منه المراجع . ونقله إلى العربية مصطفى بدر سنة ١٩٥٧ ونشر مقدمته بالعربية على الخريوطى سنة ١٩٦١ بالقاهرة

— Krinsky, A.,

— *Istoria Arabov I Arabski Literaturi*, Moskau 1912.

والكتاب باللغة الروسية ويدخل ضمن محاولات هوارت وبيسى وبروكلمان لتعريف الغرب في مطلع هذا القرن بتاريخ الأدب العربي وبمؤلفاته .

— Lewis (B.) and Holt (P.M.)

— *Historians of the Middle East*
(Oxford U.P. 1962)

وهو من أهم الكتب قيمة في مادته .. جمع فيه المشرفان على إخراجهم ٤١ بحثاً حول التوارييخ العربية والفارسية والتركية للشرق الأوسط في العصور الإسلامية والحديثة . ومن المسمىين فيه عدد من المستشرقين المعروفين (وات . روزنتال . كاهن . بيلا . جب . فوك . شبورل . غرونباوم ...) وبعض الباحثين من البلاد العربية : والأبحاث فيه (ومعظمها يتعلق بالمؤرخين المسلمين) من أجدود ما كتب في موضوعاتها حتى الآن .

— Lichtenstaedter

— *Arabic and Islamic Historiography*,

Muslim World, XXXV, 1954, pp. 126-132

وهو بحث مختصر ، محدود الأفق أيضاً في استعراض أهم ملامح المؤرخين في التاريخ الإسلامي .

Little, Donald Presgrave

— ليتل ، دونالد بريسفريج

التاريخ العربي والمؤرخون — ٣

— مدخل إلى التاريخ المملوكي (بالإنكليزية ، فسبادن ١٩٧٠) .

ضمن سلسلة دراسات إسلامية التي يشرف عليها المستشرق روبر

An introduction to Mameluk Historiography

(Freiburger Islamstudien II) Wiesbaden 1970, (154 p.)

هو دراسة محدودة الحجم ولكنها ، في الحدود التي رسمها صاحبها لها ، في متنها البحدة والدقّة . وقد استهدف المؤلف دراسة العلاقات بين المصادر التاريخية بعضها مع بعض في النصف الأول من عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، ودراسة الروح والمناخ التي اتبعها مؤرخو تلك الفترة (ومن بعدهم) في استخدام مصادر معلوماتهم . وهذه الفترة ليست محظوظة بوفرة المؤرخين فيها فحسب ولكنها محظوظة كذلك بكثرة المعلومات التي وصلتنا عنها . ولو شاء المؤلف أن يبلغ الغاية من التحليل والمقارنة المفصلة لاحتاج دون ذلك إلى أضعاف ما بذل من الجهد ومن الوقت ويحاء كتابه أضعاف ما كان . ومن هنا فقد نعثر المؤلف على الأسلوب الانتقائي الذي اتبعه وعلى اختياره النماذج ، على الطريقة الأمريكية . وهكذا فقد اختار السنوات ٦٩٤، ٦٩٩، ٧٠٥ / ١٢٩٤، ١٢٩٩، ١٣٠٥ م فأأخذ أخبارها كأمثلة للمقارنة في ٢٢ مصدراً عدا بعض المصادر الثانوية . وبعض تلك المصادر معاصر وبعضها من العصور اللاحقة . ثم استخرج من جهة أخرى ترجمة مقتادة (الأمير شمس الدين قره ستقر) من ثلاثة من كتب التراث وقارن بينها .

وبالرغم من النتائج الدقيقة والهامة التي توصل إليها (ليتل) فإن ضيق الأمثلة وحدوديتها جعلا بعض الأخطاء تتسلل إلى تلك النتائج . ولكن الكتاب يبقى هاماً ومفيداً لكل باحث في هذا الميدان .

— Margoliouth, D.S.

— *Lectures on Arabic Historians*, (Univ. of Calcutta, 1930).

والكتاب في الأصل مجموع محاضرات ألقاها في جامعة كلكتا سنة ١٩٢٩

وهي تتناول بالدراسة فجر التدوين التاريخي عند العرب المسلمين ، والمؤرخين

الأولين ثم مؤرخي القرون المجرية الثانية فالثالث فالرابع ثم المؤرخين المتأخرین منذ القرن الخامس حتى التاسع . والكتاب يقدم مادة حسنة للدارسين ولو أنها لا تتميز بالعمق والتحليل وتعتمد خاصة على المعلومات التي قدمها ياقوت عن المؤرخين . وتبدو في النهاية كأنها ترجمة طولاء أكثر مما هي دراسة لتطور علم التاريخ من بخلاتهم . فالملاحظات المتعلقة بهذه الناحية محدودة عنده ولعله لم يكن يقصد إليها بقدر ما كان يقصد إلى جمع معلومات ياقوت التي كانت في ذلك الوقت جديدة ^(١) .

وقد ترجم الكتاب إلى اللغة العربية بعنوان : (دراسات عن المؤرخين العرب) بقلم حسين نصار وطبع بدار الثقافة في بيروت (دون تاريخ) في ١٧٥ صفحة صغيرة .

— Oberman, Julius

— *The Idea of History in the Ancient Near East,
"Early Islam",
Yale University Press, New Haven, 1955.*

وهو بحث خاص بتطور فكرة التاريخ الإسلامي ومحاولة للتعقب في ذلك المفهوم في العهد الإسلامي الأول من خلال المؤرخين الأوائل حتى القرن الثالث ومئلاتها .

— Pfann Muller G.,

— *Handbuch der Islam-Litteratur,
Berlin-Leipzig 1923.*

وهو كتاب مختصر في تاريخ الأدب العربي ، قد يهم الأجانب والباحثين في البحث . وفيه اعتماد على المصادر واضح ولكنه لا يختص بتطور علم التاريخ ما يجعله مرجعاً في هذا الموضوع .

(١) كان مستشرق آخر هو Heer, F.J. قد سبق منه سنة ١٨٩٨ فاستعرض المؤرخين والجغرافيين الذين ترجم لهم ياقوت في معجم البلدان وكان في ذلك الوقت حديث الطباعة فكتب مقالاً حورطم هو : Heer, F.J. : Die Historischen und Geographischen Quellen in Yaqut' Geographischem Wörterbuch, Strassburg, 1898.

— Pizzi, I.,

— *Litteratura Araba* (Manuali Hoepli, Serie Sc. 335/336) Milano,
1903.

وهو بالإيطالية . وقد كان أحد كتب ثلاثة ظهرت في أوروبا في مطلع هذا القرن عن تاريخ الأدب العربي . والآخران هما كتاب هوarth بالفرنسية وكتاب بروكلمان بالألمانية ، وقد كان نشر قبلها جمبيعاً كتاب أربوثوت بالإنكليزية سنة 1890 . وفائدة في دراسة تطور الأدب التاريخي محدودة .

— Pons Boigus, F.,

— *Ensayo Bio-Bibliographic Sobre Los Historiadores Y Geographical Arabico-Espanoles*, Madrid, 1898.

وبالرغم من قدم هذا الكتاب ومن أنه يهتم خاصة بالرجال وبالتراث إلا أنه يقدم باستعراضه التفصيلي للمؤرخين وأثارهم ، ثم بالخلاصة المأمة التي يدرس فيها مجل الأدب التاريخي الأندلسي أكمل لوحة تطور علم التاريخ في الأندلس .

— Rescher, O

— *Abriss der Arabischen Litteratur Geschichte I, II*,
Stuttgart 1925 - 1933.

صاحب الكتاب حجة في التراث العربي . وقد كان في عزمه الاشتراك مع فؤاد سزكين في إصدار موسوعة (تاريخ التراث العربي) ولكن تقدمه الكبير في العمر جعله يتنازل عن أوراقه وعن المشروع لصاحبه . ويتجلى في كتابه هذا مدى اطلاعه واستفادته من كتب التراث في كتابة تاريخ الأدب العربي . وهو يتم بذلك سلسلة كتب المدرسة الألمانية ، في هذا الموضوع وعلى النهج نفسه منذ هامر — بورغشتال إلى بروكلمان .

— Richter, J.,

— *Das Geschichtsbild der Arabischen Historiker der Mittelalters*
(Tübingen, 1933, Philosophic und Geschichte, 43)

وهو بحث يستهدف ابراز الصورة التاريخية في أعمال المؤرخين العرب

الاسلاميين وقد بين أن ما هو تاريني لم يجر فصله عما هو ديني فالتفكير التاريني العربي انطلق من التجربة الدينية لا من الاسطورة . وبعد أن استعرض (ريختر) مناهج الطبرى واليعقوبى وان المفعم خاصة ذكر أن التاريخ الاسلامي جرت صياغته على طريقة معينة ليصبح جزءاً من تقاليد الثقافة الاجتماعية والمنسج الأخلاقي . وقد ترجم إلى العربية (مجلة الفكر العربي العدد ٢ أغسطس ١٩٧٨) وكان ترجم قبلًا إلى الانكليزية من قبل محمد صابر خان ونشر بعنوان :

- *Medieval Arabic Historiography in Islamic Culture* 33
(1959) pp. 240-250; and 34 (1960) pp. 139-151.
- **Rosenthal, Franz,**
— *A History of Muslim Historiography* (Leiden, Brill, 1922).

وهو أول وأهم دراسة علمية جدية موسعة في علم التاريخ العربي صدرت حتى الآن سواء بالعربية أو باللغات الأجنبية . وقد استند روزنتال في كتابة هذا المؤلف إلى قاعدة واسعة من الاطلاع على مختلف المؤلفات التارينية العربية ومنها كمية واسعة من المخطوطات واستخدم تلك المادة استخداماً ناجحاً جدأً في تنظيم البحث واستخلاص النتائج راسماً بذلك لعلم التاريخ من الداخل ومن خلال المؤلفات التارينية ملامحه الرئيسية . ولكنه اقتصر على مناهج وملامح التدوين خاصة فلم يعرض لتاريخ هذا العلم في العصور المختلفة ولا للرواد الأساسيين في بنائه وتكوينه وتطوره ولم يستخدم هذا وذاك في إقامة تاريخ متكملاً متوازن متصل لهذا العلم .

جعل روزنتال كتابه قسمين : خصص الأول للدراسة والثانية للنصوص . أما الدراسة فتناول في الفصل الأول منها بعض الملاحظات التمهيدية عن علم التاريخ ومعنى كلمة تاريخ بالعربية . ثم تكلم في الفصل الثاني عن الوعي التاريني في جزيرة العرب قبل الإسلام وعن الأنساب والأيام ، وعن نظرية الرسول التارينية وأثرها في ظهور علم التاريخ . ثم بحث مكانة التاريخ في العلم

الإسلامي وفي التربية الإسلامية ثم حلل المؤرخ المسلم ومكانته . وتكلمت في الفصل الثالث عن الصور الأساسية لعلم التاريخ : الخبر والصور الحولية والصور الثانوية الأخرى (تاريخ الدول ، الطبقات ، الأنساب) . ثم درس في الفصل الرابع محتويات الكتب التاريخية (من أنساب وترجم وجغرافيا وتنقيم وفلسفة وعلوم سياسية واجتماعية واستخدام للوثائق والنقوش) ودرس في الفصل الخامس الصور المتنوعة للتذوين التاريخي (التوارييخ العالمية ، والمحلية الإقليمية ، والتاريخ المعاصر أو المذكرات) وأنهى البحث بدراسة للصور الفنية في صياغة التاريخ .

استغرق هذا البحث زهاء ١٧٥ صفحة . وقد خصص روزنثال القسم الثاني من الكتاب (أي حوالي ٤٥٠ صفحة) لمجموعة هامة من النصوص المتعلقة بالموضوع ولعل أهمها :

- رسالة الكافيجي ، المختصر في علم التاريخ .
- كتاب السخاوي ، الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ (مع نصين آخرين له من مقدمات كتبه) .
- فصل من كتاب طاش كيري زاده : مفتاح السعادة ومصباح الريادة .
- وقد ترجم الكتاب إلى اللغة العربية الدكتور صالح أحمد العلي بعنوان : علم التاريخ عند المسلمين ، وطبع في بغداد سنة ١٩٦٣ في ٨٦٠ صفحة منها ٢٧٢ صفحة للدراسة و ٥٠٠ صفحة للنصر من والباقي للفهارس .
- Somogyi, J., de,
— *The Development of Arabic Historiography*; in Jour.
Semitic Studies, 3 (1958) pp. 373-387.
- ولم يتيسر لنا الاطلاع على هذا البحث .
- Spies, Otto,
— *Beitrage Zur Arabischen Literaturgeschichte*, Leipzig, 1932.

ولم نتمكن من الاطلاع على هذا الكتاب أيضاً . وصاحبها من المستشرقين ذوي الدراسات العميقة والاطلاع الواسع على التراث العربي .

- **Shamseddin, Muhammad,**
— *İslama Tarih ve Muevverihler,*
(Istanbul 1940-1943)

وهو دراسة هامة ولكنها باللغة التركية للتاريخ والمؤرخين المسلمين ومثلها الكتاب التالي :

- **Togan, A. Fehi,**
Tarihde Usul, (Istanbul, 1950)
- **Ulrich Haarmann**
— *Quellenstudien zur frühen Mamelukenzzeit,*
(Freiburg, 1969) VIII + 288 p. + 118 p. in arabic)

إنه رسالة كتبها صاحبها تحت إشراف الأستاذ رويمير Hans Roemer ودرس فيها كتابة التاريخ في العصر المملوكي الأول . وقد كانت الدراسة في الأصل متطابقة مع دراسة الباحث الأميركي ليتل (مدخل إلى التاريخ المملوكي) ولكن هارمان عدّل في خطأ البحث قليلاً ، حين علم ذلك ، واتبع منهاجاً مختلفاً وإن ظل البحثان في النهاية متوازيين .

أهم هارمان تحت تأثير أستاذه رويمير بالمؤرخ ابن أبيك الدواداري ، وكان رويمير قد نشر الجزء التاسع من تاريخه (*) ، كما جرته الدراسة إلى اكتشاف شأن المؤرخ الدمشقي المغمور : الجزري وهكذا فقد اختار وترجم وطبع بصورة متقابلة أخبار السنوات من ٦٨٢ إلى ٦٨٧ لدى المؤرخين الاثنين . ومن خلال هذه المقارنة وغيرها قدم المؤلف حوالي مائة صفحة من البحث

(*) نشر رويمير الجزء التاسع من كتب الدرر للدواداري وهو (السر الفاخر في سيرة الملك الناصر) سنة ١٩٦٠ وقد تابعه أولريخ هارمان فنشر بشجاعته تحت إشرافه الجزء الثامن (الدرة الزكية من أخبار الدولة التركية) سنة ١٩٧١ .

بحدي المصيد حول ملامح وميزات التاريخ في العصر المملوكي الأول.

وهناك عمل المستشرق الفرنسي دى فو (مفكرو الإسلام) :

— De Vaux, Carra,

— *Les Penseurs de L'Islam*, Paris, 1921 (2 vols.)

وقد نخص دى فو في كتابه هذا تاريخ الفكر الإسلامي في نواحيه المختلفة وخصوص الفصل الثاني من المجلد الأول لبحث (المؤرخين العرب) وقد توقف خاصة عند ابن خلدون معتبراً إياه قمة الفكر التاريخي الإسلامي .

— Wustenfeld, F.,

— *Die Qeschichtschreiber der Araber und ihr werke*,
(Goettingen, 1882).

(مدونو التاريخ العرب وأعماهم)

ومن أن اهتمام وستنفلد ، في كتابه القديم هذا ، كان منصباً على احصاء الإنتاج التاريخي والمؤرخين إلا أنه حوى دراسة أولية كانت ذات شأن في وضع بعض الخطوط للدراسة علم التاريخ الإسلامي .

ولعلنا نشير هنا إلى أننا أهملنا عامدين كتابين من أعظم الكتب الجامعة للتراث هنا :

— تاريخ الآداب العربية لكارل بروكلمان

— تاريخ التراث العربي لفؤاد سرکین

والكتابان مكتوبان في الأصل بالألمانية ورغم فائدتهما في تتبع كتب التراث التاريخي إلا أنهما لا يحويان إلا أقل الدراسة الممكنة . وقد وجدنا أن مكانهما الأصح هو مطلع كتابنا الآخر حول : مصادر التاريخ الإسلامي . ونكتفي هنا الاشارة العابرة إليهما .

٤ - الأبحاث المساعدة والثانوية الأخرى

تلك هي بصورة عامة جمهرة الأبحاث العربية والأجنبية التي تحدثت في علم التاريخ الإسلامي ولا بد كي تكتمل الصورة من أن نضيف إليها ثلاث مجموعات أخرى من الأبحاث والكتب :

أولاً - المؤلفات الباحثة في مناهج البحث التاريخي :

- حسن ، علي إبراهيم

- استخدام المصادر وطرق البحث في التاريخ المصري الوسيط ، القاهرة ١٩٤٩ . وهو بالإضافة إلى اقتصاره على تاريخ مصر يستهدف مناهج البحث . وان ذكر في كتابه الكبير من المصادر المتعلقة بذلك التاريخ .

- رسم ، أسد

- مصطلح التاريخ - بيروت ١٩٣٩ أعيد طبعه سنة ١٩٥٥) .

وهو في مناهج وطرق البحث في التاريخ . وقد وفق صاحبه في الربط ما بين الأصول التاريخية الإسلامية المعروفة في التراث وما بين المنهج العلمي التاريخي الحديث ، وأورد على ذلك الكثير من التصورات والأمثلة التي تجعل منه كتاباً هاماً جداً في فهم علم التاريخ الإسلامي ومناهجه وصلتها بمناهج علم الحديث .

- عثمان ، حسن

- منهج البحث التاريخي ، القاهرة ١٩٤٣

وهو كتاب عام في أصول البحث التاريخي يدرس العلوم المساعدة وجميع الأصول والمراجع ونقدها وأثبات الحقائق التاريخية وتنظيمها ويدرس الاجتهاد والتحليل والصياغة التاريخية . ويشهد خلال ذلك بشواهد يتصل معظمها بالتاريخ الشعري والحديث ولكنه لا يخلو من لفقات كثيرة موزعة في ثنيا الكتاب إلى مناهج البحث التاريخي لدى المسلمين .

ثانياً - الأبحاث المقتضبة أو المطولة بعض الطول التي وردت في ثنيا بعض المؤلفات المعروفة مثل :

- أمين ، أحمد :

- فجر الإسلام (أنظر منه الطبعة العاشرة - القاهرة ١٩٦٥) صفحه ٤٠ وما بعدها .

- ضحي الإسلام (أنظر منه الطبعة السادسة - القاهرة ١٩٦١ في الجزء الثاني) التأريخ والمؤرخون في العصر العباسي الأول صفحة ٣١٩ - ٣٣٦ .

- ظهر الإسلام ، أنظر منه (الطبعة الثالثة - القاهرة سنة ١٩٦٢) في الجزء الأول صفحه ٢٠١ - ٢٠٩ في الجزء الثاني صفحه ٢٠١ - ٢٠٥ ، في الجزء الثالث عن التأريخ في الأندلس صفحه ٢٧٤ - ٢٩٥ .

- حسن ، ابراهيم حسن

- تاريخ الإسلام السياسي وله عدة طبعات . أنظر منه الطبعة السابعة (القاهرة ١٩٦٥) الجزء الأول صفحه ٥١٣ ، والجزء الثاني صفحه ٣٤٩ - ٣٥١ ، والجزء الثالث صفحه ٣٩٨ - ٤٠٦ والجزء الرابع (الطبعة الأولى سنة ١٩٦٧ القاهرة) صفحه ٥٥٠ - ٥٨٣ .

- تاريخ الدولة الفاطمية (الطبعة الثالثة - القاهرة) صفحه ٥٥٩ - ٥٦٩ .

- زيدان ، جرجي

- تاريخ التمدن الإسلامي ، طبعة دار الملال - القاهرة (دون تاريخ)
مع تعليقات للدكتور حسين مؤنس .

وانظر منه بحث التاريخ عند المسلمين في الجزء الثالث صفحة ٦٩ - ١١١ .

- الشيال ، جمال الدين

- في التاريخ ، (فصل من كتاب أثر العرب والإسلام في النهضة
الأوروبية) اصدار : مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع اليونسكو - القاهرة
١٩٧٠ .

ويشغل الفصل ما بين الصفحتين ٣٥٥ - ٤٠٠ من الكتاب ويتحدث عن
أثر التاريخ والمؤرخين في إسبانيا وصقلية والشرق في علم التاريخ الأوروبي
في العصور الوسطى ، كاشفاً بذلك بعض العلاقات المأمة ما بين عدد من
المؤرخين العرب في هذه الأقطار وبين المؤلفات الأوروبية التاريخية المعاصرة لهم
أو التالية لعهودهم . والبحث خصب لاسيما في الأفق الجديد الذي يفتحه
للباحثين .

- العبادي ، عبد الحميد

علم التاريخ عند المسلمين (فصل ضمن كتاب علم التاريخ - تأليف
هرنشو ، القاهرة ١٩٣٧) .

وكاتب هذا الفصل ترجم كتاب علم التاريخ إلى العربية ورأى أن صاحبه
لم يعرض للتاريخ الإسلامي فأضاف إليه فصلاً يكمل البحث (ما بين الصفحتين
٥١ - ٦٩) وهو استعراض موجز محدود لتطور علم التاريخ عند المسلمين
وأبرز رجاله ولعله يصلح بذلة لمن ينشد فكرة سريعة عابرة .

ثالثاً - أبحاث المؤلفين الذين اقتصرت دراسة مؤرخ إسلامي واحد والمؤلفين الذين نشروا بعض الكتب التاريخية القديمة أو المخطوطة ، فقدموها بمقومات عن أصحابها وذلك كثير ، ومن أمثلته :

أحمد محمد الحوفي : الطبرى، القاهرة ١٩٦٣ (سلسلة أعلام العرب رقم ١٣) .

عبد القادر أحمد طليمات : ابن الأثير الجزري (القاهرة سنة ١٩٦٩ سلسلة أعلام العرب رقم ٨٣) .

عبد الطيف حمزة : القلقشندي ، القاهرة سنة ١٩٦٢ (سلسلة أعلام العرب رقم ١٢) .

عبد الواحد وافي : عبد الرحمن بن خلدون . القاهرة سنة ١٩٦١ (سلسلة أعلام العرب رقم ٤) .

مؤلفات ابن الجوزي ، عبد الحميد العلوجي بغداد سنة ١٩٦٥ .

أسئلة مؤلفات ابن تيمية ، لابن قيم الجوزية (تحقيق صلاح الدين المنجد) طبع دمشق ١٩٥٣ .

ومقدمات حسن جبشي لابن شاهنشاه و محمد عبد الطيف عوض لتاريخ الفارقى ، وأبو الفضل ابراهيم لتاريخ الطبرى (طبعة القاهرة ١٩٦٠) و عبد القادر طليمات لتاريخ ابن الأثير عن الآتابكة : الباهر (القاهرة ١٩٦٣) و مقدمة محمد حلبي أحمد لكتاب الروضتين و مقدمة صلاح الدين المنجد لتاريخ ابن عساكر ولأعلام النبلاء للذهبي الخ .

وفي اللغات الأجنبية من ذلك فيض واسع أيضاً منه أبحاث :

— Fuck, J. : *Muhammad Ibn Ishaq*, (Frankfurt am Main, 1923).

— Krenkow, *The Two Oldest Books on Arabic Folklore*, (Islamic Culture, 111, 1928, pp. 235 off.

- Loth, Otto von : *Das Classenbuck des Ibn Sa'ad*, (Leibzig 1869).
- Cahen, Cl.,
 - Abdallatif Al Bagdadi, Protaitiste Et Historien Leson Temps.*
 - Bull. Etu. Or. de l'I.F.D., Damas XXIII, (1970) pp. 101-128.
- Fahar, Caesar, F.,
 - Ibn Al-Najjar, A Neglected Arabic Historian.*
 - JAOS 84, (1964) pp. 220-230
- Laoust, H.,
 - *Ibn Katir, Historien;*
 - Arabica 2 (1955) pp. 42-88
- Mittwoch, E.,
 - *Die Litterarische Tätigkeit Hamza Al Isbahanis. Ein Bertrag Sur Altern Arabischen Litteraturgeschichte.*
 - MSOS 12 (1909) pp. 109-169
- Peres, H.,
 - *Essai De Bibliotheque Sur La Vie Et L'Oeuvre D'Ibn Khaldun.*
 - Stud. Orientalist (Levi della Vida II) 1956, pp. 304-329.
- Rosenthal, E.I.J.,
 - *Ibn Khaldun, North-African Muslim Thinker of the Fourteenth Century.* Bull. J.R. Lib. 24 (1940) pp. 307-320
- Tritton A.S.,
 - *Bar Hebraeus and the History of the Earlier Caliphs.*
 - J.I.H. 5 (1927) pp. 51-65.

ومنه أيضاً مقدمات Cl. Cahen للمخطوطات التي نشرها من تاريخ العظيمي والبستان الجامع للأصفهاني ، وطبع القوانين المضية للتابسي ومقدمة دى غويه للطبرى ، ولينفي بروفنسال لكتاب نسب قريش للزبيري . ومقدمة سخاوى E. Sachau لطبقات ابن سعد . وللقطعة الباقية من كتاب موسى بن عقبة . هذا عدا عن الأبحاث الكثيرة التي صدرت عن ابن خلدون خاصة مثلاً (وعن غيره من المؤرخين) وهي أكثر من أن تمحى .

النفس المدقّة

نساءٌ وَتَكُونُ عِالمَ السَّارِخُ فِي الْإِسْلَامِ

الفصل الأول

الوعي التأريخي وعوامل ظهور التاريخ

١ - الوعي التأريخي والتاريخ عند العرب قبل الإسلام

الخبر والتاريخ :

كلمة خبر التي استعملها العرب في صدر الإسلام لمعنى التاريخ لها في اللغات السامية قصة طويلة ، فيها معنى الربط والتقييد وفيها من خلال كلمة خبر معنى البحث والفحص ومعنى الأخبار أيضاً . وقد تأخرت كلمة تاريخ حتى ظهرت وفشت على الأقلام الإسلامية ، ولئن اضطربت تفاسير اللغويين لأصل هذه الكلمة وشكوا في عروبتها حتى أعطوها أصلاً فارسياً : «ماه روز» قالوا إنها حرفت عنه^(١) ، والأرجح أن جذرها (ورخ) جذر سامي ولكنه مأخوذ من لغة اليمن الجنوبية وليس عن الكلمة يرج أو ياريح العربية أو السريانية كما ورد في الموسوعة الإسلامية . ومعناها الأول هناك هو القمر أو الشهر . ولعلها

(١) انظر حمزة الأصفهاني - تاريخ سبي ملوك الأرض والأنبياء (طبعة مكتبة الحياة - بيروت دون تاريخ) ص ١٢ .

ما بدأت حياتها الإسلامية كتبغير في الا بعد ظهور التاريخ المجري في عهد عمر بن الخطاب^(١). وكان المسلمون قبل ذلك يستعملون لمعنى التاريخ كلمة « العد ». وقد روى البخاري في الصحيح قول سهل بن سعد الصحابي في ظهور التقويم المجري « ... ما عدوا من بعث النبي ولا من وفاته . ما عدوا إلا من مقدمه المدينة ». وإذا كانت كلمة تاريخ ، تحمل في العربية منذ زمن بعيد خمسة من المعاني على الأقل هي :

١) سير الزمن والأحداث أي التطور التاريخي ، تقابل كلمة The History of... وتعني ما يفهم من كلمة التاريخ الإسلامي أو تاريخ ايطاليا .

٢) تاريخ الرجال أو ما يقابل The Biography

٣) عملية التدوين التاريخي أو التاريخ ووصف التطور وتحليله وهي التي تقابل كلمة Historiography .

(١) للدرس في هذه النقاط انظر روزنفال ، علم التاريخ عند المسلمين ، الأصل الانجليزي صحفة ١٠ - ١٤ الترجمة العربية ١٩٢٥ ، ويمكن أن نذكر هنا بعض الملامح التي تعيّن في الموضوع أيضاً : عن معنى خبر وأخبار وتاريخ في اللغات السامية القديمة :

مادة خ ب ر - بالسريانية والبرية والاثبوبية تعني : ربط = خابر .

ومادة ح ب ر - بالعبرية تعني : زميل ، رفيق = خير .

ومادة ح ب ر - بالعبرية تعني أيضاً : بحث ، فحص ، ومنها الخبر .

نهل كلمة خبر مأثوذة من الربط كما أخذ العقل من معنى العقل = الرباط والقيد ، وأما معنى الكلمة (تاريخ) وأصولها :

فالحواليي ولسان العرب من بهذه يقولان : « الكلمة ليست عربية مخصصة وأن الماءين أخذوها عن أهل الكتاب . وقيل ... إن الاربع هو الوقت والتاريخ كأنه التوقيت » ومرغيليوث يقرر « أن الكلمة لم توجد في عربية الشمال ولكنها موجودة في عربية الجنوب في مادة ورخ . وتعني القمر وتوجد الحروف نفسها مجتمعة في نقش فينيقي ترجمته بعض الباحثين بكلمة ميعاد وقلب الواو همزة ليس أمراً شاذًا بالعبرية » ... والأرجح أنها ليست سريانية الأصل ، وفي السريانية ارخ تعني الشهر . وهي آتية من معنى القمر واسمها في الآكادية أرخو وفي العبرية يرخ أو ياريح

٤) علم التاريخ والمعرفة به ، وكتب التاريخ وما فيها وهو ما يقابل الكلمة The History المقردة^(١) .

٥) تحديد زمن الواقعة أو الحادث باليوم والشهر والسنة (The date)

اذا كان ذلك فقد مرت هذه الكلمة بأطوار عده قبل أن تستقر فيها تلك المعاني وتحملها في الإسلام بدأت مسيرتها أولاً بمعنى التقويم والتوقيت في صدر الإسلام الأول ، وبعد أن استعملت الكلمة فترة من الوقت بهذه المعنى ، كسبت معنى آخر هو تسجيل الأحداث على أساس الزمن . وكان يقوم مقامها في معنى هذه العملية التاريخية : كلمة خبر ، وأخبار وأخباري ، ثم بدأت الكلمة تاريخ تخل بالتدريج محل الكلمة خبر وأخذت تطلق على عملية التدوين التاريخي وعلى حفظ الأخبار بشكل متسلسل متصل الزمن والموضوع للدلالة على هذا النوع الجديد من التطور في الخبر والعملية الاخبارية . وكان ذلك على ما يبدو منذ أواسط القرن الثاني الهجري فما أطل القرن الثالث حتى صارت الكلمة التاريخ تطلق على العلم بأحداث التاريخ وأخباره ، وبأخبار الرجال وعلى الكتب التي تحيي ذلك ، وحلت نهائياً محل الكلمة الخبر والاخباري اللتين انحطت قيمتهما العلمية قبل أن تختفي من الاستعمال في القرن الرابع .

ولعله من المهام أن نلاحظ أن أقدم المؤلفات التي حملت اسم التاريخ كانت كتب أحداث لا ترجم بخلاف الرأي الذي ذكره روزنتال في هذا الصدد^(٢) فقد كتب عوانة بن الحكم الأنصاري الكوفي المتوفى سنة ١٤٧ / ٧٦٥ أو ٧٥٨ كتاباً عنوانه : كتاب التاريخ ، يتناول أحداث التاريخ الإسلامي في القرن الأول الهجري ، وهو أول كتاب نعرفه يحمل اسم هذا العلم في الإسلام . ثم كتب هشام بن محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ٨١٩/٢٠٤ أيضاً كتاب

(١) يمكن أن نضيف مني سادساً استمر فترة حسنة خلال التاريخ الإسلامي وكانت الكلمة تاريخ تستعمل فيها بمعنى تراث القوم وتمثيل الشعائر الأساسية فيهم وكانوا يقولون : فلان تاريخ قومه .

(٢) انظر روزنتال ، علم التاريخ عند المسلمين : الأصل الإنجليزي ص ٣١ ، (التربية العربية من ٢٤) .

التاريخ وكتاباً بعنوان *أخبار الخلفاء*. وكتب في الوقت نفسه الهيثم بن عدي المتوفى سنة ٢٠٦ / ٨٢١ كتاب التاريخ على السينين وكتاب تاريخ الأشراف الكبير . واستقرت من بعد ذلك التسمية وانتشرت واحتلت عناوين العشرات من الكتب في القرن الثالث الهجري . ويبعد أن كتب الترجم حملت بدورها عنوان التاريخ في تلك الفترة مع أن بعضها كان يدعى من قبل بالطبقات . وبالرغم من أن هذه التسمية الأخيرة استمرت وانتشرت إلا أن تسمية الإمام البخاري (محمد بن اسماعيل) المتوفى سنة ٢٥٦ لكتابه عن رجال الحديث باسم (التاريخ) تمثل مرجأً نهائياً ما بين علم الترجم والأحداث في علم واحد .

التاريخ العربي قبل الإسلام

التاريخ أي الاحساس بمرور الزمن والأحوال عبر جيل بعد جيل وتسجيل ذلك الاحساس على صورة من الصور (قد تكون أسطورة أو قصة أو نسباً أو أغنية أو نقشاً أو سجلاً لأحداث) هو نارسة انسانية تعمق وتباور مع الارتفاع في الدرجة الحضارية . وعرب ما قبل الإسلام لم يكونوا بعيدين عن التاريخ ، وكل جماعة منهم كان لها على طريقتها بقدار سويتها الحضارية تأريخها الخاص بعضه مدون أو منقوش وبعضه شفهي . وهو تراث واسع من الكتابات والتقوش والأخبار العديدة جداً والمتفاوتة في الأهمية تفاوتها في الصحة والصدق وما كانت كلها بالطبع مدونة بلغة قريش والقرآن الكريم .

نعرف اليمن ، في الجنوب ... لهم على أوابدهم الأثرية والمعابد والقلاع . والسود تقوشهم بالمسند ، خطهم الخاص ، وبلغة الجنوب خاصة ، يذكرون فيها مختلف الفعاليات من أعمال الدين والخبر والجزرة وبناء الأسوار والمعابد والخصوص والحملات العسكرية . وقد دخل اليهم بعد سنة ١١٥ ق . م تقويم ثابت ^(١) .

(١) انظر الدوري . نشأة التاريخ ص ٤ نقلًا عن ديكمانز ، النظام الملكي في بلاد العرب الجنوبيه =

ويشير المَمْدَانِي في كتابه الأَكْلِيل إلى « ما أَدْخَرَتْهُ مَلُوكُ حَمِيرٍ فِي خَزَائِنِهَا مِنْ مَكْتُوبٍ عَلَيْهَا وَالى « زَبْرُ حَمِيرٍ الْقَدِيمَةِ وَمَسَانِدُهَا الْدَّهْرِيَّةِ » وَالى « مَا قَيَّدَهُ أَبْنَاءُ الْمَرَانِيْنَ مِنْ نَسَبِهِمْ وَمَا حَفَظُوهُ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ وَرَآهُ عِنْدَهُمْ بَخْطٌ أَبِي عَلْكَمَةِ الْمَرَانِيِّ عَلَامَةِ الْيَمَنِ فِي عَصْرِهِ » وَالى « مَا نَقَلَهُ هُوَ بِنَفْسِهِ » مِنْ « نَسَبِ الْلَّاعُوِيْنَ الْمَقِيدِ الْأَصْوَلِ » رَوَايَةً عَنْ زَبْرِ حَمِيرٍ قَدِيمٍ بَخْطٍ أَحْمَدَ بْنَ أَبِي حَنْيَةَ الْمَعْرُوفِ بِالْدَّنْدَانِ »^(١) ... إِنَّهُ ، بِعِنْدِي ، أَنَّ ثَمَّةَ تَسْجِيلاتٍ لِدِي بَعْضُ الْمَلُوكِ وَالْقَبَائِلِ وَالْأَسْرِ وَأَنَّ ثَمَّةَ عَادَةً مَأْلُوفَةً بِذَلِكَ اسْتَمْرَتْ بَعْدَ إِسْلَامِهِنَّ إِلَى الْقَرْنِ الرَّابِعِ الْهِجْرِيِّ . بَلْ يَذَكُّرُ الدِّينُورِيُّ نَسْخَةً حَلْفَيْنِ بَيْنَ الْيَمَنِ وَرَبِيعَةِ الْبَحَارِلِيَّةِ تَقْلِيلًا أَحَدَهُمْ عَنْ حَفِيدٍ آخَرَ الْحَمِيرِيِّينَ^(٢) مَا يَدْلِلُ عَلَى أَنَّهُ كَانَ ثَمَّةَ تَسْجِيلٍ وَحْفَظٍ لِوَثَاقَ الْأَمْرُوْمَعَالَمَةِ ، عَلَى أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْغَرِيبِ بَعْدَ هَذَا أَنَّ لَا يَقِيُّ لَنَا مِنْ تَارِيْخِ الْيَمَنِ السَّابِقِ لِإِسْلَامِ كُلِّهِ ، مَعَ طَوْلِ عَهْدِهِ ، سَوْيًا بَعْضِ اسْمَاءِ الْمَلُوكِ الْقَدِيمَاءِ وَقَصْصَاهُ غَامِضَةً « سَدَاهَا وَلَحْمَتْهَا الْمَبَالَغَةُ وَالْتَّهْوِيلُ وَالْأَخْتِرَاعُ ».

وَكَانَ لِدِي عَرَبُ الْحِيَةِ الْمَنَذُورَةِ : « كَتَبَ » تَحْوِي أَخْبَارَهُمْ وَأَنْسَابَهُمْ أَشَارَ إِلَيْهَا الطَّبَرِيُّ وَابْنُ هَشَامٍ وَيَعْرُفُونَ تَارِيْخَ الْفَرْسِ . كَمَا كَانَتْ لَهُمْ تَقْوِيشُ حَاولَ ابْنُ الْكَلِيْبِيَّ قِرَاءَةً بَعْضُهَا لِاستَخْلَاصِ أَمْرُورِ تَارِيْخِهِمْ مِنْهَا . وَلِدِي عَرَبٍ فِي الشَّامِ مِنْ تَدْمِرِ إِلَى بَطْرَا فَمَدِينَ وَجَمَاعَةً ثَمُودَ وَأَهْلِ الصَّفَا (شَرْقِ حُورَانَ) تَقْوِيشُهُمُ التَّسْجِيلِيَّةُ الْمُعْرُوفَةُ الْمَقْرُوْعَةُ الْيَوْمُ ، وَفِيمَا عَدَا ذَلِكَ لَمْ يُؤْثِرُ عَنِ الْفَسَاسَةِ بِدُورِهِمْ مُؤْلِفَاتٍ تَارِيْخِيَّةً أَوْ نَشَاطٍ تَارِيْخِيَّ مُحَدِّدٍ مَا جَعَلَ تَارِيْخَهُمْ مَتَّأْرِجًا .

= صَفَحةٌ ٢٨٢ . وَقَدْ تَوَصَّلَ رِيكَمَانْزُ إِلَى هَذَا الْإِسْتِنْدَاجِ بِالْاسْتِنْدَاجِ إِلَى تَقْشِ أَبْرَاهِيمَ الْمُؤْرِخِ بِشَهْرِ ذُوقِيَّازَانَ مِنْ سَنَةِ ٦٥٧ هـ وَأَنَّا جَرِيَ الْحَادِثِ الَّذِي يَتَعلَّقُ التَّقْشُ بِهِ فِي سَنَةِ ٥٤٣ مـ . أَمَّا سَنَةٌ ١١٥ قـ مـ فَهُوَ سَنَةُ وَصْوَلِ حَمِيرٍ إِلَى السُّلْطَانِ الْوَاسِعِ فِي الْيَمَنِ .

(١) انظر من كتاب المَمْدَانِيِّ - الأَكْلِيل ج ١ (طبعة الأَكْلِيل - القاهرة ١٩٦٣) ص ٩ و ص ١٣ ، ثم ج ١٠ (طبع محظي الدين الخطيب - القاهرة ١٣٦٨) ص ٣٠ - ٣١ ثم ص ١١١ .

(٢) انظر الدِّينُورِيُّ ، الْأَخْبَارُ الْطَّوَالُ صَفَحةٌ ٣٥٤ ، وَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ نَصَ الْحَلْفِ وَاضْعَفَ الْوَرْضُ وَالْزَّيْفُ بِمَا فِيهِ مِنْ سَجْعٍ وَاصْطَنَاعٍ إِلَّا أَنَّهُ يَدْلِلُ عَلَى أَنَّ النَّاسَ كَانُوا يَعْرُفُونَ وَجْدَ نَصوصٍ مَكْتُوبَةٍ وَوَثَاقَ مَحْفُوظَةٍ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَجْزِ أَوْلَا عَلَى التَّزْيِيفِ .

بين ما يضم تاريخ البيزنطيين منه وما تروي الأخبار العربية البدوية .

أما عرب الحجاز وبدو نجد فكان لهم في تراثهم الثقافي الشفهي قصص تاريخي يتمثل في « الأيام » المعروفة ولم حفظ الأنساب وما يتعلّق بها . لكن التاريخ العربي بعد الإسلام لم يكن تطوراً لتلك الأسس التاريخية الأولى في اليمن أو الجزيرة أو الشام . ثمة انقطاع بين العهدين لكن صلة عملية التدوين التاريخي الإسلامي بالقصص التاريخي البحري وأيام العرب وبعلم الأنساب تفرض التساؤل عن مدى صلة التطور والاستمرار بين الطرفين ؟

أ — فأما المادة التاريخية البحري فأدعى : بعضها قصص ديني وثني أو يهودي أو مسيحي نقله الأخبار والرهبان معهم أو أخبار من التاريخ الفارسي كالذى جلس يرويه الحارث بن كلدة لقرיש منافسة منه للنبي في القرآن ، وما يحكي من أخبار الأولين ، ونجد شيئاً من أصداء هذه المعارف ولا سيما ما يتعلق بأهل الكتاب في القرآن الكريم . وأما النوع الآخر فروايات جماعية ، بدوية المنشأ تروي الزراع القبلي ، وتحمل اسم « الأيام » وتضم ذكريات التاريخ البدوي للقبائل . وبالرغم من أن هذه الأشكال من القصص ذات جذور تاريخية إلا أن صلتها بالتاريخ بالمعنى المعروف للكلمة صلة بعيدة . إنها قصص مرسلاً مقطوع الصلة بالزمن أو يحمل فكرة جد غامضة عنه ويقدم بروايات مسجلة هي بين الأسطورة والواقعة التاريخية . وما من شك في أن هذا القصص يحمل الكثير من الحقائق التاريخية ولكن ما من شك في الوقت نفسه في أن الكثير من التحوير والزيادة قد دخل على أشكاله الأولى والتالية . وإذا كان ثمة شبه بينه وبين القصص السامي العبراني والأرامي والبابلي في الطور البدوي لهذه الجماعات فإن نقله الشفهي وتأخر تسجيله بعد العهد الإسلامي أكثر من قرن قد أدخل عليه الكثير من الانطباعات الإسلامية ... الدينية والسياسية ... كما تبلورت فيه خاصة صور جديدة بدوية مختربة لعرب اليمن ولعلاقتهم مع عرب الشمال ، وللأخبار العربية وللشعر العربي ، كما سادت فيها لغة قريش والخط الذي

كُتِبَتْ بِهِ ، فَرَاجَعَتْ لِغَاتُ الْمَنَاطِقِ وَأُلْغِيَتْ الْخُطُوطُ الْأُخْرَى وَتَطَوَّرَتْ أَهْمَاهَا فِلْمٌ يَبْقَى سَوْى تَطْوِيرِ النَّطَيْنِ النَّبَطِيِّ وَالْحَبْرِيِّ . ثُمَّ أَصَابَ ذَلِكَ الْقَصْصَ كُلُّهُ ، مِنْ خَلَالِ النَّفَلِ ، اضْطِرَابَ تَارِيخِيِّ قَوَامِهِ الْاِخْتِلاَطِ الْحَادِثِ . فَانْتَهَطَ حَادِثٌ بَعْدَهُ وَالْاِنْزِلَاقَ الرَّمْنِيِّ فَانْتَقَلَ الْحَادِثُ مِنْ زَمْنٍ إِلَى زَمْنٍ ، وَالتَّضَخِيمُ مَعَ تَبَاعُدِ الْعَهْدِ فَكَبَرَتْ عَلَى الْأَيَّامِ بَعْضُ أَشْخَاصِهِ وَصُورِهِ . ثُمَّ فَرَضَتِ السِّيَاسَةُ وَمَنَازِعَاتُ الْحُكْمِ نَفَسَهَا خَلَالَ « الْأَيَّامِ » وَاسْتَخْدَمَتْهَا فَهِيَ صُورٌ إِسْلَامِيَّةٌ مَنْسَجِيَّةٌ عَلَى الْمَاضِي ... إِنَّ الصُّورَةَ إِسْلَامِيَّةَ الَّتِي أُعْطِيَتْ « لِلْجَاهِلِيَّةِ » فِي أَيَّامِ التَّدْوِينِ التَّارِيْخِيِّ ، فِي الْقَرْنِ الثَّانِي لِلْهِجَرَةِ ، لَمْ تَشُوِّهْ ذَلِكَ الْعَصْرَ كَلَّهُ فَقَطَ وَلَكِنَّهَا كَانَتْ كَافِيَّةً أَيْضًا لِإِسْدَالِ حِجَابٍ كَثِيفٍ عَلَى مَا سَبَقَهُ مِنْ عَصُورٍ عَرَبِيَّةٍ . وَلَنْلَاحِظْ مِنْ بَعْدِ أَنَّ هَذِهِ الْأَيَّامِ وَالْقَصْصَ لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَدْلِي ، حَتَّى فِي الْعَهْدِ إِسْلَامِيِّ ، عَلَى نَمُوذِجٍ فِي الشُّعُورِ التَّارِيْخِيِّ لِلَّذِي نَاقَلَهَا . لَمْ تَعَاوَنْهُمْ عَلَى التَّطَوُّرِ فِي الْمَفْهُومِ الرَّمْنِيِّ التَّسْجِيلِيِّ وَلَا التَّسْلِسُلُ فِي الْأَحْدَادِ أَيْ عَلَى « التَّارِيْخِيَّةِ » فَظَلَّتْ جَزْءًا مِنَ الْأَدَبِ وَمِنْ فَكَاهَةِ الْأَسْمَارِ ... حَتَّى مَا بَعْدِ قَرْوَنِ .

بـ - وَأَمَّا الْأَنْسَابُ فَهِيَ سَلَاسِلُ أَسْمَاءٍ تَدْعُوا لَهَا الْحَاجَةُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ الْقَبْلِيَّةُ التَّعَارُفُ وَالْتَّماَيِّزُ . أَنَّهَا كَالْأَعْمَدَةُ تَسْعَجُ مِنْ حَوْلِهَا بَعْضُ الْقَصْصِ الَّتِي يَمْحَفِظُ تَكْوِينَهَا . هِيَ فِي الْوَاقِعِ : التَّارِيْخُ الْإِنْتِرُوبِولُوجِيُّ التَّقْلِيدِيُّ وَالْمِيَكِلُ الْعَظِيمِ لِلْفَكِرَةِ التَّارِيْخِيَّةِ . وَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهَا أَكْثَرُ تَارِيْخِيَّةٍ مِنَ الْقَصْصِ بِاعتِبَارِهَا شَكْلًا مِنْ أَشْكَالِ التَّعْبِيرِ التَّارِيْخِيِّ يَسْجُلُ إِطَارَ التَّكُونِ الْقَبْلِيِّ إِلَّا أَنَّ الْمَعْلُومَاتِ النَّسْبِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ بَقِيَتْ شَفَهِيَّةً فَرَةً طَوِيلَةً بَعْدِ إِسْلَامِ ، وَتَحْوِمُ حَوْلَ شَكْلَهَا الْمَسْجُلِ لِدِينِهَا مِنْ بَعْدِ شَكْلِهِ كَثِيرَةً ، مِنْهَا أَنَّهَا تَقْسِمُ الْعَرَبَ أَفْقِيًّا تَقْسِيمًا ثَلَاثِيًّا أَوْ ثَانِيًّا ، (عَارِبَةٌ وَمُسْتَعْرِبَةٌ وَبَائِدَةٌ) ثُمَّ تَقْسِمُهُمْ شَاقُولِيًّا إِلَى أَقْسَامٍ مُنْفَصَلَةٍ بَعْنِيَّ أَنَّ الْعَرَبَ لَيْسُوا شَعْبًا وَاحِدًا وَلَكِنَّهُمْ تَرْكِيبٌ مَزْجِيٌّ اسْتَمَرَ خَلَالِ الْعَصُورِ الطَّوِيلَةِ مُخْتَفِظًا بِعِنَاصِرِهِ الْمَكْوَنَةِ دُونِ تَفَاعُلٍ أَوْ اِمْتَزَاجٍ وَهُوَ إِنْ صَحَّ فِي بَعْضِ الْقَبَائِلِ الْبَدوِيَّةِ الْمَنْزَلَةِ فَلَيْسَ يَصْحُّ لِعَرَبِ الْجَنُوبِ الَّذِينَ قَضُوا فِي حَيَاةِ الْاسْتِقْرَارِ حَوَالِيْ عَشْرِينَ قَرْنًا قَبْلِ إِسْلَامِ وَلَا لِعَرَبِ الشَّامِ أَوِ الْحَسِيرَةِ . وَمِنْ الْعَجِيبِ

أن لا يذكر الشعر الجاهلي اطلاقاً عدنان ولا قحطان وأعجب منه أن لا نجد ذكرآ لأي منها في أي نقش أو أثر يعني قديم أو ثودي أو صفوى وهي نقوش تعد بعشرات الألوف . هذا إلى اضطراب الناس في مفهوم العاربة والمستعربة والبائدة وفي ارتباط القبائل بعضها مع بعض ... واضطرابهم في تفسير أسماء القبائل التي قد تدل على تقسيم جغرافي لا انثروبولوجي وعلى تبيان مكانة لا عرقى واختلاف حضاري لا في الأصل والجنس . ولو حسبنا أجداد القبائل حتى ظهور الإسلام على أساس معدل معقول للأعمار لوجدنا أن أقدمها لا يتجاوز في الوجود ٣٠٠ - ٥٠٠ سنة وكفى بذلك ريبة .

ثم إننا لا نعرف من الأنساب بشكل فيه بعض السعة إلا ما اتصل بقريش وبعض الحجاز ، وتصنف المعلومات بوضوح ثم تضطرب ثم تختلط كلما ابتعدنا عن هذا المركز وخاصة ان وصلنا اليمن ، ثم تموت في مناطق عمان فهي الضباب والإبهام .

وقد انتقلت الأنساب بالرواية عبر القرن الإسلامي الأول إلى عصر التسجيل ، في القرن الثاني . ولم يضعف اهتمام العرب بها كثيراً رغم استقرارهم الحضري لأنها ركبت السياسة أو أن السياسة ركبتها فأخذ النسب شكل التزاع القائم ، وكان قناعاً للأطماع وتنافز التفود والتنافس في الرزق والمركز . ولم يبق شيء من سجلات عمر التي سجلها للدواوين . وما من شك في أن سجلات أخرى قد وجدت في بعض الأمصار - فهي من مستلزمات الغنائم والعطاء والأرزاق - ولكنها بدورها ضاعت وإنما بقي لنا روايات النسابين . ولكنها حين سجلت لم تحمل معها الكثير من المادة التاريخية وظلت حتى في القرون التالية وحتى القرن السابع وما بعده عملاً مستقلأً يردد التاريخ لكن لا يندمج فيه . وهذا يعني أن النسب لم يسمهم إلا قليلاً في إيجاد الأدب التاريخي ، وفي تكوين صورة التاريخ الإسلامي . وهذا التاريخ لم يقم بالاعتماد عليه ولكن بالاعتماد على أسس وعوامل أخرى .

٢ - العوامل الأولى لظهور التاريخ في الإسلام

فكرة التاريخ في الإسلام :

إذا كان القصص الأدامي «والأنساني» في الباحثية قد أعطى الثقافة الإسلامية من بعد مادة قصصية للعمة الدينية من جهة ومادة سياسية - اجتماعية للمحافظ على الصور القبلية ، ومادة لغوية - أدبية من خلال ما حمل من شعر وقصص لدعم لغة القرآن الكريم وقرいشه ، فإن نشأة التاريخ وتدوين الأخبار التاريخية تدين في تكوينها إلى عناصر ثقافية أخرى ظل الكثير منها مرفقاً لهذا العلم وداعماً ومبرراً لوجوده خلال التاريخ الإسلامي كله ، ولعل أهمها :

أولاً «تاريخية الإسلام» ...

١ - فالإسلام دين تاريخي الروح . يحمل في ذاته فكرة تاريخية عميقة . العقيدة الإسلامية لا تعتبر نفسها جديدة ولكنها عريقة الجذور في التاريخ . إنها « ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل » ... فالوحدانية فكرة أزلية الوجود في النفس الإنسانية ، وما الحنيفة واليهودية والمسيحية والإسلام سوى دين واحد متصل الحلقات أبداً .

٢ - ان ما جرى ويجري من أحداث البشر على الأرض منذ بدأ الخلق إلى يوم القيمة إنما هو قدر مقدر وخطوة أرادها الله لمن خلق . « والله خلقكم وما تعملون »؛ « بل لله الأمر جميعاً وإليه يرجع الأمر كله »؛ « يدبر الأمر من

السماء إلى الأرض ثم يرجع اليه »؛ « وقد جعل الله لكل شيء قدرًا»؛ «انا خلقناكم من ذكر وأثني وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا »..؛ «وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها»؛ «وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح»؛ «وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق علينا القول فدمرناها تدميرًا»... ومن هنا كانت معرفة الماضي نافذة للاطلال على ارادة الله التي تمت في الناس، وتعيرًا عن تلك الارادة ، وكشفاً للمستقبل عن طريق ذلك الماضي ... وما هنا كله روح التاريخ !

٣ - أعطت العقيدة الإسلامية تصوراً تاريخياً وأصحاً للكون منذ الخلق حتى يوم القيمة . وربطت بين المبدأ والمتنه بخلقات الأنبياء وأعطت لمبدأ الخلق صورة لا تقل عنها وضوحاً صورة الآخرة . وجعلت ما بين الطرفين ، فترة عبور «فما الحياة الدنيا ، الا لعب ولهو»؛ «وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور» فلا بد اذن من العزة والتأمل والتفكير في ذلك . «... وفي أنفسكم أفلأ تنتظرون»؛ «أفلأ تفكرون»؟ «أفلأ تعقولون»؟.

٤ - ثم ان شؤون الحياة الدنيا هامة وأساسية في مصير الإنسان وآخرته . وان حياة المسلم مرحلتان يفصل بينهما الموت ولكنهما متصلتان أقوى الاتصال : لأن الأولى بأحداثها ودقاتها أساس الثانية الباقية ودليلها ... وهلذا فالإنسان ليس بمنبوذ وحيداً على الأرض ولا خارج الزمن . وأفعاله مسجلة عليه في اللوح المحفوظ . وكل شيء خالد الحساب لا يندثر . فإن سجّله فليس ينكر في ذلك من جديد «فكل نفس بما كسبت رهينة» «وان كل نفس لما عليها حافظ». «... ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهوداً إذ تقipientون فيه وما يغرس عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين» ... هو التاريخ ! والسجل الكلي .

٥ - ثم ان الإنسانية كلها واحدة: «الله رب العالمين»؛ «هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده». والاسلام يخاطب البشر جميعاً ويكرر خطابه للناس دوماً

« يا أيها الناس »؛ « يا أيها الانسان » مما يوحى ويؤيد الاعيان بالترابط العميق البخلري في الصورة الكونية للانسانية . وجميع الاحداث والأعمال بالتالي ذات أهمية دينية لأن الانسان يصنعها فهي تاريخية وهو مسؤول عنها . مرتبطة بها ارتباطها به . ولا فكاك من التاريخ .

٦ - ظهور الرسول الأعظم كان خطأً فاصلاً في مسيرة التاريخ . هو خاتم الأنبياء . بروز بين عالمين . عهد جديد نهائي للإنسانية^(١) ولعل ادراك عمر بن الخطاب لهذه الحقيقة الإسلامية الكبرى هو الذي دفعه — بين عوامل أخرى — أولاً إلى وضع التاريخ (أي التقويم) وثانياً إلى تدوين الدواوين والتاريخ بالهجرة لإبراز شخصية الرسول من جهة وتأكيد أهمية ظهور الإسلام وتسجيل العطاء في الدواوين على أساس المسلمين الأولين وأنسابهم وإثبات قيمتهم في المنطاق الإنساني الجديد .

٧ - وقد تحدث القرآن الكريم بكثيراً عن أساطير الأولين^(٢) ولا يعني ذلك الأسطورة الحرافية ولكن ما هو مسطور مكتوب لدى الناس . أي ليس بمحدث و لكنه مؤرخ معروف من قبل . وهذا يعني أن الجاهلين قد أدركوا ما في القرآن من صلة مع التفكير الديني السابق وما يملأ الجو القرآني بوضوح منه وأنه يروى قصصاً وأموراً تاريخية لها كتبها وذكرها المسطور .

٨ - انتزع الإسلام العرب من الأطار القبلي ومن الجو الوثني ولهذا استخف بالأنساب وبقصص الأيام وبمثل الحالية وبدلهم منها جوًّا تقافياً آخر ربطهم بسلسلة التاريخ الوجданى للبشرية . أى أعطاهم بعداً زمنياً جديداً قوامه التاريخي الماضي كله من خلال سلسلة الأنبياء المتتمادية منذ مبدأ الخلق .

(١) الفرقا الاسماعيلية وحدها - في الاسلام - ترى نظام الدورات السبع والفترات ، ولكنها على أي حال قد تأثرت في التظاهر عن المهد الذي نتكلم عنه .

(٢) في القرآن الكريم تسع آيات تتحدث عن أسطoir الأولين من أرضهم في هذا المعنى الذي نقصنا قوله تعالى : «وقالوا أسطoir الأولين اكتبهنا فهـى مـلـىـ عـلـيـ بـكـرـةـ وأـمـيـلـاـ» (الفرقان آية ٥).

٩ - وأخيراً قدم القرآن الكريم مادة تاريخية هامة وان تكون محملة وتكفي بالاشارة واللمحة وتسمى بالقصص. « ذلك من أنباء القرى نقص عليك منها قائم وحصيد »؛ « كذلك نقص عليك من أنباء ما قد مضى »؛ « نحن نقص عليك أحسن القصص ». وبالرغم من أن الغرض منها هو الموعظة والاعتبار (أفلم يروا) « ألم تر كيف فعل ربك بـ... إلا أن الرغبة في معرفة تفاصيل ما أجمله القرآن الكريم من ذلك القصص فتحت باباً من أبواب المعرفة الدينية دخل منه التاريخ . ودخل كرديف ديني شرعي لعمليات التفسير القرآني . وإذا كان الكثير من الاسرائيليات قد دخلت عن هذا الطريق إلى التاريخ الإسلامي كمه دخله الكثير من الأخبار القبلية والأجنبية فأهم من ذلك أن القرآن الكريم منح بذلك نظرة جديدة إلى الماضي كرسته كأساس فكري للعقيدة ، ردت قيمتنا كجزء أساسي من المعرفة الإنسانية الموصولة إلى الله .

ثانياً : الحاجات الفكرية (الروحية - الثقافية) :

١ - شعر المسلمين ومنذ الأيام الأولى أن الإسلام كعقيدة غيرَ مسيرة الإنسانية الدينية وأعطتها مساراً جديداً ودخل بها في طور مختلف . وهذا الحدث يستحق التسجيل في دقائقه لفهمه واعطائه شأنه الإنساني . وتجارب « الأمة » الإسلامية جديرة بأن تدون وتعرف في تطور أحداثها وأمورها وتقارن مع تجارب « الأمم » الأخرى (١) .

٢ - وبالمقابل فقد ظهرت في العالم دولة إسلامية كبرى غيرت مسيرته التاريخية والسياسية . وفتحتها الصاعقة ثم سلطتها السياسية وجديدها الحضاري لم تفاجئ الشعوب الأخرى فقط ولكنها ألغت الدول الكبرى التي كانت لقرون طويلة ، في ما يسمى بالعصور القديمة ، تسير شؤون العالم ويرزت وحدها بدلًا منها . إن هذا الحدث لا بد أن يشده الأنظار لا سيما في الشعوب المهزومة

(١) لعلنا نبه إلى أننا نستعمل كلمة « أمة » هنا و « أمم » بالمعنى الإسلامي التقديم الكلمة الوارد في الآية الكريمة : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » .

ويدفعها إلى التحليل والتحليل والوصف وتفصي الأخبار لتقييم الحادث ووضعه في موضعه من مسيرة الجنس البشري وتاريخ دولة المقارنة بينه وبين دول العالم السابقة ونظمها التي بادت أو بقى .

٣ - ان التجارب الانسانية والأمثلة أساسية في التوجيه إلى السلوك الطيب وفي التقويم الخلقي . ومستواع تلك التجارب هو التاريخ الذي يجب أن يمشي أمام الإنسان مصباح هدى ، لا وراءه ، باعتباره في المطاف الأثير تغيراً واقعياً عن ارادة الله وهدايته . وهذه التجارب الانسانية هي بدورها أساس في الثقافة الفكرية والسياسية . إنها هي المعرفة والعلم وكان تسجيلها وروايتها يشكلان جانباً حيوياً من التطور الثقافي للجماعة الإسلامية . وقد لعب الاخباريون دوراً هاماً في هذه الناحية ، ولم تكن كتب الأخبار الأولى ولا الكتب التاريخية التالية من أمثل : الأخبار الطوال ، والمعارف وغيرها سوى التعبير عن هذه الحاجة الفكرية . كما لم تكن عنابة الخلفاء الأمويين كعاوية ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان والوليد الثاني سوى نتيجة من نتائج هذه الحاجة للتاريخ .

٤ - ومهما بالغنا في تفصي العوامل النفسية أو الدينية وراء ظهور التاريخ فانا لا نستطيع أن نغفل وجود الرغبة العلمية الخالصة أيضاً بين تلك العوامل . الرغبة في المعرفة لمجرد المعرفة والاطلاع ، وهي بدورها حاجة فكرية انسانية ، لا تغيب عن أي عمل علمي . ونستطيع أن نرى في أعمال الكثير من المؤرخين والاخباريين الأوائل ما يكشف وجودها الواضح . كانت بالنسبة إلى الكثيرين منهم كالسوط يلاحظهم ويدفعهم إلى السؤال المتكرر للناس وإلى زيارة أماكن الأحداث والسفر في تفصي الأخبار وسؤال النساء لتسجيل كل أولئك .

يقول أبو شامة : «... ولم يزل الصحابة والتابعون من بعدهم يتذمرون في حديث من مضى ويتناكرون ما سبقهم من الأخبار وانقضى ويتطلبون الآثار والأخبار . وذلك بيّن من أفعالهم من اطلع على أحوالهم »^(١) ...

(١) أبو شامة - كتاب الروضتين (طبعة محمد حلبي أحمد) ج ١ ص ٢ .

ثالثاً : الحاجات العملية الحياتية :

لم تكن تاريخية الإسلام ولا الحاجات الفكرية - الروحية - الثقافية بالكافية لظهور علم التاريخ بتلك السعة التي ظهر فيها لولا وجود حاجات أخرى من نوع عملي - حيادي معها . وبعض هذه الحاجات ديني شرعي ويدخل في الجو الثقافي في تفسير القرآن والحديث ، وبعضاها سياسي اقتصادي مما يتصل بإدارة الدولة ونظامها المالي والقضائي ، وبعضاها ذو طابع سياسي اجتماعي مما يتصل بعثاثر الدولة القومية وتياراتها السياسية . وقد كانت معرفة التاريخ عنصراً حيوياً في هذه النواحي كما كان التاريخ وحده يعطي الجواب عليها . ومن هذه الحاجات :

- ١ - الحاجة إلى معرفة أسباب التزول وتفسير آي القرآن وحدوده وأحكامه من خلال تاريخه . انه المصدر الأول الأساسي للتشريع الذي يحكم الجماعة الإسلامية ، وقد أدى البحث في ذلك إلى تسجيل الكثير من أخبار الباهلية وعصر الرسالة .
- ٢ - الحاجة إلى معرفة سيرة الرسول الأعظم - ثم الصحابة من بعده - لا كفائد ديني أكبر فقط ولكن كثاني اثنين من مصادر التشريع الإسلامي الأساسية ولمعرفة الخبرات والتوجيه النبوى كل « حديث » منه قانون وكل عمل سنة . وكذلك أعمال الصحابة الذين ارتفع من حوله . فلا بد من تسجيل كل ذلك ليكتمل قانون الإسلام في مسيرة الجماعة ، وقد أدى ذلك إلى تسجيل السيرة بدقتها .
- ٣ - ولقد تكونت بنتيجة ظهور الإسلام كعقيدة والفتح الإسلامي كحدث سياسي أمبراطورية واسعة تحتاج إلى معرفة مسيرتها وتبصير تلك السيرة وتفسيرها ، كما تحتاج إلى حفظ خبراتها كأمة جديدة تعبيراً عن وحدتها وهذا يعني :

- أ - القاء الضوء على أساس من السنة وعمل الصحابة على مشكلة الامة

والخلافة في المسلمين وهي المشكلة الأهم والحكم فيها خاصة بين الأمويين والعلويين والخوارج .

بــ تسجيل وإثبات الأحداث الكبرى : معارك بدر وأحد وفتح مكة واليرموك والقادسية والخلفاء ووقعة الجمل ويوم صفين والتحكيم وغيرها من أسباب ومبررات التناقض السياسي والاختلاف بين الناس على الحكم السياسي .

جــ معرفة الاجماع الاسلامي وما انتهت اليه الجماعة في عصر الصحابة والتابعين ومن تلاهم في مختلف الأمور لأن الاجماع بدوره من مصادر الفقه والسياسة الإسلامية وعليه اعتمد الحكم الأموي في شرعيته .

دــ كشف أسباب التزاعات الدينية والخصومات السياسية والقبيلية والتيارات الفكرية وأسباب ظهور الفرق والمذاهب ، والحركات المنحرفة وتطوراتها مع الزمن .

هــ ايضاح النظام القضائي في الإسلام وفلسفته العدالة ومناهج الفقه والحق وأسبابها وركائزها في الأعمال وتراث الخبرات فيها .

وــ تبرير النظام المالي في الدولة الإسلامية (وقد ظهرت بنتيجة ذلك كتب الفتوح للواقدي وابن عبد الحكم والبلاذري) وتفسير أسباب «العطاء» والزكاة والبخلية ووجه الموارد والنفقة في الدولة (وقد ظهرت نتيجة ذلك كتب الخراج مثل الخراج لأبي يوسف والأموال لابن سلام) .

زــ إثبات السبقات في الادارة والتنظيم السياسي لإقامة النظام الاداري الإسلامي باستمرار على هديها .

حــ تحديد العلاقات الاجتماعية والسياسية والمالية مع غير المسلمين في الدولة ، على أساس معاهدات الفتح ونصوص الشرع الإسلامي .

كل هذه الحاجات من سياسية وتشريعية ومالية في الدولة الجديدة كانت

د汪ع وعوامل داعية إلى التدوين التاريخي . وليس إلا في التاريخ تجد هذه الحاجات جذورها وأسباب وجودها وتفسير ذلك الوجود :

٤ - تنافس الأحزاب السياسية والفرق والتيارات الدينية أدى بدوره إلى تسجيل الأحداث ومعرفتها لاستخدام ذلك في تأييد وجهات نظرها أو في الدفاع عنها . إن التزاع القوي على الحلافة والتنافس بين الأفكار الدينية كان يجد سنته دوماً في وقائع التاريخ وأحياناً في اختراع المواقف التاريخية المؤيدة أو المناهضة لاجتذاب التأييد من أكبر عدد من المسلمين .

٥ - وبالمقابل فإن العصبيات القبلية (و وخاصة بين عرب الشمال واليمنيين) وهي ذات طابع سياسي ، والاختلاف بين عناصر الدولة (وخاصة بين العرب عامة والفرس) وهي ذات طابع قومي ومنافسات الأقاليم المختلفة (وخاصة بين الشام والمحجاز واليمن والعراق وفارس) كلها أدت إلى محاولات تسجيل الأحداث والمقابر ... وواقع التاريخ أو إلى اختلاقها أيضاً، لهذه العصبيات والعناصر والأقاليم . ومن هذا الباب دخلت قصص تاريخ اليمن وأيام العرب والروايات المتعارضة لأنباء الفتوح والخلافات السياسية وتاريخ المدن والأمسكار ، كما دخلت الأخبار والكتابات الشعوبية .

رابعاً : العوامل المساعدة :

وقد أعاد على ظهور التاريخ وتوطنه كمعرفة لها حاجتها ومكانتها في منظومة الفكر الإسلامي عوامل مساعدة عديدة أيضاً خدمت التاريخ وتدوينه خدمة كبرى ، ولقد يصل بعضها للدرجة أن يكون من العوامل الأساسية في ظهوره ومنها :

١ : وضع التقويم المجري ^(١) : فان وضع هذا التقويم في ذلك الوقت

(١) تحدثنا أن نهل في هذا المجال أي توسيع في قصة وضع التقويم المجري من قبل الخليفة الثاني عمر ابن الخطاب وذلك كي ندل على أن هذا الحدث الرئيسي ، وإن كان عنصراً هاماً جداً من عناصر =

المبكر من عهد عمر بن الخطاب أدخل عنصراً حيوياً على الفكرة التاريخية الإسلامية وكان خطورة هامة جداً في توطيدتها . أعطاها عنصر التنظيم الخاص بالإسلام وثبت عليها الطابع الإسلامي . كانت ثمة تقاوماً أخرى قبله ولكن ظهوره كان تعبيراً عن الشعور بجدة وقيمة وأصالحة المسيرة الإنسانية الجديدة أي بتاريخيتها ، ومن ثم أصبح التقويم المجري ، منذ وضع ، « العمود الفقري » — كما قال الدكتور الدوري^(١) — للروايات والأبحاث التاريخية . وكان العامل الأساسي في تنظيم تاريخ الإسلام وفصله الواضح عن التواريخ الأخرى وفي اعطائه أيضاً عنصرين هامين من عناصر التدوين التاريخي هما :

أولاً — الثبات أي الارتباط بالزمن والخلاص من القصص المرسل وانقياد الأحداث لقيد التسلسل الزمني .

ثانياً — النجاة من الاختلاط الحادثي أي منع الأحداث من أن يختلط بعضها بعض بين عصر وعصر ومكان وآخر وشخص وثان .

٢ : الاهتمام بالأنساب : فان الإسلام وان أغواها من حيث المبدأ إلا أنها عادت فوجدت حوافر جديدة لظهورها عند تدوين الدوافين ومشكلة العطاء . فان تنظيم الدوافين والعطاء وسكن القبائل وفرق الجيش إنما تم على أساس قبلي . وهذا ما أعطى الأنساب شأناً مادياً ، أضيف إلى شأنها القبلي السياسي في التنافس بين العرب أنفسهم بعد ظهور أرستقراطية جديدة في الإسلام وتوزع

— تنظيم الفكر التاريخي ، إلا أنه لا يتعلّق بعلم التاريخ . وثمة بون شاسع بينه وبين ما نعني هنا من فن التدوين التاريخي . فالتأريخ باليوم والشهر والسنة ليس هو التاريخ الذي يتحدث في الواقع والأحداث والناس . ومن شاء تقسيلاً في معنى كلمة تاريخ لنوبياً وفي وضع التقويم المجري فإنه واجد ذلك في الكثير من المراجع وأقربها على سبيل المثال : اليروني — الآثار الباقية ص ٣٠ ، أدب الكاتب لابن قتيبة ص ١٧٩ ، السحاوي (طبعة روزنثال — الترجمة العربية) ص ٣٨٢ وص ٥٠٩ ، الكافيجي — مختصر علم التاريخ (طبعة روزنثال — الترجمة العربية) ص ٣٢٦ - ٣٢٢ وكتاب روزنثال نفسه (الترجمة العربية) ص ١٦ - ٢٥ وكتاب عبد العزيز سالم — التاريخ والمؤرخون العرب ص ١٧ - ٢٥ . . . الخ .

(١) الدوري — نشأة علم التاريخ ص ١٩ .

القبائل في الأنصار وتنازعها المفاحر والمناصب؛ ويضاف أخيراً التزاع الاجتماعي مع المولى وظهور الأفكار والحركات الشعوبية ومحاجة العرب إلى الدفاع عن مراكزهم وأولياتهم الاجتماعية... وكان ذلك كلّه من أسباب قبول الأنساب «إسلامياً» واعطاؤها مكانها بين المعارف الإسلامية المأمة المطلوبة. وبهذا الشكل أضحى حفظ الأنساب وما حولها، وتدوين كل أولئك ، فرعاً أساسياً من فروع التاريخ حتى لقد ظهرت توارييخ خاصة على أساسه (كأنساب الأشراف للبلاذري) . وكان من الطبيعي أن يكون النسابون الأول هم في الوقت نفسه من الانباريين الأولين كمحمد بن السائب الكلبي وابنه هشام ومصعب الزبيري والميمون بن علي .

٣ : شاركت بعض العلوم العربية في نشأة التاريخ ودراسته وكانت هذه المشاركة من السعة أحياناً بحيث لا يمكن فهم تلك النشأة إلا في إطار الفعاليات الثقافية الأخرى .

فدراسات الشعر العربي وجمعه بخاصة ودراسة اللغة والأدب وال نحو وأسرار البلاغة كلها أدت بشكل أو باخر إلى حفظ الكثير من الأخبار والأحداث المتعلقة بذلك الشعر وبفردات اللغة والثراث الفني الأدبي . وتكونت من حصيلة تلك الأخبار المادة التاريخية الأولى التي خدمت المؤرخين خدمة هامة . وفي هذه الناحية أيضاً كان طبيعياً أن نجد بين كبار اللغويين والرواة من كانوا في الوقت نفسه من الانباريين البارزين ويمثل هؤلاء خاصة : أبو عبيدة (المتوفى سنة ٢١١/٨٢٦) تلميذ عمرو بن العلاء الذي شمل باطلاعه كافة المعارف العربية فكان كما أجمع الباحثون وأبو الفرج الأصفهاني وابن النديم « من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها » وقد ألف عدداً من كتب التاريخ التي تغلب عليها العناية اللغوية ، كما كتب في المثالب والمفاحر والأخبار .

٤ : تشجيع الخلفاء والحكام : فقد كانت رغبة بعض الخلفاء الأمويين والولاة في المعرفة التاريخية - وإن كانت لها أسبابها بالنسبة إليهم - مشجعاً

لإدخال هذه المعرفة بين المعارف النبيلة المطلوبة في المجتمع الإسلامي . وإذا كان معاوية قد استدعي عبيد بن شرية من صنعاء لسؤاله عن ملوك العرب والعجم^(١) ويأمر بتسجيل ما يقول ، ويجلس كل مساء لسماع أخبار التاريخ ، وكان مروان بن الحكم يلقي مجلس حكيم بن حزام ليسمع منه أخبار المغازي وعبد الملك يطلب أخبارها من التابعين وكان عروة بن الزبير راوية التاريخ على صلة بعد الملك وأبنته الوليد وبعمر بن عبد العزيز ، فقد عرفنا أيضاً أن هشام بن عبد الملك وضع لابن شهاب الزهري كاتبين يكتبهان عنه سنة فلما مات الزهري وجدت له أكواخ من الكتب في خزانة الأميين . وذكر المسعودي أن هشاماً نفسه أمر سنة ١١٣ فكتب له كتاب يحمل هذا التاريخ في تاريخ ملوك فارس ، وقد ترجم إلى العربية مما وجد في خزانة أولئك الملوك وهو بالأصباغ والذهب والفضة والصور والورق الرائع ... وقد رأه المسعودي سنة ٣٠٣ ورأى فيه من الأخبار ما لم يره في كتاب فارسي غيره^(٢) وأورد صاحب الأغاني أن خالد بن عبد الله القسري طلب من الزهري أن يكتب له الأنساب فلما بدأ بنسخ عرب الشعالي أمره أن يقطعه وينبذ بالسيرة ، عصبية يمانية منه ضد العدنانيين وضد آل علي خاصة ... ويروي ابن التديم أن الوليد ابن يزيد بن عبد الملك جمع ديوان العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها ورد الديوان إلى حماد (أبي القاسم بن سابور ، وقد توفي سنة ١٦٥هـ) ، وإلى جناد (أبي محمد بن واصل الكوفي)^(٣) .

ومن الكتب التاريخية الأولى التي ألفت بأمر الخلفاء العباسين أيضاً بعد ذلك : كتاب السيرة لابن اسحاق فإنه كتب بطلب من الخليفة المنصور لتقييف ابنه المهدي ، ومن هنا – فيما يقولون – جاءت مجازة ابن اسحق العباس .

(١) ابن التديم – الفهرست ص ٨٩٠ .

(٢) انظر المسعودي – التنبيه والإشراف (طبعة الصاوي – القاهرة ١٩٣٨) ص ٩٢ – ٩٣ .

(٣) انظر ابن التديم – الفهرست ص ٩١ – ٩٢ .

كما أمر الخليفة المهدى بجمع كتاب في الأغاني ... وألقت كتب عديدة بعد ذلك للرشيد والمؤمن .

٥ : الحركة الشعوبية : وهذه الحركة الديناميكية العنيفة التي أفرزتها عوامل عديدة ، في المجتمع الإسلامي ، بين القرنين الأول والثاني خاصة كانت رغم ظاهرها الفكرى العاطفى إنما تستقي جذورها من عوامل مادية اقتصادية ، وهذا هو في الواقع السر في فاعليتها الشديدة . فإن تمييز العرب عرقياً وسياسياً وعسكرياً كان ينبع منهم امتيازات ومصالح ومنافع مادية واقتصادية واسعة . وهذا ما دفع أبناء الشعوب الأخرى ، أكثر مما دفعتهم العوامل الرومانسية والعاطفية بل والدينية إلى محاولة تحطيم ذلك التمييز للمشاركة في المكاسب المادية وفي العطاء وغذائم الحكم واستغلال الطبقات الدنيا في المجتمع . كانت الشعوبية إذن صدى فكرياً قومياً لزاحمة اقتصادية عنيفة . وقد كان من هم الشعوبين المقيم تشويه الملة التي وضعها الدين الإسلامي والحكم الإسلامي من حول العرب : بتشويه تاريخهم والدس عليه والأخذ بأختبار المثالب وإبراز الفاقد وتفصيلها . وقد أدى هذا إلى تسجيل الكثير منها كما يتجلى ذلك في أعمال المheim ابن عدي وأبي عبيدة خاصة وعلان الشعوبى وحمد الراوية ، كما أدى ذلك في الوقت نفسه إلى ظهور ردود الفعل لدى العرب للدراسة وتسجيل تاريخهم الخاص وأدبهم ^(١) كما فعل الباحث والمسمودي ، وكسب التاريخ في الحالين ثروة تاريخية هامة بالإضافة إلى ما كسب من رواج علمي .

وقد أضافت الشعوبية إلى ذلك أنها أثرت إلى السوق الفكرية وإلى ثقافة الناس للمضاربة والمخاورة ، بعض التراث الفارسي الذي يبرز قيمة الفرس ، وبخاصة : كتاب (خداینامه) الذي وجد له حمزة الأصفهانى ثمانى ترجمات ، ورجح البيروفى إلى ست منها ، بينما جمع بهرام بن مروان شاه المبدانى نيفاً

(١) من أمثلة ذلك كتاب البيان والتبيين للباحث .. . وبعض ما كتب المسمودي عن مقابل فرسان العجم ردأ كما قال على كتاب أبي عبيدة مقابل فرسان العرب (انظر التنبية والإشراف ص ٩٠) .

وعشرين نسخة ... (وشهد عيسى الكسروي أنه ليس منها نسختان متطابقتان)^(١) واحدى الترجمات كانت لعبد الله بن المقفع بعنوان سير الملوك . وكان السر في هذه الكثرة من الترجم وفى هذا الاختلاف بالنسخ والتزييد فيها هو دون شك رغبة المولى الفرس ، من أسلم منهم ومن بقي على زارادشتية الأولى ، في اثبات التاريخ الفارسي وعظمته تجاه الملك العربي القائم ، لأن خداینامه تحكى قصة التاريخ القومي لهم ، كما يراه الأشراف ورجال الدين وتحتلط فيها الأسطورة مع الحقائق والحدثيني مع الأنساب الخالية أحياناً كثيرة .

وقد ترجمت مع خداینامه كتب أخرى تاريخية وبشه تاريجية مثل آين نامه أبي كتاب المراسم والتقاليد : والكافه نامه أبي طبقات العظاماء^(٢) . وقد كانت خداینامه مع هذه الكتب مورداً للمؤرخين وأعانهم على تكوين فكرة واسعة وان تكون مشوشاً عن التاريخ العالمي ، وقد استفاد منها كافة ذلك الخط الطويل من المؤرخين الذي كانوا الرواد الأوائل لعلم التاريخ من ابن قتيبة الدينوري واليعقوبي إلى الطبرى وحتى المسعودي .

٦ : ظهور الورق : ولا بد أن نضيف إلى العوامل المساعدة أخيراً مادة علمية أعادت بشكل واضح حاسم على نقل التدوين الفكري (والتاريخي في جملته) من الذاكرة إلى الشكل المكتوب . وهذه المادة هي الورق الذي عرفت صناعته في العالم الإسلامي منذ أوائل القرن الثاني للهجرة . وما من شك في أن الحركة الثقافية الإسلامية قد وقعت بمعرفة الورق وصنعه على أدلة ثورية في تثبيت الفكر وفي نشره وفي توسيع مادته .

(١) انظر في هذا كله : حمزة الاسبهاني تاريخ سبي ملوك الأرض من ١٤ و ٢٦ والبیرونی الآثار الباقية من ٩٩ .

(٢) وهناك كذلك مزدكه نامه ، بهرام جوین نامه ، (انظر في ذلك ایران في عهد الساسانيين الترجمة العربية من ٥٥ - ٥٧ . وكلمة نامه تكتب حسب الفظ الفارسي نامغ أو نامك ، وانظر كذلك ابن النديم - القهرست من ٣٠٥ - ٣١٦) .

وقد كانت المادة التي يكتب عليها الناس متنوعة من قبل ... يقول ابن النديم « ... كتب أهل مصر في القرطاس المصري ويعمل من قصب البردي ... والروم تكتب في الحرير الأبيض ^(١) والرق وغيره وفي الطومار المصري وفي الفلجان وهي جلود الحمير الوحشية . وكانت الفرس تكتب في جلود الجواميس والبقر والغنم ، والعرب تكتب في أكتاف الابيل واللخاف (وهي الحجارة الرقاق البيض) وفي العسب عسب التخل ، والصين في الورق الصيني ويعمل من الخيشيش ... فاما الورق الخراساني فيعمل من الكتان ويقال انه حدث في أيام بني أمية . وقيل في الدولة العباسية ... وقيل ان صناعاً من الصين عملوه بخرسان على مثال الورق الصيني ... » ^(٢)

وقد تحتاج كلمة ابن النديم هذه إلى بعض الإيضاح والإضافة ، فيبدو أن عرب الباهلية قد عرروا القرطاس والكتابة على القرطاس وأخذواه باسمه نفسه من اللاتينية . يقول طرفة بن العبد في معلقته :

ونجد كفرطاس الشامي ومشفر كسيف اليماني قده لم يجرد

وقد نستطيع أن نستنتج من هذا البيت أن القرطاس كان يعمل في الشام قبل الإسلام ولكنه ليس بالورق وإنما هو ضرب من النسيج الرقيق المصمم ، المصقول ، الأبيض وقد كان من الحرير .

واستمر صنع هذه القرطاس في العهد الأموي ويبدو أن رجلاً اسمه يوسف بن عمرو قد استبدل بالحرير نسيج القطن لأنه أرخص وذلك سنة ٧٠٦ م (في مطالع عهد الوليد بن عبد الملك سنة ٨٧ هـ) .

ولعل حاجة الدوّاين التي عربت في تلك الفترة هي التي دفعت إلى هذا

(١) ويسمى المهرق وهو ثوب حرير أبيض يسكن بالصين ويصل إلى . وثمة منه نوع خاص من القماش كان يصنع في أبو صير وسمنود بمصر . وتحفظ دار الكتب المصرية حجاً كثيرة كتبت عليه .

(٢) ابن النديم - الفهرست صفحة ٢١ .

الابتكار الذي صار القرطاس الدمشقي من بعده قطنياً^(١) ... لكن هذه الطريقة الجديدة ظلت - فيما يبدو - غالياً التكاليف أو على الأقل أغلى من البردي . ولهذا فقد فضل الخلفاء الأمويون استعمال ورق البردي ، وكانت مصانعه في الوجه البحري من مصر . وبلغ من حاجتهم إليه أن منعوا تصديره إلى الروم . منذ عهد عبد الملك بن مروان وتدوين الدواوين بالعربية . وأمر عمر بن عبد العزيز بالاقتصاد في استعماله . وكان القرطاس يصنع على شكل أدراج (جمع درج أي الورقة الملفوفة) قد يبلغ طول بعضها ١٥ متراً . وكان غالى الشعن لاسيما إن كان ناعماً الصنع وقد بلغ ثمن الدرج في عهد الرشيد سنة ١٨٤ ديناراً ونصف الدينار . وقد شكا أبو نواس في ذلك العهد قلة الورق قال :

أريد قطعة قرطاس فتعجزني وجلّ صحي أصحاب القراطيس

والقراطيس المصرية ، من البردي ، أعطت اسمها للدرب من دروب بغداد سمي درب القراطيس ، ولعدد من الباعة عرف بعضهم بالقراطيسي . لكن هذه القراطيس تركت مكانها للورق الصيني حين بدأ الانشار من المشرق أو آخر القرن الثاني وظهرت إثر ذلك الورقة والوراقون فلم يتضمن قرن على الأمر حتى صار يوجد في بغداد أكثر من مائة وراق . ويذكر بعض الدارسين دكاكينهم في الليل كما فعل الحافظ المطالعة .

ويبدو أن انتشار الورق كان تدريجياً لأننا نجد أن عراقياً جماعاً للكتب في القرن الرابع كان لديه حسب رواية ياقوت في خزانة كتبه مخطوطات « فيها الجلود والصكاك وقرطاس مصر والورق الصيني والورق اللاتي وجلود آدم

(١) ذكر محمد كرد علي (خطط الشام ج ٤ ص ٢٢٣ - ط . دار العلم . بيروت ١٩٧٠) أن هذه القراطيس هي الورق . وأن يوسف بن عمرو استبدل بالحرير ورق القطن الذي منه الورق الدمشقي . وفي هذه النقلة من كلمة قرطاس إلى الورق وفهم القرطاس على أنه الورق شيء من المجازفة .

ورق خراساني .^(١) ... كما نجد أن الناس أقاموا ببغداد سنين لا يكتبون إلا في الطروس (في مطلع القرن الثالث) لأن الدواوين نهت في أيام محمد بن زبيدة (الأمين) وكانت في جلود فكانت تمحى ويكتب فيها »^(٢) ... وقد ذكر الخطيب البغدادي عن أبي جعفر القرطبي قوله : « لما مات ابن الأعرابي (أبو عبد الله محمد بن زياد) سنة ٢٣١ هـ ذهبنا نشتري كتبه رقاً وأوراقاً ورقاعاً^(٣) ... وابن الأعرابي فيما هو معروف من كبار الرواة في تلك الفترة .

ولا شك أن رخص الورق عن البردي والجلود والحرير جعله أوسع انتشاراً وأسهل استعمالاً عملياً . ويبدو أن بعض الأسرى من الصين أدخلوا صناعة الورق إلى البلاد الإسلامية وإلى سمرقند خاصة سنة ٧٥١/١٣٣ أو قبل ذلك . وصنعوه من القنب والكتان وألياف الحشيش . ولعل اسمه القديم (الكافاغد) صيني الأصل جاء العربية عن طريق الفارسية . ومن سمرقند انتقلت هذه الصناعة إلى العراق بعد أن اشتهرت بها خراسان كلها . وكان أول من أدخل صناعة الورق إلى بغداد الفضل بن يحيى البرمكي عامل خراسان سنة ١٧٨ / ٧٩٤ ثم استعمل آخوه جعفر الورق بدل الرقوق في الدواوين . وكان مصنعاً بدار الخز في بغداد . ثم عرفت مدن أخرى سر الصناعة فأنشأت لها المصانع : نشاً مصنوع في تهامة يصنع الورق من ألياف الحشيش ، وآخر في دمشق وثالث في طبرية ورابع في طرابلس ، وفي حماة ومنبج . وبالرغم من أن سمرقند حافظت على شهرتها في جودة الصناعة إلا أن ورقة جديداً من الخرق ظهر منذ أو اخر القرن الثاني الهجري وذاع استعماله وفاق غيره من أنواع الورق . كما تعددت تلك الأنواع^(٤) حسب مناطق صنعها ، غير أن ورق طرابلس وببلاد الشام كان

(١) ياقوت - معجم الأدباء . ج ٢ صفحة ٤٠ .

(٢) ابن النديم - المصدر السابق .

(٣) الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد . ج ٣ ص ٣٨٣ .

(٤) كان من أنواع الورق في المهد العباسى : السليمانى (نسبة إلى سليمان بن راشد عامل الخراج في -

مشهوراً بالجودة في القرن الخامس / ١١ م . وقد كانت هذه الصناعة قد وصلت اليمن كما قد غرت مصر أيضاً منذ أو اخر القرن الثالث الهجري وقامت مصانعها في الدلتا ونافست البردي وصناعته منافسة انتهت بموته . ولم يأت آخر القرن الرابع حتى حل الورق محل البردي والرقوق في كافة أنحاء البلاد الإسلامية وفي الأندلس وانتقل أيضاً إلى أوروبا ...

وإذا كانت قصة الورق هذه وانتشاره التدريجي قد أعانت على إلغاء دور الرواية في علم التاريخ وفي غيره فإنها أورثت الشك في بعض ما دون . لأن بقاء الرواية الشفهية أساساً في نقل العلم حتى مطالع القرن الثالث جعل بعض الباحثين يشك في أن يكون القسم الأولي من المائتين والتلاتهين كتاباً وبختاً التي ألفها المدائني (ومثله ابن الكلبي أيضاً) قد كتب في حياته فعلاً (١) وعلى أي حال فان ظهور الورق وانتشاره قد واكب تزايد المادة التاريخية الإسلامية والرغبة في تدوينها ، كما نما وانتشر معها . وكان بهذا عملاً ثورياً في التدوين التاريخي وفي توسيعه .

— خراسان الرشيد) والجعفري (نسبة بضم البرمي) والطاهري (نسبة إلى طاهر بن الحسين) والطلحي (نسبة لطلحة بن طاهر) والفرعوني (نسبة إلى فرعون مصر) .
(١) انظر جب ، الموسوعة الإسلامية — مادة تاريخ (في الترجمة العربية ج ٤ صفحه ٤٩٠) .

الفصل الثاني

البَوَاسِكُرُّ الْأَوَّلِ لِلتِّدْوِينِ التَّارِيْخِيِّ

أ - بدء التدوين التاريخي الأول (مشكلة التدوين والرواية الشفهية)

تلك العوامل وال الحاجات التي أوجدت علم التاريخ في الإسلام لم تأت كلها مجتمعة في وقت واحد ولكن سبق بعضها بعضاً وتعاون بعضها مع بعض على مدى يزيد على قرنين ما بين أواسط القرن الأول المجري حتى أواسط القرن الثالث . كما أنها لم تكن متساوية في التأثير فبعضها لعب دوره في ناحية من نواحي التاريخ وبعضها لعب الدور في نواحٍ أخرى . وبعضها كان واضح الآثر في عصر بدااته أو تحت ضغط حادث معين أو بنتيجة عمل أحد الرواة أو الرجال أو مجموعة منهم ، وبعض كان دائم التأثير متكرر الحاجة خلال القرون الأولى للهجرة كلها وفيما بعدها من القرون أيضاً ... ولم تكن تلك المؤشرات والعوامل من نوع واحد فلنها كانت تصدر عن جذور سياسية ودينية ، صدورها عن أسباب اقتصادية وقومية واجتماعية ، وبعض هذه العوامل كان ينشيء فرعاً من التاريخ من منابع جديدة وبعضها كان يزيد في خصبه أو يضيف

إليه روافد أخرى مستحدثة أو من ألوان شئ . وعلى هذا فإن ظهور التاريخ نشاً عن ميول موجودة في المجتمع الإسلامي أضيفت إليها مع تطور الزمن دوافع جديدة بعد دوافع . وقد أخذ شكله وتطوره نتيجة عدد كبير متغير من العوامل والمؤثرات ، المتفاوتة في طول الأعمار والتأثير ، المختلفة في الأنواع أيضاً اختلافاً واسعاً . وقد نجم عن ذلك كله أن الحصاد التاريخي لفترة نشوء التاريخ قد تميز بعدد من الملامح . ولعلنا قبل أن نعرض لها مضطرون لأن نقف عند نقطة إشكالية أحاطت بدأية التدوين التاريخي (والعلمي عامه) عند العرب بالكثير من الغموض وأوجدت الوهم العلمي الشائع بأن التاريخ والحديث والعلوم الأخرى إنما كانت تروى في البدء الرواية الشفهية وأنها لم تكتب وتدون حتى أواسط القرن الثاني المجري . والسبب في هذا الوهم المغلوط هو الخلط ما بين ثلاث عمليات متتالية كانت تمر بها المعلومات والمعارف التي يتناولها الناس وتشكل بالتدرج تراهم الثقافي . والتحليل هو الذي يكشف عنها :

العملية الأولى – عملية استماع الشهادة من الشهود المباشرين للحدث التاريخي . وهي عملية شفهية خالصة كانت تم بشكل مباشر بين « الشاهد » الذي هو المصادر الأولى والأساسي للمعلومات ، وبين جامع تلك المعلومات من الأفواه . ومعظم معلومات التاريخ الإسلامي الأولية . إنما جاءت عن هذا الطريق الشفوي .

العملية الثانية – عملية حفظ المعلومات . ولم تكن تم عن طريق الذاكرة ولا بها وحدتها أبداً ولكن تم في الكثرة الساحقة من الأحوال بالتسجيل والتدوين الكتابي الشخصي . وهذه العملية كانت تجري باستمرار منذ عهد الرسالة نفسه إذ يدون المستمع ما يهمه من المعلومات لنفسه . ومهمة التدوين هنا هي معونة الذاكرة على دقة النقل وصحته ، وحفظ السمعة بذلك خوف التضليل أو التحرير أو خيانة الذاكرة .

العملية الأخيرة – عملية نقل المعلومات إلى الآخرين . وهي بدورها عملية شفهية . إن رغبة العلماء في التوثيق ومنع الدس والتحريف والزيف كانت تدفعهم إلى أن لا يعتبروا «المعلومات» جديرة بالثقة ما لم تأت بالنقل المباشر والسماع الشخصي عن أصحابها العارفين بها والحافظين لها . وهذا ما كان يؤخر الصحف المكتوبة إلى مستوى الاهتمام الثانوي ويدفع من جديد بالرواية الشفهية إلى مستوى الاهتمام الأول .

ومن المؤسف أن الباحثين . حتى المحدثين منهم قد فاتهم . في الواقع ، ويجزء هذه العملية الوسطى الامامة بين العمليات الثلاث مع أنها العملية التي يرتبط بها لحد كبير صدق التدوين التاريخي وصحة نصوصه وعدم التحوير فيه . وقد تجاوزوها في قفزة وهم بين العلميين الأولى والأخيرة الشفهيين مهملين بذلك العملية المركزية التلوينية التي تسجل عملياً ظهور العلم المكتوب في الإسلام وتؤكد حقيقة التدوين المبكر جداً منذ الأيام الأولى منه .

ومع أن البحث في مطالع التدوين للتاريخ والحديث والعلوم قد بدأ منذ أكثر من قرن فإن أحداً لم يتثنى إلى وجود هذه المرحلة الوسطى وإلى الفصل بوضوح بينها وبين المرحلتين السابقة واللاحقة لها ، كما أن الكثيرين لم يرجعوا إلى المادة المدونة نفسها وإلى الوثائق التاريخية لكشف الحقيقة في هذا الوهم الكبير ، ولبيان أن العلماء الأوائل المؤسسين كانوا جميعهم تقريباً يسجلون معلوماتهم وما يجمعونه من الروايات الأصلية الأولى للأحداث من شهودها . ويسجلون ذلك لأنفسهم ويرجعون إلى استذكاره كلما احتاجوه . فإذا نقلوا تلك المعلومات إلى التلاميذ والسائلين نقاوها دوماً بالرواية الشفهية التي لا تعتمد في الأصل على الذاكرة ولكن على الصحف المحفوظة . وكان التلاميذ بدورهم يدونون ما يسمعون ولكنهم يعودون عند النقل إلى رواية المعلومات والأخبار الرواية الشفهية ، بالاستناد إلى التسجيلات الشخصية التي سجلوها بأنفسهم لأنفسهم والتي كثيراً ما تحمل في المصادر اسم «الأصول» . فإذا أمل أحد العلماء من الذاكرة موضوعاً واسعاً أو جعل مجلسه إملاء من غير كتاب مضبوأ

على ذلك معتبرين . كالذى ذكروه عن الشعبي حين أملأ أمام قتيبة بن مسلم كتاباً عن الفتوح دون « مسودات » أو دون الرجوع إلى أوراقه ^(١) . وكالذى ذكره ثعاب عن ابن الأعرابى (أبي عبد الله محمد بن زياد المتوفى سنة ٢٢١ عن نيف وواحد وثمانين عاماً) قال : « شهدت مجلس ابن الأعرابى وكان يحضره زهاء مائة انسان . وكان يُسأَل ويُقْرَأ عليه فيجيب من غير كتاب . قال ولزمه بضع عشرة سنة ما رأيت بيده كتاباً فقط » ^(٢) ... مع أن المحافظ البغدادي يذكر أنه كانت لدى ابن الأعرابى كتب في رفاق وأوراق ورقاع ^(٣) .

وهكذا فإن الذاكرة لم يكن لها في حفظ العلم إلا أخالاً الآخر ولا كان لها في نقله إلا الدور القصير المحدود . وقد لا يكون كشف هذه الحقيقة هاماً بقدر أهمية الحقيقة الأخرى التي تترتب عليها وهي أن تلك العملية التنسية المهملة بين حدي الروايتين الشفهيتين إنما تسجل وتؤكّد بهذه التدوين التارينجي (والعلمي بصورة عامة) منذ زمن مبكر جداً في الإسلام .

وإذا عملت أبحاث غروهمان في أوراق البردي الإسلامية على إثبات وجود الوثائق من العهد الأموي في خلفيات وفي جذور ونصوص الروايات – أي المدونات ... التارينجية الأولى وهي نصوص لا يمكن ضبطها الدقيق إلا بالتدوين فقد عملت أبحاث شبرنغر ودراساته « للأنساد » التي أوردت الممؤلفات التارينجية المتأخرة كمصادر لمعلوماتها على ايضاح الحقيقة في هذه الناحية أيضاً إذ أثبتت وجود صحف ونصوص مكتوبة بين أيدي الرواة الأول . وتقاطعت مع هذه النتائج بعد ذلك الأبحاث التي قدمها هوروفيتش حول أقدم كتب السيرة ومؤلفيها والتي بيّنت أن الكتب التي وصلتنا إنما تضم في حنایتها كتباً أخرى سبقتها بعد كتب ... وقد قام هوروفيتش بإعادة تكوين تلك الكتب الأقدم

(١) انظر النهبي – تذكرة الخنازير ص ٨٦ .

(٢) ابن النديم – الفهرست ص ٦٩ .

(٣) الخطيب البغدادي – تاريخ بغداد ج ٢ ص ٣٨٣ .

معتمداً على بقایاها المحفوظة في المصادر المتأخرة والتي كانت تحسب خطأ من الروايات الشفهية . ثم جاءت أخيراً أبحاث فؤاد سزكين في كتابه : تاريخ التراث العربي^(١) فوضعت ما نستطيع أن تعتبره النقطة الأخيرة في الموضوع ودفعت إلى فترة أبعد وأقدم بكثير مما كنا نظن : بداية التدوين التاريخي (والعلمي عامه) عند العرب .

والشواهد والقرآن على هذه الحقيقة كثيرة . فإذا تركنا جانباً ما يؤكّد تاريخ الشعر ، والحديث والفقه من وجود نصوص أولية مكتوبة لها فإن ما يتصل بالتاريخ وحده قد يكفي لربط تدوينه الأول أو على الأقل تدوين نصوصه الأولى بعهد الرسالة نفسه .

فتشمل إشارات إلى أن بعض الصحابة كانوا يرون رسائل الرسول ، كرواية عمرو بن حمزة بن زيد لرسالة النبي في الفرائض والزكاة والديات^(٢) . أو يرون أوامر الخلفاء إلى الولاية ككتاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري حول الصلاة الذي رواه الحارث بن عمرو المذلي^(٣) . أو كانت لهم صحف تروي عنهم : كصحيفة عبد الله بن عمرو بن العاص المعروفة بالصادقة وصحيفة سمرة بن جندب الصحابي وصحيفة أبي سلمة نبيط بن شريط الأشعجي ، وكصحيفة عبد الله بن جابر التي رُويَّ التابعي مجاهد (المتوفى سنة ١٠٤ / ٧٢٢) بأنه كان يحدث نقلاً عنها^(٤) ...

وكان بعض أبناء الصحابة يقول في روايته للأخبار « وجدت في كتاب

(١) انظر سزكين - تاريخ التراث العربي (الترجمة العربية - القاهرة ١٩٧١) ج ١ ص ٢٢٥ فما بعده فيما يتعلق بتدوين الحديث . وانظر النسخ الألماني (ج ١ ص ٢٥٧ فما بعده) فيما يتعلق بتدوين التاريخ .

(٢) انظر ابن حجر - الاصابة في تمييز الصحابة ج ٢ ص ١٢٦٤ .

(٣) انظر ابن سعد - الطبقات (طبعة سخاوة) ج ٥ ص ٤٢ .

(٤) المصدر نفسه ج ٥ ص ٣٤٤ وهذه الصحف مشهورة معروفة للمحدثين .

أبي فلان « أو كتاب أبيائي »^(١) ... كما كان لدى بعض أحفاد الصحابة نسخ مما أجدادهم أبناء الصحابة عن حياة الرسول : فلدي حفيض سعيد بن سعد بن عبادة نسخة جده في المغازي ومثل ذلك لدى حفيض سهل بن أبي خشمة الصحابي الذي كان كتابه ينطوي أحد مصادر الواقدي فيما بعد .

وحيث ظهر الإسناد في الثلث الأخير من القرن الأول الهجري فإنما كان سببه ضرورة « الشهادة » على الرواية نقاً عن مصدرها الأول . وهكذا فإن الأسماء الواردة في الإسناد لدى الطبرى أو الواقدى أو البلاذرى مثلاً إنما تكشف في الواقع عن أسماء المدونين الأولين والمدونين الذين لهم . وعليينا أن ننظر إلى النصوص التي وردتانا في المؤلفات المسندة خاصة على أنها مجموعة من مصادر مدونة تعود بدورها إلى مصادر أقدم منها . وبهذا الشكل فإن دراستها الدقيقة قد تسمح برسم « شجرات » التدوين والتأليف كما تسمح التفرعات المتكررة بعد أسماء معينة بتحديد أسماء المؤلفين الأساسيين وتسمح لقراءات هذه الفروع عند عقد محدثة ببيان نقل المؤلفين بعضهم عن بعض .

وإذا كانت بعض أخبار التدوين في العصر الراشد مجازاً للشك والتأويل فإن ثمة خبراً مؤكداً فيها على الأقل هو تسجيل أنساب العرب . فقد شكل عمر بن الخطاب لجنة ثلاثة من أبي عدي جبير بن مطعم ، أحد مشاهير علماء النسب . ومحرمة بن نوفل ، وعقيل بن أبي طالب كلّفها وضع ثبت بأنساب العرب يقوم على أساسه الديوان . وهذا دون شك أول تدوين تاريخي لأناساب في العرب وفي الإسلام « دون للناس في الإسلام الدواوين ... وكتب الناس على قبائلهم »^(٢) . وليس من شك في أنه كان المثال والأساس الذي دونت على أساسه الأنساب وأخبارها من بعد باعتباره السجل الرسمى المكتوب . وهذا

(١) المصدر نفسه ج ١ - ص ٣٩ و ٦٦ وانظر كذلك ابن حجر - الاصابة ج ١ ص ٦٢٠ - ٦٢١ .

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٢٠٩ - ٢١٠ (طبعة أبي الفضل ابراهيم) ٢٧٥٠/١ .

يعني أن علم النسب وما يتصل به من أخبار العرب لم يكن متزوكاً للذاكرة التسافرين وروايتهم الشفهية مع وجود هذا النص – الأم الذي تبعه الدولة رسميّاً.

وتحت زاوية أخرى تكشف التدوين المبكر وال دائم للأخبار والحديث هي ما نجده في ثنايا الكتب عن طريقة التعليم وعن تلك التسجيلات الشخصية التي تحمل اسم «الأصول» أو «الكتب» أو الصحف . قال سعيد بن جبير «... ربما أتيت ابن عباس فكتبت في صحيفتي حتى أملأها . وكتبت في نعلي حتى أملأها وكتبت في كفي »^(١) ... وروى أحد التابعين عن دراسة بعض أصحابه قال «رأيتم يكتبون على أفههم بالقصب عند البراء (بن عازب) الصحابي »^(٢) . وروت الصحابية سلمى أن عبد الله بن العباس قد كتب عن زوجها أبي رافع الصحابي بعض أعمال الرسول على لواح^(٣) وكان من يكتب أدعى للثقة من لا يكتب . وقد سأله أحد التابعين تابعي آخر : لماذا لم يرو عن الصحابي جابر بن عبد الله على نحو ما روى عن سليمان الشكري ؟ فأجاب : لأن سليمان يكتب^(٤) ... وروى ابن أبي ليلى (المتوفى سنة ٨٢ / ٧٠١) أنه سأله الحسن بن علي بن أبي طالب عن رأي والده في اختيار أبي أولي الفضل فأمر بإحضار صندوق وأخرج منه صحيفة صفراء تقسم آراء الإمام علي في ذلك^(٥) ... والأنباء في هذا الباب متواترة كثيرة .

فإذا انتقلنا إلى زاوية أخرى ودققنا في أخبار التأليف والكتب في العصر الأموي وجدنا إلى هذا أنها نملأ العديد من الإشارات إلى جملة واسعة من المؤلفات المكتوبة منذ مطالع العهد الأموي . إن وجود تلك المؤلفات المبكرة

(١) ابن سعد – الطبقات ج ٦ ص ١٧٩ .

(٢) ابن حنبل – الملل ج ١ ص ٤٢ .

(٣) ابن سعد – الطبقات ج ٢/٢ ص ١٢٣ .

(٤) ابن حنبل – الملل ج ١ ص ٣١٦ .

(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ١٠٤ .

سواء في النسب أو الأخبار أو غيرها يكفي دليلاً على التدوين المبكر كما يكتفي لإبعاد فكرة العلم الشفهي الحالص عن القرن الأول.

فلدينا من هذا القرن أولاً كتابان يتناولان تاريخ اليمن وحمير. أحدهما لعبيد بن شرية الجرهمي (أخبار اليمن وأشعارها) والآخر لوهب بن منهه (كتاب الملوك والتيجان)؛ وبالرغم من طابعهما الأسطوري والقصصي الذي يمكن أن يلحقهما بفترة «ما قبل التاريخ» الإسلامي فإننا نجد فيهما جهداً تدوينياً لأساطير وقصص موجودة، كما نجد وهب بن منهه يذكر أن الإمام علياً بن أبي طالب قد حثه على تعلم تاريخ حمير. ويدرك أنه ضم في كتابه مؤلفات سابقه (١). وقد جمع يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري الشاعر (المتوفى سنة ٦٨٨) (٢) (سيرة تُبَشِّعُ وأشعارها).

وتکثر إلى هذا أخبار «كتب» النسب. ونجد من ذلك الكثير الذي يدل على انتشار كتابتها وتسجيلها بين الناس. فشمة ذكر لكتاب عبد الله بن عمرو اليشكري (المتوفى حوالي سنة ٨٠ / ٦٩٩) في الأنساب. ومن المرجح أن ابن حجر قد استخدمه (٣). وقد أشار ابن سعد في الطبقات أكثر من مرة إلى مراجعته كتاب (نسب الأنصار) لفحص المعلومات الخاصة بالأنصار (٤) كما راجح كتاب نسب النبيط (٥) وقد ذكر الباحظ كتاباً في الأنساب كان متداولاً في عهده من وضع محبور بن غيلان الضبي البصري المتوفى حوالي سنة ٧٠٤/٨٥ (٦) كما ذكر ابن النديم كتاباً لخراش بن اسماعيل الشيباني؛ أستاذ محمد بن السائب الكلبي (المتوفى سنة ١٤٦) عنوانه (كتاب أخبار ربيعة

(١) انظر كتاب التيجان لوهب بن منهه ص ٨٢ وص ١٧٥ وص ١٤ .

(٢) الاصبهاني - الأغاني (طبعة دار الكتب) ج ١٨ ص ٢٠٥ .

(٣) انظر ابن حجر - الاصابة ج ١ ص ١٠٣ .

(٤) انظر ابن سعد - الطبقات (سخار) ج ٢/٣ ص ١٥١ وص ٤٥ وج ١/٥ ص ٥٣ .

(٥) المرجع السابق ج ٤ ص ١٢٥ - ١٢٦ .

(٦) الباحظ - الحيوان ج ٣ ص ٢١٠ .

وأنسابها^(١). وكان (كتاب قريش) و (كتاب ثقيف) من الكتب المتداولة في العصر الأموي^(٢) « ولعل الكتب التي يبلغ عددها حوالي الستين والتي كانت تسمى بكتب القبائل والتي ذكرها الأدمي في المؤتلف ترجع في قسم منها إلى العصر الأموي^(٣) .

ويمكن أن نضيف إلى هذه الإشارات، إشارات أخرى إلى كتب من نوع آخر: فقد نقل أبو الفرج الأصبهاني في الأغاني مقتبسات هامة عن كتاب حول الشعراء الأمويين للقصاصن المحدث أبي عمر ذر بن عبد الله المرهبي الكوفي (المتوفى في أوائل القرن الثاني الهجري) وكانت النسخة بخط المؤلف نفسه^(٤) ، وقد ألف يونس بن سليمان الكاتب الذي عاش في العصر الأموي وتوفي سنة ١٤٨ كتاب النغم وقد بقيت لنا منه قطع في كتاب الأغاني. كما بقيت لنا في هذا الكتاب نفسه قطع أخرى من كتاب مقاتل بن الأحول بن سنان بن مرثدة الذي عاش في العصر الأموي وكتب هذا الكتاب حول النابة الجعدي^(٥) ولو دققنا في أسانيد ابن اسحق لوجدنا أنه يستخدم في رواية بعض الأحداث كفزوة الخندق مثلاً كتباً لعدة مؤلفين لا يقل عددهم عن سبعة وصفهم بأنهم « علماؤنا » وبعضهم من المؤلفين المعروفين ولكن نصفهم غير معروف في التأليف^(٦)... وقد كانت كتب المغازي منتشرة في أواسط العصر الأموي. ويروي البلاذري أن عبد الملك بن مروان أمر بحرق كتاب في المغازي وجده بيد بعض أبناءه لأنه يشغله عن القرآن والسنّة وقد توفي يزيد بن أبي حبيب

(١) ابن الديم - الفهرست من ١٠٨ (طبعة فلوبيل) .

(٢) الأغاني - (ط دار الكتب) ج ٦ ص ٩٤ .

(٣) سرکین - تاريخ التراث العربي (النص الألماني) ج ١ ص ٢٢٥ - ٢٥٧ .

(٤) الأصبهاني - الأغاني (ط. دار الكتب) ج ١٤ ص ٢٧١ - ٢٨٠ .

(٥) المرجع السابق ج ٥ ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٦) سرکین - تاريخ التراث (النسخة الألمانية) ج ١ ص ٢٤٩ .

في العهد الأموي (سنة ١٢٨ / ٧٤٥) تاركاً عدداً كثيفاً في أخبار مصر وفتحها . كما كتب الشعبي كتاب الشورى ومقتل عثمان .. وهو بدوره أموي العصر .

وقد يطول الاصحاء والاستقصاء لو تابعناهما ولكنها جميعاً قرائناً ودلائل على أن بداية التدوين والكتابية التاريخية إنما بدأت أشد بكوراً بحوالى القرن على الأقل مما كان يظن الباحثون وأن قضية « العلم » العربي الذي ظل محفوظاً في الصدور والذاكرة حتى أواسط القرن الثاني إنما هي محض خرافات .

ب - ميزات التدوين التاريخي الأول

بنتيجة كل تلك الأسباب والعوامل السابقة تميز الحصاد التاريخي في فترة نشوئه بعدد من الملامح أهمها :

١ - أن الأبحاث التاريخية (من الكتب والرسائل) التي صدرت في فترة القرون الثلاثة الأولى كانت وفيرة جداً تزيد على ٦٠٠ بحث ورسالة، وحوالى الثلثين منها كتبه أربعة أو خمسة رجال (كالمداني وأبي مخنف وأبي عبيدة وابن الكلبي) وهي مادة تاريخية واسعة أقامت هذا العلم على قاعدة واسعة من المعلومات الأولى .

٢ - ولكن هذه المعلومات كانت على مستويات مختلفة من الدقة والصحة والسرعة والشمول ، حسب المؤرخين والرواة ، كما أن الكثير منها قد لعبت به الأهواء الاجتماعية والسياسية والمذهبية الدينية والقبلية لما يحمل من وجهات نظر أصحابه ، فهي أيضاً على مستويات مختلفة من التأثر بالمؤلف السياسي والدينية والقبلية والشعوبية .

٣ - ولم تشارك كافة الأمصار في الإسلام ولا كافة القبائل العربية ولا

كافة العناصر التي تتكون منها الدولة في كتابة التاريخ؛ وإن وجدت روايات تاريخية أو كتبت أحياناً مؤلفات تحمل وجهات نظر الفرق السياسية والمنذهبية الدينية المختلفة . ومن الملاحظ أن المدينة ، والبصرة ، والكوفة كانت وحدتها أمصار تدوين التاريخ ، وقد تلتها في هذا الباب دمشق وكُتِبَ شيء من التاريخ في مصر . فلما ظهرت بغداد استقطبت الفكر الثقافي كلها . وكان بين ما استقطبته عملية التدوين التاريخي ، فاختفت المدينة ودمشق وخفت لحد ما الفعاليات العلمية في البصرة والكوفة لحساب بغداد . وكان من نتيجة تركز كتابة التاريخ في بعض الأمصار أو عن بعض القبائل أن ظهرت ميل محلية أو قبلية في التدوين التاريخي ، وتأثرت الكتابات بالرأي العام السائد في مصر نفسه . فنرى مؤرخى المدينة يميلون إلى السيرة وعلم الحديث وأهل مصر إلى النسب والأيام ، وفي الشام يسجلون الرأي الأموي . وأما الانباريون اليمنيون فيهتمون بذكر اليمن ، وكان للمدائح ولع خاص بتاريخ البصرة وخراسان وقد اعتمد عليه في ذلك الطبرى . أما أبو محنف فكان يسجل روايات القبائل الأزدية في العراق ؛ وكان لعوانة بن الحكم رواية كلب في الشام ولسيف بن عمر رواية قبائل تميم كما روت قبائل باهله حروب قتبة بن مسلم في ما وراء النهر ... مما نجم عنه ظهور مدارس وكتب تاريخية تحمل هذه الاتجاهات .

ومن الملاحظات الهامة في هذا الصدد أن البصرة ورواتها الذين تأثروا بمذهب المدائني ومذهب أهل المدينة ، تأثروا كذلك بأراء الصناعيين ومدرسة اليمن الذين عرموا برواياتهم للأساطير والأسرائيليات . ولا شك أن السبب في ذلك هو العلاقات التجارية البحرية خاصة والبرية بين البصرة واليمن . ولعله لهذا السبب نجد روايات البصرة في الجملة أخف حدة من روايات الكوفة وأقرب منها إلى مذاهب المحدثين وأقل تعصباً على بني أمية .

ومن جهة أخرى فإن الذين شاركوا في هذا النشاط الثقافي كانوا إما من العرب (في الشام والعراق والحجاج واليمن) أو من الموالي الفرس (في العراق

وأيران) ولم يسجل في تلك الفترة الأولى من نشاط في مصر ، كما لم يكتب البربر شيئاً ولا كتب أهل النوبة ضمن الأراضي الإسلامية شيئاً من التاريخ يجاوز ما نقله بعضهم نفلاً عن تواريخ الروم المكتوبة : اليونانية أو السريانية .

٤ - كافة الكتابات التاريخية التي ظهرت إنما وضعت على أساس إسلامي بخت : كما نظمت على أساس التقويم الإسلامي الهجري الذي ظهر مبكراً ليعين على تنظيمها . والمعنى الحام في هذا أن عملية التدوين التاريخي نشأت مستقلة تماماً الاستقلال لا في موضوعها واهتمامها ورجالتها فحسب ولكن حتى في تقويمها الخاص عن تواريخ الأمم الأخرى . نشأت في إطار الإسلام نفسه ومن أجله أي على أساس فكري جديد ومنطلق جيد وتقويم جديد . لم يكن الخبراء من العرب والموالي على السواء عالة في ذلك على مؤرخي أي أمم فيما يتعلق بتاريخهم الخاص على الأقل . والموالي الفرس الذين أضافوا إلى عملية التدوين تاريخهم الخاص . انصافوا إلى الجوهة العربية في هذا السبيل ولم يقدوها . ورفدوا تيار الفكر التاريخي بعد أن ظهر واشتد ولكنهم لم يكونوا إلا هم ولا مثقفو الشعوب الأخرى ذات الحضارة السابقة . كالسريان والروم . وراء نشوء هذا العلم وإن منحوه بعض الأبعاد حول الفترات السابقة للإسلام ، في نوع من استكمال المعرفة وسد الفراغ بين مبدأ الخلق وظهوربعثة النبوة . وحين أعطوه ما عندهم دخلوا ضمن إطاره الخاص ومنطلقاته ولم يستطعوا كما فعلوا في العلوم الأخرى . كالفلسفة مثلاً والعلوم : أن يفرضوا عليه أي إطار أو منطلق . أعطوه – زمنياً – بعد أن ظهر التدوين التاريخي بكثير لا قبل ذلك .

وهكذا لم يكن التاريخ الإسلامي استمراً أو صلة للتاريخ التقديمة وإنما هو تاريخ إسلامي خالص ، وقد نما النمو المستقل الطبيعي ضمن حدود التطور الثقافي الإسلامي ، وأبعاده ، وفي إطار حاجات المجتمع الإسلامي وخصائصه .

٥ - ولعل من نتائج هذه النقطة السابقة أن نشأة علم التاريخ وتطوره لا يمكن أن يُفهم إلا ضمن التطورات والفعاليات الثقافية الأخرى . انه لم ينشأ

وحده كالزهرة في صحراء ولكنه كان زهرة في ربيع واسع . في الوقت الذي كانت الثقافة العربية الإسلامية فيه تنمو وتتنفس كان التاريخ جزءاً منها وكان ينمو ويشتد عوده بدوره معها ، فهو ابن تلك الحركة الثقافية الواسعة التي امتدت منذ أواسط القرن الأول المجري في دمشق وبلغت شبابها في عهد المأمون في مطلع القرن الثالث .

وأشد روابط التاريخ قوة إنما كانت مع علم الحديث والسيرة من جهة ومع علوم النسب واللغة والأدب لأنه إنما أشتق من ضلعها . وقد مشى خطواته الأولى خاصة مع السيرة النبوية ومع الأنساب والقصص الأدبي كما اقتبس معظم منهجه عن علم الحديث . ثم رفدت التاريخ مع الأيام فيما بعد علوم أخرى كالجغرافيا والفلك والفلسفة والنجوم فأعطته الكثير من الآفاق الجديدة وظهر أثرها الواضح في مؤلفاته .

٦ - ومن نتائج النقطة السابقة نفسها أيضاً : أن الانباريين والمورخين الأولين بدافع من التقوى أو من الانبهار بالاسلام أو من الاكتفاء به لم يهتموا كثيراً بتواریخ الأمم الأخرى إلا متأخرین، بل لم يوجهوا الا أقل العناية للتاريخ العربي السابق للإسلام . أهملوا التاريخ الجاهلي وتركوا :

- لأمثال وهب بن منبه وعبيد بن شرية أن يُحلوا الأساطير والأسرائيليات محل التاريخ اليمني القديم لعرب الجنوب وينسجوه على منوال التاريخ القبلي للشماليين .

- ولأنبار « الأيام » و « الأنساب » أن تسد مسد التاريخ الجاهلي الشمالي .

ولعل السبب في ذلك يعود إلى عدم توفر المواد الكافية من المعلومات المنقولة ، وإلى أن تلك المعلومات لم تكن مكتوبة ولكنها شفهية في كثرةها الكثيرة . وإلى أن العصبيات القبلية كانت تلعب دورها في اخفاء جانب من المعلومات ونبش جانب والتزييد في ناحية واهمال ناحية أخرى . بالإضافة إلى

أن معظم ما كتب عن ذلك التاريخ فإنما كتبه الباحثون عن النثر الفي والشعر والأدب وعلوم الدين ولم يكتبه الباحثون عن معلومات التاريخ خاصة ، والى أن أصحاب الأخبار والناس على السواء كانوا يهتمون بتاريخ العرب بعد الإسلام لا قبله باعتباره هو المرحلة الخامسة والمتالية وأما الباهاة فقد حكم عليها الإسلام وعلى مثلها بالبوار .

٧ - ويمكن أن نضيف هنا أن عدداً كبيراً من الأقلام التي كتبت الأبحاث التاريخية - حتى فيما بعد الفترة الأولى - كانت من الموالى ، ومؤلأء وإن كانوا مسلمين إلا أنهم ليسوا من العرب ، وإذا نجح عن هذا أنهم قلما كانوا يتحسسون التاريخ العربي كله أو يهتمون بقديمه فقد نجح عنه أيضاً أنهم غالباً ما كانوا يجمعون في عملية التدوين كافة الأخبار بما فيها من مثالب أو أساطير أو مفاخر دون تفريق أو تمييز . وقد كان لذلك عقابيله السلبية والإيجابية على السواء . ومن أبرز هؤلاء الموالى : في الأولين ... شرحبيل بن سعد ، وابن اسحق . وأبو معشر السندي ، ثم في التالين الواقدي وأبو عبيدة وأبو مخنف وعوانة بن الحكم والمدائني وذلك قبل أن يظهر المؤرخون منهم كابن قتيبة الدينوري والبلاذري وابن طيفور وأبي حنيفة الدينوري واليعقوبي والطبرى .

٨ - لم يكن التدوين التاريخي الأول نفلاً كله عن الرواية الشفهية وحدها . ويبعد مؤكداً أن بعض الوثائق والسجلات والأسفار والكتب الأصلية قد اشترك في ذلك التدوين . فإن الدقة التي اتسمت بها الأخبار التاريخية المتعلقة بالخلافاء الراشدين والواردة في الحديث المدنى والتي استفاد منها بعض المؤلفين كالواقدي . توحي بوجود وثائق مخطوطة في المدينة كانت في ذلك العهد المبكر مراجع يرجع إليها الناس . ولم يعد هذا الأمر الآن رجحاً بالظن فان دراسة غروهمان^(١) لأوراق البردي العربية وفرت الدلائل على وجود وثائق في العصر

(١) أشار جب إلى هذه النقطة وإلى هذه الدراسة في مقاله عن التاريخ الإسلامي بالموسوعة الإسلامية =

الأموي بدمشق وال伊拉克 معاً . و « من المحتمل أن يكون المصنفوون المتأخرون قد اعتمدوا على مواد من هذا القبيل في ترتيب مجموعة دقيقة للحوادث حسب تسلسل الزمن ترتيباً تناول ذكر أسماء الولاية والحكام وأمراء الحج (والقضاة وأصحاب الشرطة) وما جرى هذا المجرى عاماً بعد عام ... »

أما في التواريخ غير الإسلامية فإذا كان أخباريو اليمن قد أضاعوا فرصة هامة لتسجيل تاريخ اليمن الحقيقي ، من أفواه أو وثائق العارفين به بدل ذلك التاريخ الوهمي الذي ابتكره تاركين سجلات القبائل ونقوش اليمن بالمسند دون استغلال فإن أصحاب الخبرة كانت لهم سجلاتهم وأسفارهم التي عرفها ونقل عنها الأخباريون العرب . يقول الطبرى : « ... وكان أمر آل نصر بن ربيعة ومن كان من ولادة ملوك الفرس وعماهم على ثغر العرب الذين هم ببادية العراق عند أهل الخبرة . متعالماً مثبتاً عندهم في كنائسهم وأسفارهم »^(١) ومين وقع على هذه السجلات وأخذ عنها هشام بن محمد الكلبي الذي قال في رواية الطبرى أيضاً : — « اني كنت أخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر ابن ربيعة . وبالمبالغ أعمار من عمل منهم لآل كسرى وتاريخ سنיהם من بييع الخبرة وفيها ملوكهم وأمورهم كلها »^(٢) ...

وأما في تواريخ بني إسرائيل فإن ثمة أدلة تدل على ترجمة التوراة والإنجيل العربية في عصر الفتوح وفي العصر الأموي^(٣) وهي تكفي للإvidence باعتماد بعض الأخباريين على الأقل على هذا المصدر الأصلي . تماماً كما يكفي الخبر المروي عن ترجمة كتب الفرس وتاريخهم لشام بن عبد الملك في كتاب مصيف مذهب دليلاً على اتصال بعض الأخباريين الآخرين بالمصادر الأصلية للتاريخ الفارسي .

= (انظر الترجمة العربية ج ٤ ص ٤٨٨) وأمن دراسة غروهان فوردت في كتابه : Grohman, *Algemeine Einführung in die Arabischen Papyrie*, Vienne, 1924, p. 27-30.

(١) الطبرى ج ١ ص ٦٢٨ (٧٧٠/١) .

(٢) الطبرى ج ١ (٧٧٠/١) .

(٣) جواد علي - مصادر تاريخ الطبرى (مجلة المعجم العلمي انتراتي لسنة ١٩٥٠ ج ١ ص ١٩٩) . و انظر بعثنا حول حركة الترسيب عن علوم الأولي في مجلة كلية الآداب - الكويت العدد ٧ .

٩ - ثم ان تعدد العوامل وال الحاجات التي أوجدت علم التاريخ هو الذي يفسر تنوع وسعة الكتابات التاريخية التي ظهرت . ولو استعرضنا الأعمال الست مائة التي كتبت في تلك الفترة لوجدنا أنها تناولت كافة أنواع وفروع التدوين التاريخي فهناك : كتب عامة في «التاريخ» تقارب الحمسين ، وكتب في السير والأخبار تزيد على السبعين نصفها في سيرة الرسول ، وكتب عن الخلفاء وعن الأمويين والعباسيين وأحداث عصرهم تصل إلى المائة ، وكتب في الفتوح ، وأخرى في مقاتل الرجال وفي الفرق ، وكتب في البلدان والمسالك وتوارييخ المدن المختلفة النظم ونحططها (البصرة والكوفة والمدينة وبغداد والخيرة وأصبهان ومكة ومصر والموصل) . وكتب في الادارة وفي النظم المالية وفي السياسة وأدب السلطان وفي الولاية والكتاب والعقود ، عدا كتب النسب الكثيرة التي تزيد على المائة وكتب الطبقات وترجم الأشخاص والشعراء والمخالفين ، وكتب عن الروم والفرس وأهل الكتاب . بل كتبوا في شؤون حضارية كثيرة أيضاً . لقد ولدت . مع التاريخ كافة فروع التدوين ، كما ولدت أيضاً كافة مناهج التدوين في وقت معاً . وقد حدد هذا مسيرة علم التاريخ فيما بعد وتطوره . فلا يكاد هذا العلم يحيى ، في القرون الثالثة ، عن هذه الخطوط التي نشأ عليها في فترة ولادته الا في القليل القليل . وانا لستطيع بصورة عامة أن أجد جذور كافة كتب السير والطبقات في كتب السيرة الأولى ونجد الصور الأولى للتاريخ المعروفة في كتب الأخبار . كما نستطيع أن نعيد فكرة التوارييخ العامة والتوارييخ على السينين إلى نحو فكرة الأمة عند المسلمين من جهة وإلى النظرة العالمية الواحدة لديهم من خلال سلسلة الأنبياء وتساوي البشر من جهة أخرى .

١٠ - لم يكن تدوين التاريخ عملاً «رسمياً» «أبداً» . لم يعرف هذا العمل أبداً في التاريخ الإسلامي كله الا مرة واحدة في او اخر القرن السابع (عند تعيين ابن الفوطي مؤرخاً للمغول الایلخانيين في العراق) . واذا جرى أن شجع الخلفاء الأمويون ثم العباسيون تدوين التاريخ فلم يكن ذلك بغرض الوصول

إلى اقامة تاريخ رسمي للدولة . ولكن لمجرد إثبات المعارف المأمة وتسجيل ما كان بهم أو يشوق الخليفة أو الوالي معرفته . ولم يكن التشجيع يتجاوز ذلك الحد إلى فرض وجهات نظر الدولة أو رأي السلطان على التاريخ إلا فيما ندر (كحادثة الزهري مع القسري) . وليس يعني هذا براءة التاريخ الذي دون في تلك الفترة من الأهواء ولكنه يعني فقط أنه كان يستند إلى رأي الكاتب نفسه وإلى الرواة الذين رووا له الأحداث وإلى هواه الخاص في تفضيل أو العاء أو إبراز رواية دون رواية ... نشأ التاريخ في معزل عن الشكل « الرسمي » وعن سلطة الدولة . وكان ، حتى في استناده إلى وثائق الدوادين والأنساب أو الكتب الرسمية أحياناً إنما يفعل ذلك بشكل شخصي . وقلما كان الانباريون والمؤرخون الأوّلون يطلعون على ذلك بطريقة رسمية أو يمهد لهم سبيل الحصول عليها إلا لغرض . بل لقد نرى أتّهام بعض المؤرخين أنّهم كانوا على علاقة طيبة مع السلطة . ولقد قال مكتحول العالم الفقيه المعروف في الزهري : « أي الرجال الزهري لو لا أنه أفسد نفسه بصحبة الملوك » ...

١١ - وظهرت في الفترة المبكرة من تاريخ التدوين عمليات التفسير التارخي ، والتحليل والتحليل السياسي . بدأت فلسفة التاريخ بشكل أولي وكان طبيعياً أن تكون « ارادة الله » هي محور هذه الفلسفة .

وانا لنرى فكرة الخبر كما كان يروج لها الأمويون واضحة في بعض أعمال عواثة بن الحكم حيث يثبت دفاع بعض الأمويين عن حقهم ودفعهم مسؤولية بعض الأعمال عن أنفسهم (يزيد ومقتل الحسين مثلاً^(١)) وينسبون ذلك إلى

(١) انظر في الطبرى (ج ٥ ص ٤٦١) قول يزيد لابن الحسين : « ... أبوك نازعني سلطاني فصنع الله به ما قد رأيت ... » وقوله أيضاً في الطبرى (٤٦٤/٥) إن الحسين لم يقرأ قوله تعالى : قل للهِ مالُكُ الْمَلَكُوتِ اللَّهُمَّ تَنْزِّلُ الْمَلَكَ مِنْ تَشَاءُ وَتَنْزِّلُ مِنْ تَشَاءُ وَتَنْزِّلُ مِنْ تَشَاءُ يَدِكَ الْخَيْرُ أَنْكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ... » .

وانظر كذلك لدى البلاذري - أنساب الأشراف (ج ٥ ص ١٤٠) حيث يقول رأياً قول عواثة : « إن قدر الله لابن الزبير شيئاً فهو كائن » .

ارادة الله ويرون في سلطانهم أمراً إلهياً فيه مظاهر البحير الاهلي وارادة الله الغالبة لكل شيء . ونجده بالمقابل فكرة حرية الارادة ومسؤولية البشر عما يقترفون ، وهو رأي الأحزاب المعارضه للأمويين ، واصححة في بعض ما كتب أبو منيف وخاصة فيما يورده عن حركة الحسين وحركة التوابين .

ونجد في الوقت نفسه ظهور فكرة «الأمة» الإسلامية و «الدولة» و بروز حقوق «الإمامية» و «الخلافة» ، وأفكار «الطاعة» ، لأولي الأمر ، و «الجماعة» الإسلامية ، وهي إنما تظهر إثر همود الأفكار الأولى القبلية أو محلية التي تميز بها الانباريون الأوائل . فكان حزب بنى أمية هو حزب الدين والنظام وحزب «أهل السنة والجماعة» . وكان يزيد «إمام المسلمين» وعبد الملك «إمام الإسلام» و «أمين الله» و «جنة الدين» ^(١) ... وقد ذكر حمزة الأصفهاني جماع الفلسفة الأموية السياسية حين ذكر أن الأمويين صوروا العلوين في صورة : «... الخوارج على أئمة العدل وقرروا عندهم أنهم شقوا عصا الطاعة وأخرجوا أيديهم من الجماعة وحاولوا انتزاع الإمامة من إمام ولـي عهد إمام طامعين في أن يغتصبوه على حق موروث جعله من تقدمه أولى به منهم حتى مال أولئك الأعتاب (أهل الشام) باللعن والاقراء وقالوا لهم : تباً لكم من عشر مفارقين للسنة والجماعة عاصين لخليفة الله ... ثم غيروا قريباً من مائة سنة يخذرون الناس ناحيتهم ... وينهون عن الاختلاط بهم ... حتى ... ظهر العباسيون ^(٢) ... وهذا كلـه إنما يلخص صدى ما كتبه الانباريون ذوو الميل الأموية في تفسير التاريخ والأحداث مع العلوين . وقد ورث العباسيون ذلك من بعد فـكان موقفـهم ، الذي سجلـه الانباريون ثم المؤرخون هو

(١) ذكر هذه الأنـقاب البـلـاذـري - أـنـسـابـ الـأـشـرـافـ (طبـعة آـلـوارـدـتـ) صـ ١ـ٢ـ وـصـ ٣ـ٠ـ٣ـ وـابـنـ عبدـ رـبـهـ فـيـ الـمـقـدـرـيـدـ جـ ١ـ صـ ١ـ٢ـ٢ـ .

(٢) حـمـزةـ الـأـصـبـهـانـيـ - تـارـيـخـ سـيـ مـلـوكـ الـأـرـضـ (طبـعة دـارـ الـحـيـاةـ - بـيـرـوـتـ) صـ ١ـ٦ـ٠ـ - ١ـ٦ـ١ـ .

هذا الموقف مع تأكيد أوسع على الصفة الدينية والقرآنية لآل الرسول وعلى حق الامامة لبني العباس من جانبي القرابة والجماعة .

٤ - مراحل التدوين

يحدد الذهبي ، في نص هام يرد في كتابه تذكرة الحفاظ وينقله عنه ابن تغري بردي والسيوطى ، السنة التي بدأ فيها تدوين العلوم العربية في الإسلام بأنها سنة ١٤٣ هـ . يقول : « ... في سنة ثلاثة وأربعين (ومائة) شرع علماء الإسلام في هذا العصر في تدوين الحديث . والفقه . والتفسير . فصنف ابن جرير بحكة ، ومالك (ابن أنس) الموطأ بالمدينة . والأوزاعي بالشام . وابن أبي عروبة وحماد بن سلمة وغيرهما بالبصرة . ومعمر باليمين ، وسفيان بالكوفة . وصنف ابن اسحاق المخازى . وصنف أبو حنيفة رحمه الله الفقه والرأي . ثم بعد يسير صنف هشيم والليث (بن سعد) وابن هبعة ثم ابن المبارك وأبو يوسف وابن وهب ... وكثير تدوين العلم وتبويه . ودونت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس . وقبل هذا العصر كان الأئمة يتكلمون من حفظهم ، أو يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة » ^(١) ...

ويتبين الذهبي في هذا النص إلى عدد من الحقائق المتصلة بنشأة العلوم الإسلامية ولعل أهمها مرورها في القرن الثاني – في سنة ١٤٣ كما يقول – من مرحلة التسجيل « غير المرتب » إلى التصنيف المحبوب . وتوافق تصنيف مختلف العلوم بعضها مع بعض في عصر واحد . وظهور التصنيف في مختلف البقاع

(١) الذهبي – تذكرة الحفاظ ج ١ من ١٥١ و ص ٢٢٩ ; ابن تغري بردي – التلجم الزاهرة ج ١ ص ٣٥١ : السيوطى – تاريخ المللناه ص ٢٦١ .

الإسلامية معاً ... وإذا نحن تجاوزنا تحديد سنة ١٤٣ كستة انقلابية – وهو تحديد ليس بالحاطئ تماماً على أي حال – وضيقنا الدائرة حتى لا تشمل غير علم التاريخ وما يتصل به من المقازي وأيام الناس والفتح ... الخ . فإننا يمكن أن نلاحظ في نشأة التدوين التاريخي مروره بمراحل ثلاث توازي إلى حد كبير ما مر به علم الحديث أو غيره من علوم العرب : ولكنها ليست مراحل منفصلة بقدر ما هي متراقبة متشابكة :

المراحل الأولى : ونستطيع أن نسميها مرحلة التدوين الأولى . ويتسم التدوين فيها بالطابع الشخصي بالنسبة للهدف من استخدام التدوين وبطابع الغفوية والفضول العلمي والمفحة الدينية أو الاجتماعية بالنسبة للدعاون العامة . وقد بدأت عملية التدوين فعلاً عن الشفاه ، وعن غيرها من المسجلات (كالوثائق والكتب) مبكرة جداً . وبعضها يرقى إلى العهد النبوي لكنها ما اتسعت ولا وضحت إلا في العصر الأموي وقد أخذت فيه عدداً من الاتجاهات فبعضها لسيرة النبوة وبعض ل تاريخ اليمن وبعض " للأنساب وبعض " لأخبار الفتح ... الخ .

وقد رافق هذه المرحلة الأولى كما سوف يرافق التاريخ الإسلامي في جميع مراحله وتطوراته المقبلة وجود جمهور واسع من رواة التاريخ والأخبار والأنساب يحدثون بما يعرفون . ومن هؤلاء مثلاً ، في هذه المرحلة الأولى ، أبو يزيد عقيل بن أبي طالب ، الأخ الأكبر لعلي ، الذي كان يروي في مسجد المدينة والمستمعون من حوله ، أيام العرب ومعاركها ومثالب قريش . ومنهم عمرو بن خولة « الرواية الفصيح » وأبو الحنساء عباد بن كسيب « الشاعر العلامة والرواية النسابة » ومكي بن سوادة « الجامع العلم » وأبو الجهم بن حذيفة العدوبي « الناسب الشديد العارضة » وأبو بكر بن الحكم « الناسب الرواية الشاعر »^(١) ... وغيرهم كثير . ألقوا ما يمكن أن نسميه جمهور التاريخ وجوه

(١) انظر في خبر هؤلاء مثلاً : المحافظ - البيان والتبيين (طبعة دار الفكر - بيروت ١٩٦٨)

الأوسع واشتهر منهم الأقرع بن حابس التميمي « عالم العرب في زمانه » (توفي سنة ٣١ / ٦٥١) وخرمة بن نوقل (المتوفى سنة ٥٤ / ٦٧٤) وجبير بن مطعم (المتوفى سنة ٥٩ / ٦٧٩) وحويطب بن عبد العزى أحد أربعة من قريش في العلم بالشعر والأخبار والأنساب . والنخار بن أوس العنزي أعظم علماء العرب في الأنساب في نظر ابن الكلبي ^(١) .

وما من شك في أن هذا الجمهور الواسع من رواة التاريخ كان يشكل الإطار العام من اهتمامات الناس التاريخية ، كما أنه ضمن هذا الجمهور وعلى يد عدد من أفراده كانت تجري الخطوات الأولى للانتقال بالتاريخ من حالة المعرفة الشفهية إلى المعرفة الكتابية ، من التاريخ المروي إلى التاريخ المكتوب . وهذه النقلة إنما كانت تمكنت من التنظيم والاعتراف العام « بالأصول » والمسجلات الشخصية التي سطرها لنفسه كل واحد من هؤلاء الرواة .

وقد امتدت المرحلة الأولى هذه حتى مطالع القرن الثاني : وكان اهتمام التدوين فيها متوجهاً بصورة خاصة ، تحت ضغط المتدينين وال الحاجة الدينية – السياسية إلى مواضيع محددة من السيرة النبوية . وقد ظهر في هذه الفترة عبد الله ابن عباس (المتوفى سنة ٧٨) ثم أبيان بن عثمان بن عفان (المتوفى سنة ٩٥ أو سنة ١٠٥) ، وعروة بن الزبير (المتوفى سنة ٩٤) اللذان رويا جوانب من السيرة سميت « بالمغازي » لأنها تبئم بهذه الناحية من حياة الرسول . ثم تلاهما شرحبيل بن حسنة (المتوفى سنة ١٢٣) وابن شهاب الزهري (المتوفى سنة ١٢٤) اللذان طورا فكرة السيرة محاولين جعلها – كما فعل شرحبيل في كتاب المبتدأ – أساساً لكتابه تاريخ عالمي من خلال سلسلة الأنبياء وخاتم النبيين ، أو جعلها أساساً لكتابه تاريخ « الأمة » الإسلامية الذي يبدأ بسيرة الرسول .

وخلال هذه المرحلة ظهر الاهتمام بالمعارف التاريخية بوضوح لدى الخلفاء

(١) انظر ابن حجر – الاصابة ج ٢ ص ١٢٠٢ .

الأمويين منذ عهد معاوية وطلبو تسجيل ذلك لهم من أفواه الناس : فجئن سمع معاوية ما يرويه عبيد بن شريعة عن تاريخ اليمن طلب فوراً تسجيلاً ، كما جمع الوليد بن يزيد أخبار العرب على يد حماد في ديوان يختص بذلك ، ووضع هشام بن عبد الملك من يكتب أخبار الزهرى عنه ويكتب أيضاً تاريخ ملوك الفرس ، ولكن هذه الكتابات تظل تسجيلاً لأحداث تاريخية متفرقة غير متصل بعضها ببعض وتختصر لاهتمامات من يهم بها . وإذا كتب مثلاً زياد ابن أبيه (المتوفى سنة ٥٤) كتاباً في مثالب العرب فلأنه كان يريد الدفاع عن نسبة المجهول . وإذا كثرت الإشارات ، في هذه الفترة ، عن وجود صحف لفلان وفلان فإن ذلك يعني أن الرغبة في تدوين الأخبار (والأحاديث والأدب أيضاً) على اختلافها قد أصبحت شائعة معروفة . ولكن النشاط في تسجيل مثل هذه الأمور التاريخية لم يكن بعد قد أخذ انطلاقته الواضحة ، لأنه ينقي رسمياً لحد ما أو دينياً ولم يصبح تياراً فكرياً ثقافياً واضحاً في التدوين . كما أن ما جرى تدوينه في هذه الفترة كان من المعارف المتفرقة ولم يكن محاولة للإحاطة بكل الأخبار لكافة المواضيع . ولعل النموذج الواضح لهذه الفترة يتمثل في عبد الله بن عباس (المتوفي سنة ٧٨) . فقد ذكر ابن سعد في الطبقات خبراً يقول : « ... رأيت عبد الله بن عباس معه ألواح يكتب عليها عن ابن رافع شيئاً من فعل رسول الله » ... وذكر أيضاً أنه كان لدى كربيلابن أبي مسلم من كتب ابن عباس ، مولاه ، ما يبلغ حمل بغير فكان علي بن عبد الله ابن عباس إذا أراد الكتاب كتب إليه أبعث إلى بصحيفة كلها فينسخها ويبعث إليه بأحدى النسختين ^(١) .

أما في جيل الزهرى (ت ١٢٤) التالي لابن عباس فانتشر التدوين بوضوح . يروى الذهبي قول أبي الزناد : « كنا نطوف مع الزهرى على العلماء ومعه الألواح يكتب كل ما سمع » ^(٢) . كان ذلك في مطلع القرن الثاني الذي وجد

(١) ابن سعد - الطبقات ج ٢ - ٢ ص ١٢٣ وج ٥ ص ٢١٦ .

(٢) الذهبي - تذكرة الحفاظ (طبعة سيد آباد) ج ١ ص ١٠٣ .

فيه في دار أبي عبيدة من الكتب ما جعل بعضهم يقول : « إن ديوان العرب كان في بيته » ^(١) .

وذكر الباحث عن أبي عمرو بن العلاء أن « كتبه التي كتبت عن العرب الفصحاء قد ملأت بيته إلى قريب من السقف ثم إنه تقدأ فأحرقها كلها » ^(٢) ...

المرحلة الثانية : وقد امتدت خلال القرن الثاني كله تقريباً . واهتم الخبريون خلالها بجمع أخبار الأحداث المختلفة والمواضيع المتنوعة كلها ، ومن جميع الأفواه والرواية ، كل منها على حدة وفي كتاب يحمل عنوانه الخاص . ومع أن الاهتمام بالسيرة النبوية لم ينقطع في هذه المرحلة إن لم يتسع ويتنظم ويعطي السيرة شكلها النهائي المتنظم على يد ابن سحق (المتوفى سنة ١٥١) صاحب أقدم وأكمل سيرة نعرفها الآن ، إلا أن العناية بالأخبار التاريخية الأخرى صارت أكثر وضوحاً ، بل لقد واكبت وزاحت أحياناً كثيرة الاهتمام بالسيرة نفسها . ولعل السبب في ذلك أن السيرة كانت قد استكملت المعرف عنها واستقرت كافة المصادر والمعلومات المتعلقة بها وانتظمت في كتب معروفة بينما وجد الخبريون ميادين أخرى لفعالياتهم الفكرية والثقافية ما تزال بكرةً ، ومواضيع مما يهم الناس اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً لم تطرق . أو طرقت من وجهة نظر معينة فلا بد من كشف الآراء الأخرى فيها . وهكذا اندفع رجال هذه الفترة من الخبريين في تأليف عشرات من الكتب أو مئات لا شك في أن معظمها أشبه بالرسائل الصغيرة والمقالات الموسعة ، وكانت تشكل في مجموعها المادة التاريخية الأساسية لكتابه التاريخ .

وقد استقصت في مجموعها أيضاً كافة ما يهم المؤرخ معرفته من المعلومات

(١) ابن النديم - الفهرست ص ٥٣ .

(٢) الباحظ - البيان والتبيين ج ١ ص ٢١٥ (طبعة دار الفكر - بيروت ١٩٦٨) .

عن مختلف مواضع التاريخ الإسلامي خاصة وتاريخ العرب الباهلي وبعض تواريχ الأمم . ومن هؤلاء الرجال :

– أبو مخنف (المتوفى سنة ١٥٧) الاخباري الذي كتب ٣٢ كتاباً تحمل عناوين الردة ، الفتوح ، الشورى ، صفين . الخوارج ... وكتب عوانة بن الحكم في الوقت نفسه سيرة معاوية وبني أمية وكتاباً في التاريخ فيه شيء عن الردة والفتح والخلفاء الراشدين . ثم جاء سيف بن عمر (المتوفى سنة ١٨٠) فكتب في الردة والفتح والفتنة وواقعة الحمل . ثم هشام بن محمد بن السائب الكلبي النسابة المتوفي سنة ٢٠٤ فكتب أكثر من ١٥٠ كتاباً في مختلف المواضيع : في المأثر والكتني والمثالب وأخبار الأوائل واليمين والخلفاء وصفاتهم وأولادهم ونسائهم ... لكل موضوع منها عنوانه المفرد .

وكتب مثل ذلك ، في الوقت نفسه ثلاثة مؤلفين آخرين هم :

– الهيثم بن عدي (المتوفى سنة ٢٠٨) والذي يعدون له ٥٠ كتاباً ، في أنساب القبائل ، والخوارج وولادة الأنصار وخطط البصرة وخطط الكوفة ... الخ .

– الواقدي (المتوفى سنة ٢٠٧) والذي ألف ٢٨ كتاباً ، من عناوينها : أخبار مكة ، أزواج النبي ، السقيفة ، سيرة أبي بكر ، الردة ، يوم الحمل ، صفين ، مقتل الحسين ، وضع الدواوين . ضرب الدنانير ، أمر الحشة والقisel ...

– أبو عبيدة معمر (المتوفى سنة ٢١١) وكان من كتبه : كتاب المثالب ، الفتوح ، الأيام ، مقاتل الفرسان ، صفين : قضاة البصرة ، أخبار الحجاج . كتاب الأوس والخزرج ...

– نصر بن مراحم الذي توفي سنة ٢١٣ عن ٥٠ كتاباً تحمل عناوين : الحمل ، صفين ، مقتل الحسين ، مقتل حجر بن عدي ، أخبار المختار ،

الأئمة ... الخ وقد بلغت المرحلة أوجها ونهايتها بأعمال المدائني (المتوفى سنة ٢٢٥) الذي ترك مجموعة ضخمة من الكتب تكشف مجموعة عناؤينها أنها تغطي أخبار البهالية وأحداث الإسلام وأخبار الخلفاء والتاريخي الأدبي والحضاري للدولة العربية الإسلامية ولكنها لا تلتف كتاباً واحداً ولا عشرة وإنما تلتف ٢٤٠ كتاباً منفصلة .

وما يلفت النظر أن ينتشر ما بين أواخر المرحلة الأولى (نهاية القرن الأول) ونهاية المرحلة الثانية (أواخر القرن الثاني) عنوان يطرقه الكثير من الكتاب هو كتاب النوادر : فقد كتب تحت هذا العنوان الكثيرون ومنهم : رهمع بن محرز البصري ، أبو مسحل ، أبو المضرحي ، عبد الله الأموي ، اللحياني ، أبو محمد اليزيدي ، قطرب ، أبو عمرو الشيباني ، أبو اليقظان السابعة وآخرون ^(١) ... وقد يدل العنوان على أفكار التنوع والطراوة والانتقائية التي كانت تحكم الجو الثقافي في تلك الفترة وتلتقي مع فصل المراضيع التاريخية بعضها عن بعض في كتب منفصلة للأخبار .

ولعلنا نلاحظ أن علم النسب أيضاً قد مرّ بهاتين المرحلتين الأولى والثانية في هذه الفترات نفسها . فبعد أن دونت بعض الأنساب اتفاقاً ومن أفواه روتها وبأقلام من اهتموا بها ، عن هذه القبيلة أو تلك ، كما فعل الفقسي الذي كتب مأثربني أسد ^(٢) وغيره جاء النسابون في المرحلة الثالثة ، فكتبوا أنساب كافة القبائل ولكن في كتب منفصلة أيضاً وفي محاولة لاستقصائها جميعاً وتدوينها ، ومن أهم هؤلاء : محمد بن السائب الكلبي (المتوفى سنة ١٤٦) والمني جمع - كما قال ابن النديم - « أنساب كل قبيلة على حدة . وبالرغم من أن ابنه هشاماً قد كتب كتاب النسب الكبير جاماً فيه كل الأنساب إلا أنه أفرد داخل

(١) انظر ابن النديم - الفهرست بالترتيب صفحات ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٣ ، ٦٨ ، ٩٤ ... الخ وانظر خاصة من ٨٨ فقيها ٢٢ كتاباً في النوادر .

(٢) انظر ابن النديم - الفهرست ص ٤٩ وقد أدرك الفقسي أيام المنصور .

الكتاب مجموعة من الكتب للأنساب مفردة ومنها نسب قريش ، ولد العباس . نسببني عبد شمس ، كتاب سهيم بن عمرو ، كتاببني محارب^(١) ... ومن كتب على هذا النسق نفسه أبو اليقطان النسابة (المتوفى سنة ١٩٠) فان له كتاب أخبار تميم وكتاب نسب خندف وأخبارها^(٢) وكتب على الطريقة ايها أيضاً عبد الرحمن بن عبلة^(٣) وتقرأ في ثبت كتبه : كتاب نسببني فقعن ، نسب كنانة ، أشراف بكر وتغلب ، نسب ولد أبي صفرة ... الخ على أن كلاماً من ابن عبلة وأبي اليقطان كتب مجموعة الأنساب في كتاب واحد بهداً بذلك للمرحلة الثالثة التالية وسمى كتابه « النسب الكبير » كما كتب هشام بن محمد الكلبي بدوره كتاب : النسب الكبير أيضاً وجمهور النسب ... جامعين بذلك ، على الأساس الاثنوغرافي ، كافة أنساب العرب في مجموعة واحدة وهي المرحلة الثالثة لتدوين النسب التي تقابل مرحلة التدوين الثالثة في التاريخ .

على أنه بالرغم من ذلك بالطبع « التوزيعي » المفرق لمواضيع التاريخ في هذه المرحلة فقد ظهرت خلالها ومن رحمها ، وفي وقت مبكر مطالع :

المرحلة الثالثة ، مرحلة تدوين التاريخ على الأساس الرمزي المتسلسل وجمع المواضيع المتعاقبة على التوالي في كتاب واحد وهي تستند في فلسفتها العميقية إلى فكرتين أساسيتين :

– وحدة التاريخ الإسلامي وأهمية تجارب الأمة الإسلامية .

– وحدة تاريخ البشرية من خلال سلسلة الأنبياء .

وقد امتدت هذه المرحلة حتى نهاية القرن الثالث حتى استقرت وتوطدت ،

(١) انظر تفصيل هذه الكتب لدى ابن الدّيم – الفهرست من ٩٨ .

(٢) انظر ابن الدّيم من ٩٤ .

(٣) المصدر ذاته من ١٠٥ .

فتوطد بها علم التاريخ الإسلامي ومناهجه في التدوين . وانا لنجد بواكير ذلك لدى ابن اسحق صاحب السيرة في أواسط القرن الثاني اذ ينسب اليه كتاب ضائع في (تاريخ الخلفاء) ، ثم لدى عوانة بن الحكم الذي كتب ، مع كتبه الأخرى مؤلفاً في « التاريخ » جمع فيه الحديث عن الردة والفتح وعهد الراشدين – حسب ما تدل النصوص الباقية المنقولة عنه – ثم جاء أبو اسحق ابراهيم بن محمد المتوفى سنة ١٨٨ فكتب « كتاب السير في الأخبار والحوادث »^(١) وهو خطوة أخرى نحو جمع السير والأخبار في كتاب واحد . ثم جاء الهيثم بن علي فوضع أول كتاب في التاريخ على أساس السنين محققًا بذلك ثورة في المنهج التاريخي على مطالع المائة الثالثة للهجرة . كما وضع أول كتاب في التاريخ على أساس الطبقات لترجم الرجال ... وهاتان الخطوتان هما اللتان قدر لهما أن تكونا أساس مناهج التدوين التاريخي في الإسلام فيما بعد .

وقد أتيحت للحركة الثقافية الإسلامية الأداة الثورية في الفكر بمعرفة الورق وصنعه في المشرق ، ولا شك أن ظهور الورق وانتشاره ، بعد أواسط القرن الثاني الهجري ، وكثرة صناعته قد أعانا على التوسع في التدوين التاريخي كما أعانا على جمع المؤلفات التاريخية الصغيرة ذات الموضوع الواحد في مجموعات تاريخية واسعة تضم مختلف المواضيع ، في نسق زمني متصل . بالإضافة إلى أن العمق الفكري الذي أصاب الحياة الثقافية ، مع حركة الترجمة واستبخار الحضارة . في العصر العباسي الأول وما بعده قد منح المؤرخين السعة اللازمة في الأفق والتوازن في النظرة التاريخية لمختلف الحضارات وتسليها .

وبالرغم من أن تأليف الكتب التاريخية كان يكسب مع الأيام أكثر فأكثر من الأنصار منذ خليفة بن خياط (المتوفى سنة ٢٤٠) إلى ابن قتيبة الدينوري (سنة ٢٧٠) ثم البلاذري (سنة ٢٧٩) وابن طيفور (سنة ٢٨٠) وأبي حنيفة

(١) انظر ابن الديم . - الفهرست ص ٩٢ .

الدينوري (سنة ٢٨٢) واليعقوبي (سنة ٢٨٤) والطبرى (سنة ٣١٠) ،
فإن النمط الأول للمرحلة السالفة ظل قائماً مدة طويلة لم يمت حتى أواخر القرن
وكان من ممثليه الآخرين : عمر بن شبة المتوفى سنة ٢٦٢ عن تسعين عاماً وعن
٢٢ كتاباً منها كتب : البصرة ، الكوفة ، مقتل عثمان ، أخبار المنصور ،
أمراء الكوفة ، كتاب السلطان ، كتاببني نمير ... الخ .

على أن علم التاريخ كان قد استقرَّ إِذ ذاك وكان التدوين التاريخي المنظم
قد أخذ مسيرة الطويلة .

د - مادة التدوين التاريخي الأولى ومواقف التدوين لكل مادة

ماذا دون الانجاريون المورخون الأول؟ ومن دونوا المaticies المختلفة
إِي طرقوها؟ ومن أين استقوا المادة التاريخية لمؤلفاتهم؟

يمكن الإجابة عن هذه الأسئلة إذا نحن استعرضنا مؤلفات الانجاريين
الأوائل ومواعيد تأليفها وما تحوي من المادة ومن المصادر . واستعراض عنوانين
المؤلفات لدى ابن النديم مثلاً ومحفوظات ما بقي منها قد يسمح لنا أن نلخص تلك
المادة في النقاط التالية :

- ١) السيرة والمعازى .
- ٢) أحداث التاريخ الإسلامي منذ وفاة الرسول حتى عهودهم لا الأخبار
السياسية فقط ولكن الحضارية أيضاً (من خطط ونظم مالية وقضائية وولاية
ونقود ورجال علم وفرق ومن غناء وجوار وقيان) وتوسعوا خاصة في أخبار
الأدب والشعر .

- ٣) أخبار الجاهلية وخاصة من الأنساب والأيام والمروريات الأدبية ، ولم ينسوا الأمور الحضارية (من أديان وأحلاف ومنافرات وأسواق) ...
- ٤) أخبار العرب قبل الإسلام وخاصة في اليمن والخيرة .
- ٥) تاريخ الأنبياء السابقين والأديان .
- ٦) تاريخ الفرس وملوكهم وأخبارهم ونظمهم .
- ٧) بعض تاريخ الروم والأمم الأخرى (من هند وصين وقبط...الخ) .
ولم يحتاج المسلمون إلى هذه المادة التاريخية كلها في وقت معاً ، وهذا يعني أنها لم تدون كلها في وقت واحد . ولعل ترتيبها الذي أعطيناها آياه في هذا التعداد السابق يكشف تقريباً ترتيب تدوينها الذي كان يعكس في الواقع ترتيب ظهور الحاجة إليها . الفرق الوحيد هو أن تدوين تاريخ الأنبياء رافق تدوين التاريخ الجاهلي السابق للإسلام .

فقد اهتم المسلمون أولاً بالسيرة وتفسير القصص القرآني وأشاراته فكتبت السيرة منذ النصف الثاني من القرن الأول وكتبت بعض أمور الجاهلية ، كما نُقلت بعض الأساطيليات وأخبار الأنبياء . وترتب على الردة والفتح أمور هامة في التشريع والحياة الإسلامية فرويت ودونت أخبار الردة والفتح في الوقت الذي ظهرت فيه الخلافات الشديدة حول الامامة ورئاسة الدولة الإسلامية ، فتبين الناس وقائع الخلاف وآراءه وما نجم عن ذلك من وقائع حربية وجدل سياسي ودونوها . ثم احتاجوا ، منذ أوائل القرن الثاني المجري ، إلى معرفة خبرات الأمم الأخرى فقطعوا الفرس لتقديم تلك الخبرات . وأخيراً في مطلع القرن الثالث بحث المسلمون أنفسهم عن أخبار الرومان والروم وبقي الأمم إلهاقاً للتوازن في التاريخ العام القديم ونقلوا ذلك إلى التواريخ العربية .

أما في مصادر المعلومات فإذا كان من السهل أن نعرف بناءً على المعلومات في السيرة والمغازي وقد أخذت عن الصحابة والتابعين ، وفي أحداث التاريخ

الإسلامي التي أخذت عن شهودها ورواة أخبارها أولاً بأول فإن تاريخ الأمور السابقة للإسلام كان يشكل مشكلة هامة في التدوين التاريخي . فليس في اللغة العربية من تراث مكتوب تقرأ به تلك الأمور ولا كان في تواريХ الأمم الأخرى وهي مكتوبة بلغات غربية (فارسية ويونانية وسريانية) من القيمة الفكرية والسياسية بالنسبة للعالم الإسلامي ، ما يدفع إلى معرفتها والتبحر الواسع فيها . ظلت معرفتها إما قاصرة على أصحابها من السكان الأصليين في مصر والشام والعراق وايران ومكتوبة بلغاتهم السابقة نفسها وأما ترقاً فكريأ لا يطلبها ويبحث عنه الا أصحاب التوقيع العلمي لمجرد استكمال المعرفة .

وقد حلـت هذه المشكلة بالنسبة لكل موضوع على حدة :

فاما أخبار الجاهلية بما فيها فقد أخذت مباشرة عن العارفين بأمورها وخاصة ما تعلق منها بتفسير اشارات القرآن الكريم والحديث ، وقد وجد من هؤلاء الرواة جماعة كثيرة منذ العهد الراشد وعهد الأمويين الأوائل وقد يكون معظمهم من يهـم بالنسب ولكنهم حملوا معه الأخبار المختلفة ومنهم : النسابة دغفل السدوسي النهلي ، الذي أدرك عهد معاوية ووفـد عليه ، والنـسابة البكري النصراـني (وقد أخذ عنه رؤبة بن العجاج) ولسان الحمرة : أبو كلاب وفاء بن الأشعـر ، وعـلاقـة بن كـريمـ الـكـلـابـيـ « من أيام يـزـيدـ بنـ مـعاـويـةـ ، وـكانـ عـارـفـاـ بـأـيـامـ الـعـربـ وـأـحـادـيـثـهـ ، وـهـوـ أحـدـ منـ أـخـذـتـ عـنـهـ الـمـائـرـ » وـصـحـارـ العـبـديـ الـخـارـجـيـ وـالـشـرـقـيـ بـنـ الـقـطـاطـيـ « أحـدـ النـسـابـينـ الـرـوـاـةـ لـلـأـخـبـارـ وـالـأـنـسـابـ وـالـدـوـاـءـيـنـ » وـصـالـحـ بـنـ عـمـرـانـ الـمـعـرـوـفـ بـالـصـفـدـيـ « وـكـانـ عـارـفـاـ بـأـخـبـارـ الرـسـوـلـ وـلـهـ كـتـبـ » وـمـجـالـدـ بـنـ سـعـيدـ الـمـهـدـانـيـ الـذـيـ روـىـ عـنـ الـهـيـمـ بـنـ عـلـيـ الـكـثـيرـ لـأـنـهـ كـانـ رـاوـيـةـ لـلـأـخـبـارـ ، وـقـدـ تـوـفـيـ سـنـةـ ١٤٤ـ ، وـسـعـدـ الـقـصـيـرـ مـوـلـيـ بـنـ يـمـيـةـ الـذـيـ « أـخـذـ عـنـهـ عـتـيـ أـخـبـارـ أـهـلـهـ وـمـنـاقـبـهـ وـشـعـرـهـ » ، وـيـزـيدـ بـنـ دـأـبـ « الـعـالـمـ بـأـخـبـارـ الـرـبـ وـأـشـعـارـهـ » وـوـلـدـاهـ عـيـسـيـ وـيـحـيـيـ « وـكـانـ الـفـالـبـ عـلـىـ آـلـ دـأـبـ (ـجـمـيـعـاـ)ـ الـأـخـبـارـ » وـزـهـيرـ بـنـ مـيمـونـ الـمـهـدـانـيـ الـقـرـقـيـ الـتـوـفـيـ سـنـةـ ١٥٥ـ « وـكـانـ عـالـمـ بـأـنـسـابـ وـأـخـبـارـ وـأـيـامـ النـاسـ » وـأـبـوـ مـحـمـدـ جـنـادـ بـنـ وـاـصـلـ الـكـوـفـيـ مـوـلـيـ بـنـ

أسد « وكان أعلم الناس بأشعار العرب وأيامها »^(١) .

وَثُمَّ ما يشير في عدد من الأخبار إلى أن ما حمله هؤلاء الرواة وأمثالهم من المعلومات كان يسجل من قبلهم أنفسهم ، ومنذ أو اخر العصر الراشد في بعض الصحف . كما أن ثمة ما يشير إلى وجود صحف محفوظة لدى كل قبيلة تضم أنسابها الخاصة . وقد تعاون مع التاريخ على جمع أخبار المحاهلية ، علوم القرآن والحديث والشعر واللغة والأدب وما أثر وسجل منها .

وأما تاريخ اليمن القديمة والحيرة فبالرغم من وجود الآثار وبعض المسجلات في البلدين ومن استخدام بعض الأخباريين الأول (كهشام بن الكلبي) لبعض سجلات الحيرة فإن تاريخ الجماعتين القديمتين وخاصة اليمن إنما تطوع لوضعه واضافته إلى التاريخ العربي بعض الرواة اليمنيين وبعضاً منهم ليسوا من اليمن الأصحاح ومنهم عبيد بن شريعة الجرهمي (المتوفى زمن عبد الملك) ثم وهب بن منهه (المتوفي سنة ١١٠ / ٧٢٨ أو سنة ١١٤) وهو من الأبناء وأبوه منهه من هراة بخراسان . وقد روى بعض تاريخ اليمن أيضاً ابن القرية ، وعامر الشعبي الرواية القديم .

ويذكر ابن النديم أن عبيد بن شريعة نقل رواياته عن عدد من الرواة اليمنيين ويذكر منهم ... الكيس التمري : واللسين الجرهمي ، وعبدود ، والجرهمي واسمه زيد بن الكيس ، وعلاقة بن كريم الكلبي من بني عامر بن كلاب (وهو من أيام يزيد بن معاوية) .

وإذا كان هؤلاء من يروون الأخبار شفاهآً فلعلهم إنما كانوا يعتمدون على شيء مكتوب . وقد رأينا من الأدلة ما يشير إلى وجود « زُبُر » ووثائق ملكية وسجلات حميرية و « صحف » مكتوبة في اليمن ظلت معروفة محفوظة لدى الأسر البارزة والناس حتى زمن المسمداني الذي أشار إليها ونقل عنها في كتابه الأكليل^(٢) على أن معظم ما سجل من تاريخ اليمني القديم عن لسان الرواة

(١) انظر في هؤلاء جميعاً ما ذكر ابن النديم في الفهرست ص ٨٩ - ص ٩٢ .

(٢) يذكر المدائني نقله نسب العوين « عن زبور قديم بخط أحمد بن موسى » (الأكليل ج ١٠ =

كان مع الأسف أسطوريًا ومن نوع القصص الشعبي ، ولا شك أنه كان ثمة في اليمن غير هؤلاء الرواة القصصيين جماعة من العارفين بتاريخ اليمن الحقيقي من عاشوا في عصر الراشدين والأمويين الأوائل بعدهم . ولا شك أن بعضهم كان يعتمد في معارفه على صحف مكتوبة بالخط المستند الشائع هناك ، غير أن حلول الرواة القصصيين محل هؤلاء العارفين قد أضاع على التاريخ العربي فرصة ذهبية كان بإمكانها أن تساعده في فهم وإيضاح وإغناء التفاصيل الأثرية التي نستنبطها اليوم عن ذلك التاريخ^(١) .

وأما تاريخ الأنبياء فقد ورد بعضه في القرآن الكريم وأما تفاصيله والتوضيح فيه وفي أخبار الأديان الأخرى وخاصة اليهودية والمسيحية فكان لا بد في ذلك من الاعتماد على أهل تلك الأديان وخاصة من أسلم منهم وكان على شيء من العلم بكتب وأخبار دينه السابق . وقد أخذ الأخباريون والمؤرخون المسلمين من تلك الأخبار ما تואقق منها مع المعتقد الإسلامي خاصة . وكانت في البدء ذات مهمة تفسيرية ثم توسعوا فيها وأخذوها أحياناً عن الكتب المقدسة نفسها وعن شروح تلك الكتب . ومن أقدم من نقلت عنهم تلك المعلومات كعب الأحبار ، وعبد الله بن سلام (المتوفى سنة ٤٠ / ٦٦٠) ثم محمد بن كعب القرظي ووهب ابن منبه . ولعلنا نلاحظ هنا أن أخبار الأنبياء والأديان السماوية السابقة للإسلام كانت معروفة في الجزيرة العربية قبل الإسلام وكانت مسطورة أيضاً لدى أصحابها وهي «أساطير الأولين» التي اتهم الرسول بالنقل عنها . كما كان في مكة نفسها والمدينة وخhir ونبران وصنعاء وغيرها من كان يعرفها . وقد غمز

= ص (١١) ويروى مثل ذلك عن وجود أنساب الرواين مقدمة من قبل آبائهم ومحفوظة كابرا عن كابر (الأكيليل ١٠ ص ٣٠ - ٣١) ويدرك أنه قرأ زير حمير القديمة ومسانده الهرية (ج ١ ص ٩ و ١٣) .

(١) في دراسة قامت بها نيفيحة عبود (جامعة شيكاغو ١٩٥٧) حول أوراق البردي الإسلامية تدافع الباحثة عن الحقائق التاريخية التي قدمها هؤلاء الرواة وعن صدقهم في تقديمها وبخاصة كتب الأخبار ووهب بن منه في الأمور الاسرائيلية وعييد بن شريعة في أخبار اليمن القديمة وتذكر أنها كانت مادة مكتوبة وكانت تنشر بشكل تجاري في المهد الأموي الأول .

المشركون من صدق الرسول في الوحي وادعوا أنه إنما يأخذ عن بعض المسيحيين الغرباء في مكة فتحداهم « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر . لسان الذي يلحدون اليه أعمجي وهذا لسان عربي مبين » (سورة التحـلـ ـ آية ١٠٣) .

على أن الرسول نفسه كان يعرف على ما ييلدو الكثير من الأخبار الدينية التاريخية . يروي أبو شامة ذلك نقلاً عن السنن لأبي داود . يقول : « ... وفي سنن أبي داود عن عبد الله بن عمر قال كان نبي الله عليه صلواته يحدثنا عن بنى إسرائيل حتى نصبع . ما يقوم إلا إلى عظم صلاة » (١) ...

ويلفت النظر خبر هام من ناحية المعارف التاريخية الحالية اذ يذكرون أن قريشاً أرادت التشكيت من صدق رسالة الرسول فأرسلت النضر بن الحارث وهو العالم لديها بعلم القرمن وكتب أهل الكتاب مع عقبة بن أبي محيط إلى أخبار يهود بالمدينة يسألونهم عن محمد عليه صلواته ان وردت صفاتاته في كتبهم « ... فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء » فذهب الرجالان ثم عادا بأسئلة سالاها للرسول ووضعها الأخبار لامتحانه . واثنان من الأسئلة الثلاثة تاريخيان ويتعلقان بمعلومات من التاريخ : سأله عن أهل الكهف ، وعن رجل طاف الدنيا وفتح العام وعن الروح . وقد أجاب عن ذلك . جاء في القرآن الكريم عن أهل الكهف : « نحن نقص عليك نبأهم بالحق أنهم فتية آمنوا » وعن الرجل الطواف « ويسألونك عن ذي القرنين قل سأأتو عليكم منه ذكرآ » أما الروح فجاء : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربِّي » ... وامتحان النبوة بمعلومات من التاريخ يعني قيمة هذه المعلومات فكريأ . ودينياً في ذلك الوقت . ولا شك أنه مع الأخبار التوراتية والاسرائيليات كانت إذن هناك بعض المعلومات التاريخية أو المعرف المختلطة بها في عصر الرسالة وأشارات القرآن الكريم واضحة في ذلك ، كما أن هذه المعرف ذاتت ثم استفاضت في العهد الراشد ، ثم الأموي بسبب تلك الإشارات خاصة . ولما

(١) أبو شامة - كتاب الروضتين (طبعة محمد حلبي أحمد) ج ١ ص ٢ - ٣ .

كانت معلومات أهل الكتاب من اليهود والنصارى واسعة في هذه القصص فقد ظهرت جماعة منهم تتصدى — بعد إسلامها — لإذاعة تلك المعرفة؛ ويسمىهم ابن اسحق أهل العلم الأول. ويدركون عن وهب بن منهه أنه قرأ من كتب الأنبياء كتاباً يختلف عددها في الروايات بين ثلاثين وبضعة وسبعين أو اثنين وتسعين كتاباً^(١) وهذا على الأقل يعني توفر هذه الكتب في المناطق العربية من الجزيرة والشام والعراق، في القرن الأول المجري ولو أنها كانت في معظمها على ما يظهر بالسريانية والعبرانية. وقد دخل الكثير من معلومات هذه الكتب على التاريخ العربي حتى لقد عرفت آثارها في التاريخ وفي علوم الدين باسم خاص هو : الاسرائيليات . ويفيدوا مما وجد من أوراق البردي الإسلامية أن ترجمة هذه الأمور والنصوص إلى العربية قد تمت في أوائل القرن الثامن الميلادي أو أواخر القرن الأول المجري^(٢).

وقد حاول المستشرق روزنتال^(٣) في بحث كتبه حول «أثر التقاليد التوراتية الإنجيلية في التاريخ لدى المسلمين» أن يبين أن فكرة التاريخ في الكتاب المقدس قد أثرت في النبي ، وأن العلماء المسلمين قد استخدموها هذه النظرة التاريخية العالمية في إنتاج مؤلفات تاريخية شاملة وأنهم أغنوا تلك المؤلفات بمداد تاريخية مأخوذة عن الكتاب المقدس والآثار التوراتية — الإنجيلية ، وأن ثمة

(١) يذكر وهب بن منهه نفسه في مطلع كتابه التيجان (ص ٢) أنه قرأ ٩٣ كتاباً ما أنزل على الأنبياء .
وانظر ابن قتيبة — المعارف ص ٢٣٣ . وابن سعد ج ٥ ص ٣٩٥ (وفيه رواية يحملها ٩٢ كتاباً كلها أنزلت من السماء . ومثله في ذلك حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني (ج ١ ص ٢٤) .
وانظر أيضاً ياقوت الذي ينقل (أدباء — ج ٧ ص ٢٧٢) أنها بقصة وسبعون ، وانظر
السخاوي الذي يحملها ثلاثين كتاباً — (الإعلان ص ٤٨) وانظر كذلك ابن حجر — تهذيب
ج ١١ ص ١٦٧ .

(٢) من دراسة نبيهة عبود لبعض الكتابات على البردي من العهد الإسلامي الأول وقد نشرتها باسم :
Studies in Arabic Literary Papyri I, Historical texts, Chicago 1957.

(٣) انظر بحثه في كتاب « مؤرخو الشرق-الأوسط » (بالإنكليزية) ص ٣٥ - ٤٥ . ولعلنا نشير إلى أن روزنتال يهودي النحلة .

أخيراً توازياً وتشابهاً في «شكل» تقديم تلك المواد بين النصوص التاريخية
التوراتية والإسلامية.

وقد استنتج روزنتال من كل أولئك أن ثمة مكاناً خاصاً تختله تلك المواد
التوراتية في علم التاريخ الإسلامي . وأنها أعطته بعضاً من أهم عناصره معنى .
وإن كانت حرمته من الفرصة في أن يتحقق تطوراً كبيراً في الفكر التاريخي ^(١) .

ويشير روزنتال بعض التساؤلات حول أي نوع من النصوص التوراتية —
الأنجيلية نقل إلى العربية هل هو لبعض الفرق المسيحية أو اليهودية المعنية أم
هو أشكال محورة عن النصوص الأصلية لذلك التخصص القديم ، ويضيف أنه
من المقبول عاماً لدى الباحثين المحدثين أن معظم المواد التاريخية التي أخذها
المؤرخون (منذ أواخر القرن الثالث فما بعد) كما اتضح لدى الطبرى وحمزة
الأصفهانى والبيروني واليعقوبى إنما ترجع إلى كتاب المدراش والماغاداه لدى
اليهود والنصارى ^(٢) . ولكنها خضعت للكثير من التعديل . ومثل ذلك قصص
الأنبياء .

وما أراد روزنتال أن يعتبره تأثراً ونقلأً إنما يرجع في الواقع إلى حقيقة
مبقة وهي أن القرآن جاء « مصدقاً لما بين يديه من الكتاب » وأن الإسلام لم
ينكر وجود العقائد الدينية السابقة ولكنه رفض استمرار الإيمان بها بعد ظهوره .
ووحدة الرسالة منذ إبراهيم أبي الأنبياء وعبر الأنبياء المتعددين حتى محمد آخر
التبين إنما كانت تقتضي هذا النوع من التطابق مع الفكر التاريخي للتوراة
والأنجيل وهذا النوع من القبول للمادة التاريخية الناجمة عنها .

(١) مؤرخو الشرق الأوسط (نشر برتراد لويس وهولت) أكسفورد - نيويورك ١٩٦٢ ص ٤٥ .

(٢) المصدر ذاته ص ٤١ ثم ص ٤٣ والمدرasha هي التفاسير الأولى للتلמוד وهي أساس المنشا الذي
نسقه الحاخامون بعد القرن الثاني الميلادي وأما الماغاداه فكتب التهجد والوعظ . وهناك
الإشارة وهي جمهرة المناظرات وال تعاليم والتفسيرات التي جرت في المدرasha أي أماكن تدريس
الكتاب المقدس في الكنيس (وجذر كلمة مدرasha = دراسة ومدروسة) وذلك بdeathها
جمع المنشا .

وَعِنْ مُلْحَظَةٍ أُخِيرَةٍ تَعْلُقُ بِدُخُولِ تَارِيخِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَدِيَانِ وَالاسْرَائِيلِياتِ إِلَى التَّارِيخِ الإِسْلَامِيِّ هِيَ أَنَّ الْأَخْبَارِيِّينَ أَنْجَذَوْهَا فِي الْقَرْنِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ تَرْجِمَةً أَوْ بِالرَّوَايَةِ وَمِنْ فِيمَا أَهْمَمَ الرُّوَاةَ هَذِهِ الْأَمْرُورُ بَعْدَ كَعْبَ الْأَخْبَارِ وَهُمَا وَهَبْ بْنُ مَنْبِهِ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْفَرَطِيِّ فَقَدْ دَخَلَتِ الْكَثِيرُ مِنَ الْإِسْرَائِيلِياتِ وَقَضَاهَا الْيَهُودُ إِلَى الشَّفَاقَةِ الإِسْلَامِيَّةِ عَنْ طَرِيقِهِمَا . وَإِذَا كَانَتْ ثَمَةُ أَدَلَّةٍ عَلَى أَنَّ الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ تَرْجَمَ فِي الْعَصْرِ الْأَمْوَى إِلَى الْعَرَبِيَّةِ فَإِنَّهُ مَا مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّهُ تَرْجَمَ لِلرَّشِيدِ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، فَقَدْ ذَكَرُوا عَنِ الْمُتَرْجِمِ أَحْمَدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ مَوْلَى الرَّشِيدِ أَنَّهُ تَرْجَمَ كَمَا قَالَ عَنِ الْعِرَابِيَّةِ وَالْيُونَانِيَّةِ وَالسُّرِّيَّانِيَّةِ أَخْبَارَ الصِّحَّفِ وَالْتُّورَاةِ وَالْأَنْجِيلِ وَالْأَنْبِيَاءِ^(١) . عَلَى أَنَّ مُعَظَّمَ مَا نَقَلَ اِنَّمَا كَانَ أَوْلًَا بِالرَّوَايَةِ الْمُنْقُولَةِ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ مَا لَبَثُوا أَنْ ظَهَرُوا مِنْهُمْ فِي الْقَرْنِ الْثَالِثِ وَالرَّابِعِ مُؤْلِفُوْنَ كَتَبُوا بِالْعَرَبِيَّةِ بَعْضَ التَّارِيخِ الْيَهُودِيِّ وَالْمُسْكِيِّيِّ أَوْ تَرْجَمُوا الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ لِلْعَرَبِيَّةِ كَمَا هِيَ . وَقَدْ أَشَارَ اِبْنُ النَّدِيمِ إِلَى كِتَابِ دِيوَانِ الْأَيَّامِ وَفِيهِ سِيرَ الْمُلُوكِ مِنَ الْيَهُودِ وَأَخْبَارِهِمْ وَإِلَى كِتَابِ الْعَبُورِ « وَهُوَ التَّارِيخُ » كَمَا قَالَ . كَمَا أَشَارَ حَمْزَةُ الْأَصْفَهَانِيُّ إِلَى كِتَابِيِّ تَارِيخِ الْيَهُودِيِّينَ شَبَهَوْلَيْنَ ، وَإِلَى كِتَابِ مُنْسُوبٍ إِلَى فَنْحَاسِ بْنِ بَاطَّا الْعِرَابِيِّ . وَأَشَارَ أَبْنُ الْفَدَاءِ بَيْنَ مَصَادِرِهِ إِلَى كِتَابِ الْبَيَانِ عَنِ تَارِيخِ سُنِّيِّ زَمَانِ الْعَالَمِ عَلَى سَبِيلِ الْحِجَّةِ وَالْبَرَهَانِ لِأَبِي عِيسَى الْمَغْرِبِيِّ أَحْمَدِ بْنِ عَلِيِّ الْمَنْجَمِ^(٢) (مِنَ الْقَرْنِ الرَّابِعِ) هَذَا بِالاضْفَافَةِ إِلَى أَنَّ عَدْدًا مِنَ الْمُؤْرِخِينَ بَلَأُ إِلَى التُّورَاةِ نَفْسَهَا يَأْخُذُونَ عَنْهَا . وَقَدْ كَتَبَ الْمُسْكِيِّيُّونَ بِدُورِهِمْ بَعْضَ التَّوَارِيخِ الَّتِي رَكَزُوا فِيهَا عَلَى أَمْرِينِ خَاصَّةٍ تَارِيخِ الرُّومِ وَتَارِيخِ الْكَنِيَّةِ وَالْبَطَارِقَةِ ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَبُرُونَ أَنْفُسَهُمْ مَا يَرِنَّ رُوحِيًّا تَابِعِينَ لِلْأُمْبَرَاطُورِيَّةِ الْبِيزَنْطِيَّةِ ، وَقَدْ أَنْجَدُوهُمْ بِذَلِكَ لِالتَّارِيخِ الْمُسْكِيِّيِّ فَقَطْ وَلَكِنَّ الرُّومِيِّ أَيْضًا إِلَى التَّارِيخِ الإِسْلَامِيِّ .

(١) انظر اِبْنُ النَّدِيمِ وَوَصْفَ الْكِتَابِ وَمَا فِيهِ صَ ٢١ - ٢٢ .

(٢) انظر أَبَا الْفَدَاءِ - الْمُختَصَرُ فِي أَخْبَارِ الْبَشَرِ (ج ١ ص ٣٥ ، ٣٣ ، ٣٢ ، ٣٠ ، ٦٥) ص ٨١ وَمَا بَعْدَهَا .

وأما مادة التاريخ الفارسي فإن عناصر منه على الأقل كانت معروفة في مكة نفسها أيام البعثة النبوية . ويدركون عن التضر بن الحارث بن كلدة أنه « قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك فارس وأحاديث رسم واسبنديار فكان إذا جلس الرسول مجلساً خلفه فيه ، ثم قال : أنا والله يا معاشر قريش أحسن حديثاً منه ثم يخلصهم عن ملوك فارس ورسم واسبنديار » و « كان ينظر في كتب الفرس ويختالط اليهود والنصارى » ^(١) وكان يتهمن الرسول بأنه يأخذ عن « أسطير الأولين » .

وكانت قريش تتبع باهتمام — وصل درجة الرهان — حروب الفرس والروم ولن تكون الغلبة فيها ... كما كان بعض تاريخ الفرس معروفاً في اليمن فان الحملة الفارسية التي وصلت مع سيف بن ذي يزن توطنت في البلاد وولد لها « الأبناء ». ولا شك أنهم حملوا معهم بعض ثقافتهم وأخبار تاريخهم إلى الوطن الجديد . أما في الحيرة فقد كان العرب يختالطون الفرس مخالطة ، ياسية وتجارية بل واجتماعية واسعة للدرجة التي تجعلهم يعرفون الكثير من الماضي الفارسي ومن وقائع أحداث العرش السادساني .

ولكن العرب في العهد الراشد لم يهتموا بمعرفة أو بتدوين ذلك التاريخ الذي ألفوا وجوده واستمراره بفتح بلاد فارس ، وينبئ أن ننتظر حتى مطالع القرن الثاني لكي ييدي هشام ابن عبد الملك اهتماماً واضحاً بالتاريخ الفارسي ولكي يأمر بكتابه مؤلف له فيه ذهب ، ملون ، مصور وعلى ورق فخم وينقل فيه ما في كتب الفرس من تاريخ الملوك وأحوالهم . ولكن هذا الاهتمام « الرسمي » لم يلق رواجاً كبيراً في الناس إلا من قبل بعض الفرس من أسلم أو لم يسلم بعد .

وبعض هذا الاهتمام كان لسبب شعوري . وفي هذه الفترة من أوآخر العهد الأموي ومطالع العصر العباسي (النصف الأول من القرن الأول المجري)

(١) انظر ابن هشام - السيرة (طبعة محمد محبي الدين عبد الحميد - القاهرة ١٩٦٣) ج ١ ص ١٩٥ ، وانظر ابن الأثير ٧٣/٢ .

ترجمت كتب عديدة من الفارسية إلى العربية تحمل التاريخ الفارسي ، كان أبرزها خدای نامغ ، بقلم ابن المفع . ثم كتبت الكثير من الرسائل في مواضيع التاريخ الفارسي مثل سيرة أزدشير وسيرة أنس شروان لأنبان اللاحقي . وكتاب أخبار الفرس للهیم بن عدی ، وأخبار الفرس وأنسابها لأبی الحسین النسابة ... ومع أن المؤرخين استقبلوا هذه المعلومات الجديدة باهتمام وأنهم أدخلوها في تواریخهم العامة إلا أن الناس اهتموا أكثر منها بالأدب السياسي الفارسي وتناولوه لا في کلیلة ودمنة فحسب ولكن في كثير من الكتب الأخرى التي انتشرت حکمها وأمثالها في كتب العصر وما بعده .

وأما تاريخ الروم فقد كان آخر المعارف التاريخية دخولاً إلى التاريخ الإسلامي ، وقد طلبه المؤرخون لمجرد المعرفة وفي إطار جو الترجمة وتمازج الثقافات خلال القرن الثالث المجري ولا شكاد نجد لدى ابن النديم سوى الاشارة إلى ثلاثة كتب فيه . وهذا لا يعني عدم وجود غيرها ولكن يعني ندرتها . وقد فات ابن النديم عدّ آخر على ما يظهر نستطيع أن نعرف بعضه من خلال الأصفهاني والمسعودي وغيرهما . ومن الكتب التي أخذت عنها تواریخ الروم :

— كتاب الألوف لأبی معشر جعفر بن محمد البلخي المتوفى سنة ٢٧٢ . وقد اشتهر بتوغله في علم الفلك والتنجوم واسمه معروف في عالم الاستشراق بهذه العلوم ولكن ابن صاعد الأندلسی يذكر أنه كان أعلم الناس بسير الفرس وأخبار سائر العجم ، وقد ذكر بروکلمان أن في المكتبة الأهلية في باريس نسخة خطية من كتاب الأدوار والألوف ^(١) . وإذا ذكر ابن النديم الكتاب بين كتب التنجوم فان فيه الكثير من التاريخ الرومي وغيره ، وقد أخذ عنه حمزة والمسعودي .

— كتاب تاريخ الملوك لوكیع القاضی ، وقد نقله صاحبه عن ترجمة

(١) انظر بروکلمان - تاريخ الأدب - الملحق ١ من ٣٩٥ (بالألمانية) .

شهية لتاريخ ملك من ملوك الروم ، وقد ساق التوارييخ من ابتداء ملك قسطنطين إلى السنة الواحدة بعد الثلاثمائة من الهجرة ^(١) .

— وأخبار اليونانيين من تأليف حبيب بن بحريز مطران الموصل في أيام المؤمن (مطلع القرن الثالث) ^(٢) . وهناك كذلك كتب قيس الماروني وابن الفراش المصري (ابن البطريق) ومحبوب المنبيجي وأثنایوس الراهب المصري ويعقوب الكسكي وأبي زكريا النصراوي ^(٣) وهناك عدا هؤلاء تاريخ يحيى بن عدي الغرامطيقي التحوي (وان يكن بالسريانية) وتاريخ هرون بن عزوز وحنين ابن اسحق واسحق بن حنين وقسطا بن لوقا ... الخ .

واما توارييخ الأئم الأخرى فلم يتم أخذها مباشرة عن توارييخ خاصة بها وإنما أخذت في الغالب بشكل غير مباشر وبشكل معلومات عامة من خلال كتب الروم والاسرائيليات والزيجات الفلكية أحياناً .

(١) حمزة الاصفهاني - تاريخ سبي ملوك الأرض ص ٦٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٦١ و ٧٠ ثم ص ٦٢ و ٦٨ .

(٣) انظر في هؤلاء المسعودي - الشبيه والإشراف ص ١٢٢ .

الفصل الثالث

المدارس الأولى

(في الشام واليمن)

البواكير وتكون المدارس : منذ الأيام الأولى للإسلام ، وبخاصة عقب الفتوح ، ظهر شعور عام لدى المسلمين الأوائل بأن عهداً جديداً قد بدأ . وإذا كان هذا العهد قد أنهى الجاهلية في العرب وبلدهم بها عهداً من النصر والحكم والسيادة فإنه في الوقت نفسه أنسى أو غير من تاريخ ومصائر الأمم الأخرى من فرس وروم وما تحت أيديهم .

وكان طبيعياً جداً أن يقبل الناس من عرب وغيرهم ، في كل مكان ، على تذاكر أخبار هذا الانقلاب الإسلامي الضخم الذي جاء مفاجئاً ، وشاملاً ، وعميقاً في وقت معـاً ، وأن يحاولوا الاحتاطة بدقائقه ومعناه وأن يقارنوا بينه وبين ما يعرفون من أحوالهم السابقة ... وهكذا وجدت مجموعة كبيرة من الصحابة ومن الفاتحين ومن العارفين بأخبار الجاهلية والأمم الأخرى تروي وتتحدث . كما وجد أناس اهتموا أكثر من غيرهم بهذه الأحاديث والروايات فكانوا يتلقنها ويحفظونها للرواية ... وإذا كان بعض هؤلاء الرواة يتحدث عفواً لمحـد السمر والحديث فقد وجد فيهم من يروي لتعليم

الدين أو لتسجيل المفاسد أو لإقامة العدالة أو بيان الحقوق أو للعلم والاطلاع وحفظ تجربة الأمة ... وما كان الإسلام الجديد قد فرض نظاماً دينياً ذيروياً جديداً بكل أبعاده وحدوده على الناس فقد كان ضرورياً أن يعرف في كل أمر سابقته ويكشف في كل قضية عن ماضيها السالف وسببها التاريخي .

وأختلفت باختلاف الأقاليم من جهة وال حاجات من جهة أخرى أنواع المعرفة التاريخية التي كان يهم بها الناس ويرعونها ويجمعونها ويدوّنون . وهكذا :

أ - أدى الإسلام بين العرب إلى التوقف عن تقارب الشعر وتذاكر « الأيام » بعد أن ملأ عليهم القرآن كل الفراغ الديني والفكري والأدبي ، ثم سرعان ما لحق به الارتباط بحديث رسول الله والسنة وأحداث عصر الرسالة وما تلاها . فأقبل الناس من العرب وغيرهم الاقبال الشغوف على تقصي كل ما يتصل بذلك ، وعلى تقصيه بدقةاته ... وهذا ما أدى إلى « التسجيل » : تسجيل القرآن مجموعاً منظماً وتسجيل الحديث وأخبار الرسول ومقاصيه والصحابة وأعمالهم ، كما أدى في الوقت نفسه إلى تفسير بعض آي القرآن وتفصيل بعض الأخبار بل إلى بعض التزييد في تلك الأخبار . وإذا كان من غير الممكن التزييد في القرآن لشيوخ حفظه الكامل في الناس وشدة الحرص على حروفه فقد كان من السهل التزييد في الحديث وأخبار الصحابة ، وقد جرى ذلك بالفعل ، مما دفع الناس إلى تحري الصدق في الرواية (وهكذا ظهر السنن قبل الخبر) والى معرفة المناسبات والأحداث التي تتصل بكل حديث وسنة ... ونشأ من هذا كله تيار من الرغبة التاريخية ذات الهدف الديني نجم عنه نوع خاص من المعرفة الدينية - التاريخية تركزت في أمرين اتجه إليهما التدوين :

- تفسير الإشارات التاريخية العامة أو الغامضة في القرآن وهي تتصل بالأمم البائدة أو بالحالات .

- تسجيل أخبار الرسول وعصر الرسالة وهو ما عرف في اصطلاحهم « بالمعاري » .

ب - وفي الوقت نفسه وبالرغم من أن الإسلام قد ألغى القبلية والنسب كأساس اجتماعي وأنزل من قيمة « الأيام » القبلية الباهلية إلا أن نظام الحكم الإسلامي أوجد مبدأ جديداً في تفاصيل الناس يستند إلى حد كبير إلى النسب القبلي نفسه . كما أعطى العرب نوعاً جديداً من الأيام هي الفتوح ومعاركها .

وإذا كان التفاصيل في الجماعة الإسلامية الجديدة إنما يقوم على السبق في الإسلام وعلى مدى السابقة في التضليل دونه مما أوجد طبقات المهاجرين والأنصار وأهل بدر وأهل بيضة الرضوان والمبشرين بالجنة وأصحاب فتح مكة ... فإن النظام الإسلامي حين سجل على يد عمر وحسب تعليماته ، إنما اتبع بعد ذكر رسول الله وآله ، النظام القبلي من جديد . ودون المسلمين للعطاء على هذا الأساس فعاد الاهتمام بالأنساب إلى سابق عهده . ولا شك أن تنظيم الجيوش الإسلامية عند الفتح على أساس القبائل هو الذي دعا إلى هذا التنظيم ولكن النتيجة العملية لذلك كانت عودة الأنساب إلى مكانتها لا كحاجة علمية – اجتماعية فقط ولكن كحاجة اقتصادية أيضاً لما ارتبط بها من العطاء والأرزاق ، لا سيما وقد نظمت المدن الإسلامية الجديدة وجرى نزول الناس فيها على أساس قبلي .

ومن جهة أخرى فقد وصلت « الأيام » الباهلية القبلية « أيام قومية » جديدة حققتها الفتوح وتجاوزت في أبعادها حدود الوسط القبلي لتصبح حدثاً « قومياً » و« عالمياً » . ولم يترتب على حفظ أخبارها وروايتها من المفاخر الهمامة بقدر ما ترتب على ذلك من نتائج مادية تتعلق من جهة بعظام الجنود الفاتحين وأرزاقهم وإقطاعهم الذي أقطع لهم وترتبط من جهة أخرى بالبلاد المفتوحة نفسها وشروط فتحها ومقدار ما تدفع من جزية وما يجب على أرضها من خراج أو عشر وما أعطي لبعض المدن المفتوحة أو الفئات الدينية أو الأقطار من حقوق أو عهود محفوظة .

وقد وجد من هذا وذلك تيار من الحاجات ذات الهدف السياسي

والاقتصادي نجم عنه مجموعة أخرى من المعارف التاريخية ترکرت في ثلاثة أمور اتجه إليها التدوين :

- ١ - الفتوح وأخبارها وعهودها ، ٢ - ثم الأنساب وما يتعلق بها ،
- ٣ - ثم أخبار العرب وغيرهم قبل الإسلام .

وإذا كانت التراثات الدينية قد أوجدت اتجاهًا في روایة الماضي ينطلق من التقى الديني إلى الخبر التاريخي المدون فإن الحاجات الاجتماعية - الاقتصادية قد أوجدت الاتجاه الذي ينطلق من الحادث التاريخي إلى الخبر المسجل .

ج - ومن جهة ثالثة رجعت الجماعات المختلفة التي كونت المجتمع الإسلامي من عرب شماليين وجنوبيين ومن فرس زارادشتين وروم مسيحيين وبهود ... كل جماعة إلى ماضيها تقص من قصصه وتقرنه بالحاضر . وإذا كان العرب الشماليون قد فرضوا أيامهم وما يتصل بها من الشعر ، أو فرضوها عن طريق الشعر وطريق رغبة الناس فيه وفي اللغة العربية ودون لهم كل ذلك فإن أهل اليمن نسجوا لأنفسهم ماضיהם السابق وكتبوه ، كما تحدث الفرس بأخبار ملوكهم وتقلوها إلى العربية ، وجاء اليهود والمسيحيون بأخبار الأنبياء والأيام الحالية . وقد أخذ الناس من مؤلأه وأولئك هذه المعرف ببعضهم بسبب ديني وبعض^{*} للمعرفة الحالصة وبعض للمنافرة القبلية أو القومية وسجلوها . وكان من ذلك أيضًا مجموعة ثلاثة من المعارف التاريخية المتنوعة ترکرت خاصة في أخبار ما قبل الإسلام من الأحداث .

د - على أن تنوع أقاليم الدولة الإسلامية في العنصر والدين والماضي وفي وجود هذه المعرف لدى بعضها دون بعض أوجد نوعاً من الاختصاص لكل إقليم بنوع من المعرفة التاريخية ، كما توطنت بهذا الشكل معارف التاريخ في أقاليم معينة دون غيرها . وقد لعبت الحاجات والتجمعات السكانية دورها في ذلك التوطن :

فلما كان الميدان الحغرافي لعصر الرسالة في الحجاز وهناك توطن الصحابة

الكبار فقد اختصت المدينة عاصمة الرسول والخلفاء الأوائل بالمعارف التاريخية الإسلامية أي بالحديث خاصة و «المغازي» ونشأت فيها «مدرسة» قوية الأركان عملها رواية و تسجيل ما يتعلق بذلك من التاريخ .

ولما كان التجمع القبلي الأكبر والأهم للعرب إنما كان في المصرين : البصرة والكوفة في جنوب العراق وهناك توطنت الأرستقراطية العربية ، ومن هناك كان النطلق إلى الجزيرة وإلى إيران وخراسان وأهند وتركستان ، فقد ظهرت في ذلك الأقاليم طبقة الخبراء ومدرسة العراق القبلية الأخبارية التي تهم بالأنساب والأخبار .

ولما كان لأهل اليمن تاريخهم الماضي العريق فقد أرادوا مضاهاة عرب الشمال وتاريخهم الإسلامي الطارف الجديد فكانت لهم مدرستهم في رواية ذلك التاريخ في اليمن .

وحين انتقلت الخلافة مع بني أمية إلى الشام وحولوها ملكاً مطلقاً أرادوا معرفة سير الملوك السابقين كما احتاجوا ، في النظام المالي والإداري للدولة ، وفي ضبط أمر الجيش وعطائه وأرزاقه الدائمة إلى معرفة أمر الفتوح وعهودها والقبائل وعلاقتها ، والرجال واقطاعاتهم وقيمهم الاجتماعية والعسكرية والسياسية وهكذا تجمع في الشام من يروي للأمويين كل ذلك .

وقد اختلف الأمر بالنسبة للفرس والروم . فقد خسر الفرس ملكهم السياسي كله كما بدأ دينهم السابق في الانحسار أمام الإسلام ولكنهم بقوا موجودين في كتلة بشرية واحدة على أرض خاصة بهم هي إيران ويتزجون مع العرب أيضاً في العراق ، ولهذا نقلوا معارفهم التاريخية وهم في أرضهم إلى اللغة العربية قدر ما يستطيعون ، وكانت لهم بذلك مدرستهم التاريخية الخاصة . أما الروم فلم يخسروا ملكهم السياسي ولا زال تفرون الدين ، فقد بقيت أمبراطوريته بيزنطة قائمة وإن خسرت جانباً من الأرض التي كانت لها (الشام ، مصر ، أفريقيا) كما أن المسيحيين الذين بقوا ضمن المجتمع الإسلامي كانوا في معظمهم ،

من العرب فلم يكن ثمة من ضرورة ملحة تدعوهم للتكتل الداعي ولا ثبات التاريخي والقومي في وجه الإسلام والعرب . وهذا كله لم تتوطن معلوماتهم التاريخية في إقليم محمد لا سيما وأنهم هم أنفسهم كانوا موزعين ضمن المجموعة العربية في اليمن وال العراق والجزيرة والشام ومصر وأفريقيا . وهكذا تسربت تلك المعلومات المسيحية والتوراتية تسرباً إلى الفكر العربي الإسلامي وكانت أحد روافده دون أن تشكل قسماً خاصاً مميزاً فيه ، أو مدرسة محددة الوطن .

ولم تكن حظوظ هذه المدارس التاريخية متساوية لا في الأهمية ولا في العمر : فإذا كانت أهمها من الناحية الإسلامية مدرسة المدينة فإن أطوالها عمرأ وأيقاها وأهمها في التاريخ كانت مدرسة العراق لأنها وصلت عمرها الأول بعمر آخر سياسي حين انتقل مركز العالم الإسلامي مع العباسين إلى العراق وإلى بغداد بالذات وأصبحت هذه العاصمة لعدة قرون على الأقل سرة الدنيا ومركزها .

أما مدرسة اليمن فذابت بسرعة لأن اليمن معزولة جغرافياً ولأنه لم يكن لها من تاريخ إسلامي مام عالمي الآخر تصل به تاريخها القديم وتنعش . وأما مدرسة الشام فإنها رغم قوتها قد تحطم تحت الضربات الفاسدة التي كثّلها العباسيون مدة القرن الثاني للشام وأهلها حتى افتقر في الاقتصاد والفكير على السواء . وأما مدرسة فارس فالقصة بالمدرسة العراقية زمناً ثم ما لبثت أن انفصلت عنها منذ القرن الرابع بعض الانفصال مع يقظة اللغة الفارسية حتى استقلت تماماً بعد القرن السابع .

وسوف ندرس هذه المدارس في مجموعتين :

المدارس الصغرى : في الشام واليمن وفارس

المدارس الكبرى : في المدينة والعراق

المدارس الصغرى

مَدْرَسَةُ الشَّامِ

بدأت هذه المدرسة تستقطب عدداً من العلماء الأخباريين وتخرج عدداً آخر منذ أيام معاوية . وكانت جاذبية العاصمة السياسية من جهة ، ورغبة البيت الأموي في الثقافة التاريخية اعتباراً من معاوية حتى آخر الأمويين مما تفتحان الطريق لهذه المدرسة التي عنيت بالأنساب وبالتاريخ الجاهلي عنيتها بعهد الرسالة والفتح على السواء فكانت وسطاً في هذه الموارد بين المدرستين المدينة والعراقية . ولئن كانت في رجالها أكثر ميلاً إلى المغازي وال عبر والفتح منها إلى الأنساب والأيام . فانها تميزت عن المدرستين، فيما يظهر ، بعنيتها بأمر الفتوح خاصة والمغازي والمقاسم وتحصصها بها .

ويبدو أن مدرسة الشام كانت تتوجه للتخصص في «التاريخ» وللظهور بهذا المعنى قبل مدرسي المدينة وال伊拉克 على السواء كما يبدو أنها ظلت فترة طويلة تنافس المدينة ومدرستها في أمر المغازي لما غالب على أهل المدينة من العلم بالحديث والبحث عنه . وكان معروفاً لدى الناس في ذلك العصر اختصاص المدارس التاريخية الأقليمية كل منها بميدانها : فلمدرسة المدينة المغازي ولمدرسة الشام معها التفوح أيضاً وللعراق الأيام والأنساب ، وقد عبر عن بعض ذلك ابن أبي عبيدة حين قال «من أراد الأسناد والحديث ... فعليه بأهل المدينة» .

ومن أراد المذاهب والعلم بها ... فعلية بأهل مكة . ومن أراد المقاوم والغزو فعلية بأهل الشام «^(١) ... وفي رواية أخرى «... وإذا أردت المغازي فعليك بأهل الشام ». وفي رواية ثالثة: «... ومن أراد السير فعلية بأهل الشام » ... وعبر عن جانب منه أيضاً ما نقله بن النديم قال : « قرأت بخط أحمد ابن الحارث الخزاز : قالت العلماء : أبو مخنف بأمر العراق وأخبارها وفتورها يزيد على غيره . والمدائني بأمر خراسان والهند وفارس . والواقدي بالحجاج والسيرة . وقد أشتركوا في فتح الشام »^(٢) ... واحتياط الرواة هنا يكشف اختصاص المدارس .

كما يدل على ذلك استغراب الإمام الأوزاعي التقى الشامي المعروف (المتوفى سنة ١٥٧) تأليف كتاب في السير من قبل عراقي . قالوا « ... لما وقع (كتاب السير الصغير) لمحمد بن الحسن الشيباني المتوفى سنة ١٨٩ بيد الأوزاعي قال : لمن هذا الكتاب ، قليل محمد العراقي فقال : ما لأهل العراق والتصنيف في هذا الباب فإنه لا علم لهم بالسير . ومغازي رسول الله وأصحابه كانت من جانب الشام والحجاج دون العراق . فإنها محدثة فتحا »^(٣) ... ويذكر ابن تيمية أن أعلم الناس بالمغازي بعد أهل المدينة أهل الشام « ... فأهل

(١) انظر ابن عساكر - تاريخ دمشق (ط المنجد) ج ١ ص ٣٦٦ في ثلاثة مواضع .

(٢) ابن النديم - الفهرست ص ٩٣ .

(٣) انظر الرد على سير الأوزاعي ص ٢ - ٣ (تأليف أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم . طبعة أبي الوفا الأفناي - حيدر آباد دون تاريخ) ، ولعلنا نشير هنا إلى أن الأوزاعي توفي سنة ١٥٧ وكان يجهل دون شك في ذلك الوقت محمد بن الحسن الذي كان على ما يمكن أن تستخرج من عمره حدثاً في الخامسة والستين لم يشهر أمره بعد . فقد ولد سنة ١٣٢ مع مطلع المئوية العباسية وهو شامي الأصل دمشقي من قرية حرستا بجانب دمشق ولكنه ولد ونشأ بواسط وكان من كبار الأذكياء والفقهاء والقضاة وقد اشتهر وأخذ مكانته العظيمة بعد وفاة الأوزاعي وكان أحد أصحاب أبي حنيفة كما أنه روى وعلم الإمام الشافعي . وعلى هذا فلا يمكن أن يكون الأوزاعي قد فرأ أو علق على (السير الصغير) الذي لم يكن قد ألق بعد وفاته . ولكن مجرد وضع هذا التعليق من قبل الواضعين يدل على اشتهر مدرسة الشام بشيء لا تشتهر به مدرسة العراق .

المدينة أعلم بها لأنها كانت عندهم وأهل الشام كانوا أهل غزو وجهاد فكان لهم من العلم بالجهاد والسير ما ليس لغيرهم ولهذا أعظم الناس كتاب أبي اسحق الفزاري ابراهيم بن محمد الذي صنفه في ذلك وجعلوا الأوزاعي أعلم بهذا الباب من غيره من علماء الأمصار ^(١) ولعل السبب في هذا ، إلى جانب ما ذكره الأوزاعي نفسه وابن تيمية ، أنه قد تجمع في الشام ، حول البلاط الأموي ، عدد من الصحابة والتبعين الذين حضروا أحداث الإسلام الأولى ورووها . وان أمر الفتوح كان بهم خاصة السلطات الحاكمة لما يحمل من نتائج سياسية ومالية تتعلق بالعطاء وإدارة المدن المفتوحة والأقاليم . ولهذا اهتم الناس به في الشام وراجحت سوقة وعرف الرواية في هذا الإقليم به .

وقد مهد لظهور المدرسة في الشام عدد من الرواية كانوا المطردة الأولى السابقة للتدوين التاريخي ومنهم بعض الصحابة الذين اشتراكوا في الفتوح مثل أبي إمام الباهلي الذي اشتراك في فتح الشام وروى المؤرخون عنه بعض أحداث الفتح ^(٢) . وعبادة بن الصامت الذي روى عنه البلاذري معركة البرموك في دقائق تبلغ حد وصف الانفعالات التي شعر بها المسلمين أثناء المعركة ^(٣) . وجاء من التبعين وتابعهم من عرف بعد ذلك برواية الأخبار التاريخية في الشام ومنهم : -

أبو عثمان الصناعي ، شراحيل بن مرثد . وهو من التبعين أدرك أبو بكر وشهد الإمامة وفتح دمشق وروى عن سلمان الفارسي . قال ابن حبان هو صاحب (الفتوح) يروي المراسيل (أي الأحاديث المرسلة) . وقد أوردت له المصادر وصفه لفتح حمص وحصار دمشق وكيفية فتحها ^(٤) .

(١) ابن تيمية - مقدمة في أصول التفسير ص ١٥ (طبعة جميل الشطي - مطبعة الترقى - دمشق ١٩٣٦) .

(٢) انظر الطبرى ج ٢ ص ٤٠١ - ٤٠٣ - ٤٠٦ .

(٣) انظر الواقعى - فتوح الشام (مطبعة العلوم الأدبية بمصر - دون تاريخ) ج ١ ص ١١٣ - ١١٤ .

(٤) انظر ابن حجر السقلانى - تهذيب التهذيب (طبعة دار صادر - بيروت عن طبعة حيدر آباد سنة ١٢٢٥) ج ٤ ص ٣٢٠ وابن عساكر - تاريخ دمشق ج ١ ص ٥٠٠ (ط. المنجد) .

— جبير بن قتير الحضرمي المتوفى سنة ٨٠ هـ أبو عبد الرحمن : وهو بدوره من التابعين الشاميين نزل حمص وروى عدداً من أخبار التاريخ منها حوادث فتح قبرص على يد المسلمين ^(١) وتبعه في الرواية ابنه :

— عبد الرحمن بن جبير : الذي روى له ابن كثير نزول الروم قرب اليرموك وقدوم خالد إلى الشام وروى له ابن عساكر ارسال الجيوش من قبل أبي بكر إلى الشام ^(٢).

— علاقة بن كريم الكلابي : من سمار يزيد بن معاوية وأسمه الأصلي حسب رواية ياقوت هو (كرسم) . كان عارفاً بأيام العرب وأحاديثها وكان أحد من أخذت عنهم المأثر . وله كتاب في الأمثال رأه ابن النديم في خمسين ورقة ^(٣) .

— عبادة بن نسي : الذي روى غزوة معاوية لعمورية ^(٤) في سنة خمس وعشرين .

— رجاء بن حياة : الذي روى قصة استخلاف عمر بن عبد العزيز في الطبرى ^(٥) .

— عبد الله بن الويلد : دمشقي ولعله من أواخر القرن الثاني وقد روى لدى البلاذري بعض غزوات معاوية تقدلاً عن كتاب : مغازي معاوية ^(٦) .

— عبد الرحمن بن غنم : الذي يعتبره بعضهم من الصحابة وقد روى له البلاذري بعض حوادث فتح فلسطين ، وروى له الطبرى بعض الأخبار عن عام الرمادة ^(٧) .

(١) انظر الطبرى ج ٤ ص ٢٦٢ .

(٢) انظر ابن كثير - البداية والنهاية ج ٧ ص ٦ (طبعة مطبعة السعادة - القاهرة ١٩٣٢) وابن عساكر - تاريخ دمشق ج ١ ص ٤٩٧ .

(٣) انظر ابن النديم ص ٩٠ وياقوت - معجم الأدباء ج ١٢ ص ١٩٠ .

(٤) البلاذري - فتوح البلدان (طبعة المتعدد) ج ١ ص ١٩٥ .

(٥) الطبرى ج ٦ ص ٥٥٠ - ٥٥٣ .

(٦) البلاذري - فتوح البلدان ج ١ ص ١٩٥ .

(٧) فتوح البلدان (ط. المتعدد) ص ١٧٣ والطبرى ج ٤ ص ١٠٠ .

وقد تلا هؤلاء وظهر معهم عدد من الرواة المؤلفين كانوا رجال المدرسة الأوائل وبعضهم ليسوا من الشام ولكنهم قدموا إليها تجذبهم دعوة الخلفاء أو بلاطهم أو رغبتهم في معرفة التاريخ .

وقد لعب الدور الهام في هذه الناحية ثلاثة خلفاء أو أربعة : معاوية وأولاً ، فهو أول من سأله في التاريخ واستقدم العلماء إليه يسألهم وأول من أمر بالتدوين . ثم عبد الملك وابنه الوليد ثم هشام بن عبد الملك الذي كانت تولف الكتب لخزانته في تاريخ الفرس (من قبل الفرس) وفي أحداث الإسلام (من قبل الزهري) وفي الأنساب (من قبل العارفين بها) .

على أنه يبدو من خلال عدد من الأخبار ، أن هذا النبع الإسلامي لم يكن المصدر الوحيد لمدرسة الشام التاريخية وأن ثمة منبعين آخرين أو مصادرين اشتقت منها هذه المدرسة أو على الأقل تلمست منها المعلومات الأولى :

الأول : مدرسة اليمن ورجالها . ويبدو أن معاوية خاصة وابنه يزيد ثم الخلفاء من بعده كانوا واعين أو يوضح الوعي للحضارة اليمنية وقيمتها ومكانتها من التاريخ العربي . وهذا فقد استقدموا رجالها إليهم . وربما كان للعصبية اليمنية الكلبية التي كانت موجودة في جنوب الشام ، والتي دعمت الأمويين ، أثرها الواضح في ذلك الوعي وذلك الاستقدام . وعلى أي حال فقد عهد معاوية إلى بعض هؤلاء الرجال بتربيته ابنه يزيد (ابن شرية ، ودغفل النساء) كما طلب تسجيل معلوماتهم عنهم . وهكذا بجانب عوامل أخرى (كالتفسير للقرآن والمفاخرة القبلية) دخلت التاريخ العربي عن طريق الشام عناصر تتعلق بتاريخ اليمن قبل الإسلام في ملوكها وأخبارها والأشعار !

الثاني : مصدر يجهول تماماً قد يكون من تواريخ الروم أسمهم في تحرك مدرسة الشام تحركها الأول . فإن ثمة جنراً آخر غامض الحدود من جذورها يجب أن يوضع في النور هو في الغالب المعلومات التاريخية لبعض المثقفين المحليين ، من المسيحيين الذين استخدم الأمويون بعضهم في أعمال الدولة في الشام . كما يبدو

أن خبر استدعاء عبد بن شرية إلى دمشق من قبل معاوية والأمر بتدوين معلوماته في كتب وإن كان يكشف لنا أول تدوين تاريخي ثابت في الإسلام إلا أنه قد سبقه فيما يظهر أو رافقه تدوين آخر لعله كان بين التأليف والترجمة إلى العربية ويتصل بأخبار غير إسلامية قد تكون من أخبار الروم والفرس . وقد كان ذلك بدوره أيضاً في ظل معاوية نفسه وبطلب منه على الأرجح ، وفي دمشق نفسها ، حيث قضى هذا السفياني الكبير أربعين سنة في الحكم بين الولاية والخلافة . فالمسعودي يذكر من برنامج معاوية اليومي أنه « ... كان ينام ثلث الليل ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر ، فيها سير الملوك وأخبارها والمحروب والمكائد فيقرأ ذلك غلمان له مرتبون . وقد وكلوا بحفظها وقراءتها . فتقرّ بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات (١) » ... وأهمية الخبر ليست فقط في اهتمام معاوية بدراسة التاريخ السياسي ووعيه ، ولكن في تقرير حقيقة أهم من ذلك هي وجود معارف تاريخية ، واسعة بحيث تقرأ كل ليلة ، كانت في ذلك العهد الإسلامي المبكر من أواسط القرن الأول الهجري معروفة مترجمة بالعربية ، مصنفة في دفاتر وفي كتب ولها الحافظون المولكون بها والقراء المرتبون . وليس ممكناً أن تكون تلك السير مما يتعلق بالمغاربي والصحابي فمعاوية وهو الصحابي ، وكاتب الرسول ، قد عاش تلك الفترة عن كثب وكان يعرف عنها الكثير مما يعنيه عن قراءة أمورها له . ثم لم يكن في تلك الفترة من العصر الراشد ومطلع العهد الأموي بعد من « سير الملوك » المسلمين وأخبارهم ومن الحروب والمكائد وأنواع السياسات ما هو مسجل يروى ، ولا ما يروى لمعاوية على الأقل . فلا بد أذن أن صبح الخبر ، وهو في الأرجح صحيح الأساس ، من أن تكون تلك « الدفاتر » كتاباً في تواريخت الأمم السالفة . ولعل معاوية ، العريق في الأرستقراطية القرشية والخلفية ذات الفكر الملكي ، هو الذي طلب في دمشق من علماء الروم حوله كتابتها أو ترجمتها له ليتعرف الأحوال الملكية والسياسية السابقة له . ونحن في هذه الحالة إذن أمام

(١) المسعودي - مروج الذهب (طبعة القاهرة ١٣٤٦) ج ٢ ص ٧٢ .

مؤلفين في التاريخ مجهولين كما أنها أمام دور خاص لمعاوية كان فيه المؤسس الأول لعلم التاريخ الإسلامي أو على الأقل كان فيه الراعي والعامل على أول تدوين باللغة العربية « للتاريخ » بمعنىه العام لا على أنه المغازي النبوية وقصص الأنبياء ولا على أنه الأنساب والأيام العربية ولكن على أنه تاريخ الأمم السالفة وسير الملوك والخروب وأنواع السياسات مما هو جدير بالقراءة على « الملك » .

ولعلنا نضيف هنا أن عبيد بن شرية لم يكن العالم الوحيد الذي استقدمه معاوية إلى دمشق فكتب عنه رواياته وصيّرها كتاباً . فإن المسعودي نفسه يشير إلى أن « كثيراً من الخبراء من أهل الراية بأخبار الماضيين وسير الغابرين من العرب وغيرهم من المتقدمين » ... وفدو على معاوية أيضاً^(١) . وبهذا الشكل قد تكون ثمة تدوينات أخرى عديدة مجهولة ترد هي ودفاتر معاوية معها مواعيد تدوين التاريخ الإسلامي سنوات كثيرة إلى الوراء كما تضع أيدينا ، لو أتيح لنا المزيد من معرفتها ، على بعض الجذور الغامضة الأولى في تكوين مدرسة الشام التاريخية لكنها جذور ضاع مع الأيام خبرها ، كما ضاعت المعارف التي قد تكون جاءت بها ، ضمن المعارف الأخرى . فتحن لا نعرف اليوم من هم أصحاب تلك النشاطات ولا ما هي بالضبط المادة التاريخية التي قدموها ؟ وعن أي المصادر أخذوا ؟ وهل كتبوا ذلك بالعربية – وهو الأرجح – أم بغيرها ؟ ...

وعلى أي حال فإنه لم يظهر لهذه المعلومات التاريخية الأولى من أثر واضح في التدوين التاريخي الإسلامي بعد ذلك . ولعلها ظلت معلومات تاريخية « ملكية » فلم تنزل للتداول بين الناس أو لعلها كانت بالسريانية أو اليونانية وكانت تفسر معاوية تفسيراً لا تلاوة بالعربية وهذا أو لذاك أو لكليهما لم تترك أثراً محدداً بيّناً فيما جرى تدوينه بعدها أو في تكوين مدرسة التاريخ الشامية على الأقل . وهذا ما يسمح لنا في الواقع الحالي – وإن سجلنا خبرها – باغفال أمرها .

(١) المسعودي (مروج الذهب) طبعة بلاج ٢ ص ٤٠٦ .

أما العلماء الذين كانوا بشكل أو بآخر نواة المدرسة فمنهم :

- عبيد بن شرية الجرهمي : وهو عالم مخضرم عاش في الباھلية والإسلام وعرف الرسول . ومع أنه يعاني إلا أنه كان أساس مدرسة الشام في التاريخ ، فقد استدعاه معاوية إلى الشام فقدم عليه وجعل الخليفة يسأله أسئلة تكشف اهتمامات الناس العامة في التاريخ وما يشوقهم من التواحي فيه ، وجعل عبيد يقص ما يعرف من أخبار الماضين والكتاب والأحداث وتشعب الأنساب ، « الأخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم وسبب تبليل الألسنة وأمر افراق الناس في البلاد ... فأمر معاوية أن يدون (ذلك كله) وينسب إلى عبيد بن شرية »^(١) ...

وهكذا فيما يظهر كان له من الكتب كتاب الأمثال وكتاب الملوك وأخبار الماضين » فهذا أول تدوين تاريخي واضح ثابت في الإسلام وهذه مع « دفاتر » معاوية أول كتب تاريخية عرفها المسلمون . وقد عاش عبيد حتى زمن عبد الملك بن مروان . وكان له من التلاميذ الذين رروا عنه عدد منهم الكيس النمرى واللسين الجرهمي وعبدود (زيد بن الكيس) الجرهمي . وإذا كان هؤلاء من اليهوديين في اليمن فقد ترك في الشام من تلاميذه علاقة بن كريم الكلبي ، نديم الخليفة يزيد بن معاوية .

و (كتاب الملوك وأخبار الماضين) لابن شرية موجود مطبوع . طبع في حيدر آباد سنة ١٣٥٧ بعنوان (أخبار عبيد بن شرية) وضم إلى كتاب التجان لابن منه و جاء في ١٧٨ صفحة (من ص ٣١١ حتى ص ٤٨٩) . وفي المتحف البريطاني كتاب مخطوط لعبيد بن شرية في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها (رقم ملحق ٥٧٨) وقد يكون هو كتاب الملوك نفسه . ولا ابن شرية كذلك كتاب الأمثال . كان في خمسين ورقة وقد فقد ، ولا شك أنه كان يحوي من خلال الأمثال شيئاً من أخبار العرب في الباھلية .

(١) المسعودي - مروج الذهب ٤ / ٨٩ - ٩٠ (طبعة باريس) ، ابن النديم - الفهرست ص

- يزيد بن ربيعة بن مفرغ ، أبو عثمان الحميري (وهو مشكوك النسب إلى حمير) يقول صاحب الأغاني : « سئل الأصمعي عن شعر تبع وقصته ومن وصفهما فقال : ابن مفرغ ... وذلك أن يزيد بن معاوية لما سيره إلى الشام وتخلصه من عباد بن زياد أنزله البزبرة . وكان مقيماً برأس عين وزعم أنه من حمير . ووضع : « سيرة تبع وأشعاره »^(١) وابن مفرغ مشرك النشاط بين مدرسي الشام واليمن وسوف نعرض له هناك أيضاً للتذكرة .

- عروة بن الزبير بن العوام : ومع أنه شقيق عبد الله صاحب الثورة وأحد فقهاء المدينة السبعة إلا أنه ارتحل إلى عبد الملك بن مروان في الشام فترة وكتب له أشياء عديدة من مغازي الرسول حسب طلبه . ثم عاد إلى دمشق في عهد الوليد بن عبد الملك وكتب له جواب عدد من الأسئلة التاريخية نقلها المؤرخون . كما كان على صلة دائمة بعمر بن عبد العزيز ولكن ظروفأً كثيرة أجبرته على ترك الشام . وسوف نعود إليه في مدرسة المدينة .

- الزهري محمد بن مسلم بن شهاب الذي بقى في دمشق زمناً في عهد عبد الملك بن مروان ثم عاد فاستقر بها منذ سنة ٨١^٢ سنة ٨٢ وأجرى عليه الخلفاء المتابعون راتباً حتى موته في عهد هشام بن عبد الملك سنة ١٢٤ الذي وضع له كتابين يكتبيان عنه سنة وقد وجدت في مكتبة الوليد الثاني حين قتل سنة ١٢٦ أكوان من المجلدات من مؤلفات الزهري ، حملت على الدواب من الخزان ! وسوف نقابلها كثرة أخرى في مدرسة العراق .

- الأوزاعي : الإمام أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو (ولد في بعلبك سنة ٨٨ وتوفي في بيروت سنة ١٥٧/٧٧٤) وأصله دمشقي من الأوزاع (قرية خارج باب الفراديس بدمشق)^(٢) وكان إمام الشاميين في الحديث ، وانفرد بمذهب في الفقه انتشر في الأندلس فترة طويلة كما كان لا يختار في المعرفة

(١) الاسهاني - الأغاني (ط. دار الكتب) ج ١٨ ص ٢٥٥ .

(٢) الأوزاع هي الآن محلة العقبية ، من أحياه دمشق .

بالسير والمغازي والفتوح . وحين اجتمع بالإمام مالك بن أنس في المدينة « غمره بالسير بينما غمره مالك بالحديث » ذلك أن الأوزاعي « كان أعلم بهذا الباب من غيره من علماء الأمصار » على قول ابن تيمية .

- عوانة بن الحكم الكلبي (المتوفي سنة ١٤٧ أو سنة ١٥٨) : ومع أن الرجل كوفي وقد عاش حوالي ١٥ سنة أو أكثر تحت الحكم العباسى إلا أنه كان — فيما يقولون عنه — وفيما نقل ياقوت « عثمانى الموى يضع الأخبار لبني أمية ». وربما كان هواه ضد العباسيين لأن ثمة أخباراً أخرى تذكر أسفه لفشل ثورة محمد ذي النفس الزكية ضد المنصور . ومعظم أخبار المدائى إنما نقلت عن عوانة كما روى عنه الأصمعي . وبالرغم من أصله الوضيع (أبوه عبد خياط وأمه أمة سوداء) إلا أنه كان ينسب نفسه بالولاء إلى قبيلة كلب التي توطنت في جنوب الشام ويقول : « انه من قوم إذا نسي الناس علمهم حفظوه عليهم » .

ونحن ندين لعوانة هذا بتسمية علم التاريخ فهو صاحب أول كتاب ماربهني يحمل اسم (كتاب التاريخ) في الإسلام . وقد كتب كذلك سيرة تعاوية وبني أمية ولكن الكتايبين فقدا ولم يبق منها إلا ما تناثر لدى المدائى وابن الكلبي والطبرى وغيرهم .

- أبو اسحق الفزاري ابراهيم بن محمد بن الحارث المتوفى سنة ١٨٦/٨٠٢ . (أو ١٨٥ أو ١٨٨) . وهو من مواليid الكوفة ثم انتقل إلى دمشق فبغداد واستقر آخر الأمر في المصيصة أحد ثغور الشام . ويختلط عند بعض الباحثين بالفزاري الفلكلوي منتجه المنصور ، وهذا مؤرخ محدث . ذكر ابن قتيبة أنه « صاحب سير ». وقال سفيان ابن عبيدة « ما ينبغي أن يكون رجل أبيصر بالسير منه » لسعة إحاطته بها . وقد صنف في ذلك كتاباً « أعظمها الناس منه » ^(١) ويسمى كتاب

(١) انظر ابن قتيبة - المعارف (طبعة ثروة عكاشة - القاهرة ١٩٦٩) ص ٥١٤ ، وابن أبي حاتم الرازى - الجرح والتعديل (طبعة حيدر آباد سنة ١٣٦٠) ص ٢٨١ ، وابن تيمية مقدمة في أصول التفسير (ط. الترقى - دمشق ١٩٣٦) ص ١٥ .

السير في الأخبار ومنه قطعة في الاصابة لابن حجر .

ـ الوليد بن مسلم أبو العباس الأموي (ولد سنة ١١٩/٧٣٧ و توفي سنة ٨١٠/١٩٥) ، وكان من مشاهير محدثي الشام^(١) وقد قاسمه شهرته هذه محدث معاصر له هو اسماعيل بن عياش (المتوفى سنة ١٨٢) . وقد كتب الوليد في التاريخ ونفع في حفظ المغازي ، أخذها عن أستاذه الأوزاعي ، كما كان صاحب أحاديث في الملائم . وكان من المؤلفين . قيل انه ألف سبعين كتاباً . وقد روی سيرة ابن اسحق . ولعل ميزته أنه كان مع صاحبه ابن عياش أعلم الشاميين بروايات أهل الشام : وأنه كان في الوقت نفسه حسب شهادة المؤرخ أبي زرعة الرazi الدمشقي « أعلم بأمر المغازي والسير عن الأوزاعي »^(٢) ولا يذكر ابن النديم للوليد بن مسلم سوى كتاب المغازي^(٣) من كتبه السبعين ، ويبعدو أن هذه الكتب ، رغم أنها قد تميزت بصفتها الفقهية – القضائية حتى قيل : « من كتب مصنفات الوليد صلح أن يلي القضاء »^(٤) إلا أنها كانت تحوي الكثير من السير والأخبار لأنها كان من المدرسة التي تؤمن بارتباط القضاء بالسير والأثر والسابقة . وقد يكون بين تلك الكتب أيضاً بعض ما يختص بالسير والتاريخ فانا نجد في المصادر الكثير من الأخبار التاريخية المروية عنه ، فقد روی ابن عساكر عنه قدوم كسرى إلى الشام وظهوره على الروم ثم رجوعه لمناصرة ملك الخزر على ملك الهند . وروى أيضاً عنه حصار دمشق كما روی تفسيراً لاقطاعات أبناء الصحابة في دمشق والغوطة^(٥) ...

وقد أخذ العلم عن الوليد عدد من كبار العلماء ومنهم ابن أبي خيشمة ، والإمام أحمد بن حنبل والمديني وعلي بن محمد الطنافي ، وتميز بين تلاميذه

(١) انظر النهيبي – تذكرة المحفوظ ج ١ ص ٢٧٩ .

(٢) انظر السخاوي – الإعلان بالتوبيخ (طبعة دوزنطال – الترجمة) ص ٥٢٧ .

(٣) ابن النديم – الفهرست ص ١٠٩ .

(٤) ابن الحنفي – ثغرات النهب ج ١ ص ٣٤٤ .

(٥) ابن عساكر – تاريخ دمشق (طبعة المنجد) ج ١ ص ٣٦٢ - ٣٦١ ، وص ٥٩٣ و ٥٩٧ .

الشاميين في الرواية التاريخية :

– ابنه العباس بن الوليد ، شيخ الطبرى وقد أخذ عنه هذا المؤرخ روايته لسيرة ابن اسحق .

– وسعید بن عبد العزیز الذي روی عن البلاذري أكثر فتوح الشام كفتح دمشق واليرموك .

– ويونس بن يزید الذي روی مشاهد النبي عنه وعن الزہری

وئمه آخرون من غير تلاميذه منهم :

– ابن أبي السائب عبد العزیز بن الوليد بن سلیمان من رجال ما بين القرنين الثاني والثالث وقد جاء ذکرہ لدى ابن عساکر في رواية أمور تتعلق بجامع دمشق وتاریخها^(۱) .

وأطلعت مدرسة الشام بعد الوليد بن مسلم عدداً من المؤرخین بين القرنين الثاني والثالث وفي هؤلاء بعض البارزین أو المامین ومنهم :

– أبو مسهر عبد الأعلى بن مسهر بن عبد الأعلى الغساني الدمشقي (ولد سنة ۷۵۷/۱۴۰ و توفي سنة ۸۳۳/۲۱۸) . كان محدثاً ، عارفاً بالمعاذي والأنساب . روی عن مالک بن أنس وسفیان بن عینة وروی عنه البخاري وغيره . اعتبره أحمد بن حنبل واحداً من أفضل محدثي عصره في دمشق . تمسك بعقیدته في عدم خلق القرآن فسجنه المأمون بين من سجن في هذا الأمر في بغداد حتى مات .

– أبو عبد الله محمد بن عائذ الدمشقي الفرضي^(۲) (۱۵۰/۲۳۳-۷۶۷/۸۴۷) وهو من الحفاظ المعروفين . كما كان من الكتاب وكان إليه النظر في خراج غوطة دمشق . روی عن الوليد بن مسلم وعن اسماعيل بن عياش وغيرهما .

(۱) ابن عساکر المصدر السابق ج ۲ ص ۴۴ وص ۴۵ .

(۲) انظر ابن حجر - التهذيب (ط. حیدر آباد ۱۳۲۷) ج ۹ ص ۲۴۲ .

وصنف في المغازي والفتح واهتم بما يتصل بالشام وأحداثها . أخذ عنه بقى بن مخلد راوية خليفة بن خياط كثيراً من المقططفات فأضافها إلى تاريخ خليفة ومعظمها مما يتصل بغزو المسلمين للروم خلال العهد الأموي . وأخذ عنه كذلك فيما بعد ابن سيد الناس في سيرته^(١) (عيون الأثر) ، كما أخذ الذهي في تاريخ الإسلام . وفي الإصابة لابن حجر حوالي ١٧ قطعة مقتبسة عنه .

- أبو جعفر عبد الله محمد بن علي بن نهيل الحراني المتوفى سنة ٨٤٩/٢٣٤ ويعدونه رابع أربعة من مشهوري الحفاظ في عصره . توفي عن سن عالية . ومع أن المصادر لا تذكر له مؤلفاً إلا أن دار الكتب الظاهرية بدمشق تحتفظ بخطوطة نادر له هو كتاب المغازي (رقم ٤٢) وفيه قطعة حسنة من السيرة .

- ابن سميع أبو القاسم محمود بن ابراهيم بن سميع الدمشقي (المتوفى سنة ٢٥٩) الحافظ وأحد الآباء . سمع ابن أبي أويس وطبقته وقال عنه أبو حاتم ما رأيت بدمشق أكيس منه . وقد ألف : كتاب الطبقات في الصحابة والتابعين واقتبس عن هذا الكتاب كل من الذهي في تاريخ الإسلام وابن حجر في الإصابة وفي تهذيب التهذيب^(٢) .

- الرملي موسى بن سهل بن قادم توفي في الرملة سنة ٨٧٤/٢٦١ وله كتاب من نزل فلسطين من الصحابة ذكره ياقوت في معجم البلدان وابن حجر في تهذيب التهذيب كما اقتبس منه ابن حجر في الإصابة^(٣) .

- علي بن مجاهد بن محمد بن علي من الرواة في القرن الثالث . ذكر المسعودي أنه من المشتغلين بالتاريخ وأنه صاحب الكتاب المعروف بأخبار

(١) انظر ابن سيد الناس : عيون الأثر في فتوح المغازي والسير ص ٢٤٤ .

(٢) انظر الذهي - تاريخ الإسلام ج ٢ ص ١٠٢ ، ١٩٥ ، ٢٠٢ وج ٤ ص ٥٢ وانظر ابن حجر الإصابة ج ١ ص ١٤٤ ، ١٥٢ ، ٣٤٣ ، ٣٥٠ وتهذيب التهذيب ج ٦ ص ١٣٩ - الخ . وانظر أيضاً ابن الحشبي شذرات ج ٢ ص ١٤٠ .

(٣) انظر ياقوت - البلدان ج ١ ص ٧٠٩ وص ٧٢٩ و ٢ ص ٨١٩ وابن حجر : تهذيب التهذيب ج ١٠ ص ٣٤٧ وابن حجر - الإصابة ج ٢ ص ٢٦٥ .

الأمويين وغيرهم . وقد روى عن الشعبي كما روى عنه الطبرى في خمسة وثلاثين موضعًا من تاريخه تعدد من رواية عن خلق آدم حتى زمن المنصور والمهدى ، مما يوحي بان كتابه كان تاريخاً عاماً أو أنه ألف أكثر من كتاب في التاريخ .

- وأخيراً أبو زرعة عبد الرحمن بن عمرو بن صفوان النصري الدمشقى (المتوفى سنة ٢٨٠ أو ٨٩٤/٢٨١) ويمكن اعتباره آخر ممثل مدرسة الشام في مراحلها الأولى . وكان شيخ الشام في وقته وقد اشتهر بالحديث وهذا ما طبع كتابه «التاريخ» بالطابع المعروف لمؤلفات المحدثين وتواريختهم فيه سبعة عناوين تتعلق بسيرة الرسول والخلفاء والراشدين ثم يصبح الكتاب ذا طابع شامي يتحلى عن قضاة دمشق وفلسطين ومصر قبل أن يعطى مرة أخرى على وفيات الصحابة بالشام ثم بعض أخبار فاطمة وأزواج النبي . ثم من مات بالشام من التابعين والعلماء . ومن الكتاب نسخة مخطوطة في عشرة أجزاء في مكتبة محمد الفاتح (رقم ٤٢١٠) باستانبول .

ويمكن أن يضاف أخيراً إلى رجال المدرسة الشامية أولئك الكتاب الذين اهتموا بأخبار الأمويين ومنهم :

- أبو عبد الرحمن خالد بن هشام الأموي صاحب كتاب أخبار الأمويين ومناقبهم الذي أثني عليه المسعودي ^(١) .

- وذلك المؤلف المجهول صاحب كتاب البراهين في إمامية الأمويين الذي كان في ٣٠٠ ورقة ورأه المسعودي في حوزة بعض موالي الأمويين في طبرية سنة ٣٢٤ ونقل موجزاً عما فيه في صفحتين ^(٢) .

(١) انظر السخاري - الاعلان (ط . روزنفال - الترجمة العربية) ص ٤٨ وص ٦٨٨ .
والمسعودي مروج الذهب (ط . بلا) ج ١ ص ١٤ - ١٥ .

(٢) انظر المسعودي - النتبه والاشراف ص ٢٩١ - ٢٩٢ .

— وذلك المؤلف المجهول الآخر الذي كتب كتاب : مغازي معاوية ونقل عنه البلاذري ، عن طريق عبد الله بن الوليد الدمشقي ، نصاً يتعلّق بعزو معاوية للمصيصة^(١) .

— سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي صاحب كتاب المغازي وقد نقل عنه ابن النديم بعض أخبار غزوة معاوية ابن أبي سفيان لدمشق^(٢) وقد ظهر في هذه المدرسة الشامية أيضاً بعض النسابيين ومنهم :

— دغفل بن حنظلة النسابة الصحابي الذي استقدمه معاوية ليعلم ابنه يزيد ، وسأله عن أنساب العرب وأنساب قريش وعن النجوم وعن العربية^(٣) وسوف نعرض له في مدرسة اليمن .

— الأبرش الكلبي النسابة الثالثة ، صديق هشام بن عبد الملك الذي كان يصحبه قبل الخلافة ، وقد رروا عنه أنه كان حاضراً يوم أبلغ هشام بخلافته فسجد شكرآ لله وسجد أصحابه إلا الأبرش فلما سأله قال : ولم أسجد ؟ وأنت اليوم معي ماشياً وغداً فوق طائرآ ... وقال هشام فإن طرت بلك معي ، قال : الآن طاب السجود^(٤) .

وقبيلة كلب هذه التي ينسب إليها الأبرش أعطتنا أيضاً من رجال الشام النسابيين عالمين من علماء النسب والأخبار هما :

— محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ١٤٦ وابنه هشام بن محمد (المتوفى سنة ٢٠٤) وسوف نبحثهما فيما بعد . ونستطيع عند الاستقصاء أن نضيف آخرين من مثل منجات بن الحارث وغيره^(٥) ، غير أن هذه المدرسة التاريخية

(١) انظر البلاذري - فتوح البلدان ج ١ ص ١٩٥ .

(٢) انظر ابن العدين - بثبة الطلب (مخطوط احمد الثالث) ج ٨ الورقة ٢٠٩ وجه .

(٣) انظر ابن عساكر - تاريخ دمشق (تهذيب بدران) ج ٥ ص ٢٤٢ - ٢٤٣ وانظر ابن عساكر أيضاً الكتاب نفسه مخطوط الظاهرية الجزء ٦ (رقم ٣٤٥٠) الورقة ٤٧ وجه .

(٤) تروى الحكاية ذاتها تقريباً عن عبد الحميد الكاتب مع مروان بن محمد .

(٥) انظر ابن النديم - الفهرست ص ٩١ (خلال نهر عوانة بن الحكم) .

سرعان ما اختنق تطورها واقطعها بزوال الخلافة الأموية عن دمشق وتركز النشاط السياسي والثقافي في حوض الرافدين . فلم يكتمل نموها ولا تبلور رجاحها ومقوماتها . ومعظم علمائها الذين ذكرناهم ، يضمون في العادة إلى رجال المدرستين الآخريين خاصة في المدينة وال伊拉克 .

على أن لنا أن نلاحظ هنا أن مدرسة الشام اتجهت منذ أو اخر القرن الثاني وخلال القرن الثالث في اتجاهين :

أحدهما رواية التاريخ الأموي ومناقب الأمويين وكان ذلك صدى جوها السياسي العام وبأقلام الأمويين أو المتعصبين لهم . ومن هؤلاء وهؤلاء : سعيد بن يحيى ، ونحald بن هشام . ومئرخون مجهولون آخرون منهم المؤلفان المجهولان اللذان كتبوا كتاب البراهين في إمامية الأمويين ومتاري معاوية .

الثاني : رواية المغازي وفي ذلك بعض الصدای الديني كما أن فيه ظلاً من الرفض للعباسيين بإثبات أعمال الرسول تجاه أعمالهم . وفي هذا الباب يأتي العديدون الذين كان منهم : التفيلي الحراني ، وابن عائذ وأخيراً أبو زرعة .

على أن هذين الاتجاهين سوف يضمرا من مدرسة الشام الرابع ليظهر بدلاً منها اللون المحلي في التدوين التاريخي ، وظهور مدرسة الشام الإقليمية على أيدي مؤرخين يهتمون بأخبار العلماء المحليين ومحليي المدن الشامية وبأخبار هذه المدن .

وبالرغم من أن مدرسة الشام لم تقل أبداً عن الدارسين بعد : ولم ييرز أحد دورها في نشأة علم التاريخ في الإسلام إلا أنها نستطيع مع ذلك أن نسجل لها السبق في ثلاثة أمور أساسية :

١) أنها ، منذ البدء ، كانت أوسع نظرة إلى التاريخ وقيمه وقد توجه اهتمامها إلى الحدث التاريخي العام (الفتوح والمغازي وأحداث الجاهلية) ولم تتوقف عند بعض المواضيع الخاصة كالوقوف عند المغازي النبوية فقط أو الأيام والأنساب) .

٢) إن أول تدوين تاريخي معروف في الإسلام كان في دمشق وبأمر من معاوية حين استقدم عبيد بن شريعة إليه وسأله عن أخبار الأمم وأمر الكتبة أن يدونوا أقواله وأن تنسب إليه . فكان من ذلك في الأرجح كتاب الأمثال وكتاب الملوك وأخبار الماضيين وربما ترجمت قبل ذلك أو معه بعض تواريخ الرؤم والفرس وجمعت في دفاتر .

٣) إن علم التاريخ أخذ اسمه هذا على يد أحد رجال هذه المدرسة : عوانة بن الحكم لأنه صاحب أول كتاب نعرفه يحمل هذا الاسم .

مدرسة اليمن :

من أسباب ظهورها ذلك التنافس القديم بين عرب الجنوب العربيين في التوطن الحضاري وبين عرب الشمال الذين صاروا بعد الإسلام حديثي نعمة وحكم وحضارة . ونفس عليهم الجنوبيون ما صاروا إليه من المجد فجعلوا يلهجون بسايق مجد اليمن . يضاف إلى ذلك الرغبة في ثبات الوجود اليمني بجانب القيسي الشمالي في العهد الأموي . وبعض الإشارات القرآنية إلى اليمن التي تحتاج إلى التفسير . ورغبة المولى في معرفة كافة الجوانب من تاريخ العرب .

وما يؤسف له أن هذه المدرسة قد أخذت منذ نشأتها على يد كعب الأحبار المنهج القصصي والأسطوري وسحبت نماذج تاريخ العرب الشماليين – وهو في جذوره قبلي – على اليمنيين الجنوبيين وهم ذرو حضارة زراعية تجارية مستقرة ، فأدخلت على التاريخ العربي الكثير من الزيف والخيال بينما أهملت النصوص المكتوبة : زُبراً على الحجر أو في سجلات الأقوام وذاكرة الواقعين . ولاشك أن أسباباً جغرافية وسياسية واجتماعية عديدة هي المسؤولة عن ذلك التشويه الذي لم ينهض لتصحيحه إلا مؤخر هو المداني . فإن انصراف العرب بعد الفتح نحو الشمال (الشام ومصر والعراق وخراسان) ونزوح اليمنيين أنفسهم مع النازحين إلى ديار هجرة جديدة واحتلال الخليج العربي المكان التجاري البحري الأول . عزل اليمن وقلل من الاهتمام بها وجعل

أخبارها نادرة وغير مستفادة من الموارد الأصلية الصحيحة . وترك لنا في النتيجة « روایات ضئيلة القيمة خالية من الفكرة التاريخية » منسوجة على غرار أيام العرب الشماليين وأخبار تنظيمهم القبلي ، تحملت اليمنيين أياماً وأنساباً وفتورات لا ظل لها من الواقع . ويمثل هذه المدرسة :

— كعب الأحبار المتوفى سنة ٣٥ هـ : وقد أسلم زمن أبي بكر ونصب نفسه بعد ذلك راوية لأخبار أهل الكتاب والأنبياء وتاريخ اليمن .

— دغفل بن حنظلة السدوسي الشيباني : وهو من مشاهير علماء النسب في أواخر العهد الجاهلي وعلماء النجوم . أدرك النبي ولم يسمع منه ويبدو أن العمر امتد به بعد ذلك حتى أدرك معاوية أيضاً . ويروي صاحب المحرر أن معاوية ضم دغفل النسبة إلى يزيد ابنه معلماً ^(١) ... وقيل إنه سأله : بم ثلت هذا يا دغفل ؟ فقال : بقلب عقول ولسان سؤول ... قال معاوية إذهب إلى يزيد فعلمه النسب والنجوم ...

وقد تناقل تلاميذ دغفل في اليمن معلوماته جيلين على الأقل أو ثلاثة ، وكان من هؤلاء التلاميذ في أواخر القرن الثاني الهجري وجل من مهرة يسمى عمرو بن مالك الشحري الذي يروى أن الرشيد استدعاه من اليمن ليسمع منه وطلب إليه تسجيل « السيرة » التي رواها عن دغفل . وفي مكتبة الأمبروزيانا في إيطاليا (تحت رقم G ٣) مخطوط من ٦٦ ورقة بعنوان « السيرة برواية الشحري » يروي في مطلعه قصبة استدعاه الرشيد وسماعه منه وتسجيله ، بناء على طلب الخليفة ، ذلك الكتاب الذي يحوي قصص أخبار العرب القديمة وحروبها وأمر عاد وثعود وعدنان وقططان ومن خلفه من الأبناء والملوك في بلاد اليمن .

ويقول في مقدمة الكتاب : « هذا كتاب فيه قصص العرب السالفة وما كان في أعصارهم من الأمم المنقرضة وما آثرت علماء العرب في مغاربهم

(١) ابن حبيب - المحرر (ط. ليختن شتير - بيروت) ص ٤٧٨ ، والسويدى - سبائك الذهب ص ٦ .

وحروبهم وقصصهم وأخبارهم وما كان من بعث النبي ... ولكن المخطوط لا يحوي قصة البعث وفي آخره جملة « تم الجزء الأول من كتاب السيرة عن دغفل الشيباني » مما يحزم بأنه قطعة من كتاب دغفل . ولسنا نجد ما روی من سيرة الرسول لدى الطبری سوى جملة تتعلق بعمر الرسول وأنه توفي وله خمس وستون سنة ^(١) .

— ابن مفرغ الحميري أبو عثمان يزيد بن ربيعة بن مفرغ (المتوفى سنة ٦٩) وكان من مشهورى العارفين بأخبار التبایعة . ويذكر صاحب الأغاني ^(٢) أن يزيد بن معاوية هو الذي استدعاه من اليمن ... وما تخلصه من عباد بن زياد ، أنزله الجزيرة . وستان مقيساً (منها) برأس عين (عند منابع نهر بلين) وزعم أنه من حمير ووضع سيرة تُبَعَّد وأشعاره ... ١

— عبيدة بن شريعة الجرهمي : المتوفى في خلافة عبد الملك بن مروان . وهو مشترك النشاط بين مناطق الشام واليمن .

— محمد بن كعب القرظي (المتوفى سنة ١٠٨ أو ١١٧ هـ) : وهو من مسلمة اليهود . ولد في الكوفة ونشأ بها ثم سكن المدينة . وقد عرف بالعلم والثقة . وقد اهتم بأخبار اليمن وروى الكثير منها . وربما كان الدين السابق أثر في هذا الاهتمام الذي ربطه بمدرسة اليمن التاريخية . وقد روى عنه الطبرى بعض أخبار اليمن والأنبياء ويهود الحجاز .

— وهب بن منبه اللهاري اليمني المولود سنة ٣٤ والمتوفى غالباً سنة ١١٤ : وهو يمني فارسي الأصل من « الأبناء » فأبوه منه من هراة في خراسان كان في جيش كسرى لنصرة سيف بن ذي يزن : وقد أسلم زمان النبي وولد ابنه وهب سنة ٣٤ هـ . في ذمار قرب صنعاء ونشأ في اليمن على الزهد وقراءة قصص الأنبياء ورواية القصص التاريخي عن اليمن حتى التصدق ذكر القصص

(١) الطبرى ج ٣ ص ٢١٦ (١٨٣٥/١) .

(٢) الاصبهاني - الأغاني ج ١٨ ص ٢٥٥ .

باسمه لدى المؤرخين في نوع من الغمز لقيمة مروياته ومعارفه التاريخية والدينية . فهو لدى ياقوت « الأخباري صاحب القصص » ولدى ابن خلگان « صاحب الأخبار والقصص » ولدى الذهبي « كان إخبارياً علامة قاصاً ». ولكن في كل الأحوال يعتبر من طبقة التابعين .

ويبدو أنه ثقى نفسه ثقافة واسعة بكتب الأديان وببعض الأفكار الفلسفية الأغريقية واليسوعية . كما عرف اللغة العربية والسريانية وحفظ الكثير مما يتصل بالنبوات ، وكان يرويها رواية . وعن طريق ما سجل من روایته عرفنا مساهمته التاريخية والمادة التي قدمها للتاريخ الإسلامي . وقد عني بنقل تلك المرويات وتنظيمها ونشرها جماعة من أهل وهب ، ظلت تعمل في اليمن على تسجيل وتشذيب مروياته والزيادة فيها أكثر من جيلين . وكانت له مدرسة كاملة مستمرة . كان من أركانها : أبو الياس ، مولى وهب ، ثم عبد المنعم بن ادريس المتوفى سنة ٢٢٨ وهو سبطه (ابن بنته) ثم اسماعيل بن عبد الكريم بن عبد الكريم بن عبد الصمد بن معقل (شقيق وهب) المتوفى سنة ٢١٠ هـ .

وقد رويت عن وهب بن منه « المغازي » النبوية رواها على طريقته مما يدخله في مدرسة المدينة التاريخية وسوف نعرض له هناك . ولكن له كذلك مشاركة واضحة في رواية وتدوين فروع ثلاثة أخرى من فروع التاريخ :

— قصص الأنبياء السابقين مما يدعى أحياناً بالسراويليات وقد روى عنه أنه وضع كتاب : المبدأ أو المبتدأ ، وهو في مبدأ الخلق وسير الأنبياء . وهو بذلك أول من وضع الهيكل القصصي لتاريخ العالم على أساس سلسلة الرسل والنبوات ..

— تاريخ اليمن القديم ، وقد روى عنه فيه (عن طريق اسماعيل) كتاب « الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم » وهو كتاب قصصي أدبي تاريجي يمتلىء بالشعر وبالأساطير اليمانية الشعبية . ويظهر اليمن بمحظوظ السابقة في التوحيد وفي الشعر والفتح والأدب والصنعة . والكتاب

مطبع (حيدر آباد سنة ١٣٥٧ في ٣١٠ صفحات) بعنوان *التيجان لمعرفة ملوك الزمان مع كتاب أخبار عبد بن شرية* .

— تاريخ الفتوح . وصاحب *كشف الظنون*^(١) ينسب إليه : *كتاب الفتوح* ، فإن صبح كانت له مشاركته في هذا الموضوع الإسلامي الهام أيضاً . ولكن مدرسة ابن منهـة ماتت رغم جهود أصحابها وإن بقيت منها في السيرة وفي كتب التاريخ روایات وأخبار كثيرة ^(٢) ولعل آخر مثل لها هو :

— الحميري : أبو محمد عبد الملك هشام بن أبيوب الحميري المتوفى سنة ٢١٣ أو سنة ٢١٨ هـ . وهو صاحب كتاب (*التيجان في ملوك حمير*) وضعه على أساس كتاب وهب بن منهـة في هذا الموضوع ثم أضاف إليه مواداً جديدة أخذـها من مؤلفات أخرى كمؤلفات محمد بن السائب الكلبي وأبي منيف وزيـاد ابن عبد الله بن الطفـيل العـامرـي الكوفي المعـروف بالـبكـائـي رـاوـيـة ابن اـسـحقـ .

وتحصـيـلة ما قـدـمـتهـ هذهـ المـدرـسـةـ منـ ابنـ منهـةـ إـلـىـ ابنـ شـرـيـةـ ،ـ أـنـهـ وـضـعـتـ الخـطـوـطـ الـأـوـلـىـ لـمـدـرـسـةـ تـارـيـخـيـةـ إـقـلـيمـيـةـ خـاصـةـ بـالـيـمـنـ وـأـنـهـ وجـهـتـ الـأـنـظـارـ إـلـىـ هـذـاـ التـارـيـخـ الـيـمـنـيـ الـخـاصـ وـأـقـامـتـ عـلـىـ قـدـمـيـهـ .ـ وـرـغـمـ اـحـتـواـئـهـ عـلـىـ أـسـاطـيرـ وـمـخـتـرـعـاتـ كـثـيـرـةـ سـخـيـفـةـ سـخـفـاـ أـشـارـ إـلـىـ هـذـاـ الـيـمـنـ .ـ وـرـغـمـ اـحـتـواـئـهـ عـلـىـ ذـلـكـ دـخـلـتـ بـمـاـ حـوـتـ فـيـ التـارـيـخـ الـعـرـبـيـ وـانـدـجـتـ فـيـهـ ،ـ وـأـعـطـتـ تـارـيـخـ الـيـمـنـ السـابـقـ لـلـاسـلامـ شـكـلـ الـخـرـافـاتـ وـالـموـاعـظـ .

مدرسة فارس :

فقد قـامـ عـلـيـهـ التـرسـ .ـ مـنـ الـمـوـالـيـ الـمـسـلـمـيـنـ وـمـنـ غـيـرـ الـمـسـلـمـيـنـ عـلـىـ السـوـاءـ

(١) *كشف الظنون* ج ٢ عمود ١٢٤٠ .

(٢) راجـعـ تـحـلـيـلاـ هـامـاـ تـقـصـيـلـاـ لـعـلـ وـهـبـ بنـ منهـةـ لـلـدـورـيـ نـشـأـةـ عـلـمـ التـارـيـخـ صـ ١٠٣ـ .ـ ١١٣ـ .

(٣) ابن خـلـدونـ — العـبـرـ جـ ١ـ صـ ١٣ـ .ـ ١٤ـ .

فعملوا في نوع من اثبات الوجود القومي والعلمي على كتابة التاريخ الفارسي باللغة العربية ، ترجمةً تارة عن الكتب الفارسية وتأليفاً تارة أخرى .

وقد يكون للشعوبية التأثير الأول في ظهور المدرسة التي نقلت إلى العربية صورة من تاريخ الفرس العريق ، أخذت أحياناً أزهى الألوان ولكن ما من شك في أن بعض الجنود التي بذلت في هذا السبيل كانت نتيجة الرغبة العلمية في المعرفة . ولما كان العراق مكان التقاء المواري الفرس مع العرب بجانب كونه مركز الحكومة والتمازج الثقافي ، فقد كان مركز هذه المدرسة التاريخية في هذا الأقليم خاصة لا في إيران نفسها حيث لم تكن اللغة العربية شائعة ولا حاجة بالمقابل إلى كتب التاريخ بالعربية مع توفرها بالفارسية .

وتمثل هذه المدرسة كثيرون . كانوا جمهراً واسعة ومن أقدمهم وأهمهم :

— أبو سليمان يونس الكاتب بن سليمان بن كرد بن شهريلار (المتوفى بعد سنة ١٣٢ / ٧٥٠) .

وهو من كتاب العهد الأموي . دعي إلى بلاط الوليد الثاني بن يزيد سنة ١٢٥ / ٧٤٣ وقد وضع أول كتاب جامع نعرفه لشعر الغناء العربي كما وضع عدداً من الكتب في الغناء لأنه كان فيما يليه من البارزين في هذا النوع من المعرفة . وله فيها :

كتاب القيان ، المفقود ، وكتاب مجرد يonus الذي كان أحد مصادر الأصبهاني في كتاب الأغاني وقد أخذ الكثير عنه ^(١) ... وله أيضاً كتاب النغم .

(١) انظر الأصبهاني - الأغاني ج ١ ص ٢٢ ، ٩٠ ، ٩٨ ، ٢٢ و ج ٢ ص ٦٣ ، ٧٥ ، ٧٠ و ج ٤ ص ١٠١ و ج ٥ ص ٣٦ ، ٤٩ ، ١٧٥ ، ١٧٥ و ج ٦ ص ٧ و ١٥ و ج ٧ ص ١٢٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ... ١٧٤ ، ١٤١

— غيرو لا نعرف شيئاً عنه ولكنه بكل تأكيد من كبار الفرس أو من فنانيهم البارزين الأثرياء أو لعله جبلة بن سالم كاتب هشام نقل سنة ١١٣ هـ / ٧٣١ « من الفارسية إلى العربية هشام بن عبد الملك مما وجد في خزان ملوك فارس » « كتاباً عظيماً — حسب كلمات المسعودي — يشتمل على علوم كثيرة من علومهم وأخبار ملوكهم وأبنائهم وسياساتهم لم أجدها في شيء من كتب الفرس كخدائي نامه وأثنين نامه وكهانة وغيرها ». ولعل من الطريف والهام معًا أن نتابع وصف هذا المؤلف مع المسعودي الذي رأى هذا الكتاب في اصطخر عند « بعض أهل بيروت المشتركة من الفرس » ... « مصوراً فيه ملوك الفرس من آل ساسان سبعة وعشرون ملكاً منهم خمسة وعشرون رجالاً وامرأتان قد صوروا واحد منهم يوم مات ، شيئاً كان أو شاباً وحليته وتاجه ومحظ لحيته وصورة وجهه ... وأنهم ملكوا الأرض أربعين سنة وثلاثة وثلاثين سنة وشهرأ وسبعين أيام . وأنهم كانوا إذا مات ملك من ملوكهم صوروه على هيئته ورفعوه إلى الخزان كي لا يختفي على الحي منهم صفة الميت . وصورة كل ملك كان في حرب قائماً وكل من كان في أمر جالساً وسيرة كل واحد في خواصه وعوامه وما حدث في ملوكه من الكوارث العظيمة والأحداث الحليمة » ... « فكان أول ملوكهم أزدشير شعاره في صورته أحمر مُدَّسَّ وسراويه لون السماء وتاجه أحضر في ذهب . بيده رمح وهو قائم . وآخرهم يزدجرد بن شهريار شعاره أحضر موشى وسراويه موشى لون السماء وتاجه أحمر قائم بيده رمح معتمد على سيفه بأنواع الأصياغ العجيبة التي لا يوجد مثلها في هذا الوقت . والذهب والفضة المحلوين . ونماسه محكوك والورق فرفيري عجيب الصيغ فلا أدرى أورق هو أم رق لحسناته واتفاق صنعته »^(١) ...

ولا يبدو أن هذا الكتاب الملكي قد وضع موضع التداول أو نقل أحد عنه شيئاً ...

(١) المسعودي — التبيه والإشراف ص ٩٢ - ٩٣ .

- عبد الله بن المفعع (قتل سنة ١٤٢ / ٧٦٠ وقيل سنة ١٤٣ أو ١٤٥) وقد نشأ بالبصرة لأب فارسي وظل على الزرادشتية حتى ما قبل مقتله بسنوات معدودة . وكان عمله الأدبي أوضح وأبقى من عمله التاريخي الذي اقتصر على ترجمة أهم كتب الفرس التاريخية .

- الهيثم بن علي (المتوفى سنة ٢٠٦) الذي كتب كتاب أخبار الفرس وسوف نعرض له فيما بعد مع رجال مدرسة العراق ، كما نعرض أيضاً لمعاصره وهو :

- أبو عبيدة معمر بن المنفي (ت ٢١١) صاحب كتاب فضائل الفرس ، وكتاب أخبار الفرس .

- أبان بن عبد الحميد الرقاشي ، المعروف باللاحتقي (توفي أواخر القرن الثاني) وهو شاعر محيد ، نقل إلى العربية سيرتي أنو شروان وأزدشير وعدد من القصص ^(١) ونظم كليلة ودمنة شعراً في أربعة عشر ألف بيت وأهداه إلى جعفر البرميكي فوهبه مائة ألف درهم ^(٢) .

- البلاذري أبو جعفر أحمد بن يحيى (المتوفى سنة ٢٧٩) وهو من كبار المؤرخين وسوف نعود إليه في مدرسة العراق . وكان أحد النقلة من الفارسي إلى اللسان العربي وقد ترجم عهد أزدشير شعراً .

اتجه أعضاء هذه المجموعة خاصة إلى الترجمة عن كتب التاريخ الفارسي لأنهم وجدوا في عصر الترجمة ، ولأن هذه المعرفة التاريخية القديمة مما لا مجال للابتكار فيه . ولا بد لها كي تكسب ثقة الناس بها من سند مكتوب سابق ولأن المثقفين من الفرس أرادوا ثبات وجود بعض العلوم كال تاريخ لديهم كغيرهم من ترجم عنهم العلوم . وبهذا الشكل دخلت إلى اللغة العربية مادة تاريخية كثيرة كانت تحويها كتب فارسية شتى . ومن أمثلة ذلك :

(١) انظر ابن النديم - الفهرست ص ١١٩ - ١٦٣ .

(٢) انظر الجشياري - الوزارة والكتاب ص ٢١١ .

١) ترجمات خدائي نامه ... فقد ترجمه ابن المفعع (المتوفى سنة ١٤٤ / ٧٦) من الفهلوية وسماه كتاب سير الملوك كما ترجمه كثير غيره مع اضافات وأساطير نقلت من كتب أخرى . وقد عد حمزة الأصفهاني سبع ترجمات له ، كما ذكر وجود عشرين نسخة مختلفة منه ^(١) .

٢) وترجم ابن المفعع كتاب الآين نامغ وهو كتاب المراسم والتقاليد في البلاط الفارسي ، كما ترجمه الجيهاني وزاد عليه .

ويظهر أن هذه الترجمات لكتاب آين نامه كانت ترجمات جزئية . فإن المسعودي يذكر الكتاب فيقول : « ... تفسير آين ناماه : كتاب الرسوم وهو عظيم في الألوف من الأوراق . لا يكاد يوجد كاملاً إلا عند الموابنة وغيرهم من ذوي الرئاسات » ^(٢) ...

٣) وترجم اسحق بن يزيد عن الفارسية كتاب الاختبار نامه وهو الذي عرف بكتاب سيرة الفرس ^(٣) .

(١) انظر حمزة الأصفهاني - تاريخي سفي ملوك الأرض ص ١٤ حيث يعدد منها ، عدا ترجمة ابن المفعع الترجمات التالية : « كتاب سير ملوك الفرس من نقل محمد بن الجهم البرميكي ، وكتاب تاريخ ملوك الفرس المستخرج من خزانة المأمون ، وكتاب سير ملوك الفرس من نقل زادويه ابن شاهويه الأصبهاني وكتاب سير ملوك الفرس من نقل أو جمع محمد بن بهرام بن مطيار الأصبهاني وكتاب تاريخ ملوك سasan من نقل أو جمع هشام بن قاسم الأصبهاني ، وكتاب تاريخ ملوكبني ساسان من إصلاح بهرام بن مردانشاه موبذكورة شابور بن بلاد فارس ... فلما اجتمعت لي هذه النسخ ضربت بعضها في بعض...» وهو يذكر أن الترجمات تحت يده ثمان . ولكنه يعد منها سبعة فقط . وهؤلاء المترجمون كانوا جميعاً من العاملين في إطار المدرسة التاريخية الفارسية . وأما الذي ذكر أن لدى نامه عشرين نسخة مختلفة فهو بهرام المويذاني بن مرادشاه (انظر كتاب حمزة نفسه ص ٢٦) وقد ذكر البيروني ست نسخ لترجمة خدائي نامه منها اثنان لمترجمين لم يعرفهما حمزة هما : بهرام بن مهران الأصبهاني ، وبهرام المروي المجوسي (انظر الآثار الباقية ص ٩٩) .

(٢) المسعودي - التبيه والإشراف ص ٩١ .

(٣) ابن الديم - الفهرست ص ٢٤٥ .

٤) وكتاب الكاه نامغ أي سجل العظاماء (أو طبقات الكبار) وهو كما يذكره في سيرة أبو شروان، وقد ترجم هذه السيرة كل من ابن المقفع (عنوان كتاب الناج) وأبان اللاحقي الشاعر الذي ترجم أيضاً سيرة أزدشير. على أن المسعودي يوضح بأن هذا الكتاب كنهامه هو من جملة آتى ناماه « وهو في مراتب مملكة فارس وأنها ست مائة مرتبة على حسب ترتيبهم لها » ...

٥) كما ترجمت قصص تارخية من التاريخ الساساني مثل (مزدك نامغ) و (بهرام جوين نامغ) وقد ترجم الأول ابن المقفع نفسه ثرآ وحوله اللاحقي شرعاً. أما الثاني فترجمه جبلة بن سالم وترجم معه كتاب رسم واستفنديسار.

٦) وترجمت كذلك قصص شعبية مثل ... بهرام ونرسی وشهريزاد مع أبرویز وكتاب دارا والضم الذهب^(١) ... وسيرة نامه التي ألفها حداهود ابن فرخزاد وهي كتاب الأخبار والأحاديث.

٧) وما ترجم أيضاً على ما تكشفه المقتطفات كتاب الكارناميج وهو فيما يروي المسعودي لأزدشير بن بابل « فيه ذكر أخباره وحروبه ومسيره في الأرض وسيره » ويقل عنده شيئاً مما حفظ من وصية أزدشير لابنه سابور، حين نصبه إياها للملك « وشيئاً مما حفظ من مكاتبة أزدشير لخواص من أنواع رعيته وعماله »^(٢) ...

ويبدو أن بعض الفرس الإيرانيين كانوا يطلبون أخبار فارس في كتبهم ثم يروونها للناس وقد تخصص بعضهم بذلك وعرف به. ومن هؤلاء « ... عمر المعروف بكسرى وكان هذا الرجل من اشتهر بعلم فارس وأخبار ملوكها

(١) ابن النديم - الفهرست من ٣٠٥ و ٣١٥ - ٣١٦ .

(٢) المسعودي - مروج الذهب (ط. بلا) ج ١ ص ٢٨٩ .

حتى لقب بعمر كسرى »^(١) ... وعن هذا الرجل نقل أبو عبيدة معمر بن المثنى الكثير من الأخبار الفارسية التي أوردها . ويظهر من بعض ما ذكره المسعودي أنه روى كتابه في أخبار الفرس كله عن عمر^(٢) . وأن هذا الكتاب « يصف ... طبقات ملوكهم من سلف وخلف . وأخبارهم وخطبهم وتشعب أنسابهم ووصف ما بنوه من المدن وكوروا من الكور واحتferوا من الأنهار وأهل البيوتات منهم وما وسم به كل فريق منهم من الشهارجة وغيرهم » ... وينقل المسعودي عن هذا الكتاب عدة مرات بعض أخبار الملوك وطبقات الفرسن .

أما في ميدان التأليف فلم يكن النشاط كبيراً في الفترة الأولى على الأقل . ومع ذلك فقد وضعت مؤلفات في تاريخ الفرس مثل كتابي الحميم بن علي ، كتاب في أخبار الفرس ، وكتاب تاريخ العجم ومثل كتاب عبد الملك بن قريب الأصمعي (المتوفى سنة ٢١٤) واسميه : نهاية الأرب في أخبار الفرس والعرب (ولا يزال منه مخطوط في المتحف البريطاني رقم ٩٠٤ ، ١٢٧٣) وهذه الكتب تعتمد على تلك الترافق والأساطير الموجودة في كتب الفرس ويلتقي بها الخيالي من الأخبار مع الواقع ، وينتاظ النسب الموهم في الغالب مع بعض أخبار الاسكتدر وبعض الأساطير الدينية . وفي هذا المجال لعب الدور الأول كتابان مقدسان هما :

— الآفستا ، كتاب زارادشت المقدس (والزند = التفسير) وقد اعتمد عليه بعض المؤلفين مثل حمزة الأصبهاني^(٣) .

— كتاب ماني المعروف بالشابرقان ، « وهو من بين كتب الفرس مقول ، على عقب خروج أزدشير ومانی من نیدین بتحریم الکذب . وليس به

(١) المصدر نفسه ص ٢٦٤ و ص ٣٢٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٧٦ و ص ٣٢٤ .

(٣) حمزة الأصبهاني - تاريخ سی ملوك الأرض ص ٥٦ .

حاجة إلى افتتاح التاريخ » وقد شهد بذلك البيروني الذي نقل عنه ^(١) .

- ثم كتاب ثالث هو : كتاب السكيسران ، وقد ذكر المسعودي أن ابن المقفع ترجمه من الفارسية إلى العربية وذكر أن فيه أخبار الملك فراسيب وظهور خلفه زو بن تهماسف عليه « وكيفية قتله وحربه وما كان بين الفرس والترك من الحروب والغارات وما كان من قتل سباوخس وخبر رستم بن دستان ، فهذا كلها موجود مشروح في الكتاب المترجم بالسكيسران وفيه خبر اسفنديار بن بستاسف ... وقتل رستم بن دستان له وما كان من قتل بهمن بن اسفنديار لرستم وغير ذلك من عجائب الفرس الأولى وأخبارها » ... ويضيف المسعودي قائلاً « ... وهذا كتاب تعظمه الفرس لما قد تضمن من أخبار أسلافهم وسير ملوكهم » ^(٢) ...

ومن الملاحظ أنه كثيراً ما كان فراغ بعض الكتب المؤلفة ، من المادة ، يُسد إما بالأدب السياسي وإما بالحكم والأمثال التي شاعت كثيراً وتسربت إلى الكتب العربية وإما بالإنشاء والبلاغة . ولو شئنا أن نقبل كتب الأدب السياسي ضمن الكتب التاريخية لوجدنا منها عدداً واضحاً من المؤلفات المتأثرة بالفكر السياسي الفارسي والأخذة عنه ، ومن ذلك أعمال ابن المقفع فإن له عدا ترجمة كليلة ودمنة : رسالة الصحابة التي وضعها كتقرير سياسي شامل لعصره في صورة مذكرة مقدمة لل الخليفة المنصور وكتب الأدب الكبير والأدب الصغير . ووجدنا كذلك في آداب السلطان والسياسة :

- أربعة مؤلفات أو ثلاثة كتبها أبو الفرج أحمد بن الطيب السريحي هي : كتاب السياسة الكبير والسياسة الصغير وكتاب أدب الملوك (يجانب كتاب آخر في المسالك والممالك) .

- ثلاثة مؤلفات لجعفر بن أحمد الروزي باسم كتاب الآداب الكبير

(١) البيروني - الآثار الباقية من ١١٨ .

(٢) المسعودي - مروج الذهب (ط . بلا) ج ١ ص ٢٦٧ .

- وكتاب الآداب الصغير ، وكتاب تاريخ القرآن لتأييد كتب السلطان .
- ثلاثة كتب لأبي زيد البلخي هي : السياسة الكبير والسياسة الصغير ، واختبارات السير .
- كتابين للكندي هما : الرسالة الكبرى في السياسة ، رسالة في سياسة العامة .
- كتابين للتغالي هما : أخلاق الملوك وأدب الملوك .
- وكتباً أخرى كثيرة منها :
- الكتاب وسياسة المملكة وسيرة الخلفاء ، لمحمد بن داود البراج .
 - آداب السلطان ، للمدائني .
 - سياسة الملوك ، لأبي دلف العجي .
 - رسالة في السياسة الملوكية ، لعبد الله بن عبد الله بن طاهر .
 - تدبير الملك والسياسة ، لسهل بن هارون .
- وكافة هذه الكتب متصل اتصالاً وثيقاً لا بالثقافة الفارسية السياسية فقط ولكن بالتاريخ الفارسي أيضاً .

وتحت باب آخر طرقة المؤلفون من الفرس يطل بدوره على التاريخ هو باب الأنساب والمثالب من جهة والمضائق والمناقب من جهة أخرى . وقد ألف في الموضوعين كتب كثيرة جداً بعضها في مثالب العرب وقبائلهم ، وبعض في مثالب الفرس ، كما ألف في فضائل الطرفين . ومن أبرز من ألف في المثالب خاصة : علان الشعوبى الذى عاصر الرشيد والأموء فإنه لم يدع قبيلة من قبائل العرب إلا كتب مثالبها قبيلة وفضحها في كتابه الواسع : كتاب المثالب . وكتب في المواضيع نفسها أبو عبيدة والهيثم بن علي والجمحي ^(١) ففأبلهم بعض

(١) انظر قائمة كتب أبي عبيدة والهيثم بن علي وعلان الشعوبى وغيرهم لدى ابن النديم .

المؤلفين الآخرين – ومنهم بعض الفرس – برواية مثالب الفرس ومصارع فرسانهم . كما كتبوا في أنساب الفرس مثل كتاب جمهرة أنساب الفرس لابن خرداذبة . وهذه التأليف وإن كانت في جذورها تستقي دوافعها من المعركة الشعوبية إلا أنها بدورها أتت بجديد إلى التاريخ والتذوين التاريخي ، من ماضي العرب والفرس على السواء وكانت مع كتب الأدب السياسي وعنابر تاريخ الفرس أحد الرواقد الواضحة في المادة التاريخية التي حواها التاريخ العربي .

وبالرغم من أن مدرسة التاريخ الفارسية قد امتهنت بمدرسة العراق وأسهمت في نموها وكان بعض رجالها مشتركين بين المدرستين إلا أن الفارسية لم تمت كما ماتت مدرسة الشام أو مدرسة اليمن تحت وطأة بغداد والمدرسة العراقية . ولو تبعينا تطورها خلال القرن الرابع لوجدنا أنها أشرقت بعض الممثلين البارزين من المؤرخين ، كما أنه لم يأت نهاية ذلك القرن حتى كانت تسهم مع غيرها من العوامل في نهضة الأدب الفارسي القومي والتاريخي القومي الذي تمثل خاصة في الشاهنامة ، فكانما كانت كتابة الفرس بالعربية مجرد طور عرضي أو لون عابر من ألوان أدبهم وتذوينهم التاريخي ما ليثوا أن عادوا تدريجياً عنه ، وبعد أن كتبوا في القرون : من الثاني إلى الرابع بالعربية فقط تقربياً ثم كتبوا قرنين تالين بلغة ثنائية (عربية وفارسية) أخذدوا منذ القرن السابع يكتبون من جديد باللغة الفارسية خاصة دون أن يهملوا العربية – لغة الدين الإسلامي – تمام الاهتمام .

الفصل الرابع

المدارس الكبرى

أولاً : مدرسة المدينة^(١):

استأثر الاهتمام الإسلامي بهذه المدرسة ولعل السبب في ذلك أن المدينة كانت عاصمة الرسول والخلفاء الأول من بعده ومركز تجمع الصحابة والبلد الأساسي للدين الجديد صاحب الدولة والفتح . وحين احتاج المسلمون في أنحاء البلاد إلى معرفة أوسع بالدين وصاحب الرسالة وبالأحكام والحديث والسنن والتفسير وأحاديث الدعوة الإسلامية الأولى وتفاصيل المجرة والمغازي ... توجهوا أول ما توجهوا إلى من يظلون به تلك المعرفة . وتصادى لابصاع ذلك بالمقابل : أبناء الصحابة أنفسهم خاصة ومنهم المجموعة الأولى ...

و قبل أن نتحدث عن هذه المجموعة لا بد أن نشير إلى مؤسس المدرسة العلمية لمختلف فروع العلم في المدينة :

(١) التوسيع في أمر مدرسة المدينة التاريخية يمكن مراجعة كتاب المنازي الأول من تأليف هورفيش (ترجمة حسين نصار) وكتاب نشأة علم التاريخ عند العرب للدكتور الورقي الذي تجد فيه أيضاً الحديث الراوي الواسع عن مدرسة العراق . وقد اعتنينا الكتابين في كثير من نقاط الحديث عن المدرستين .

عبد الله بن العباس : (ولد قبل وفاة الرسول بثلاث عشرة سنة وتوفي سنة ٧٨ بالطائف) وكان أبرز فقهاء المدينة ، وأوسعهم اطلاعاً وعلماً وكان يسمى البحر لا لكترة علمه في الفقه فحسب ولكن في الأخبار الماضية أيضاً والنسب ، بجانب الشعر واللغة وتفسير القرآن والحساب والفرائض . روى ابن سعد في الطبقات أنه : « كان يجلس يوماً ما يذكر فيه إلا الفقه ويوماً التأويل ويوماً المغازي ، ويوماً الشعر ويوماً أيام العرب »^(١) . ويروى عن عطاء بن أبي رباح أحد تلاميذه قوله : « كان أناس يأتون ابن عباس للشعر وناس للأنساب وناس لأيام العرب ووقائعها فما منهم من صنف إلا يقبل عليه بما يشاء » . . . ولعل مكانة ابن عباس في الرواية التاريخية أنها تتضمن في ما رواه عنه الطبرى في تاريخه ، فقد ورد اسمه ٢٨٦ مرة عنده ، في ذلك التاريخ . ولا نكاد نقرأ فصلاً من فصول الطبرى إلى الجزء الخامس خاصة إلا وجدنا فيه قوله أو أكثر لابن عباس في الشعوب العربية البائدة أو الاسرائيليات أو المغازي . وكثير من المؤرخين الآخرين أخذوا قليلاً أو كثيراً من هذه الأمور عنه . ولعلهم تزيلوا في الكثير من أقواله حتى لنجد الكثير من التناقض بين الروايات المروية عنه .

ولم يترك عبد الله بن عباس كتاباً . ولكنه ترك أقواله ومعلوماته مكتوبة لدى بعض مواليه وبعض تلاميذه . ويدلّون أنه كان لدى كريب بن أبي مسلم مولى ابن عباس حمل بغير أو عدل بغير من كتبه وأقواله المكتوبة . فكان علي بن عبد الله بن العباس إذا أراد الكتاب كتب إليه بعث إلى بصحيفة كذا وكذا قال : فينسخها فيبعث اليه باحذاهما »^(٢) ... وهذا لا يعني فقط بهذه التدوين التاريخي في عهد مبكر منتصف أو وسط القرن الأول المجري فقط ولكن يعني أيضاً أن ابن العباس ترك صحفاً لورثته بعد وفاته . وكانت من الكثرة

(١) ابن سعد - الطبقات (طبعة سخار) ج ٢ قسم ٢ من ١٢١ و ١٢٢ ، ابن الأثير - أند القافية ج ٣ ص ١٩٣ .

(٢) ابن سعد - الطبقات (ترجمة كريب) ج ١٥ ص ٢١٦ (طبعة سخار) .

بحيث يبلغ حجمها حمل بعير ، وأما تلاميذه فكان لديهم بدورهم ما رواه عنه ومنهم : عروة بن الزبير و محمد بن كعب القرظي و وهب بن منبه و سعيد بن جبير وأنس بن مالك و سعيد بن المسيب وغيرهم ... وعن هؤلاء أخذ الكثير من نعرف من الاخباريين اخبارهم والسير أمثال ابن أبي خيثمة و ابن السائب الكلبي .

أما المجموعة الأولى من رواة المادة التاريخية في المدينة من أبناء الصحابة فمنهم :

١ - سعيد بن سعد بن عبادة الخزرجي : ولد في حياة الرسول ﷺ ولم يلتقط به ويعتبره بعضهم من الصحابة . ولعله من أوائل من دون أشياء عن حياة الرسول ، وربما بدأ هذا العمل أبوه سعد ثم جاء سعيد فعدل له . وقد كانت النسخة الأصلية من تصنيفه موجودة عند حفيده : سعيد بن عمرو بن سعيد ، في أوائل العصر العباسي ^(١) . ولستنا نعلم متى توفي سعيد بن سعد . ولكن ابنه شرحبيل بن سعد (وهو مؤلف في المغازي) توفي سنة ٧٤٠/١٢٣ وقد ناهز المائة سنة ... وقد بقيت لنا من كتاب سعيد نصوص محدودة في مستند ابن حنبل ولدى الطبرى .

٢ - سهل بن أبي خيثمة المدني الانصاري (ولد سنة ٦٢٥ / ٤١ و توفي في عهد معاوية بن أبي سعيد سنة ٦٤١ و سنة ٦٥٥) . وقد كتب بدوره شيئاً عن حياة الرسول و مغازييه بقى في حوزة حفيده محمد بن يحيى بن سهل الذي روى عنه الواقدي كثيراً من الرواية . وكان محمد هذا حين يروي كتاب جده يقول : « وجدت في كتاب أبي » وقد بقيت شئرات عديدة من هذا الكتاب لدى البلاذري (في أنساب الأشراف) و ابن سعد (الطبقات) والطبرى .

٣ - سعيد بن المسيب المخزومي (ولد سنة ٦٣٤/١٣ و توفي بالمدينة سنة

(١) انظر ابن حجر - التهذيب ج ٤ ص ٦٩ ، وانظر ابن حجر - الإمامية ج ٢ ص ١٢٢٣ .

٩٤ / ٧١٣) وهو نسابة مؤرخ فقيه محدث له مشاركة واسعة في الأدب . وكان الزهرى من تلاميذه . وقد كتب سعيد شيئاً عن حياة الرسول وعن الفتوح استخدمه الطبرى .

٤ - أبان بن عثمان بن عفان (ولد حوالى سنة ٢٠ هـ وتوفي بين سنى ٩٥ - ١٠٥ هـ) وهو محدث لامؤرخ . وما روى عنه من خبر فهو في السنة خاصة لا التاريخ . وقد اهتم برواية المغازي التي روتها عنه مالك بن أنس وأبن سعد والطبرى . فهو مرحلة بين دراسة الحديث وبين تدوين التاريخ ولعله لهذا روت عنه كتب الحديث كثيراً بينما لم يستخدم مروياته من المؤرخين سوى اليعقوبى .

٥ - عروة بن الزبير بن العوام (ولد حوالى سنة ٢٣ هـ وتوفي سنة ٩٤) وهو بدوره محدث فقيه ، بل أحد فقهاء المدينة السبعة . وكان في الوقت نفسه أول من ألف في « المغازي » أي كتب كتاباً حول حياة الرسول كما كتب الرسائل حول أحداث الإسلام وقد أخذ عنه ابن اسحق والواقدي والطبرى . وما أخذوه عنه وأخذنه من بعد غيرهم ، كان سيد الناس وأبن كثير ، يكشف أن روایات الرجل كانت صريحة بسيطة تخلو من المبالغة وتستمد معلوماتها من مصادر أولية هامة ... من عائشة وآل الزبير ^(١) ويظهر من أخباره التي لم يكن يعني فيها كثيراً بالسند أنه قد سبقه جماعي في تقصي أخبار الإسلام تلك الأخبار ، وكان ما يروى حصيلة جهد جماعي في تقصي أخبار الإسلام الأولى . وقد تجاوز عروة في الروایات التاريخية فترة الرسالة إلى عهد أبي بكر ومن بعده حتى واقعة الجمل ، بما في ذلك الردة والفتح في القadesية واليرموك . ويمكن أن يعتبر بما وضعت من البسورة بين دراستي الحديث والتاريخ « رائدـ

(١) عروة هو سبط أبي بكر الصديق فأمه أسماء ذات النطاقين وحالته عائشة وأبوه الزبير بن العوام وأخوه عبد الله بن الزبير وجدته لأبيه هي أيضاً خديجة بنت خويلد الأسدى .

علم التاريخ والرجل الأول » في المدرسة التاريخية في المدينة خاصة وفي الشام .

ومن جهة أخرى فقد درس هوروفيتش ما بقى لدى الطبرى من الروايات التاريخية المتعلقة بحياة الرسول والتي رواها عروة بن الزبير ومنها : قطعة عن الهجرة الأولى إلى الحبشة ، وأخرى عن الهجرة إلى يثرب ، وثالثة عن أبي سفيان وخرجه وموقعة بدر ، ورابعة عن خالد بن الوليد ، وخامسة عن وفاة خديجة زوج الرسول ^(١) وبين هوروفيتش أنها من خلال استنادها عبارة عن أجوبة كتب بعثها عبد الملك بن مروان إلى عروة فأجابه عليها يقول : « ... كتبت إليّ تسلّي في ... (كذا) » واستنتج من ذلك أنها « أقدم ملاحظات مدونة بقيت لنا عن حوادث معينة في حياة الرسول وهي في الوقت نفسه أقدم آثار النثر التاريخي العربي » ^(٢) ... وبذلك تكون قد وضعننا أيديينا على بداية التدوين التاريخي الإسلامي ، الذي يعود في رأيه إلى عروة وإلى زمن عبد الملك بن مروان

وقد درس الدكتور الدوري بدوره كافة ما روی عن عروة من أخبار وبين أنه « تطرق في مغازيه إلى بلاد الوحي وببداية الدعوة والهجرة ثم تناول فعاليات فترة المدينة ... حتى غزوة الطائف وبعض مراسلات الرسول وأواخر أيامه . وقد جاءت بعض رواياته أجوبة على أسئلة البلاط الأموي وببعضها حدث بها طلبه » ^(٣) ... وبذلك يكون قد حدث في السيرة كلها ولكن دون خطة واضحة فيها .

ويمكن أن نضيف أيضاً إلى هؤلاء بعض التابعين و منهم :

(١) انظر الطبرى ج ٢ ص ٣٢٨ ، ٣٦٦ ، ٤٢١ ، ٣٧٥ ، ٤٢١ ، ٣٦٦ ، ٧٠ ، ٥٥ ص ٣ ج ٢ ، ٨٢ ، ١١٨٠/١ ، ١٢٢٤ ، ١٢٣٤ ، ١٢٨٤ ، ١٦٣٤ ، ١٦٥٤ ، ١٦٧٠ .

(٢) هوروفيتش - المغازي الأولى (ترجمة نصار) ص ٢٠ - ٢١ .

(٣) الدوري - نشأة علم التاريخ ص ٦٤ - ٧٣ .

٦ - شرحبيل بن سعد مولى بني خطمة (ولد في أو اخر عهد عمر سنة ٢٥ - وتوفي سنة ٧٤٠ / ١٢٣) وهو وإن كان متهمآ في دقته ولا يعتمد他的 ابن اسحق والواقدي ولا ابن سعد الا أنه أعطى قوائم بأسماء الصحابة في المعارك الكبرى . وكانت ترتبط بهذه القوائم في عهده القيم الاجتماعية في طبقات المسلمين .

٧ - أبو فضالة عبد الله بن كعب بن مالك الانصاري . ونجمله سنة ولادته ولكنه توفي سنة ٩٧ / ٧١٠ وقد وصفه ابن اسحق بأنه أحد كبار علماء الانصار . روى عن أبيه وكتب كتاباً في المغازي لعله لم يتسع فيه . وقد روى عنه ابن اسحق ونقل عنه الطبرى .

٨ - القاسم بن محمد بن أبي بكر ، حفييد الصديق (ولد حوالي سنة ٣٧ / ٦٥٧ وتوفي سنة ١٠٧ / ٧٢٥) وكان من كبار العلماء في عصره . ويبدو أنه كتب بدوره في المغازي وأخبار الخلفاء كتاباً أو أكثر من كتاب . وقد حفظ لنا الطبرى مقتبسات عديدة منه . ونجد بعض المقتبسات أيضاً لدى البلاذري والواقدي .

وفي الوقت الذي كانت هذه الجماعة تهتم بتدوين السيرة والمغازي وما يتصل بها كانت جماعة أخرى تهتم بتوضيح ما ورد في القرآن من قصص الموعظة . ولما كان ذلك القصص متصلةً بالأئم الأول فقد كان المجال واسعاً لمن يعرف علوم أهل الكتاب في هذا الباب كي يتقدم للتفسير . ومن هنا دخلت الاسرائيليات إلى السيرة والتفسير وبرز في ذلك شخص لا يدخله القدماء في نطاق علم التاريخ العربي وإن كان بعض المستشرقين يدفعونه إلى الصيف الأول ...

- وهب بن منبه (توفي غالباً سنة ١١٤) وهو الذي بدأ القصص التاريجي . وقد مر علينا أنه يماني من الأبناء وقد ورد على المدينة باتجاه غريب عنها ، فروى خاصة عن كعب الأحبار (المتوفى سنة ٣٢) وعبد الله بن سلام (المتوفى سنة ٤٠ هـ) وأضاف ما عرفه من أهل الكتاب والكتب المقدسة التي قرأ منها حسب

رواية ٣٠ أو ٧٠ أو ٩٣ كتاباً . وقد قابل العلماء معلوماته بالريمة ولذلك لم يذكروه في أصحاب « المغازي » وفي المؤلفين للسيرة . ومع ذلك فقد وجدت قطعة من مغازييه ^(١) ، كما أنه ألف كتاب (المبتدأ) الذي يعتبر أول محاولة في الإسلام لكتابه تاريخ عالمي من خلال تاريخ الأنبياء والرسالات . كما كتب كتاب (الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم) .

ولكن الأسلوب التصصي الذي ساق به رواياته دون سند وما تضمنت تلك الروايات من مادة أسطورية لاسيما عن اليمن ، ومن قصص شعبي يهودي ، ومن شعر موضوع أدخل الشك في كتبه : في دقتها وفي صدقها ، فامرأة أخذت العلماء أحاديثه وأخذته الجد واعتبر نموذج « الاخباري » . ولكن « هذا لم يمنعه من أن يكون ذا أثر في مدرسة المدينة التاريخية ولم يمنع الاسرائيليات التي جاء بها من أن تدخل السيرة والتفسير ومن أن تخاطط بتاريخ العرب قبل الإسلام . وقد أخذ عنه ابن اسحق كما أخذ عنه ابن قتيبة والمسعودي والمقدسي والطبراني والكسائي وثعلب .

وقد تلا هذه المجموعة الأولى جيلان ثان بربز فيه عدة علماء :

— عبد الله بن أبي بكر بن حزم (المتوفى بين سنتي ١٣٠ - ١٣٥) وهو من سلالة عرقية الصلة بالإسلام فجاء الأعلى عمرو بن حزم كان والي النبي على اليمن وجده محمد قتل دفاعاً عن المدينة في واقعة الحرة وأبوه كان قاضي المدينة ثم واليها مرتين سنة ٩٦ هـ و ١١٨ ، أما عبد الله فشغل نفسه بالحديث وسيرة الرسول . وقد رویت عنه أخبار تتصل بشباب النبي وأعوانه الأولى وبالغزوات كما وجه عنایته إلى الوفود التي وفدت من القبائل على النبي وروى أخباراً عن الردة وعن الأيام الأخيرة لعثمان . وكان يستند أخباره إلى

(١) وجد المستشرق بيكر قطعة من مغازي وهب بن منه في خطوط تاريخ نسخة سنة ٢٢٨ فيه ذكر لبيعة العقبة ونوبة قريش وال مجرة، وفي حلية الأولياء لأبي نعيم الاصفهاني قطعتان أيضاً (ج ٢ ص ٧٢ و ٧٩) .

وراثها أحياناً ويخرج كغيره من الرواة ما بين الشعر والخبر . ولعل أهم ما جاء به عبد الله أنه :

أ - لم يقنع بجمع الأخبار التي وصل إليها بل حاول أيضاً ، في ذلك الزمن المبكر ، أن يبتكر الترتيب السنوي للحوادث . فجمع قائمة لغزوات النبي مرتبة الترتيب السنوي وقد استعارها ابن اسحق في سيرته ، ونقلهما الطبرى ^(١) . وهذا ما يجعله من أوائل إن لم يكن أول وأوضع للمنهج الحولي في التاريخ الإسلامي منذ مطالع القرن الثاني .

ب - عني بجانب الأخبار بالوثائق المدونة كالرسالة التي كتبها النبي إلى ملوك حمير ، والوثيقة التي أعطاها النبي بجده الأكبر عمر بن حزم ليأخذها معه حين يبعثه إلى أهالي نجران يفقههم في الدين .

- عاصم بن عمرو بن قتادة : (المتوفى سنة ١١٩) وهو من الاتنصار وقد حارب بجده قتادة مع النبي في بدر ، وكان حامل لواء قبيلةبني ظفر في حنين ، وكان والده عمر من رواة الحديث ولم يتقلد عملاً رسمياً ولم يكن من الموسرين ، ولعل هذا هو السبب في رحيل عاصم إلى دمشق يلتمس لدى بلاط الأمويين بعض المعونة كغيره من أهل المدينة في الشدائد . وقد « قضى (الخليفة عمر بن عبد العزيز) دينه وأمره أن يجلس في مسجد دمشق فيحدث الناس بالغازى ومناقب الصحابة ففعل ثم رجع إلى المدينة سنة ١٠١ . وكانت « معرفته بالسيرة والمغازى مشهورة » وكان « يعد فيها من الرواة الثقات » ^(٢) فظل في المدينة يروي معارفه في الحديث والمغازى قرابة عشرين سنة حتى توفي .

وطريقة عاصم في الرواية والسنن وذكر الشعر شبيهة بطريقة صاحبه عبد الله ابن أبي بكر .

(١) انظر الطبرى ج ٣ ص ١٥٢ (١٧٥٦/١) .

(٢) انظر هوروفيتش - المنازى الأول (الترجمة) ص ٤٨ نقلًا عن اللعبى وابن سعد .

— أبو روح يزيد بن رومان الأَسْدِيُّ الْمَدْنِيُّ : وهو من موالى أسرة الزبير . عاصر التابعين المتأخرین وتوفي سنة ٧٤٧/١٣٠ وقد روی عن عروة كما روی عن معاصره الزهري وتلمذ عليه ابن اسحق والإمام مالك . وقد ألف في المغازی كتاباً وصل إلى الواقدي فاقتبس عنه كما نجد منه مقتطفات لدى ابن سعد والطبری .

— أبو الأسود محمد بن عبد الرحمن بن نوفل الأَسْدِيُّ : وهو كذلك ربیب الزبیرین ، توفي سنة ٧٤٨/١٣١ (أو سنة ١٣٧) تلمذ على عروة أيضاً كما كان من تلاميذه الزهري وبعض مؤرخي مصر (كابن هبعة والليث بن سعد) ونجد لدى ابن حجر في الإصابة حوالي ٤٨ قطعة من كتابه في المغازی^(١) كما نجد بعض القطع لدى ابن سعد في الطبقات ولدى البلاذري في أنساب الأشراف ولدى الطبری أيضاً مما يسمح بدراسة هذا المؤلف دراسة دقيقة .

أما الرواية الاخباري المعاصر لهؤلاء والذي كان أكثر شأناً منهم جمعياً فهو :

محمد بن مسلم بن شهاب الزهري (٥٠ - ١٢٤) : الذي أسس المدرسة التاريخية في المدينة وفي الشام أيضاً والذي وجدت كما قال ابن سعد «أحمال من كتبه لدى الأمويين». كان الزهري سليل قبيلة زهرة المكية وقد حارب جده الرسول في بدر وأحد كما كان أبوه يجانب عبد الله بن الزبير في ثورته . وقد وفد على مروان بن الحكم في دمشق ثم على عبد الملك ثم استقر لديهم ، يسجلون معارفه . وكان عالماً بالأنساب عالماً بأخبار عهد الرسالة والراشدين ، خصباً الانتاج ، كتب جميع ما يعرف . وقد أدرك مالك بن أنس دوره المام هذا في التدوين فقال عنه «...أول من دون العلم ابن شهاب». ثم تابعه الناس .

(١) انظر ابن حجر - الإصابة ج (١) مثلاً الصفحات : ٣٢٣ ، ٤٠٥ ، ٤٣٢ ، ٤٤٨ ، ٤٥٩ ، ٤٧١ ، ٥٦٤ ... الخ .

وبهذا الشكل كان أول مدوني التاريخ الإسلامي . كتب مغازي الرسول وأعطى السيرة النبوية اطارها الذي نعرف إلى اليوم وتناول عهد الراشدين ومطلع الأيام الأموية بأسلوب تقصي فيه الأخبار من أصحابها ، ومحض الروايات وجمع أسنادها في سند جماعي واحد وراغي التسلسل التاريخي وأبرز الأحداث المأمة وابتعد رغم حبه للشعر عن الشعر وعن القصص أي أنه كتب التاريـخ .

ويظهر من مقتطفات الطبرـي عن الزهـري أن هذا المؤرـخ لم يعالج الفـترة الأموـية وان كان أـنـجـابـ الـولـيدـ عنـ أـسـلـةـ أـلقـاهـاـ إـلـيـهـ تـعـلـقـ بـأـعـمـارـ الـخـلـفـاءـ الـأـمـوـيـنـ وـكـتـبـ أـسـانـهـمـ وـمـدـةـ حـكـمـ كـلـ مـنـهـمـ . وـتـنـاوـلـ الزـهـريـ لـفـترةـ الـراـشـدـينـ بـالـتـفـصـيلـ يـكـشـفـ عـنـ «ـأـنـ الـاـهـتمـامـ بـتـجـارـبـ الـأـمـةـ الـإـسـلـامـيـةـ الـأـوـلـىـ كـانـ عـاـمـلاـ آـخـرـ لـهـ أـهـمـيـتـهـ فـيـ نـشـأـةـ الـكـتـابـةـ الـتـارـيـخـيـةـ . فـمـبـداـ الـاجـمـاعـ وـظـهـورـ الـأـحـزـابـ الـسـيـاسـيـةـ وـالـحـدـلـ بـيـنـهـ حـوـلـ الـأـحـدـاثـ الـمـاضـيـةـ وـخـاصـةـ الـفـتـنـةـ وـالـخـلـافـةـ وـمـشـكـلـةـ الـتـنـظـيمـ الـادـارـيـ وـخـاصـةـ تـنـظـيمـ الـضـرـائـبـ وـالـدـيـوـانـ ،ـ كـلـ هـذـهـ الـمـسـائـلـ كـانـتـ تـنـطـلـبـ الـايـضـاحـ بـوـاسـطـةـ الـدـرـاسـةـ الـتـارـيـخـيـةـ »ـ (١)ـ ...

وقد تابـعـ جـهـدـ الزـهـريـ مـنـ بـعـدـ تـلـامـيـذهـ وـأـبـرـزـهـ ثـلـاثـةـ :

١ - مـوسـىـ بـنـ عـقـبةـ الـأـسـدـيـ الـمـدـفـيـ (ـ وـلـدـ بـيـنـ سـنـةـ ٥٥ـ وـسـنـةـ ٦٠ـ وـتـوـفـيـ سـنـةـ ٧٥٨ـ /ـ ١٤١ـ)ـ الـذـيـ روـىـ الـمـغـازـيـ وـتـارـيـخـ الـرـاشـدـيـنـ وـالـأـمـوـيـنـ عـنـ الزـهـريـ كـماـ اـسـتـخـدـمـ كـتـبـ اـبـنـ عـبـاسـ وـكـانـ حـمـلـ بـعـيرـ . وـنـقـلـ عـنـ اـبـنـ سـعـدـ وـابـنـ اـسـحـقـ كـمـاـ نـقـلـ عـنـ الـوـاقـدـيـ وـالـطـبـرـيـ (٢)ـ وـكـانـ مـالـكـ بـنـ أـنـسـ تـلـمـيـذـاـ لـهـ وـيـوـقـنـهـ (ـ كـيـدـاـ بـاـبـنـ اـسـحـقـ)ـ وـيـقـوـلـ عـنـ سـيـرـتـهـ «ـ إـنـهـ أـصـحـ السـيـرـ»ـ (٣)ـ وـالـوـاقـعـ أـنـ اـبـنـ عـقـبةـ تـمـيـزـ بـفـكـرـ تـارـيـخـيـ مـنـهـجـيـ مـنـظـمـ سـمـحـ لـهـ ،ـ وـهـوـ يـبـحـثـ مـغـازـيـ الرـسـولـ وـأـخـبـارـ الـخـلـفـاءـ الـرـاشـدـيـنـ وـالـأـمـوـيـنـ :

(١) الدوري - نشأة الكتابة التاريخية ص ٩٨ .

(٢) في برلين مخطوط يحوي جزءاً من المغازي التي كتبها موسى بن عقبة وقد نشره سخار ١٩٠٤ .

(٣) انظر السخاوي - الاعلان ص ٥٢٥ وانظر ابن سعير - التهذيب ج ١٠ ص ٣٦١ .

أ) أن يفکر بوضع قوائم بأسماء الصحابة المهاجرين إلى الحبشة ، أو المشاركين في بيعة العقبة وغيرهم .

ب) أن يضع بدوره ، مثل ابن أبي حزم ، مادته التاريخية في تسلسل زمني حولي ، وهكذا قدمت مدرسة المدينة بعمل هذين المؤرخين أهم الخدمات لتطور التدوين التاريخي .

وقد لقي كتاب المغازى لابن عقبة الكثير من الاهتمام فيما بعد للدقة واستيفائه واستخدمه الكثيرون ومنهم أبو نعيم الأصفهانى الذي كتبه بنخطة فاستخدم هذه النسخة نفسها بعد قرنين ياقوت الحموي . وجمع قطعة منه ابن قاضي شبهة الأسدي الدمشقى (توفي ٧٨٩ / ١٣٨٧) . ثم جاء ابن حجر فاحتفظ لنا في كتاب الإصابة بقطع من هذه المغازى تزيد في العدد على ٢٢٥ قطعة تمثل القسم الأكبر منها .

وقد اختصرها قبل ذلك ابن عبد البر في كتاب الدرر في اختصار المغازى والسير . واقتبس منها الكثير ابن سيد الناس في كتابه عيون الأثر . وبقي منها إلى اليوم قطع مخطوطة في برلين ترجم بعضها المستشرق سخاو ودرسها شاخت وإن لم تنشر بعد .

٢ - معمر بن راشد البصري ... (ولد في البصرة سنة ٩٦ وتوفي سنة ١٥٤ / ٧٧٠ في صنعاء) الذي انتقل من البصرة إلى اليمن ولم يرتحل إليها قبله أحد من المحدثين . ثم كان في تنقله بين البلدين صلة الوصل بين مدرستي العراق واليمن قبل أن يستقر نهائياً في صنعاء بحدث حتى الوفاة . وقد كتب كتاباً في « المغازى » نقل فيه عن الزهرى ^(١) وعن أهل الكتاب ثم نقل عنه الواقدي والبلاذري وابن سعد والطبرى . ولم يرتب معمر مادة كتابه الترتيب الزمني

(١) نجد في شذرات الذهب لابن الحيثى (٢٣٥ / ١) أن له كتاباً هو « الجامع المشهور في السير وهو أقدم من الموطأ » ولعله كتاب المغازى نفسه .

كما فعل معاصره ابن عقبة ولكنه اتبع الترتيب الموضوعي على غرار ما فعله هو نفسه في علم الحديث فإنه يعتبر من أوائل المحدثين الذين رتبوا الأحاديث في أبواب ومواضيع . ويبدو أنه لم يقتصر على سيرة الرسول في الكتاب ولكن أضاف إليها سير الآباء الآخرين . وتدل المقتطفات المأذوذة عنه في الطبرى أنه أدخل الكثير من قصص الكتابيين المتعلقة بالرسل إلى السيرة . كما أن ابن سعد أخذ أخباره عن طريق تلميد معمر : عبد الرزاق بن همام (المتوفى سنة ٨٢٦ / ٢١١) والذي كتب بدوره كتاباً في « المغازي » يذكره ابن النديم ^(١) ولعله مأذوذ عن كتاب أستاذه مع التعليق عليه . وقد وصلتنا قطعة من كتاب معمر بن راشد على رق شديد القدم محفوظ في المعهد الشرقي بشيكاغو ونشرت النص الباحثة نبيهة عبود . كما وصلتنا قطعة أخرى من الكتاب ما تزال مخطوطة في استامبول والرباط ودمشق . ونسخة استامبول على رق الفزال نسخت في طبليطة سنة ٣٦٣ / ٩٧٣ .

٣ - محمد بن اسحق المطليبي ^(٢) وهو أبرز وأهم الثلاثة وعمود المدرسة المدنية (ولد حوالي سنة ٧٥ وتوفي سنة ١٥١ أو سنة ١٥٢) ، به بدأت الكتابة التاريخية ، وقد كتب أقدم سيرة نبوية محفوظة الآن برمتها . جده يسار كان من بي عين التمر أول سبي وصل المدينة في الفتوح ، وقد تقصى محمد الأخبار في هذا البلد من أهله فيذكرون منه وحده أكثر من مائة راوٍ كما روى ، وعن أهل الكتاب والموالي والأعاجم وعن الآيات والحديث والوثائق ومن القصص الشعبي العربي وما رواه وهب بن منبه عن اليمن . فمصادره معلوماته كثيرة التنوع وتبلغ ١١٤ شيئاً ^(٣) ولكن هذا التقصي ^(٤) خلق له بعض المصاعب ،

(١) ابن النديم - الفهرست ص ٢٢٨ .

(٢) كتب عنه المستشرق يوهان فوك Fock رسالة هامة (طبع فرانكفورت سنة ١٩٢٥ بالألمانية) .

(٣) من شيوخه مثلاً أبوه وقد ورد اسمه ١٥ مرة في السيرة وعبد الله بن أبي بكر المتوفى سنة ١٣٦ وقد ورد ٤٠ مرة ويحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير الذي تردد اسمه ١٤ مرة ... الخ .

(٤) كان معروفاً أن سيرة ابن اسحق محفوظة في جملتها في سيرة ابن هشام التي لا تبدو أن تكون تشذيباً وتنقيحاً لابن اسحق . ثم تبين أن في المغرب نسخة مخطوطة من سيرة ابن اسحق وقد تنشر ويحمل على ذلك الآن الدكتور عبد العزيز الدوري .

فقصد العراق في مطالع حكم المنصور وأهداه مغازييه التي كان كتبها في المدينة . وسمع منه أهل الجزيرة والري حيث ظهر الكثير من رواهه ولم يرُ عنده أهل المدينة إلا القليل لأن عداء مالك بن أنس لهاته ايات بالسجل جعلهم يتبرجون في أمر توثيقه . وقد جمع المستشرق فوك قائمـة من ١٥ تلميـلاً لابن اسحق معظمـهم عراقيـون وجـزـيرـيون ومن الـري .

وقد كتب ابن اسحق كتاب (الخلفاء) الراشدين والأمويين في الأرجح وقد عرفنا منه مقتطفات بعـرة في الكـتب ولـدى الطـبـري ، وله كتاب (المـبدأ) الذي لا يـعدـو أن يكون القـسم الأول من المـغـازـي وقد أفرـدـه بكتـاب خـاص يـروـي لـوـحـدهـ لأنـهـ يـتـناـولـ مـبدأـ الـخـلـقـ حتى ظـهـورـ الإـسـلـامـ . وـالـتأـثـرـ وـاضـحـ فـيـهـ بـوهـبـ ابنـ منـبهـ وـالـاسـرـائـيلـياتـ وـقـصـصـ الـيـمـنـ . وـأـخـيـرـ «ـالمـغـازـيـ»ـ أـيـ السـيـرـةـ النـبوـيةـ وـهـيـ مـجـدـ الرـجـلـ الـحـقـيقـيـ وـهـيـ تـجـمـعـ بـيـنـ الـآـيـ الـقـرـآنـيـ وـالـحـدـيـثـ وـالـوـثـائقـ وـالـأـخـبـارـ التـارـيـخـيـةـ ، يـضـافـ إـلـيـهـ الـاسـرـائـيلـياتـ وـقـصـصـ الـشـعـبـيـ وـالـشـعـرـ منـ صـحـيـحـ وـمـوـضـعـ ، وـخـفـظـ لـنـاـ بـهـذـاـ التـقـصـيـ الـكـثـيرـ مـنـ الـعـلـومـاتـ .

وقد جمع ابن اسحق بين المحدثين والأخباريين في الأسلوب كما وسع حدود السيرة إذ مدـهاـ إـلـىـ مـبدأـ الـخـلـقـ وـمـنـ أـجـلـ ذـلـكـ كـلـهـ نـقـلـ مـنـ الـكـتـبـ وـمـنـ يـسـمـيهـمـ أـهـلـ الـعـلـمـ الـأـوـلـ مـنـ أـهـلـ الـكـتـابـ . وـلـمـ يـدـقـقـ كـثـيرـاـ فـيـ السـنـدـ أوـ فـيـ مـصـادـرـ الـأـخـبـارـ وـلـاـ فـيـ الـأـنـسـابـ وـلـمـ يـسـتـخـدـمـ الشـعـرـ فـقـطـ وـلـكـنـ كـانـ يـصـطـنـعـهـ ، وـتـعـملـ لـهـ قـصـائـدـ لـيـدـخـلـهـ فـيـ السـيـرـةـ مـعـ الـمـنـاسـبـ حـتـىـ لـقـدـ ذـكـرـ قـصـائـدـ مـنـ عـادـ وـئـمـودـ ، وـإـنـ يـكـنـ شـعـرـاـ غـنـائـيـاـ يـتـعـلـقـ بـشـرـحـ الـأـحـدـاثـ لـاـ بـرـواـيـتهاـ . وـتـظـهـرـ فـيـ سـيـرـتـهـ مـيـولـهـ السـيـاسـيـةـ وـالـدـيـنـيـةـ فـمـاـ كـانـ هـوـاهـ مـعـ بـنـيـ أـمـيـةـ وـلـكـنـ مـعـ التـشـيـعـ كـماـ كـانـ قـدـريـيـ الرـأـيـ ، وـعـلـىـ خـلـافـ مـعـ مـذـهـبـ الـإـمـامـ مـالـكـ فـيـ الـحـدـيـثـ وـالـفـكـرـ . وـيـعـلـقـ هـامـلـتوـنـ جـبـ عـلـىـ مـغـازـيـ ابنـ اسـحقـ بـأـنـهـ كـانـ ثـمـرـةـ تـفـكـيرـ

أبعد أفقياً وأوسع نطاقاً من تفكير سابقه ومعاصريه لأنه نزع فيها لا إلى تدوين تاريخ النبي فحسب بل تاريخ النبوة بذاتها . فوحدة الفكر التاريخي ظاهرة فيها .

وسيرته التي لم تجد رواجاً في المدينة راجت في المشرق وانتشرت ورويت ومن الروايات هذه ما ضماع كرواية ابراهيم بن سعد ورواية محمد بن عبد الله ابن نمير المتوفى سنة ٢٣٤ في حران . ومن الروايات ما يقى ، فرواية البكائي هي التي اعتمدتها ابن هشام وتناولها بالتنقيح والتقريب من وجهة نظر المحدثين كما اعتمدتها اليعقوبي والطبرى ورواية يونس بن بكير الشيباني (المتوفى سنة ١٩٩) وهي التي اعتمدتها الحاكم التيسابوري (في المستدرك) وابن الأثير (في أسد الغابة) وابن حجر العسقلانى (في الإصابة) .

وقد ظهر بجانب ابن اسحق معاصر له كتب في المغازي أيضاً هو :

.. أبو معشر السندي (توفي بعد سنة ١٧٠ في بغداد) اسمه الأصلي عبد الرحمن بن الوليد بن هلال . ويظهر أنه سرق من موطنه في السندي أو اليمن وبيع في المدينة وسمى فيها باسم ... (نجح) ثم بأبي معشر حين أصبح في ولاء أم موسى بنت منصور الحجري ، زوج المنصور وأم الخليفة المهدى . وقد اشتوى نفسه بالملائكة وارتبط بالعباسيين وبالخليفة المهدى بخاصة .

وكان يحاول أن يكون محدثاً ولكن شهرته في الحديث بقيت محدودة واشتهر بالتاريخ وبأنه « بصير بالغازى » كما قال أحمد بن حنبل، وقد احتاج الآثاره بتاريخه .

ويظهر من المقططفات الباقيه في الكتب عنه أنه مؤلف في المغازي روى سيرة الرسول جمیعاً وترجم الصحابة كما يظهر أنه ألف تاريخاً ، عرف باسم تاريخ الخلفاء ، على الحواليات ، تناول فيه التاريخ الإسلامي حتى سنة ١٧٠ فهو على هذا النحو أقدم المؤلفين في هذا التاريخ .

وقد أخذ الواقدي من مغازيه وأخذ ابن سعد . بينما أخذ الطبرى عن التاريخ حتى توقف سنة ١٧٠ . ولعله من المناسب أن نلاحظ هنا أن مدرسة المدينة التاريخية قد تحولت في مركزها منذ مطالع العهد العباسى إلى العراق . فقد انتقل ابن اسحق منها وقد انتقل ابن معشر وقد ظهر آخر ممثلى هذه المدرسة ، يمثلان نهاية تطورها وقمة ذلك التطور في العراق أيضاً وهما الواقدي وابن سعد ..

الواقدي محمد بن عمر (ولد سنة ١٣٠ توفي سنة ٨٢٣/٢٠٧ في عهد المأمون) وهو من المولى في الأصل وقد تلقى العلم (الحديث والفقه خاصة) عن مالك بن أنس في المدينة وعن سفيان الثوري وعن ابن جريج رأس علم الحديث . ونال الشهرة الواسعة في عصره وقد عرف بالرشيد في بعض حجه ثم لحق به إلى بغداد والتحق بابنه المأمون من بعده واتصل الاتصال الطيب بالبرامكة . وكان جماعة للكتب يشربها ويستنسخ . وقد مات وعنده منها
٦٠٠ قمطر ١

وإذا كان الواقدي معتبراً من مدرسة المدينة فقد قضى أعوامه الثلاثين الأخيرة في بغداد التي ول فيها أحياناً القضاء .

و قائمة مؤلفاته طويلة متنوعة . يذكر له ابن النديم في الفهرست (١) ٢٨ كتاباً معظمها يذكر حول العهد الإسلامي دون الجاهلية التي يبدو أنه لم يكن يعلم عنها شيئاً كما يروي ابن حجر في التهذيب (٢) .

وتعزى إليه بعض الكتب بما لا قيمة له . وكتبه التاريخية التي جمع فيها مادة ضخمة دونها التدوين الحسن تضم مؤلفاته في (أخبار مكة) و (أزواج النبي) و (وفاة النبي) و (السقيفة) و (سيرة أبي بكر) و (الردة) و (يوم العمل) و (صفين) و (مولد الحسن والحسين) و (مقتل الحسين) وتصانيف

(١) ابن النديم - الفهرست ص ٩٨ - ٩٩ .

(٢) ابن حجر - التهذيب ج ٩ ص ٣٦٥ .

(القبائل ومراتبها) و (ضرب الدنانير والدراجم) و (وضع عمر الدواوين) و (مراعي قريش والأنصار في القطائع) كما تضم (أمر الحبشة والقيل) و (حرب الأوس والخزرج) ولعل أهمها ..

- التاريخ الكبير الذي تناول الخلفاء حتى سنة ٧٩٥/١٧٩.

- كتب الفتوح .. فتوح الشام وفتح العراق وفي نسبتها إليه كثير من الشك^(١).

- الطبقات وهو في تاريخ طبقات المحدثين في الكوفة والبصرة وتظهر أهمية هذا الكتاب بما يكشف من علاقة الحديث بالتاريخ ونشوئه . فهو أقدم كتاب منظم على الطبقات . وعلى مثاله ألف ابن سعد تلميذ الواقدي طبقاته المعروفة .

وأشيراً .. المغازي . وهي الكتاب الوحيدباقي من الواقدي . فتحمة جزء

(١) تسب هذه الكتب إليه وهي موجودة فعلا ... فهناك ...

- كتاب فتوح الشام ومصر وهو مخطوط بالتحف البريطاني وقد نشر في ليدن بعنوان كتاب فتوح مصر والاسكندرية المنسوب إلى الواقدي كما طبع في مصر سنة ١٣٦٨ بعنوان «فتح الشام في جزءين » يتضمنان فتح الشام ومصر وال伊拉克 .

- وهناك كذلك كتاب فتوح أبهنا وفيوم من أرض مصر وهو مخطوط محفوظ بمدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بلندن (وملحق بمخطوط لتاريخ أبي الفداء) . وقد طبع هذا الكتاب بالقاهرة سنة ١٢٨٠ بعنوان (فتح أبهنا وما فيها من العجائب والغرائب وما وقع فيها للصحابة).

- وكتاب (فتح أفريقية) وهو مخطوط بالتحف البريطاني . وفي مكتبات باريس وكامبردج والجزائر وفاس نسخ منه وقد نشر سنة ١٣١٥ بمعونة عبد الرحمن الصنادلي (راجع سعد زغلول عبد الحميد ، فتح الرب المغارب بين الحقيقة والسطور ... دراسة ونقد لمخطوط فتوح أفريقية الواقدي - مجلة كلية الآداب - جامعة الاسكندرية المجلد ١٦ لسنة ١٩٦٢ - ١٩٦٣ ص ١ - ٤٣) . ويلاحظ على هذه الكتب أنها تحمل الطابع الأسطوري الذي لا يعرفه الواقدي كأن فيها إشارات إلى شخصيات من القرن السادس والسابع (سيدي أبو مدين ، سيدي أبو الحاج الأقصري ...) ما يكاد يعزم بأن هذه الكتب في حالتها التي وصلت إليها على الأقل ، ليست الواقدي وقد دخلتها الأسطورة في النايل بعد القرن السابع المجري .

من الكتاب طبع في كلكتا (طبعه فون كريمر سنة ١٨٥٦) وهناك نسخة كاملة مخطوطة مع جزء آخر من مخطوط ثان في المتحف البريطاني . وقد نشر (فيشر) النص العربي الكامل بعد أن كان (وهاوزن) قد نشر موجزه مع ترجمة انكليزية .

ويبدو الواقدي في المغازي أكثر ارتباطاً بأساليب مدرسة المدينة وأكثر دقة من ابن اسحق . لم يتمكن اسحق بالفترات السابقة للإسلام ولا بالعصر الباهلي وذكر همسه في السيرة ، ونهجه في العرض منظم منطقى .. يذكر مصادره الأساسية وهي ٢٥ اسماء وتاريخ المغازى ثم يدرسها بالسلسل الزمني ويدقق في تحديد التواريخ ويبحث عن نصوص الوثائق ويستعمل الاسناد بدقة على منهج المحدثين ويقتبس من الشعر ولكن في قصيدة لا يبلغ حدود ابن اسحق ويدمج بعض الأخبار في سند جمعي واحد . ليسطيع استيفاء التفاصيل ويهتم بتحديد الواقع الجغرافية حتى لقصيدة بلغ من حرصه في ذلك أن زار بعض تلك المواقع بنفسه . وبالرغم من ميله العلويه فإنه كان بعيداً عن التعصب للدرجة أتهمه فيها ابن النديم بالتعصي ولكن الشيعة لا يعدونه في رجالهم . وقد بلغ برأته رأي الناس في علمه أنه كان يأخذ عن ابن اسحق كثيراً وقد يمتدحه ولكنه لا يصرح باسمه أبداً فيما يأخذ عنه لوضع ابن اسحق من الريبة في المدينة .

والمحظيات من كتب الواقدي كثيرة متفرقة . فالطبرى يروي كثيراً عنه وخاصة في التاريخ الكبير . وفي كتاب غزوات ابن حبيش (المتوفى سنة ٥٨٤) وهو مخطوط في مكتبة الفاتيكان استخدمه كاتباني في فصل الردة من كتابه ، مقتطفات من كتاب الردة للواقدي .

وكتاب المغازى للواقدي موجود بشكل مخطوط في فيينا (رقم ٨٨١ في ١٩٦ ورقة) وفي المتحف البريطاني (Or ٤٦٦) و Sup. ٥٠٢ ، ١٦١٧ . وقد حقق بعضه فون كريمر ثم حقه غيره . ثم نشر النص العربي في القاهرة من

قبل عباس الشريبي سنة ١٩٤٨ . وله ترجمة فارسية وأخرى تركية . كما اختصره ابن حجر .

أما كتاب الردة فمخطوط في الهند ومنه قطع في الإصابة لابن حجر . وأما فتوح الشام ف منه مخطوطات كثيرة عديدة في استانبول خاصة ولندن وبارييس والقاهرة وغيرها . ومثل ذلك فتوح مصر ، وبقية كتب الفتوح . وثمة قطعة من كتاب الصوائف لدى ابن عساكر (تاريخ دمشق ج ١ ص ٣٨٥) . وثمة قطع من كتابه (صفين) لدى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة .

وإذا كان أهل الحديث لا يقبلون كل القبول بالواقدي فالمورخون يوثقونه . أما المستشرقون فيرون فيه بسبب تدقيقه الزمني والجغرافي واعتماده الوثائق المؤرخ الأولى . وقد ختم مدرسة المدينة تقريراً تلميذ الواقدي :

محمد أبو عبد الله محمد بن سعد^(١) بن منيع البصري الذهري (كاتب الواقدي) ، ولد سنة ١٦٨/٧٨٤ في البصرة وتوفي سنة ٨٤٥/٢٣٠ في بغداد وهو ابن مولى من المدينة يلتحق ولاء آل العباس . عاش حقبة من الزمان في المدينة ثم انتقل منها بين مدن أخرى وقد تعرف في بغداد على الواقدي والتتصق به وبالرغم من أنه درس على شيوخ آخرين كثيرين فإنه ظل على الارتباط به الشيخ حتى آخر حياته .

وصلته الكبيرة بالواقدي لم تعطه فقط لقب كاتب الواقدي ولكنها أيضاً سمحت لابن النديم صاحب الفهرست أن يقول انه ألف كتبه من تصنيفات الواقدي ولكن لا يذكر له في الوقت نفسه إلا كتاب أخبار النبي . ويظهر ان هذا الكتاب ليس غير القسم الأول من كتاب ابن سعد المعروف

(١) ألفت رسالة عن ابن سعد بالألمانية صاحبها أوتون لوثر Loth الذي نشر أيضاً بحثاً سنة ١٨٦٩ في المجلة الشرقية الألمانية بعنوان . (طبقات ابن سعد) كما كتب مقال (أصل الطبقات وأهميتها) ...

بالطبقات الكبرى مع أننا نجد أن هشاما الكلبي كان مصدر ابن سعد المباشر في تاريخ اليهود والنصارى كما استفاد من سيرة ابن اسحق ومن كتاب نسب الانصار لعبد الله بن محمد بن عمارة (سنة ٢٠٠ھ).

فتلاميد ابن سعد رروا عنه (أخبار النبي) و (طبقات الصحابة) على أنها كتابان . وقد حفظت الطبقات على صورتها المعروفة للمرة الأولى على يد الحسين بن فهم (٢١١ - ٢٨٩ھ) ثم جمع ابن معرفة الكتاين حوالي سنة ٣٠٠ھ مشكلاً منها كتاباً واحداً تلخص سيرة النبي القسم الأول منه^(١).

وابن سعد آخر جامعي السيرة من المتصلين بالمصادر الأولى وثاني مؤلف بعد ابن اسحق وصلنا كتابه عن السيرة والطبقات كاملاً . ولن يأتي بعده مؤلف يأتي بجديد فيها . وأسلوبه التارىخي رغم أنه يجعل الملامح التي يحملها السابقون له إلا أنه يتميز بملامح خاصة أيضاً.

مصادر معلوماته تعتمد بخاصة على الواقدي - وإن كان يعطي أحياناً تفاصيل أوفى منه ولا سيما في الفترتين المكية والمدنية للدعوة النبوية - وعلى هشام ابن محمد بن السائب الكلبي فيما يتعلق بما يروى عن أهل الكتاب وعلى الوثائق فهو يكثر منها ، أما مصادره الأخرى فقد صدر المغازي بقائمة تحوي أهم رواياته كما صدر كتاب الطبقات بقائمة أخرى . وقد تميز منهجه بالعرض بتنظيم المادة والغاء الملاحظات الشخصية واستناد كل قول إلى مرجعه^(٢) وذكر الوثائق بنصوصها والاستشهاد الكثير بالشعر .

ولا يحمل مفهوم السيرة عند ابن سعد شيئاً كثيراً مما وراءها فالباهرية لا تحتل إلا أضيق الحيز عنده ولا مكان للرسالات الأخرى . وعنايته بالصحابة والتبعين وأحوالهم جرته إلى العناية أيضاً بالصحابيات والتابعات وقد خصص الجزء الثاني كله من طبقاته لمن .

(١) انظر هورو فيتش ... المغازي (الترجمة العربية) صفحة ١٢٧ .

(٢) انظر هورو فيتش ... المغازي (الترجمة العربية) صفحة ١٣٠ .

نشر كتاب طبقات ابن سعد منذ ستين سنة في تسع مجلدات بعناية وتحقيق المستشرق ادوار سخاو في مدرسة اللغات الشرقية في برلين وعاونه فيه مستشرقون آخرون . وقد طبع في لينن (بريل سنة ١٩١٧) وخصص المجلد التاسع منه للفهارس .

ولايكمال الصورة لعلنا نستطيع أن نضيف أخيراً مؤلفين آخرين من مؤلفي السيرة في الشام بعضهم عاصر ابن سعد بعض المعاصرة وبعض تأخر عنه قليلاً . وإن كان في كتاب ابن سعد عنهم غنى أحياناً وقد ذكرناهم في مدرسة الشام من أمثال : محمد بن عائذ الدمشقي (سنة ٢٣٣/٨٤٧) وعبد الله ابن محمد بن علي النفيلي الحراني (٢٣٤/٨٤٨) وأبي زرعة عبد الرحمن بن عمرو بن صفوان النصري الدمشقي (سنة ٢٨٠/٨٩٤) . إنهم يشكلون بقية تلك الجمهرة الواسعة التي عملت على حفظ السيرة وتنظيمها وإشاعتها بين الناس في الشام بجانب عملها في حفظ الحديث أو بسبب من عملها في حفظ الحديث .

الفصل الخامس

مَدِرْسَةُ الْعَرَاقِ

اجتمعت العراق في صدر الإسلام ثلاثة تيارات ثقافية أساسية تكون قاعدته الفكرية هي : الثقافتان الفارسية والهيلينية والتيار العربي الإسلامي . وقد خدمت الثقافتان الأوليان أول الأمر وأفسحتا المجال للفكر الجديد القادر مع العرب المسلمين . وقد وجد هذا الفكر لنفسه مستقراً ومكاناً خاصاً في الأماصار الجديدة .. البصرة والكوفة في العهد الأموي ثم أضيفت إليهما بغداد في العصر العباسي ، كما وجد أهلاً هم العرب الذين هاجروا فاستقروا في هذه الأماصار يزورهم ويسكن بجوارهم الموالي الذين تابعوا هم تديناً أو تملقاً . وووجد أخيراً قاعدة يعمل عليها هي .. الأدب العربي .. شعره وقصصه ولغته وأنساب العرب وأيامها وأخبار الناس بالإضافة إلى علوم القرآن والحديث والفقه .. وما كانت العواصف والأزمات السياسية في العهد الأموي التي لم تكن تصيب إلا العرب لأنهم الطبقة الحاكمة المسيطرة – إلا لتزيد من فعالية المراكز العلمية هذه ومن نشاط أهلها في الفكر وتفرع علومها مذاهب وتسجيلاً . فكلمة العرب ومن والاهم – التي استقرت خاصة في البصرة والكوفة – حملت معها مفاهيمها وفكرة البدوي الشفهي إلى المواطن الجديدة فظل المcrان .. مراكز قبلية كبيرة كما ظلا على اتصال لا ينقطع بالصحراء والفعاليات الفكرية التي تمثل فيها . وقد أضيف إلى هذا التراث الشفهي السابق عناصر أخرى مما استجد بعد الإسلام على العرب :

أضيفت أمجاد الفتوحات وأيامها وأضيفت العصبيات السياسية — القبلية التي فجرها التنازع على السلطة ، وأضيفت الشعوبية التي نمت لدى الشعوب المغلوبة وبخاصة الفرس في العراق . وأضيف تشجيع الأمويين لدراسة الأنساب والأخبار . وكانت أولى الخطوات انتقال التراث الموروث والجديد معاً من الرواية الشفهية إلى الكتاب المكتوب . بدأ تسجيل ذلك على سبيل معاونة الذاكرة قبل نهاية القرن الأول الهجري وخلال النصف الأول من القرن التالي . ولقد نستطيع أن نعتبر عبيد الله بن أبي رافع كاتب أمير المؤمنين على مدة خلافته في الكوفة أول مؤرخ مؤلف في المدرسة : فقد كتب : تسمية من شهد مع أمير المؤمنين في حروم الحمل وصفين والنهر وان من الصحابة . ذكره شيخ الطائفة في الفهرست . ويقول صاحب التريعة : « هو أول من صنف في المغازي والسير والرجال في الإسلام لأنه لم يعرف من سبقه » ... (١) ولقد نستطيع أن نعتبر كتاب المتألب الذي ألفه زياد بن أبيه (المتوفى سنة ٥٤ هـ) وعهد به إلى ابنه من أول الكتب المؤلفة في مدرسة العراق التاريخية لأنه تسجيل لأمور من التاريخ في ذلك الوقت المبكر من أواسط القرن الأول .

وبينما ظهرت طبقة من الرواية . الاخباريين مثل طلحة بن الأعلم ومحمد ابن عبد الله اللذين أخذ عنهما الطبرى أكثر من مائة مرة . وابن أبي صالح الذى اعتمد ابن الكلبى في أخبار الأنبياء وأبى الدبائل والمفضل الصبى اللذين اعتمد عليهما المدائى في أخبار خراسان وكثيرين آخرين يكفى لادراك كثرةهم أن نذكر أن واحداً منهم سيف بن عمر (وقد أخذ الطبرى بدوره كثيراً عنه) كان يروى ما يزيد على ستين رواية ... !

بينما ظهرت هذه الطبقة ظهرت بمقابل كتب تسجيل مروياتهم وخاصة تسجيل الأنساب العربية التي كان بعضها مسجلآً لدى بعض القبائل في كتب وصحف . ونرى في أخبار الأغاني ما يشير إلى وجود كتاب لتميم ذكره الطرماح بن حكيم الشاعر (ت ١٠٥ هـ) وكتب لقرىش وتفيف .

(١) انظر الفهرست الطوسي (ط. النجف ١٩٦١) ص ١١٣ وآغا بزرگ - التريعة ج ٤، ص ١٨١ .

ثم جاء بعد ذلك ، حوالي أواسط القرن الثاني الهجري طور جديد بظهور الرواة الجامعين الذين أخذوا يجمعون الشعر والأخبار والحديث والأنساب وهم من يسمون في الاصطلاح الأدبي بالرواة .. مثل عمرو بن العلاء (توفي سنة ١٥٤) وحماد الرواية (توفي سنة ١٥٦) وفي الاصطلاح التاريني بالأخباريين مثل أبي محنف (توفي سنة ١٥٧) وعوانة بن الحكم (توفي سنة ١٤٧) .

وبالرغم من أن بعض هؤلاء تخصص في الأدب أو الشعر أو اللغة ، كما تخصص آخرون بال الحديث ، أو تخصصوا بالأخبار وأيام العرب أو بالنسبة فان مبادئ الجميع كانت متقاربة يطل بعضها على بعض . ونستطيع أن نسجل من ناحية التدوين التاريني والعملية الأخبارية عدداً من الملاحظات في هذه الفترة :

١ - كان معروفاً لدى الناس في ذلك العصر اختصاص مدرسة المدينة والشام بالمغازي والفتح واحتياطات مدرسة العراق ببعضها في الأخبار والأيام والأنساب . فلما ألف محمد بن الحسن الشيباني العراقي في (السير) وصاحب الإمام الأوزاعي « ما لأهل العراق والتصنيف في هذا الباب ؟ فإنه لا علم لهم بالسير ! ..» علم الشيباني بالكلمة وكان كتابه (السير) صغيراً، وهو أساساً في الفقه، فكتب كتاب (السير الكبير) الذي حوى مع الفقه الأخبار والمغازي والفتح ويمكن أن يعتبر أول كتاب في بحث العلاقات الدولية . وكان هذا يعني في الواقع تحول احتياطات مدرسة الشام بالفتح إلى العراق أيضاً وبروز هذه المدرسة بدورها برواية الفتوح الإسلامية المختلفة على أساس روايتها الخاصة .

٢ - أن نوعاً من النظرة الكلية كان يحكم رجال المدرسة العراقية كافية . في بينما تجاوز النسابون في اهتمامهم القبيلة الواحدة إلى مجموع القبائل ، كان الرواة والأخباريون يجعلون محور اهتمامهم أخبار الأمة لا أخبار قبيلة أو حدث معين مفرد أو جماعة خاصة ، كما كان عليه العهد من قبل . أي أنهم جميعاً ساروا في طريق التاريخ وكانت بذلك المؤرخين الأولين .

٣ - أن التحزب السياسي أو القبلي أو القطري أو للنصر وخاصة في

العراق كان يظهر في الروايات المروية . فأبو مخنف كان يكشف عن ميلول علوية وعراقيه ويروي روايات قبائل أزد العراقية كما يروي روايات أهل الكوفة وهي بجانب عليّ ضدّ أهل الشام ، بينما نجد روايات قبائل كلب الشامية مروية لدى عوانة بن الحكم الذي كان أموي الموى . ومثله الزهري من قبل ، والاثنان يؤكدان على حتمية القضاء والقدر . ونصر بن مزاحم في (أخبار صفين) يتصار عن تعصب قبلي ويؤكّد على دور تميم . كما يتصار عن رأي شيعي ضدّبني أمية ، وقد تولى سيف بن عمر إذاعة روايات قبيلة تميم عن الغزوات العربية أما ابن اسحق فكان يتّشيع وكان قادر ياً ضدّرأي الأموي القائل بالجبر والتسليم لله . وقد رویت حروب قتيبة بن مسلم من قبل رواة من قبيلة باهله الذين أعطوهها تفاصيلها الخلية الشائعة وهي تختلف بوضوح عما روی عن هذه الحروب من بعد في التوارييخ الحولية التالية ...

٤ — أن ثمة غياباً لفكرة الدولة وعدم وضوح في فكرة الإمام أو الخليفة وحقوقه .. وهي أمور حاول الأمويون نشرها واقرارها ولكنها لم تظهر إلا فيما بعد لدى مؤرخي القرن الثالث ، أما في هذه الفترة فإن الوعي السياسي لم يكن قد تبلور بشكل يتجاوز في النظرة إطار الحزبية أو القبلية ليتصار عن رأي يستند إلى مصلحة الدولة والنظم العامة . وهكذا تناقض صفين أو ينافقا الخارج كما ينافق مقتل الحسين إما من وجهاً نظر عاطفية أو دينية أو قبلية أو حزبية ولكن تغيب فكرة الدولة . وثمة عطف على الثنرين والمعارضين وشك في مكانة قريش وأفضليتها وتبرير مقبول للتحركات المتمردة .

٥ — لم يقتصر الأخباريون الجامعون على رواية قطر معين أو قبيلة معينة ولكن جمعوا كافة ما قد يقع تحت علمهم أو يدهم من المعلومات جنباً إلى جنب وبعضها روايات عائلية . فسيف بن عمر يروي في الفتوحات روايات كوفية ويكمّلها ببعض الروايات المدنية والشامية . أما في الردة فيعتمد على روايات من الكوفة والجزيرة العربية والمدينة . ويرجع في كثير من الروايات إلى من ساهموا في الأحداث بأنفسهم . وعوانة بن الحكم لا يعتمد على روايات

قبيلته كلب فقط ولكن على روایات قبيلة أخرى وعلى رواة شاميين وأمويين لا كمال الصورة . وأبو مخنف يورد روایات أشياخ من الأزد ونمير وقيم ومحارب . ومع أنه اعتمد في صفين على روایات كوفية إلا أنه أضاف إليها روایات شامية ومدنية ... فإذا أورد أحد الأخباريين روایات مصره أو قبيلته فإنه لم يكن يستطيع إهمال الروایات المعارضة أو المتناقضة .

٦ - لم يحاول الأخباريون جمع الأخبار بشكل شامل فقط ولكن بشكل منظم أيضاً ، متصل السلسلة في الزمن . وقد ظهر هذا خاصة في البصرة والكوفة .

٧ - وقد استخدم الأخباريون الوثائق من عهود ورسائل رسمية ومن المحتمل أنهم لجأوا إلى الدوافين وسجلات ديوان الجندي والخاتم في الشام والعراق والمدينة والفسطاط .

٨ - تأثر الأخباريون بأسلوب المحدثين فأعطوا هممهم خاصة للسنّاد ينتقدونه إن انتقدوا أكثر مما ينتقدون نص "الخبر" غالباً ما كانوا يتناهبون في ايراد الأسناد وهذا ما سمح بتسرب الكثير من قصص المجالس ومن الشعر المصنوع والحوارات الكلامي إلى أخبارهم . وجعل الإحداث الإسلامية تروي في الأطر التي رويت بها « الأيام » القديمة ، كأنها استمرار لها . ويظهر التأثر القصصي عند سيف بن عسر وعوانة بن الحكم وأبي مخنف .

٩ - وقد أعاد النسابيون للدراسات التاريخية بما قدموها ، مع الأنساب ، من معلومات تاريخية عن أصحابها (ويظهر هذا خاصة عند مصعب الزيرري) . وقد توسع النسابيون في معلوماتهم تحت ضغط التيار الشعوري ، مما أعطى العصبية القبلية وأشراف القبائل مادة هامة تقابل ما أعطته كتب الطبقات لرواية الحديث من مادة وإن تكون أقل كثرة وتنوعاً .

١٠ - وأعاد النسابيون التاريخ من ناحية أخرى هي تجاوزهم حدود الاهتمام بقبيلة واحدة إلى روایة أنساب مختلف القبائل وأحوالها فقد خلق ذلك

من جهة نوعاً من الشعور بالأمة الواحدة أفقياً، كما خلق من جهة أخرى نوعاً من التأكيد على الاستمرارية الثقافية ، عمودياً، أي أبرز مفهوم الوحدة الثقافية المتصلة بين ماضي الثقافة العربية وحاضرها . ولم يسمح هذا بتأييد دعاوى العصبية القبلية وأفضلية العرب الحاكمين وتكون شعور واعٍ لدى المسلمين بأنهم أصحاب رسالة عالمية ولكن أجبر في الوقت نفسه تيار الموالى والشعوبية على الرجوع إلى التراث الأعمجمي وخاصة الفارسي .

١١ - ونجد بالمقابل أن علماء اللغة خاصة والنحو قد قاموا في الاتجاه نفسه بعمل مماثل سواء من حيث جمع الشعر أو مفردات اللغة أو أشكال التعبير وصوره . وقد مهد هذا في الواقع لظهور وحدة التاريخ العربي الإسلامي .

١٢ - وأخيراً فقد دخل على التاريخ وبشكل مبكر رافد تنظيمي لم يستطع التأثير الواضح فيه وبقى غريباً عنه لأن ميدان التاريخ هو الماضي بينما ميدان التنظيم هو التنبؤ بالمستقبل وكل ما أفاده منه التاريخ هو محاولة بعض المؤرخين تصحيح أو ضبط بعض الأحداث التاريخية عن طريق الأزياج والحسابات الفلكية . ولعلنا نذكر هنا منجماً معروفاً أسهם بدوره في كتابة التاريخ ضمن هذا المفهوم وإن لم يبق لما كتبه من أثر هو ما شاء الله المنجم . واسمه الأصلي ميشي (معناه يُروِّ) بن أثري . وكان يهودياً عاش من أيام المنصور إلى أيام المأمون يصفه ابن النديم بأنه « كان أوحد زمانه في علم الأحكام »^(١) . وقد كتب كتاب الدول والمملل وكتاب السلطان ولا شك أنه مارس فيما معلوماته ا التجوية كما كتب كتاباً وأصبح العلاقة بين التاريخ والتزجوم هو كتاب الواحد والعشرين في القراءات والأديان والمملل .

وقد ذكر الطبرى كتاباً باسم كتاب الدولة كان يحتفظ به المنصور ثم المهدي من بعده ، وفيه نبوءات تنظيمية بما حدث وما سوف يحدث وقد زيف فيه بعض رجال الحاشية للمهدي فجعلوا عهده أربعين سنة بدل عشر سنوات^(٢) .

(١) ابن النديم - الفهرست ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

(٢) الطبرى ج ٨ ص ١٤٦ (٤٩٦/٣ - ٤٩٧) .

وقد ظهر في هذه الفترة من الاخباريين ومن النساء وメン الحامرين بين هذا وذاك عدد هام وبعض الاخباريين من الرواة الذين لم يؤلفوا، أو لم يؤلفوا كثيراً، ولكن روایاتهم الكثيرة الهامة كانت مادة المؤلفات الأخرى و منهم :
 - الشعبي : أبو عمرو بن شراحيل المتوفى ما بين سنة ١٠٣ - سنة ١٠٥ / ٧٢١ - ٧٢٣ وقد ولد في الكوفة سنة ٦٤٠/١٩ وهو في الأصل من حمير ومن همدان فيها . ثم هو كوفي ومن التابعين ، وقد سكن المدينة عدة أشهر هرباً من المختار التقى . وشهد وقعة دير الجمامجم مع ابن الأشعث ثم نجا من انتقام الحجاج وعفا عنه وتولى الكتابة فترة من الوقت لقتيبة بن مسلم الباهلي ، كما أوفده عبد الملك بن مروان في سفارة خاصة إلى بيزنطة وعيته عمر بن عبد العزيز للقضاء . وإذا غلب على الشعبي الفقه والتفسير فقد اشتهر في الواقع بما روى من الأخبار في الاسرائيليات ، أخذها عن من أسلم من أهل الكتاب ، وفي القصص والتبايعة وأخبار اليمن والمغاربي . ويبدو أنه كان كثير الميل إلى تبع الأخبار يأخذها حتى عن الأعراب الذين يدعون رؤية المدن العجيبة المندثرة . وقد ورد اسم الشعبي في مواضع عديدة لدى الطبرى ، ونجد هناك نماذج مما روى عنه في هذا الباب .

ولم نذكر الشعبي لما كتب وألف ولكن لما روى ، فإن المصادر لم تذكر له من الكتب المؤلفة إلا القليل ، وإنما أخذت عنه روایاته لغيره فسجلها الاخباريون من بعده كأنه كان رئيس المدرسة والاسم الأول فيها . ويشبه في هذا الصدد بعض الشبه عبد الله بن عباس في مدرسة المدينة .

ولم يبق في أيدينا من تراث الشعبي سوى النتف الموزعة في المصادر . فهناك قطع من كتابه في (المغاربي) لدى الخطيب البغدادي ^(١) ، وقطعة كبيرة من كتابه الآخر كتاب الشورى ومقتل الحسين في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ^(٢) وهناك قطع من كتاب له في الفتوح أملأه إملاء دون أصول -

(١) الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد ج ١٢ ص ٢٣٠ .

(٢) المصدر نفسه ج ٩ ص ٤٩ - ٥٨ .

فيما يذكر الذهبي في تذكرة الحفاظ — وقد وصلتنا قطع منه لدى الطبرى .

— يونس المغنى أبو سليمان يonus بن سليمان المعروف بالمعنى وهو من أهل فارس . وابن النديم يذكر أنه أدرك الدولة العباسية وأنه من الموالي ، وكان مولى الزبير بن العوام ، ويضيف أنه كانت له كتب مشهورة في الأغاني والغنائم . ويقال إن ابراهيم (الموصلى ؟) أخذ عنه . ومن كتبه : كتاب القيام . وكتاب مجرد يonus كان مصدراً من مصادر أبي الفرج الأصبهانى في الأغاني .

— أبو روق : عطية بن الحارث الهمداني ، من كبار رواة الكوفة ومن المفسرين المعروفين . وقد أخذ عن الشعبي كما أخذ عن عكرمة والضحاك بن مزاحم وعن يزيد الفقعمي . وبالرغم من أنه لم يرو عنه بدوره تأليف كتاب تاريخي أو انجاري الا أن الطبرى يأخذ عنه في ٤٦ موضعًا في التاريخ . وينقل عنه جملًا في أخبار ما قبل الإسلام أخذها من تفسيره ، وفي الاسرائيليات . كما روى عنه أخباراً في حوادث عثمان ، وقصة عبد الله بن سبأ وقصة أبي ذر الغفارى ورأيه في مال المسلمين ...

— قحتم بن سليمان بن ذكوان مولى الثقفيين (عاش إلى ما بعد خلافة المنصور سنة ١٥٨) وأصله من سبي أصبهان وكان كاتب الخراج أيام يوسف بن عمر الثقفي ومن هنا كان اهتمامه بجمع المعلومات المتعلقة بالإدارة كما أن عمله سمح له دون شك أن يستفيد من الوثائق الرسمية . وتكشف لنا الروايات التي نقلها خليفة بن خياط في تاريخه والطبرى عن قحتم (بطريق حفيده الوليد بن هشام الذي حمل روایاته) أنه اهتم بالفتح الإسلامية في العراق والشرق والشام ومصر في عصر الراشدين وطبيعة تلك الفتوح لما يترتب عليها من نظم الإداره والمالي كما اهتم بذكر ولادة العراق في العصر الأموي وبمن كان على شرطهم بالبصرة والكوفة وواسط ومن كان على الخراج والرسائل . وذكر عصور التخلفاء وولادتهم ووفاتهم ومواضعها وقد زاد حفيده الوليد على روایات جده بعد ذلك بالأخذ عن رواة آخرين ^(١) .

(١) يوازي قحتم ويشبهه راوية آخر هو المغيرة الذي روى عنه ابنه عبد الله بن المغيرة أخباراً —

— أبو خالد يوسف بن خالد بن عمير السمني البصري (المتوفى سنة ١٩٠هـ) وكان رجال الحديث يضعونه ولكن روایاته التاريخية وصلتنا عن طريق خلیفة بن خیاط ونجدہ فيها يعني بأخبار شمال افريقيۃ في العصر الأموي ويدکر غزو المسلمين لصقلیة وسردانیة وحصار جلواء المغرب زمن معاویة وحركات الخوارج هناك . كما يتحدث في روایات أخرى ينتلها عن أبي البراء النميري ، وعن أبي الخطاب الأسدی حول فتوح الأمويين في المشرق وقتالهم للخزر والترك . فكأنه كان مختصاً بالعصر الأموي .

— أبو العباس وهب بن جریر بن خازم الأزدي (المتوفى سنة ٢٠٦هـ) وقد روى سيرة ابن اسحق وأخباراً أخرى عن أبيه وعن شعبة بن الحجاج خاصة . وبالرغم من أن مركز اهتمامه كان حول الحديث فإنه أتى بأخبار تاريخية كثيرة نقل منها ابن سعد وخليفة بن خياط تتعلق بحركة الحمل وواقعة الحرثة وحركات الخوارج في البصرة كما ذكر خلال ذلك بعض خطط هذه المدينة . وروى عنه بعض الأخبار في السيرة النبوية وفي تراجم شيوخه وموافقهم الفكريه . أما الأخباريون والمحاشون المؤلفون في مدرسة العراق فأقدمهم على ما يظهر هو :

— أبو المعتمر سليمان بن طرخان التيمي القيسري البصري (ولد سنة ٤٦هـ وتوفي سنة ١٤٣ عن سبع وتسعين سنة) فهو من التابعين ومن البارزين فيهم والمحدثين الثقات . « روى عن أنس (بن مالك) والحسن (بن علي) وغيرهما وكان عابداً صواماً فانتَأَ لله قواماً ... » كتب كتاب السيرة الصحيحة وقد فقدت إلا سبعاً وسبعين صفحة منها نشرها المستشرق فون كربر في ختام كتاب المغازي للواقدی الذي طبع في كلكتنا سنة ١٨٥٦ .

— أبو مخيف لوط بن يحيى (توفي سنة ١٥٧هـ) أخباري كوفي اهتم

— تكشف أن له اهتمامات قدم نفسها : في الفتوح والخراج والديوان والخلافة والشريطة والرسائل ... الخ . وقد توفي المثير بعد خلافة المادي .

بالاتساب ولكنه كان أبرز الاخباريين فيما يتعلق بفتح العراق وأخبارها (كما كان الواقدي عارفاً بالجهاز والسيرة والمدائني بخراسان وفارس والهند وقد اشتركوا في معرفة فتوح الشام^(١)).

كتب أبو منف أكثر من اثنين وثلاثين كتاباً . وبعضها لا شك من حول عليه . وكانت مواضيعه تدور حول «الردة» و«الفتوح» و«الشورى» و«صفين» و«النحوارج» وأحداث العراق خلال العصر الأموي . وقد اعتمد الطبراني كثيراً في هذه المواد وإن اعتبره المحدثون ضعيف الاسناد بسبب تساقطه فيه . وهو يعالج في كل كتاب من كتبه حادثاً واحداً من موقعة أو حدث أو شخص . وبالرغم من أنه يورد روايات قبيلته من الأزد إلا أنه يورد الروايات الكوفية الباقية وروايات قبائل أخرى كهمدان وطي وكثبة وتميم ، كما يورد روايات المدينة وقد نجم عن ذلك أن ظهر أبو منف بعيول عراقية ضد الشام وعلوية ضد الأمويين وقبيلية لا تنسجم مع تنوع مصادره ، ولو أنه لا يصل فيها إلى درجة التعصب .

وهو لا يهمل التسلسل الزمني لحوادثه فالأحداث عنده مفصلة ولكن دون تasselk كبير وتخاللها الصور والمشاهد من خطب ومحاورات وشعر مما يقربها من قصص السمر والأيام .

ومجموعة كتب أبي منف - وهي في معظمها على ما يبدو رسائل - يمكن أن تؤلف تاريخاً مفصلاً يكمل بعضه ببعض للفترة المتقدمة منذ عهد أبي بكر حتى أواخر العهد الأموي لولا بعض التغيرات . ونقرأ من عناوين كتبه : كتاب الردة ، كتاب فتوح الشام ، كتاب فتوح العراق ، كتاب الشوري وقتل عثمان ، كتاب الجمل ، كتاب صفين ، كتاب أهل النهروان والنحوارج ، كتاب مقتل علي (ض) ، كتاب وفاة معاوية ولولاته ابنه يزيد ومقتله الحرة وحصار ابن الزبير ، كتاب المختار بن أبي عبيد ، كتاب سليمان بن صرد

(١) ابن النديم - الفهرست من ٩٣ (طبعة فلوجل) .

وعين الوردة ، كتاب مرج راهط وبيعة مروان ومقتل الصحاحك بن قيس ، كتاب مصعب وولاته العراق ، كتاب مقتل عبد الله بن الزبير ، كتاب حديث باحميرا ومقتل ابن الأشعث ، كتاب بلاط الخارجي ، كتاب نجدة أبي قبيل ، كتاب حديث الأزارقة ، كتاب شبيب الخارجي ، كتاب دير الجمامجم وخلع عبد الرحمن بن الأشعث ، كتاب يزيد بن المهلب ومقتله بالعقر ، كتاب خالد ابن عبد الله القسري ويوسف بن عمر وموت هشام وولاته الوليد ، كتاب الصحاحك الخارجي وهناك غيرها ولكن هذه تكاد تكون كتاباً يشمل التاريخ الإسلامي في القرن الأول المجري حتى حوالي سنة ١٣٠ هـ .

وقد نشر فؤاد سزكين مخطوطاً لأبي مخنف وجده بعنوان أخبار الأمويين وطبعه في بريل - هولاندا سنة ١٩٧٢ ولعله بعض من هذه الرسائل - الكتب .

- عوانة بن الحكم (توفي سنة ١٤٧/٧٦٥ أو ١٥٨) وهو اخباري كوفي آخر من أصل متواضع عاصر أبي مخنف وتضليل أكثر منه بالشعر والأنساب وإن تساويها في معرفة أخبار الفتوح .

وقد روى عوانة وكتب ، يعكس أبي مخنف ، كتاباً عاملاً لا تتناول موضوعاً خاصاً ضيقاً ولكن أكثر سعة ، هي مطالع التاريخ الإسلامي العام ، فمن كتبه :

- كتاب التاريخ : وإذا صبح العنوان كانت هذه أول مرة يظهر فيها الاسم بمعنى التاريخ كعلم . وهو كتاب يتناول أحداث التاريخ الإسلامي في القرن الأول المجري . والمقتضيات عنه تكشف أنه تحدث عن الخلفاء الراشدين والردة والفتواح والصراع بين علي ومعاوية وتنازل الحسن وشئون العراق والشام حتى نهاية عهد عبد الملك بن مروان .

- سيرة معاوية ونبي أمية : وهو بدوره أول كتاب يخصص للخلافة والأسرة حاكمة في الإسلام . ويرجح روزنتال أن عوانة قد تناول في كتابه الخلفاء الأمويين على التوالي فإن صبح ذلك وهو الأرجح فإن الكتاب يبتدئ سلسلة

الترجم الموسعة وتاريخ الدول بعد السيرة النبوية وعهد الراشدين .

والكتابان يمثلان خطوة هامة في تطور التدوين التاريخي نحو الخلاص من القبلية ، وان لم يخلص من الشعر ومن أسلوب الأيام القصصي .

والروايات التي وردت في كتابيه – حسب المقتطفات الباقية – تكشف عن معرفة قوية بدخول العهد الأموي . ولعله أخذ معلوماته عن قبيلة كلب المعروفة لا بالوقاء للأمويين فقط ولكن بأنها (إذا نسي الناس علمهم حفظته عليهم) وذلك ما يفسر اللون الأموي الذي يصبح مروياته ولهجته الجبرية التي تسود تفسير الحوادث فيها . على أنه لا يتغصب للأمويين وإن حسب عليهم ، لأنه في الواقع لا يهم الآراء المعارضة لهم ولا الروايات العراقية والمدنية . وتجده في كتاب الانساب للبلذري روايات لعوانة بجانب الزبيريين وأخرى ضد الحجاج . ولدى الطبرى روايات رواها بجانب العلوين ، وأخرى ضد الكوفة .

وقد كان عوانة المصدر الذي استقى منه ابن الكلبى والمدائى والهيثم بن عدي وعن طريق هؤلاء نقل عنه الطبرى .

– سيف بن عمر التميمي أو الضي الأسدي : (توفي ١٨٠ / ٧٩٦ م) هو كوفي ثالث اخباري بدوره . نشأ في المدينة وبها تثقف ثم رحل إلى العراق وزار الكوفة ورأى الخليفة المنصور وعنه أخذ أهل الكوفة أحاديث عروة عن عائشة . وكان أهل المدينة يضطرون بها . وليس لسيف كتب كثيرة ، والكتابان المرويان عنه أحدهما عن الردة والفتورات والثاني عن الفتنة ووقعة الجمل وأخباره في الكتابين مستقاة من روايات قبيلته تميم ولهذا ظهرت فيها نظرتها القبلية والميول العراقية بشكل عام كما يظهر فيها القصص العاطفي على أسلوب الأيام . وبيدو من الروايات التي نقلها الطبرى عن سيف أنه كانت له كتب أخرى ولكنها ضاعت . وسيف بن عمر متهم كمعظم الاخباريين في رواية الحديث ولكنه عند الطبرى موثوق في الأخبار . وتظهر قيمته لديه إذا عرفنا أنه ينقل عنه في أكثر من ثلاثة مائة موضع . يرد اسم سيف لأول مرة في ذلك

التاريخ سنة ١٠ هـ ، السنة التي ادعى فيها مسلمة النبوة في حياة الرسول وينتهي
النقل عنه لآخر مرة سنة ٣٦ هـ ، في ابتداء خروج علي بن أبي طالب إلى صفين ،
وقد اعتمد الطبرى عليه أكثر ما اعتمد في أخبار الردة ومعركة الجمل .

ومصادر أخبار سيف جملة من الشيوخ منهم :

— هشام بن عروة المتوفى سنة ١٤٦ أو سنة ١٤٧ ، من محدثي المدينة ومن
النسابين الاخباريين ، ومنهم عروة نفسه وعبد الله بن الزبير أخوه ، كما أخذ
المعلومات التاريخية المتعلقة بمعركة الجمل عن شهود عيان ذكر الطبرى أسماءهم
فيما نقله عنه . ويبدو أن كتب سيف بن عمر كانت لدى راوية من الجيل
الثانى اسمه السرى بن يحيى وعنه نقل الطبرى في الدرجة الأولى روایات سيف
كما نقل عن طريق آخر هو عبيد الله بن سعد الزهرى المتوفى سنة ٢٦٠ هـ .

— أبو البختري وهب بن وهب القاضي القرشي المدنى المتوفى سنة
٨١٥/٢٠٠ — ٨١٦ في بغداد في خلافة المأمون . وقد نشأ الرجل في المدينة وأخذ
العلم والفقه عن جعفر الصادق ، وهشام بن عروة بن الزبير وعبيد الله بن عمر
العمرى ، وانتقل من المدينة إلى بغداد فيمضى انتقالاً إليها أثناء خلافة هارون
الرشيد ، فولاه القضاء بعسكر المهدى ، في شرقى بغداد .

وإذا كان أبو البختري من الذين ضعفوا في الحديث عند أهل الحديث حتى
نهى بعضهم عن الأخذ منه ^(١) إلا أنه كان من الاخباريين النسابين المعروفين ،
وقد روى عنه عدد من الفقهاء ومن الاخباريين أمثال ابن واضح وابن ثعلب
والصياغى وابن المسىب . وله عدد من المصنفات الضئيلة منها : — حسب
رواية ابن خلkan — كتاب الروايات ، كتاب طسم وجديس ، كتاب صفة
النبي ﷺ ، كتاب فضائل الأنصار ، كتاب الفضائل الكبير ، كتاب نسب

(١) انظر لسان الميزان ج ٦ ص ٢٣١ وما بعدها . وانظر ترجمة أبي البختري لدى ابن خلkan
— الروفيات (طبعة احسان عباس — بيروت ١٩٦٧) ج ٦ ص ٣٧ وما بعدها . ولدى
ابن سعد — الطبقات ج ٧ ص ٣٣٢ ومعجم الأدباء لياقوت ج ١٩ ص ٢١ .

ولد اسماعيل عليه السلام . ويحتوي كما ذكر في الوفيات على قطعة من الأحاديث والقصص .

— نصر بن مزاحم بن سيار : أبو الفضل المنقري التميمي (توفي سنة ٨٢٧/٢١٢) وهو كوفي أيضاً واخباري بارز . ومع أن بروكلمان يذكر أنه أول اخباري شيعي فقد لا يكون ذلك صحيحاً لاسيما إذا تذكرنا أبا مخنف ومحمد بن السائب الكلبي وهما أقدم منه بكثير . وعلى أي حال فقد دارت مواضيع كتبه في المحور نفسه : وقعة الجمل ، وصفين ومقتل الحسين ومقتل حجر بن عدي ، وأخبار المختار ومناقب الأئمة .

وقد عاد نصر كما نلاحظ إلى أسلوب الكثرين من تخصيص كتاب لحادثة . ولم يبق بأيدينا شيء من كتبه . وقد طبع له مؤخرآ كتاب صفين الذي جمع من خلال المقتطفات التي وجدت منه لدى الطبرى وابن أبي الحديد بصورة خاصة^(١) . وهذا ما يدل على شدة اهتمام المؤرخين به .

ويكشف الكتاب الكثير من منهج نصر وأسلوبه فهو شديد القرب من أسلوب الأيام وقصص الاسمار ؛ فيه الشعر والخوار والخطب وكثير من ذلك موضوع . ولا يشدد نصر في اصطناع الاستناد أو في تحديد التواريخ ولكنه لا يخفى ميله ضد معاوية والحزب الأموي .

— الهيثم بن عدي بن عبد الرحمن الشعلي (١٣٠ - ٧٤٧ هـ / ٨٢٢ م) يحتل مكانة خاصة في تطور التاريخ لا بجمعه بين دراسات التاريخ والأنساب فقط ولكن للطريقة التي تناول بها التدوين التاريخي وللمفهوم التاريخي عنده وللكتب التي ألفها . وبالرغم من أن ميدانه الثقافي يشبه ميدان ابن الكلبي والمدائني وأكثاره من التأليف يجمعه معهما إلا أنه يجب أن يتميز عنهما بمفهومه التاريخي .

وقد عاش في بغداد في جو من الحسد والنقد لأنه كان كثير الفضول ومناصبة الناس المفجوم . كما كان رقيق النسب . وبينما كان بعض العلماء

(١) نصر بن مزاحم تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون (ط . القاهرة - الطبعة الثانية ١٣٨٢) .

يتوقاہ حتى ليدوب أمامه، کابن الكلبی هشام، كان آخر ون خاصۃ من الشعراء
يسلقونه بالمجاء کأبی نواس و دعبدل المزراعی . ولا يوثقونه کمحدث . ويروون
أن جاريته قالت عنه: إنه کان يصلی طول اللیل فاذا أصبح جلس يکذب ! ...
تعني يروي الأخبار !

ومصادر معلوماته ، في الأخبار والنسب كغيره، إلا أنه فيما يظهر قد
اطلع أيضاً على بعض الكتب في أخبار الفرس وغيرهم ولعلها مترجمة لأننا
نجد في قائمة كتبه أكثر من كتاب في هذا الباب مثل : تاريخ العجم ونبي
أمیة ، تاريخ الفرس ، كتاب الدولة . وهي مؤلفات لها شأنها في تسجيل
الاتصال الثقافي العربي الفارسي اليونياني .

وقائمة كتبه طويلة جداً تزيد على الخمسين ^(۱) ولعل بعضها رسائل
صغریة . ولكنها كثيرة التنوع وبعضها في أنساب القبائل وأخبارها وبيوتها ،
وبعضها في المثالب وفي ولاة الأمصار وبعض في الموارج وفي أخبار الفرس
وبعض كذلك في تاريخ عمال الشرط وفي الخطط .. خطط البصرة والكوفة ،
أي في التاريخ الحضاري . ولعلنا نستطيع قسمتها إلى أربع مجموعات :

الأولى : الكتب المتصلة بالأنساب وبالمعلومات النسبية من أمثل کتاب
المثالب (الكبير والصغير) وكتب الأحلاف (حلف طي وكلب وتميم وأسد
ودهيل ... الخ) وكتب البيوتات (بيوتات قريش والعرب) وكتب المعمرين أو
من تزوج من المولى من العرب أو أسماء بغايا قريش في الجاهلية ومن ولد .
وكتبه في المثالب خاصة أعطته شهرة واسعة .

الثانية : الكتب التاريخية وهي أهم كتبه وفيها كتاب الدولة (أي العباسية)
 وتاريخ العجم ونبي أمیة ، وتاريخ الأشراف (وهو كتابان كبير وصغير)
 وأنباء الفرس ، وكتب الطبقات (للفقهاء المحدثين ، ولمن روی عن الرسول

(۱) انظر القائمة في الفهرست لابن النديم (ص ۹۹ - ۱۰۰) وفي معجم الأدباء لياقوت .

من الصحابة .. الخ) وكتاب التاريخ المرتب على السنين ولعله أقدم كتاب تاريخ عالمي أو إسلامي في الإسلام .

وبين هذه الكتب مجموعة تختص بمواضيع محددة مثل : كتاب الصوائف وهو مؤلف فريد في ذكر غزوات العرب المسلمين للروم . وكتاب الحوارج . وكتاب شرط الخلفاء ، وعمال الشرط لأمراء العراق ، وخواتيم الخلفاء وأخبار الحسن عليه السلام وأخبار زياد بن أمية ومقتل خالد القسري ومقتل الوليد بن يزيد بن خالد ...

الثالثة : كتب في تواریخ الأقالیم ومنها : كتاب خطط الكوفة ، وكتاب ولاة الكوفة ، وقصة الكوفة والبصرة ، وفخر أهل الكوفة على أهل البصرة ، ومديح أهل الشام ومداعي أهل الشام .

الرابعة : كتب في المواضيع النادرة ومنها : كتاب التوادر ، كتاب النساء ، كتاب المواسم ، كتاب المحرر ، كتاب الشباب ، كتاب التوافق ، كتاب منتظر الجواهر ... الخ . ولا شك أن من أهم كتبه :

ا - كتاب التاريخ المرتب على السنين ولعله المثال الأقدم الذي كتب في الإسلام لتاريخ العالم أو الإسلام والذي نسج الطبرى على منواله حتى أصبحت كتابة التاريخ العالمي على أساس الحواليات هي المنهاج التاريخي التقليدي من بعد . ويعبر الكتاب عن ادراك واضح لمفهوم وحدة التاريخ ، أو وحدة التاريخ الإسلامي خاصة كما يعبر عن ادراك ووحدة الأمة الإسلامية ووحدة تجربتها عبر السنين .

ب - تاريخ الأشراف الكبير وهو كتاب للتاريخ في إطار الأنساب جمع فيه بين طرق الأخبار والنسب . وقد قلدته البلاذري من بعد في كتابه المعروف : أنساب الأشراف . وتنعكس في الكتاب نظرة الأرستقراطية العربية إلى مكانها في المجتمع الإسلامي .

ج - طبقات الفقهاء والمحاذين وهو في تراجم هؤلاء على أساس طبقاتهم . ولعله أول كتاب من نوعه على طريقة الطبقات أيضاً سبق به طبقات ابن سعد . ولعل

هذا نسج على منواله في الطبقات الكبرى . ويعبر الكتاب عن ادراك لسلسل
التراث الإسلامي ووحدته خلال الأجيال المتتابعة من علمائه طبقة بعد طبقة .

ولم يبق من هذه القائمة الطويلة من الكتب حتى الآن سوى بعض المقتنيات
التي نجد لها لدى البلاذري في أنساب الأشراف وابن قتيبة في كتاب المعرف
ولدى الطبرى وفي مروج الذهب للمسعودي .

وبالرغم من أن الحميم بن عدي يتم بقلة التدقير وبالتساهل في الاسناد فان
هذا لم يمنع الكثيرين ، ومنهم الطبرى ، من أن يأخذوا عنه كثيراً . وقد اعتمد
الطبرى خاصة فيما يتعلق بالأنبياء وبسيرة النبي وبالراشدين والأمويين وبعض
أخبار العباسين كالمنصور وبغداد والمهدي . ويجب أن نذكر للهيم :

١ - أنه كان ذا فكر منظم جامع ، وطد للمؤرخين طرائق كان من الرواد
الكبار فيها وأصبحت بعد ذلك مناهج في النأليف وفي تدوين التاريخ : هي
الحوليات والطبقات والتاريخ العالمي .

٢ - أنه كان أول من كتب في الشؤون الحضارية والأثرية والنظم السياسية
والقضائية في كتبه عن خطط الكوفة والبصرة وعن الولاة والقضاة والشرطة
وجمع بذلك معلومات طبغرافية وجغرافية وسكانية وادارية وقضائية عن بعض
الأمصال تكشف عن مفهوم تاريخي متتطور جداً وجدير بالتوقف عنده لا سيما
حين نجد له كتاباً في (الدولة) ، وإن كنا نظن أنه حول الدولة العباسية .

٣ - إن انتاجه التاريخي كان وفيراً مما أعطى المؤرخين الكبار الذين
سيظهرون بعده ثروة ضخمة من المعلومات المنظمة .

٤ - أنه يمثل مطالع الاتصال بين الفكر التاريخي الإسلامي وتاريخ
الأمم الأخرى وهو اتصال لم يتمُّ كثيراً في الإسلام ولكن الحميم كان أول من
سجل وجوده وألف فيه .

- المدائني : علي بن محمد بن عبد الله (١٣٥ - ٢٢٥ / ٧٥٢ - ٨٤٠ / ٣)

الذي يمكن اعتباره قمة الطور الأخباري السابق للتأريخ . وهو بصري صار إلى المدائن ثم إلى بغداد وتوفي بها ^(١) . وارتبط برابط قوي من الصلة مع ابن اسحق بن ابراهيم الموصلي الموسيقي البغدادي المعروف . وكان شديد الحدب عليه ، موفرًا له سعة العيش والدعة . وقائمة كتب المدائني تجعله أول قائمة المكترين من التأليف في الإسلام . ولعله بالنسبة لعصره أكثر غزارة في الانتاج من ابن الجوزي أو السيوطي أو ابن طولون ، أو ابن عربي أو ابن سينا في عصورهم . وتعد قائمة المدائني ٢٤٠ كتاباً . وهو فيض هائل قد يكون معظمها مقالات أو رسائل محدودة الصفحات . وقد قسمها مرغليوث إلى ثمانيةمجموعات وذكر أنها قد تشبه مجموعة من الفصول في كتاب أكثر من شبهها بالكتب المطردة ..

- ١ - في أخبار النبي ، مثل أمهات النبي . صفة النبي . أخبار المنافقين . عهود النبي . تسمية المنافقين .
- ٢ - في أخبار قريش مثل نسب قريش . كتاب العباس بن عبد المطلب . أخبار أبي طالب وولده ...
- ٣ - مناكنح الأشراف وأخبار النساء . من جمع بين أختين . من جمع بين أربع . من تزوج محبوبة . من قتل عنها زوجها . من هجّاها زوجها ... وهي مجموعات من غرائب الأخبار .
- ٤ - أخبار الخلفاء وهي كل ما يجب أن نسميه تراجم أو سير أشخاص ولعلها من المؤلفات القصيرة مثل .. كتاب من تزوج من نساء الخلفاء . تسمية الخلفاء وكتاهم وأعمارهم . حل الخلفاء . وفي هذه القائمة كتاب أخبار الخلفاء الكبير ابتدأه بأخبار أبي بكر وختمه بأخبار المعتصم . ولا شك أن ما نجده عند المؤرخين التاليين مروياً عن المدائني فإنما هو مقتطفات من هذا الكتاب .

(١) انظر فيما يتعلّق بالمدائني ياقوت الحموي . وانظر (دراسات عن المؤرخين العرب) لمرغليوث وقد اعتمدناه في عدد من النقاط في هذه الترجمة وفي غيرها . وقد ظهر كتاب به بعنوان : «شيخ الاخباريين» بقلم محمد فهد (طبعة النجف سنة ١٩٧٥) .

٥ - في الأحداث الرئيسية في الإسلام . وهي بدورها رسائل صغيرة في الغالب .. كتاب الردة . كتاب الحمل . كتاب النهروان . كتاب الخوارج . خطب علي بن أبي طالب وكتبه إلى عماله . أخبار الحجاج ووفاته . ويضيف ياقوت إلى هذه القائمة كتاباً كبيراً لم يذكره الفهرست باسم كتاب الدولة العباسية وقد وقع بعضه لياقوت بخط السكري العالم المنقب .

٦ - في الفتوح .. فتوح الشام منذ أيام أبي بكر حتى أيام عثمان . فتوح العراق وإلى آخر أيام عمر . فتوح خراسان وأخبار أمرائها (مثل قتيبة ونصر بن سيار) . كتاب ثغر الهند وكتاب أعمال الهند . والقائمة في هذه المجموعة طويلة تغطي منطقة الفتوح الإسلامية عدا إفريقية الشمالية وأسبانيا . ولعل معظم المسادة في هذه الكتب قد دخل في كتب البلاذري ، في العصر التالي ، أو فيما عزي إليه من بعد .

٧ - أخبار العرب وتضم مجموعة من الأخبار الغربية ولكن في إطار الأساليب العربية التقليدية .. كتاب من نسب إلى أمها . كتاب من سمي باسم أمها . كتاب الخيل والرهان . كتاب بناء الكعبة .

٨ - التاريخ الشعري ، وعناوين الكتب في هذه المجموعة تعكس بدورها ولع المدائي بالغريب من الخبر والحديث .. كتاب من تمثل شعره في مرضه . كتاب الآيات التي جوابها كلام . كتاب من وقف على قبر فتمثيل بشعر . كتاب من بلغه موت رجل فتمثل شعراً أو كلاماً . كتاب من تشبه من النساء بالرجال . كتاب عن فضل الاعرابيات على الحضريات ... ويضيف ياقوت إلى هذه المجموعة من الرسائل الصغيرة في الغالب قائمة أخرى من الكتب المطولة لعلها تضمنت مادة أكثر أصالة وسعة من هذه المجاميع السابقة وكانت أقرب إلى التاريخ منها إلى الرسالة أو المقالة . وفي هذا المجال لدينا مجموعتان ..

٩ - كتب في التاريخ الحضاري .. قضاء أهل البصرة . قضاء أهل

المدينة . ضرب الدرهم والصرف . كتاب المدينة . كتاب مكة ...

١٠ - كتب أخلاقية وجغرافية . منها مقالة في الكور وجبارتها
وهو جهد مدهش في التأليف والنشاط الثقافي حتى ولو كانت رسائل محدودة
الحجم . وهي تكشف بعنوانها وبالمعلومات التي يمكن أن تمحوها :

أ - ميل المدائي إلى المواقف الغربية والمعارف الطريفة والتفاصيل الشبيهة بالشارة للفضول .

جـ - اطلاع المدائي الواسع على التاريخ الإسلامي كله وقد رتبه على استخلاص الأمور المشابهة من خلال معلو ماته الواسعة . وهي قدرة فريدة في بابها ، تعكس نوع الاهتمامات الثقافية السائدة في ذلك العصر .

وقد بقي لنا من المدائني إلى اليوم كتاب واحد فقط هو نسب قريش وأخبارها كما بقيت لنا مقتطفات عديدة من مؤلفاته المختلفة ونجده منها خاصة في العقد الفريد لابن عبد ربه مجموعة كاملة لخطب ورسائل علي بن أبي طالب هي أيضاً التي نجدتها في (نوح البلاغة) الذي جمعه الشريف الرضي ولو أنه لم يكن يثق كثيراً في المدائني . ومصادر معلومات المدائني كانت من جيل الأخباريين الذي سبقه .. من أبي محنف وأبن اسحق والواقدي وقد أضاف إليها بجموعه الخاصة وتوسيع في الأخذ من روایات المدينة واستفاد من روایات البصرة خاصة فيما يتعلق بالحواجز ومدينة البصرة ويفتح خراسان وما وراء النهر . توسيع في جميع المادة فجاءت أخباره أو في بكثير من غيره .

وقد اتى المدائني في النهج التاريخي طريقة المحدثين في نقد الروايات وإثبات الأسناد مما أعطاه لوناً من الثقة لدى الناس . كما نظم المادة الواسعة التي وقفت له تنظيمياً متوازناً خدم التأليف التاريخي ، وكان بذلك كلما خطوة هامة في تطور عملية التاريخ كما أضحت المصدر الرئيسي للمؤرخين التاليين .

ولعل آخر من يأتي في هذه السلسلة من رواد المدرسة العراقية اثنان ..
 أحمد بن الحارث الخزاز (توفي سنة ٢٥٨ هـ .) مولى المنصور(؟) وهو صاحب المدائني وقد ألف مثله في السيرة النبوية (مغازي النبي وسراياه وذكر أزواجها) وفي الخلفاء (أسماء الخلفاء ، أخبار أبي العباس ، كتاب الخلفاء) وفي الفتوح (كتاب مغازي البحر في دولةبني هاشم ، وذكر أبي حفص صاحب إقريطش) وفي الجغرافيا (المسالك والممالك) وفي أمور أخرى متفرقة (كتاب الأخبار والتواتر ، كتاب شحنة البريد ، كتاب القبائل ، كتاب الأشراف ، كتاب أبناء السرارى) ... ولم يبق من هذا المؤرخ شيء يتعدى بعض المقتطفات لدى الطبرى وغيره .

عمر بن شبة بن عبيد (توفي سنة ٢٦٢ عن تسعين عاماً / ٨٧٦ م) .
 وهو بصرى .. شاعر اخباري وفقىء وقد روى عن ابن سلام وهارون بن عبد الله وابراهيم بن المنذر فهم مصادر معلوماته . أما كتبه فتزيد على ٢٢ كتاباً معظمها تاريخي ومنها .. كتبه عن الكوفة والبصرة والمدينة ومكة . وكتبه عن أخبار بنى نمير ومقتل عثمان وأخبار المنصور وكتبه عن أمراء الكوفة وأمراء البصرة وأمراء المدينة وأمراء مكة . وكتاب الكتاب قوله : كتاب محمد وابراهيم ابني عبد الله المحسن ، كتاب التاريخ . وكتاب السلطان (ولعله تأثر فيه بالثقافة الفارسية) وكتب أخرى في الأدب والنسب (١) .

وأما عن النسابين والأنساب ، فإن تجدد العناية بتعلم الأنساب بعد الفتوح الإسلامية خاصة وإنشاء الدواوين ثم التوسع في ذلك خلال العصر الأموي بسبب العصبيات القبلية التي ظهرت فيه ، وحاجات الادارة ، والعطاء ، وعملية الإسكان للقبائل في الأمصار وظهور أرستقراطية عربية إسلامية في القرن الأول تحاول الحفاظ على امتيازاتها مقابل نمو الشعوبية كل ذلك أوجد حاجة اجتماعية علمية — اقتصادية أشد إلى الأنساب منها في العهد الجاهلي .

(١) انظر ابن النديم — الفهرست من ١١٢ - ١١٣ .

و حين انصرف النسابون إلى جمع المادة و تسجيلها جمعوا معها ومن حولها الكثير من المادة التاريخية التي دخلت التاريخ من بابه الأوسع .

ولعل أول خط تاريخي كتب في الإسلام إنما كان في النسب وإنما كان على يد أولئك التفر ثلاثة الذين أتى بهم عمر بن الخطاب فعهد إليهم بوضع سجلات الأنساب للدواوين التي أنشأها . وهؤلاء هم :

- أبو عدي جبير بن مطعم بن عدي القرشي .
- أبو يزيد عقيل بن أبي طالب عبد مناف الماشي (شقيق علي) .
- أبو صفوان خرماء بن نوفل بن أهيب الزهري القرشي .

فسجلات هؤلاء التي دونوها كانت أساس كتب النسب و سجلاته الرسمية في الإسلام . وقد سجلت في الأمصار العربية وخاصة في البصرة والكونية - ثم في واسط - من العراق ، وفي دمشق بالشام وفي مصر ، سجلات أنساب أخرى كان مركزها « دواوين » الجند . وقد رأينا بعضها يحرق في البصرة خلال ثورة ابن الأشعث سنة ٨٢ - ٨٣ هـ . ويبدو أن بعض هذه السجلات كان مصدرأً من مصادر معلومات النسابين والمورخين . وقد ظهر نسابون كثيرون بعد ذلك جمع بعضهم إلى النسب علم الأخبار والأدب أيضاً ، ومن أبرزهم :

محمد بن السائب الكلبي (توفي ١٤٦ / ٧٦٣) وقبيلته في الشام مهدت له الاتصال بعلم الأنساب ، مع الأدب والأخبار ، فحاول جمع أطراف هذا العلم معتمداً حسب ما قال على أفضل نسبة في كل قبيلة^(١) . وأضاف إلى ذلك شعر النثائض .

وهو متهم بالتشييع مع أن هذا قد يكون السبب في نقد المحدثين له إلا أن ثمة اتفاقاً على أنه أول النسابين الكبار ولكنه روى ولم يؤلف في النسب .

(١) ابن النديم . الفهرست ، صفحة ٩٥ (طبعة فلوجل) .

وقد تابع العلم من بعده ابنه الذي عاش في كنف أحد البرامكة : جعفر ، كما اتصل بالمؤمن وهو : هشام بن محمد الكليبي (توفي ٨١٩ / ٢٠٤) على أنه توسع أكثر من أبيه بالأخبار والتاريخ وألف في ذلك كله فقائمة كتبه قرابة ١٥٠ كتاباً .

وعناوينها تشبه أن تكون عناوين مقالات في مواضيع محددة وتشبه كثيراً بقائمة كتب المدائني فهما يجريان في الواقع في ميدان واحد . وقد قسم ابن النديم تلك الكتب إلى مجموعات (١) .. نعددها في مجموعات عشر ..
الأولى .. كتبه في الأخلاق .. حلف عبد المطلب وخزاعة . حلف الفضول . حلف كلب وتميم ..

الثانية .. كتبه في المأثر والبيوتات والمنافرات . ومع أنها تخدم عامة الأرستقراطية العربية إلا أن فيها الكثير من الكتب التاريخية من مثل كتاب بيوتات قريش . بيوتات ربيعة . بيوتات اليمن .

كتاب الكنى . كتاب شرف قصي بن كلاب . كتاب ألقاب قريش .
ألقاب ربيعة . ألقاب اليمن .

كتاب المثالب . كتب في التوافل . أخبار العباس بن عبد المطلب . كتاب ملوك الطوائف (؟) . كتاب ملوك كندة . كتاب ملوك اليمن من التابعة . كتاب تفرق الأزد . كتاب طسم وجليس .

الثالثة .. كتبه في أخبار الأوائل .. وهي مجموعة تتناول العهود السابقة للإسلام منذ آدم حتى الباهرية ويدخل فيها كتب عن عاد وعيسى وبني إسرائيل وحمير . كما تدخل كتب عن أديان العرب والأصنام وحكام العرب والخيل والجن والسيوف والقداح ...

(١) ابن النديم ، الفهرست ص ٩٦ - ٩٨ . ويلاحظ أن أقسام ابن النديم يختلط بعضها البعض فهي ليست دقيقة القسمة وذلك حسب عناوين الكتب على الأقل .

الرابعة .. كتب ما قارب الإسلام من أمر الجاهلية .. مثل كتاب اليمن وأمر سيف. كتاب أزواج النبي . كتاب من هاجر وأبوه . كتاب أخبار عمرو ابن معدىكرب ..

الخامسة .. كتبه في أخبار الإسلام .. كتاب التاريخ . كتاب تاريخ أخبار الخلفاء . كتاب صفات الخلفاء

السادسة .. كتبه في أخبار البلدان والجغرافيا .. كتاب البلدان الكبير . البلدان الصغير . كتاب أسواق العرب . كتاب الحيرة وتسمية البيع والديارات . كتاب قسمة الأرضين . كتاب الأقاليم ... الخ .

السابعة .. كتبه في أخبار الشعر وأيام العرب .. كتاب المنذر ملك العرب .. كتاب داحس والغراء . كتاب أيام فزارة . كتاب الأيام . كتاب ميسيمة الكذاب ...

الثانية .. كتبه في الأخبار والأمسكار .. كتاب الفتىان الأربع . كتاب عجائب البحر . كتاب الأحاديث .

الثالثة .. كتب الأنساب .. النسب الكبير . ويتضمن ، بجانب نسب نصر ونسب اليمن ، كتاباً آخر في الأنساب المفردة .. لقریش وولد العباس . ومعد بن عدنان ... وكتاب الكلاب الأولى والكلاب الثاني (وهو يومنا من أيام العرب) . وله كتاب جمهرة الجمهرة . وقد صنف كتاب (الملوكي) في الأنساب بجعفر البرمكي وكتاب الفريد في الأنساب للمأمون .

العاشرة .. وأخيراً كتب تتعلق بالخلفاء .. أولاد الخلفاء . أمهات الخلفاء . كنى آباء الرسول . أمهات النبي .

ولم يبق لدينا من كتبه سوى (الأصنام) وقد طبع ، وجزء من كتاب جمهرة النسب ، مخطوط بالمتحف البريطاني . وهو يحوي مع الأنساب بعض

اللاحظات عن الرجال . وبالرغم من أن المداني يعتبره ناقصاً في أنساب اليمن إلا أنه أضحت المرجع الأساسي للمؤلفين من بعد .

ويلاحظ أن ابن الكلبي اهتم خاصة بما سبق الإسلام من أحوال العرب والناس أكثر من اهتمامه بالتاريخ الإسلامي . واهتمامه بالأنساب والأدب كذلك قدر اهتمامه بالأخبار . وتتنوع مصادر معلوماته فهو يأخذ عن أبيه وعن عوانة وأبي مخنف والرواية من القبائل خاصة ، إلا أنه يضيف مصادر مترجمة في الغالب عن الفارسية فيما يتعلق بتاريخ إيران ، وشعبية أسطورية فيما يتعلق بتاريخ اليمن ، وعن أهل الكتاب فيما يتعلق بتاريخ الأنبياء السابقين . وبعض معلوماته مأخوذة عن الوثائق أو عن كتب سريانية أو أغريقية في كنائس الحيرة وأديرة العراق .. مثل كتاب الحيرة وسمية البيع والديارات ، وكتاب المندر ملك العرب . وكتب الأقاليم والبلدان . وهو في هذا وثيق المعلومات كما أنه وثيق كذلك في أمور الأنساب وأحوال الحاهليه . وتضطرب الثقة ببعض معلوماته حين يتناول تاريخ اليمن لأنّه يعتمد على القصص الشعبي المتداول ، ومن الصعب الافتراض بأنه يعرف التواريχ اليمنية القديمة أو يقرأ الخط المستند الذي كتبت به التقوش الأثرية والمخلفات المكتوبة .

وقد عاصر ابن الكلبي نسبة آخر اهتم خاصة بالنسبة ، هو :

— أبو اليقظان النسابة (توفي ٨٠٨/٥١٩ م) واسمـه عامـر بن حـفص وـكان مـولـي لـبني تمـيم ^(١) وـيلـقب بـسـحـيم . وـكان عـالـياً بـالـأـنـسـابـ وـالـأـخـبـارـ وـالـمـائـرـ وـالـمـاثـلـبـ . وـيتـميـز بـأـنـهـ كـانـ أـوـلـ مـنـ أـلـفـ فـيـ الـأـنـسـابـ عـامـةـ تقـلاـ عنـ الـرـوـاـيـاتـ الـقـبـلـيـةـ . وـلـهـ مـنـ الـكـتـبـ : النـسـبـ الـكـبـيرـ ، وـكـتـابـ أـخـبـارـ تمـيمـ ، وـكـتـابـ نـسـبـ خـنـدـفـ ... وـكـتـابـ النـوـادـرـ . وـلـكـنـ هـذـهـ الـكـتـبـ ضـاعـتـ فـلـيـسـ مـنـهـاـ الـآنـ سـوـىـ مـقـطـعـاتـ مـتـفـرـقـةـ . وـقـدـ نـقـلـ الـمـدـانـيـ كـثـيرـاـ عـنـهـ . وـيـدـوـ أـوـلـ عـنـيـةـ لـلـنـوـادـرـ وـأـنـ كـتـابـهـ بـهـذـاـ العـنـوانـ لـقـيـ بـعـضـ الرـوـاجـ ، وـقـدـ اـطـلـعـ عـلـيـهـ اـبـنـ النـدـيمـ فـيـ الـقـرـنـ

(١) انظر الطبرى ج ٤ ص ٤٤٩ .

الرابع . ولهذا أيضاً مزج في كتابه النسب الكبير ما بين الأنساب والأخبار . وتوكّد المقططفات المأخوذة عنه لدى البلاذري وابن خياط وغيرهما هذه الملاحظة كما توّكّد أمراً آخر هو عنایته بأخبار البصرة وأحداثها .

وئمة من العصر نفسه بين علماء النسب والأخبار ..

- عبد الرحمن بن عبدة .. وكان من النسائيين الثقات حسن المعرفة بالماضي والأخبار وأيام العرب . وقد ألف على مثال ابن الكلبي .. كتاب الشجاعان بالإضافة إلى ١١ كتاباً آخر في الأنساب المختلفة ^(١) .

وهناك أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية مولى بنى العباس (المتوفى سنة ٢٤٥ھ) وقد كان من علماء ورواة بغداد البارزين في النسب والأخبار واللغة والشعر . روى عن أبي عبيدة وقطرب وتلمذ لأبي اليقظان النسابة وغيره . عمل مؤديباً وألف من الكتب ما بلغ في تعداد ابن النديم ثلاثة وثلاثين كتاباً تجعل منه بقية مدرسة الإخباريين في كثير من النواحي ، أو مرحلة الانتقال بينها وبين مدرسة التاريخ . ومن هذه الكتب :

كتاب تاريخ الخلفاء ، كتاب مقائل الفرسان ، ثلاثة كتب حول الأمهات : أمهات أعيان بنى عبد المطلب ، أمهات الشيعة من قريش ، أمهات النبي . وسبعة كتب في الشعر وكتب في التحيل والتبات والأرحام . هذا عدا ثمانية كتب في النسب منها كتاب في المؤتلف والمختلف لعله أقدم ما صنف في هذا الفن وقد سلم هذا الكتاب وطبعه المستشرق وستنبلد (غوتتنن سنّة ١٨٥٠) كما بقي من مؤلفاته أيضاً :

- كتاب المحير وفيه خلاصات تاريخية هامة . طبع بعناية المستشرق شتير في بيروت (دون تاريخ) .

(١) انظر ابن النديم ص ١٠٥ .

- كتاب المغتالين ، وكتاب من نسب إلى أمه . ومنهما مخطوطتان في دار الكتب بمصر .

أما كتابه الضخم والأكبر فهو : كتاب القبائل الكبير والأيام كتبه للفتح ابن خاقان في أربعين جزءاً كل جزء في ٢٠٠ ورقة (١٦ ألف صفحة) ووضع له فهرساً في ثلاثين صفحة . رأه ابن النديم في القرن الرابع بخطه . وقد ضاع هذا الكتاب .

ولنلاحظ أن ثمة علماء في النسب فهموا هذا العلم على وجه سليبي ، وبدل أن يكون سجل مفاخر العرب جعلوه مستودع المثالب وألفوا التأليف العديدة في ذلك دعماً للشعوبية . ومن أبرزهم ^(١) :

علان الشعوبي (توفي في أوائل القرن الثالث) وكان منقطعاً إلى البرامكة ويسكن في دار الحكمة للرشيد والمؤمن . وهو راوية عارف بالأيام والأنساب ، ولكنه لم يدع قبيلة أو حيّاً من أحياء العرب إلا كتب عن مثالبها في (كتاب المثالب) الذي جمع المطاعن حول ما يزيد على ٧٥ قبيلة عربية من بينها قريش . ولا شك أن الكتاب كان يحوي بهذا الشكل الكثير مما يهم التاريخ . ولعلان بجانب هذا الكتاب ، خمسة أخرى من بينها كتاب الميدان الذي ذكر ابن النديم أنه هتك فيه العرب وأظهر مثالبها ...

ثم ظهر بعد هؤلاء :

- مصعب بن عبد الله الزيري (توفي سنة ٢٣٣ أو ٨٤٧ - ٨٥٠ وله ٩٦ سنة) . وقد كتب كتابين بما النسب الكبير وقد ضاع ، ونسب قريش وقد وصلنا . ومصادره مأموردة عن الزهري وعن والده وعن بعض علماء

(١) لمل أول كتاب كتب في مثالب العرب ذلك الذي كتبه حسب رواية ابن النديم (من ٨٩) زياد بن أبيه ليدفع هجوم العرب على نسبة المنشور . وانظر قائمة مؤلفات علان لدى ابن النديم من ١٠٦ - ١٠٥ .

النسب والرواة ، وبعضهم رواة شه gioon . أما الإطار الذي أفرغ فيه الكتاب (فهو الذي اتبعه ابن الكلبي من قبل والبلاذري من بعد) . وأما محتويات الكتاب « فتلقي ضوءاً خاصاً على التحولات في الروابط القبلية وعلى التبدليات في خطوط الأنساب . ويعطي الزبيري بالإضافة إلى ذلك أخباراً بعضها مهم مفصل عن بعض الشخصيات الظاهرة من جاهلية وإسلامية »^(١) ، وبصورة عامة .

وقد تلمذ على مصعب ابن أخيه ..

— أبو عبد الله الزبير بن يكاري بن عبد الله بن مصعب القرشي ، ولد سنة ٧٨٨/١٧٢ في المدينة وتوفي سنة ٢٥٦/٨٧٠ . وله أربع وثمانون سنة . وهو من أهل المدينة ، اصطدم مع العلوين فيها فانصرف إلى بغداد ثم تولى قضاء مكة سنة ٢٤٢ حيث توفي وترجمته موفورة في العديد من المصادر^(٢) . وقد كتب خاصة في الأخبار وأنباء الشعرا وآباء العهد البااهلي ، وفي النسب . ونجد بين كتبه مثلاً قدماً لتسمية الكتاب باسم من ألف له . فهو يعطي كتابه في اللغة اسم الموقيات لأنه ألفه للموفق بالله أخي الخليفة المعتمد . أبرز كتبه بقى لنا هو : كتاب نسب قريش وأنباءها ، وهو يختلف في ترتيبه ومضمونه عن كتب النسب الأخرى . وقد لاحظ شيئاً من ذلك معاصره اسحق الموصلي فقال : « لقد سماه صاحبه كتاب النسب وهو في حقيقته كتاب الأخبار »^(٣) . اقتبس منه أبو الفرج الأصفهاني في الأغاني ، في كافة الفصول تقريباً . ونجد مخطوطات منه أو من بعض أقسامه في استانبول وغيرها . كما طبع الجزء الأول منه في القاهرة (بتحقيق محمود محمد شاكر سنة ١٩٦١) .

وأما الموقيات فكتاب أقصاص من تاريخه تمازجه القصائد الكثيرة . وولع الزبير بالشعر يبدو في هذا الكتاب كما يبدو في كتاب نسب قريش .

(١) الدوري . نشأة علم التاريخ ص ٤٢ .

(٢) انظر وكيل - أنباء القضاة ١/٢٦٩ . وياقوت ، معجم الأدباء (القاهرة) ١٦١/١١ . وابن خلkan ، وفيات الأعيان (بولاق) ١/٢٣٦ .

(٣) انظر البندادي - تاريخ بغداد ٨ ص ٤٦٩ .

وَثُمَّةِ أَقْسَامٍ مُخْطُوْطَةٍ مِنْهُ فِي غُوْتِنْغْنَ (مُخْطُوْطَاتٍ عَرَبِيَّةٌ رَقْمٌ ٧٦) كَمَا أَنْ ثُمَّةَ مُخْطُوْطًا فِي الْبَصَرَةَ (الْعَبَاسِيَّةَ رَقْمٌ ٥٥ أَفِي ١٨٦ وَرَقَّةً) وَنَجْدَ مُقْتَبِسَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنْهُ فِي الْإِصَابَةِ لَابْنِ حَجْرٍ وَشَرْحِ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ^(١) . وَقَدْ طَبَعَ فِي بَغْدَادَ سَنَةَ ١٩٧٣ .

وَالزَّيْرِ عَدَا ذَلِكَ كِتَابٌ : أَزْوَاجُ النَّبِيِّ (وَمِنْهُ أُورَاقٌ مُخْطُوْطَةٌ فِي الظَّاهِرِيَّةِ بَلْدَمْشَ - مُجْمُوعٌ ٤١ / ١٠) ، وَكِتَابُ الْفَكَاهَةِ وَالْمَزَاحِ ، وَأَخْبَارُ الْمَدِينَةِ (وَمِنْهُ مُقْتَبِسَاتٍ فِي الْإِصَابَةِ لَابْنِ حَجْرٍ) وَكِتَابُ الْعَقِيقَةِ بِالْمَدِينَةِ ، وَكِتَابُ الْمَفَاخِرَاتِ .

وَيُظَهِرُ أَيْضًا مِنْ بَعْدِهِ .. ابْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ سَعِيدٍ (تَوْفِيَ سَنَةَ ٢٨٣ / ٥ .) وَهُوَ مُؤْلِفٌ مُكْثُرٌ . اتَّقَلَ مِنَ الْكُوفَةَ إِلَى أَصْفَهَانَ فَاسْتَقَرَ بِهَا وَلَعِلَّ لِتَشْيِيعِهِ عَلَى الْمَذْهَبِ الزَّيْدِيِّ أَثْرٌ فِي هَذِهِ النَّقْلَةِ وَفِي ضَيْعَ كَبِيْهِ الَّتِي تَمَلَّأُ صَفَحَةً كَامِلَةً وَتَشَبَّهُ قَائِمَةَ الْمَدَائِنِيِّ فِي عَنَوَانِيهَا وَلَعِلَّهَا مُثْلَهَا فِي كُونَهَا رَسَائِلٌ تَتَنَاهُلُ السَّقِيفَةُ وَالرَّدَدَةُ ، وَمَقْتَلُ عُشَّانَ وَصَفَّيْنَ وَالْحَكَمَيْنَ ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ دُونَ شَكٍّ تَحْمِلُ وَجْهَةَ نَظَرِ الْزَّيْدِيَّةِ فِي هَذِهِ الْأَحْدَادِ .

وَقَدْ كَتَبَ فِي (فَضْلِ الْكُوفَةِ) وَمِنْ نَزْلَهَا مِنَ الصَّحَابَةِ وَهُوَ مِنْ أُولَئِكَ كِتَابٌ فَضَّالِّلَ الْبَلَادَنَ . كَمَا كَتَبَ فِي (مِنْ قَتْلِ مَنْ آلَ مُحَمَّدٍ) وَهُوَ مِنْ أُوائلِ الْكِتَابَاتِ مِنْ هَذَا الْلَّوْنِ فِي الْأَدْبِ الشَّعِيْرِ كُلُّهُ .

وَيَجِبُ أَنْ نَضِيفَ أَخِيرًا أَنْ عَلَمَاءَ الْأَدْبِ وَالْلُّغَةِ وَالشِّعْرِ فِي الْقَرْنِ الثَّانِي وَمَطَالِعِ الثَّالِثِ قَدُّمُوا الْكَثِيرَ لِعِلْمِ التَّارِيْخِ وَزَوَّدُوهُ بِالْمَادَةِ ذَلِكَ أَنَّهُمْ فِي بَعْثَتِهِمْ عَنِ الْمَادَةِ الْلُّغُوْيَّةِ وَالشِّعْرِيَّةِ غَزَّوَا مَيْدَانَ روَايَةِ الْقَبِيلَةِ ، وَكَانَ هَذَا الْمَيْدَانُ خَاصًا مِنْ قَبْلِ بَنشَاطِ الرُّوَاةِ وَالنَّسَائِينَ ، فَجَمَعُوا بِهَذَا الشَّكْلِ شَتَّاتَ الْمَادَةِ التَّارِيْخِيَّةِ وَخَدَمُوا التَّدوِينَ التَّارِيْخِيَّ إِذَا دَخَلَتْ روَايَاتِهِمْ فِي صَلَبِ كِتَابِ التَّارِيْخِ .

(١) انظر مثلاً ابْنَ حَجْرَ - الْإِصَابَةَ جَ ١ صَ ١٢٧ ، ٣٣١ ، ٦٠٢ ، ٦٦٧ ... الخَ . وَانظر ابْنَ أَبِي الْحَدِيدَ - شَرْحُ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ ٢ / ١٦٩ - ٢٦٢ ، ١٧٠ ، ٥ صَ ١٢٩ ، ١٣٠ . وجَ ٦ صَ ١٧ - ٣٨ - ٣٤٢ - ٣٤٤ ... الخَ .

ومن علماء الأدب واللغة ، من أهل الكوفة :

– أبو عبيد القاسم بن سلام (توفي سنة ٨٣٩/٢٢٤) وقد أخذ عن الأصمعي وأبي عبيدة والكسائي والشيباني . وقد كتب كثيراً من الكتب في اللغة والأمثال . على أن أهم كتاب تركه لنا هو كتاب (الأموال) ونعتبره مع كتاب الخراج لأبي يوسف أهم كتابين نظرَ من خاللهما سواء من الناحية العملية أو الفقهية على النظام المالي في الدولة الإسلامية . وهو كنز من المعارف المختلفة في هذا الباب .

ومن علماء اللغة البصريين :

– أبو عمرو بن العلاء : الذي كان « أعلم الناس بالعربية وبالقرآن والشعر وب أيام العرب وأيام الناس » على حد قول الباحث ... وكانت كتبه التي كتبت عن العرب الفصحاء قد ملأت بيته إلى قريب من السقف ثم إنه تقرأ فأحرقها كلها »^(١) ...

وأبرز منه تلميذه ..

أبو عبيدة معمر بن المشن التميمي (١١٤ – ٧٣٢/٢١١ – ٨٢٦) وقد كان يجمع المعلومات ، بجانب الرواية والعلماء عن رواة البدو (حين يقدمون المرشد) وتيسّر له بهذا الشكل أن يجمع من الروايات القبلية والمحلية والأسرية ما شمل حقل الروايات العربية الشمالية كاملاً . وقد شهد له أبو الفرج الأصفهاني بعد الباحث بأنه « أعلم الناس بجمع العلوم » وابن التديم يقول أنه له « علم الإسلام والماهية ». وقد عرف بأنه يسجل معلوماته ويأخذ عن الكتب حتى لقد حاول بعضهم أن يجعل ذلك مطعناً عليه فقد ذكروا أنه « عَلِمَ مَا تُرِكَ مع أسفاره يقرؤها » وأنه « كان ديوان العرب في بيته ». وما من شك في أنه بهذا

(١) الباحث - البيان والتبيين (طبعة دار الفكر بيروت) ج ١ من ٢١٤ - ٢١٥ .

التدوين قد أسهם في حفظ الأخبار من جهة كما حافظ على روحها الأدبية الأولى كما رویت من جهة أخرى .

ولأبي عبيدة من الكتب عدد كبير يزيد على مائة وثلاثة كتب . مجموعتها تكشف اهتماماته العلمية . وبالرغم من أن طابع كتبه لغوي ويعكس وجهة نظر اللغويين ومع أنه كتب في اللغة أكثر من نصف كتبه إلا أنه ألف كذلك : في المثالب والمأثر .. مأثر العرب . مناقب باهله . كتاب الموالي . كتاب المثالب . كتاب لصوص العرب . فضائل الفرس .
في الفتوح .. فتوح الأهواز . فتوح أرمينية . كتاب خراسان . كتاب السواد وفتحه .

في أيام العرب وأخبارها . مغارات قيس واليمن . كتاب بيوتات العرب . كتاب الأيام . كتاب أيامبني يشكر . كتاب بنى مازن وأخبارهم .
كتاب الحمس من قريش . كتاب الغارات . كتاب القبائل .

وفي عدد من المواضيع التاريخية .. مثل .. خوارج البحرين واليمامة . كتاب مرج راهط . كتاب المجان ، كتاب مقاتل الفرسان ، مقاتل الأشراف ، كتاب الحمد وصفين ، كتاب مقتل عثمان . كتاب أخبار الحجاج . قصة الكعبة .
كتاب الأوس والذرجم . كتاب قضاة البصرة ، كتاب مكة والحرم

ولا يتهم أبو عبيدة بالوضع في أخباره ولكن يُغضّنه إلى العلماء والناس كثرة ما روی من مثالبهم من جهة و موقفه بجانب الشعوبية من جهة أخرى .
ولكن المؤرخين التاليين اعتمدوا عليه ، كما اعتمد اللغويون في الكثير مما روی وكتب . وقد ورد اسمه لدى الطبری في تاريخه أكثر من خمسين مرة
يروی فيها عنه .

وقد احترم الناس بالمقابل معاصرًا لأبي عبيدة لا يقل عنه شهرة هو :
- الأصمي : أبو سعيد عبد الملك بن قریب المتوفى في البصرة في سنة

أو سنة ٢١٧ ، في خلافة المأمون وهو من كبار علماء اللغة والنحو والأخبار والتواتر . وشهرته في اللغة خاصة والنحو لا تمنع من ذكره أيضاً في مجال الأخبار . فقد كان أيضاً من الإخباريين . وهو في الأصل من أهل البصرة ثم قدم بغداد واتصل بخليفتها هارون الرشيد وبالبرامكة ، وبالمأمون ، ونافس قرينه ، في ذلك العصر ، أبو عبيدة معمر بن المنفي منافسة ما تزال تذكرها كتب اللغة والأدب والنحو ، كمنasseة الكسائي والفراء . وله من الكتب الإخبارية عدد ومنها : كتاب النسب ، كتاب الخراج ، كتاب الفتوح ، كتاب التواتر ، تاريخ ملوك العرب الأولية . ولم يبق من هذه الكتب سوى هذا الكتاب الأخير الذي نشر (بتحقيق محمد حسن آل ياسين — بغداد ١٩٥٩) عن نسخة بخط يعقوب بن السكري ، نفيسة جداً مكتوبة على الرق محفوظة في باريس تاريخها سنة ٢٤٣ هـ . وأعطي الكتاب عنوان تاريخ العرب قبل الإسلام . وقد نقل الطيري بعض أخبار الأصمسي ومنها أخباره عن معركة ذي قار ويرد اسمه لديه في أحد عشر موضعأً .

تعريب التواریخ غير العربية .. — كان أبو عبيدة اثناً يمثل في الواقع تياراً ثقافياً له جذوره الشعيبة في العراق في العصر العباسي الأول وقد عرف هذا التيار باسم الشعوبية . وإذا كان للتاريخ العربي موقفه من هذه الحركة فإنها من وجهة نظر علم التاريخ قد أسهمت بدورها في إغناء المادة التاريخية ..

فاصحاب الميل الشعوبى حاولوا أن يضعوا بالعربى ما تأثر الفرس خاصة ، مقابل العرب ، وما تأثر غيرهم . وشهد القرن الثاني نتيجة لذلك حركة من الترجمة عن الفارسية كان من بينها ترجمة لكتب تاريخية وشبه تاريخية أسهمت في كشف مصدر تاريخي جديد للمؤلفين بالعربى .

وهذا العنصر أدخل على المدرسة التاريخية العراقية — التي أصبحت المدرسة التاريخية الأولى والرئيسة منذ أواسط القرن الثالث — عنصراً قصصياً أكثر مما هو أسطوري . ذلك أن المادة التاريخية المترجمة عن الفارسية لم تكن تواریخ

أو مادة ذات تسلسل زمني تاريخي ، وإنما هي سير مطلقة من قيود الزمن لأنه لم يكن للفرس من تقويم ثابت . فدخلت هذه المواد بشكل مادة تاريخية مشوشهة إلى التدوين التاريخي العربي . ولن سدت فراغاً في تاريخ ما قبل الإسلام للشعوب الفارسية فإنها لم تستطع أن توحي للمؤرخين وأصحاب الأخبار بخطة أو منهج تاريخي جديد . فظلت نشأة علم التاريخ الإسلامي عربية خالصة لا سيما اذا عرفنا أن ما ترجم عن السريانية والاغريقية لم يكن يحوي أي مادة تاريخية سوى ما كان يتعلق بعرب الحيرة أو عرب الجنوب .

وأخيراً نلاحظ أن انتقال الثقل السياسي والثقافي إلى بغداد وال伊拉克 قد امتص الطاقات الفكرية في المراكز الأخرى . وبينما تضاءلت مدرسة المدينة منذ أو اخر القرن الثاني حتى جفت في نهاية القرن الثالث ، نجد بالعكس أن الجو الثقافي التاريخي كله كان يتهياً في العراق لا لسيطرة العراقية فقط ولكن لظهور أبرز المؤرخين الأوائل منها . وبالرغم من أن الخط المدنى لم يهجر لأنه متصل بجذور دينية ، وبالرغم من أن سلسلة كتب المغازي التي ميزت مدرسة المدينة ظلت متصلة الحلقات قروناً بعد القرن الثالث ، الا أنها فقدت أصالتها تماماً وكانت السير والمغازي التالية ترجعاً وتكراراً مختصرأ أو مطولاً للسير الأولى .

* * *

الفصل السادس

ظهور المؤرخين الكبار

١ - الميزات العامة وجمهرة الماهدين

من نسماتهم بالمؤرخين الكبار هم طبقة كاملة من مؤرخي النصف الثاني من القرن الثالث كانوا النهاية الطبيعية لخط من التطور المستمر أصاب علم الأخبار وما يتصل به ، خلال أكثر من قرنين . وقد تميزوا بأنهم :

- ١) فهموا التاريخ بالمعنى الشامل فأفتقهم في الجملة عالمي والإسلام عندهم أمة واحدة . فالاتجاه القبلي أو الديني عندهم ضعيف أمام قوة العملية التاريخية .
- ٢) أظهروا اندفاعاً للرحلة في طلب العلم وجمع المعلومات كما استفادوا من أسلوب المحدثين في توثيق الرواية والسنن .
- ٣) استفادوا من مواد السيرة والأخبار والأنساب والشعر والأدب جمياً لتكوين مادة علم التاريخ . كما استفادوا أحياناً من تواريخ الأمم الأخرى ومن القصص الشائع .
- ٤) اختاروا مادة التاريخ بعد النقد من مختلف المصادر ونظموها في كتب

خاصة طبق أسلوب هو تارة حوليّ و تارة يتبع الأنساب و ثلاثة يختار موضوعه اختياراً من الحوادث المختلفة .

٥) وجد كافة هؤلاء المؤرخين في العراق إلا أنهم لم يمثلوا المدرسة العراقية السابقة فقط ولكن مثلوا تطورها وتطور مدرسة المدينة في وقت معًا . وقد حمل التاريخ في نهاية هذه الفترة فقط اسمه بعد أن لم يكن من قبل سوى « أخبار » أو « أنساب » أو « سيرة » أو « أيام ». أما السيرة النبوية فقد ظلت موضوعاً قائماً بذاته ويكتب بعنوان « السيرة » حتى القرن التاسع الهجري .

٦) ومن الضروري أن نضيف أيضاً ملاحظة هامة تتصل برابطة التاريخ والمورخين مع الجلو الثقافي العام هي أن علم التاريخ الإسلامي إنما اكتمل شكلاً على يد هؤلاء المؤرخين الكبار في الوقت الذي كانت فيه كافة الجهود الفكرية العربية تبدل بالتوازي ، في مختلف الميادين لبناء التكوين الثقافي العربي - الإسلامي . ففي القرن الثاني خاصة والثالث بذلت جهود واسعة لبناء الفقه الإسلامي وفهم القرآن وجمع اللغة وكشف أسرارها وتقعيد النحو ، واستجلبت كذلك الفلسفة الإغريقية والهندية وعلوم الطب والفيزياء والكميات ... أي أن الثقافة العربية كانت تقوم بعملية تحليلية تركيبية في وقت معًا لبناء ذاتها ، بأيدي أبنائها أنفسهم . وبينما نظم البخاري ومسلم علم الحديث وقواعديه ، اكتشف الخليل بن أحمد تحليلًا موسيقياً للشعر العربي يقيم تركيبه وأوزانه ، ووضعت على يد سيبويه والكسائي قواعد النحو من خلال الكلام العربي نفسه وعلى يد أبي حنيفة والشافعي وابن حنبل ومالك وجعفر الصادق أساس الفقه من خلال القرآن والسنة وجمعت اللغة والأدب والشعر على يد المبرد والفراء وأبي عبيدة وكشفت الأسس الجمالية والتوكينية فيها

ويبينما كان آخرون ينصرفون عن « العلم » الإسلامي إلى علوم العقل ويتعلمون عن طريق الترجمة على مدارس الفلسفة الإغريقية والهندية والهانستية ويطبقون ذلك على الفكر الإسلامي لظهور أفكار الاعتزال والكلام والباطنية ...

في تلك الفترة أخذ التاريخ الإسلامي شكله كعلم وبلورت الفكرة التاريخية الإسلامية على شكل معين لم تتحول عنه فيما بعد إلا في التفاصيل المحدودة . ومن نسمائهم بالمؤرخين الكبار هم الذين قاموا بهذا التطور الأساسي في مسيرة التاريخ .

٧) ولعل أهم ما نضيئه أخيراً هو أن النقلة من مرحلة الاخباريين والأنبار إلى مرحلة المؤرخين والتاريخ لم تم في قفزة واحدة ، وقد جاءت بين المرحلتين في الواقع مرحلة انتقالية ظهر فيها عدد من أنصار المؤرخين . واذا لم تكن هذه المرحلة واضحة زمنياً لاشباكها مع المرحلتين الآخرين فإنها كانت واضحة في تطور التأليف التاريخي نفسه إذ أن عدداً من الاخباريين طرقوا التأليف على مناهج المؤرخين نفسها ، وتعني بهذا أن من ندعوههم بالمؤرخين الكبار لم يكونوا وحدتهم مثلي علم التاريخ الإسلامي في القرن الثالث ، فقد وجد معهم ومن حوالهم عدد كبير من "المؤرخين الصغار" أو من الاخباريين الماءفين — وبعضهم جاء التاريخ عن طريق السيرة والحدث — كانوا يتمون جمهرة هذا العلم ويهدون الطريق لظهور التدوين التاريخي على الأساس العلمي المنظم في الزمن والموضوع . ومن هذه الجمهرة الواسعة جداً من الماهدين والبناء الصغار نكتفي بذكر الجماعة التالية التي تحوي بين أفرادها عدداً من الرجال لم يخل بينهم وبين أن يكونوا من مشاهير المؤرخين سوى سوء الحظ بفقد كتبهم على الأيام . ولو جاءنا بعض إنتاجهم أو كلهم لكان لهم في هذا العلم المكان الواضح ^(١) .

— يوسف بن ابراهيم الكاتب ، صاحب ابراهيم بن المهدى (الخليفة العباسى ما بين سنة ٢٠٣٥ - ٢٠٠٥) وقد صنف كتاباً عديداً ، حسب شهادة

(١) لعلنا نشير هنا إلى أننا أهلنا وسوف نهلل في الكتاب فيما بعد أسماء الكثير من المؤرخين الصغار الذين لم نر قائدة كبيرة في إيراد اسمائهم ونحن نجهل كل شيء عنهم وعن محظوظاتهم . ومن أمثلتهم في هذه الفترة من القرن الثالث وطالع الرابع مثلاً : دماذ بن رفيع بن سلمة ، والزرقي الانصاري ، والأنجبي ، والرياشي ، وأبو جعفر محمد بن أبي السرى ، وعبد الله بن محمد البلوي الانصاري ، ومحمد بن سليمان المنقري الجوهرى وغيرهم وندرك للطراقة فقط أن الخليفة الواقى بالله (المتوفى سنة ٢٣٤) اشترك في التأليف وكان له كتاب باسم البستان نقل عن ابن أبي أصيحة خبراً عن الحارث بن كلدة الثقفى .

المسعودي ، منها : كتاب في أخبار المطبيين مع الملوك ، في المأكل والمشارب والملابس وغير ذلك . ومنها كتابه المعروف بكتاب ابراهيم بن المهدي في أنواع الأخبار ^(١) .

– التوفلي : أبو الحسن علي بن محمد بن سليمان وهو معاصر لابن الكلبي المتوفى سنة ٥٢٠٤ . وكان أحد مصادر الطبرى والمسعودي والأصبهانى . وله : كتاب الأخبار ، وكانت فيه أخبار عن الأمويين ومن بعدهم حتى عصر المؤلف ^(٢) .

– الفزاري : أبو اسحق ابراهيم بن محمد (من مطالع القرن الثالث) وله كتاب السير ويتعلق دون شك بالفتح كأمثاله من الكتب . وقد سمعه ابن خير من راوية أبي صالح محبوب بن موسى القراء في انطاكية سنة ٢٢٥ هـ نقلًا عن مؤلفه ^(٣) .

– البصري : الحسن بن ميمون من بني نصر بن قعين ، وهو أستاذ المؤرخ ابن النطاح . وله من الكتب : كتاب الدولة وكتاب المأثر ^(٤) .

– ابن بكار أبو الوليد العباس بن بكار الفي (ولد سنة ١٢٩ / ٧٤٦ توفي سنة ٢٢٢ / ٨٣٧) وهو بصرى المولد والإقامة والوفاة ، وكانت له مشاركته في العمل الإخباري الذي يقى لنا منه :

– أخبار الوفدين من الرجال من أهل الكوفة والبصرة على معاوية بن أبي سفيان . وأخبار الوفادات على معاوية أيضًا . وهما رسالتان خطوطتان الآن في الاسكورتيل باسبانيا (رقم ٤٦٧ و ٤٦٨) في ١٢ ورقة .

(١) المسعودي – مروج الذهب ج ٤ ص ٣١ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١٣ .

(٣) انظر ابن خير – فهرس ابن خير ص ٢٣٦ .

(٤) ابن النديم – الفهرست ص ١٠٨ .

— عبد الله بن جبلة بن الحزير الكتاني (المتوفى سنة ٢١٩ / ٨٣٣) وهو من أوائل مؤلفي الشيعة الذين ألفوا في علم الرجال وكتابه معروف باسم : كتاب الرجال ^(١) ولكنه ضائع .

— الحسن بن علي بن فضال بن أنيس التميمي الولاء الكوفي (المتوفى سنة ٢٢٤ / ٨٣٨) وهو معاصر لسابقه وينتسب إلى المذهب الشيعي مثله كما أنه كتب تاريخ الشيعة المعروف أيضاً باسم كتاب الرجال ^(٢) ولابنه علي بن الحسن بدوره كتاب الرجال أيضاً حسب رواية النجاشي والطوسي ^(٣) وكان هذا الكتاب من مصادر تقي الدين الحلي (من رجال القرن السابع) في كتابه الرجال .

— الأزرقي أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد (المتوفى سنة ٢٢٣) وهو أحد الانباريين وأصحاب السير . إلا أنه ألف أقدم ما كتب في تاريخ مكة : كتاب مكة وأخبارها وجبلها وأوديتها . والكتاب مطبوع في سلسلة أخبار مكة المشرفة التي نشرها المستشرق وستنفلد (ليزيغ ستة ١٨٥٩) (المجلد الأول بعنوان : كتاب أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار) .

— أبو دلف العجلي : القاسم بن عيسى بن معقل (المتوفى سنة ٢٢٥) والرجل أحد الأبطال المشهورين والأجراد المدحدين وقد ولـي إمرة دمشق للمعتصم . وله صنعة في الغناء كما كانت له مشاركة في التأليف . وبعض كتبه تدخل أجواء التاريخ الحضاري ومنها : كتاب السلاح . كتاب النزه . كتاب الزيارة . والصيد وكتاب سياسة الملوك .

(١) انظر النجاشي - رجال النجاشي ج ٢ ص ١٦٠ (ط / ٢ مركز نشر كتاب ، مصطفوي - ايران ، دون تاريخ) .

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٢٨ وانظر السخاري - الاعلان ص ٥٧٩ ، وابن حجر - لسان الميزان ج ٢ ص ٢٢٥ .

(٣) النجاشي - الرجال ج ٢ ص ١٩٦ ، الطوسي - الفهرست (تحقيق بحر العلوم - النجف) ص ٩٢ وانظر السخاري - الاعلان ص ٥٨٠ .

- خالد بن خداش بن عجلان أبو الهيثم مولى آل المهلب (المتوفى سنة ٢٢٣) وقد اختص بكتابه تاريخ المهالبة وله في ذلك كتابان : كتاب الأزارقة وحروب المهلب . كتاب أخبار المهلب .

- وقد كتب في الموضوع السابق نفسه يزيد بن محمد الملهي الشاعر وعنوان مؤلفه : كتاب المهلب وأخباره وأخبار ولده .

- الجمحي أبو عبد الله محمد بن سلام البصري (المتوفى سنة ٨٤٥/٢٣١) أحد الاخباريين المشهورين والرواة الكبار في الأدب وحفظ الحديث . وله من الكتب ذات المادة التاريخية : كتاب بيوتات العرب ، كتاب طبقات الشعراء الباهليين ، كتاب طبقات الشعراء الإسلاميين .

- أبو ذكري يحيى بن معين البغدادي (المتوفى سنة ٨٤٧/٢٣٣ م) وقد كان من كبار الحفاظ والمحدثين البارزين ويعطى في بعض الكتب لقب الامام وحجة الاسلام وهو معاصر وصديق لابن حنبل وله كتابان نعرفهما :

- التاريخ والعلل : ومنه مخطوط في دار الكتب الظاهرية [مجموع ١١٢] في مجلد من ١٦٧ ورقة .

- معرفة الرجال ومنه قطعة مخطوطة في الظاهرية أيضاً (مجموع ١٣٩) .

والكتابان رغم تاریختهما وما فيهما من فوائد تتصل بالتاریخ إنما يتصلان أساساً بعلم مصطلح الحديث . والكتاب الأول جاء برواية أبي الفضل العباس ابن محمد الدوري (توفي سنة ٢٧١) صاحب يحيى بن معين . ويبدو أنه لم ينظم في الأصل ولكنه يجمع أقوال يحيى في جرح الرجال وتعديلهم والتعریف بالأسماء والکنى والنسبة والطیفة ، كما يبدو أن الراوي لم ينقل فقط أقوال شیخه ولكنه أضاف إليها بعض المعلومات من عنده مثل وفاة ابن معن وابن حنبل وتفسیر بعض الغامض من القول . ويبدو أن الباحثینمنذ القديم قد لاحظوا عدم التنظیم في هذا التاریخ وهذا فقد عمد أبو سعید بن الاعرابی إلى تبویه

ورتبه على حروف المعجم وقد قرأه ابن خير في القرن الرابع على هذا الترتيب^(١).

وأما كتاب معرفة الرجال فلم يسلم منه سوى الجزرتين الأولى والثانية من رواية أبي العباس أحمد بن محمد بن القاسم بن حمز البغدادي . وهو بدوره مجموعة أقوال ذكرها ابن معين جواباً على أسئلة تلميذه أبي العباس أو تلاميذه آخرين . ومعظم الأسئلة في الجرح والتعديل .

— ابن أبي شيبة عبد الله بن إبراهيم العبسي الكوفي (ولد سنة ٧٧٥/١٥٩ توفي سنة ٨٤٩/٢٣٥) وكان يؤدب الصبيان في الرصافة ببغداد . وهو من المحدثين المصنفين . وضع عدداً من الكتب التاريخية منها :

كتاب التاريخ . كتاب الفتن ، كتاب صفين . كتاب الجمل . كتاب الفتوح . وينسب إليه أيضاً كتاب أوائل الإسلام الذي نفعه مؤلف آخر سنة ٣٠٥ . ومنه نسخة مخطوطة في مكتبة برلين رقم ٩٠٤٩ .

— الشاذكوفي أبو أيوب سليمان بن داود بن بشر بن زياد النفري البصري (المتوفى سنة ٢٣٤ أو سنة ٢٣٦) وهو من أهل البصرة ومن الحفاظ المكثرين خرج لأصحابه ست مرات قبل أن يستقر بها ولكنه ليس بشقة . والبخاري يقول « هو عندي أضعف من كل ضعيف »^(٢) ومع ذلك فقد ظل الناس يتدارسون عدة قرون كتابه : تاريخ طبقات أهل العلم ومن نسب منهم إلى مذهب . وقد روی حتى في الأندلس من قبل ابن خير وابن عبد البر .

— الزيادي أبو حسان الحسن بن عثمان بن حماد (ولد في بغداد سنة ٧٧٣/١٥٦ وتوفي سنة ٨٥٧/٢٤٣) « وكان — على حد قول ابن النديم — قاضياً فاضلاً ديباً ناسباً جواداً .. يعمل الكتب و تعمل له . وكانت له خزانة حسنة كبيرة »^(٣)

(١) انظر ابن خير — فهرسة ابن خير ص ٢٢٨ .

(٢) انظر ترجمته لدى السعاني — الانساب الورقة ٣٢٤ ظهر وانظر ابن خير — فهرسة ص ٢١١ .

(٣) انظر ابن النديم — الفهرس ص ١١٠ .

روى عن الحسن بن الهيثم والواقدي كما روى عنه وكيع القاضي وابن أبي طاهر : ويعدّ بين المؤرخين والمحدثين الناقات . وقد ول قضاء ببغداد الشرقية للمتوكل في أواخر حياته . وله من الكتب : كتاب الآباء والأمهات . كتاب ألقاب الشعراء . كتاب طبقات الشعراء . كتاب معاني عروة بن الزبير . ولم يذكر له ابن النديم كتاب التاريخ على السنين الذي ذكره له الخطيب البغدادي والمسعودي ^(١) ويأقوت في معجم الأدباء ومعجم البلدان ^(٢) . وقد ضاع هذا التاريخ مع الكتب الأخرى .

— البزار أبو بشر هارون بن حاتم التميمي (المتوفى سنة ٨٦٣/٢٤٩) من علماء الكوفة . محدث . مؤرخ . قارئ كما يعتبر من علماء المحرح والتعديل . له بجانب كتاب القراءة كتاب تاريخ الإسلام . وقد ضاع سوى أوراق محدودة لا تزيد على ثمانية ورقات موجودة ضمن مجموع (رقم ٤٠ من ورقة ٢١١ حتى ٢١٨) مخطوط تحفظه دار الكتب الظاهرية بدمشق . ويبدو أن الكتاب كان مختصراً لأن الأوراق تشمل ما بين عهد علي إلى آخر الأمويين ^(٣) .

— الفلاس أبو حفص عمرو بن علي (المتوفى سنة ٨٦٣/٢٤٩) وله كتاب في التاريخ من ثلاثة أجزاء هو في تاريخ المحدثين قرأه ابن خير . كما أخذ عنه الذهبي في تاريخ الإسلام والخطيب البغدادي ^(٤)

— الرواجني أبو سعيد عباد بن يعقوب البخاري (المتوفى سنة ٢٥٠) وهو من علماء الشيعة في الكوفة . أخذ عنه كثير من علماء السنة كالبخاري والترمذمي

(١) الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد ج ٧ ص ٣٥٧ والمسعودي - مروج الذهب ج ١ ص ١١ .

(٢) يأقوت - معجم الأدباء ج ٩ ص ١٨ - ٢٤ وانظر معجم البلدان (مادة شيراز) ج ٢ ص ٣٨١ .

(٣) انظر يوسف العش - فهرس المخطوطات (التاريخ) ص ٩٣ - ٩٤ وانظر النهي - ميزان الاعتدال ج ٢ ص ٢٤٦ وابن حجر - لسان الميزان ج ٦ ص ١٧٧ .

(٤) انظر ابن خير - فهرس ابن خير ص ٢١٢ والخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ج ١١ ص ٢٠٧ . وانظر كذلك السخاوي ، الإعلان ص ٥٢٢ .

وله في الغالب كتاب المعرفة في الصحابة الذي كان من المصادر الأساسية لأبي الفرج الأصبهاني في كتابه مقاتل الطالبين^(١)

— الفتح بن خاقان بن أحمد بن غرطوخ البغدادي ، وزير المتوكل الذي قتل معه سنة ٢٤٧ . وكان للرجل بجانب دوره السياسي مشاركته في دنيا التأليف والأدب . وكتبه إنما جاءت من باب الترف الثقافي ومنها : كتاب اختلاف الملوك . وكتاب الصيد والبخار .

— محمد بن الحارث التغلي ، وهو معاصر لالفتح بن خاقان وقد ذكر المسعودي أنه ألف له الكتاب المعروف بأخلاق الملوك وأثبته بين مصادره في مطلع كتابه مروج الذهب .

— ابن الجراح : داود بن الجراح رأس أسرة الوزراء التي برزت منذ أواسط القرن الثالث واستمر أفرادها يتولون ، مع غيرهم من المتنافسين ، منصب الوزارة للعباسيين حتى مطالع العهد البويري . وكان داود يكتب لل الخليفة المستعين (٢٤٨ - ٢٥٢) وقد توفي سنة ٢٥٢ . له من الكتب :

— كتاب التاريخ ، ويبدو أن أولاده وأحفاده من بعده تابعوا سنة أبيهم فأضافوا إليه .

— أخبار الكتاب ، وقد ضاع مع كتاب الرسائل .

— ابن الطاح أبو عبد الله محمد بن صالح بن مهران (المتوفى سنة ٢٥٢ / ٨٦٦) بصري الأصل ولكنه عاش في بغداد . وهو راوية . محدث . مؤرخ . نسبة . وقد ذكر له ابن النديم عدداً من الكتب منها^(٢) :

— كتاب الدولة وأخبارها (أي العباسية) ويقول ابن النديم إنه أول من

(١) انظر النجاشي - الرجال ص ٢٢٥ وابن حجر تهذيب التهذيب ج ٥ ص ١٠٩ - ١١٠ .

(٢) ابن النديم - القهرس ص ١٠٧ .

ألف في هذا الموضوع وذلك وهم ^{قد سبقه إليه كثيرون منهم الميم بن عدي ،}
والمدائني والحسن بن ميمون البصري أستاذ ابن النطاح نفسه .

ولابن النطاح أيضاً كتاب البيوتات . كتاب مقتل زيد بن علي . كتاب
أفخاذ العرب . كتاب أنساب أزد عمان . وقد نقل صاحب الأغاني عن ابن
النطاح في مواضع كثيرة من الكتاب كما نقل عنه الخطيب البغدادي في تاريخ
^(١) بغداد

– الرomin أبو موسى محمد بن مثنى العتزي (المتوفى سنة ٢٥٢) وله تاريخ
صغير أخذ عنه الذهبي في تاريخ الإسلام وذكره البغدادي والسحاوي ^(٢)

– الغلابي المفضل بن غسان (المتوفى سنة ٢٥٦/٨٧٠) وله بدوره تاريخ
اعتمده الذهبي أحياناً في تاريخ الإسلام ^(٣)

– الخواز : أبو جعفر احمد بن الحارث بن المبارك (والمبارك مولى
المنصور) المتوفى آخر سنة ٢٥٨/٨٧٢ وقد نشأ في بغداد ، وكان من أصحاب
المدائني ، وله مع الشعر ، مشاركة في التاريخ واسعة وقد ألف فيه كتاباً عديدة
ذكرها ابن التديم وضاعت كلها ^(٤) ومنها : – كتاب أسماء الخلفاء وكتابهم
والصحابية (يقصد صحابتهم والخاشية) .

– كتاب مغازي البحر في دولةبني هاشم وذكر أبي حفص صاحب
إفريطيش ، ولعله الكتاب الوحيد الذي صدر في التاريخ العربي حول هذا الموضوع
فندر أن سمعنا بكتاب خاص بمغازي البحر .

(١) انظر الأغاني مثلاً ج ٣ ص ٢٩٨ - ٣٠١ ، ج ٨ الصفحات ٨٨/٥١ - ٢٩٣/٢٨٧/٢٨٦ ج ١٠ الصفحات ٢٥١/٦٢ - ٢٥٢ - ٢٥٩/٢٦١ - ٢٦٤/٢٦٥ ... الخ . وانظر تاريخ
بغداد ج ٥ ص ٣٥٧ - ٣٥٨ .

(٢) انظر البغدادي – تاريخ بغداد ج ٣ ص ٢٨٣ والسحاوي – الإعلان ص ٥٢٣ .

(٣) انظر السحاوي – الإعلان ص ٥٢٤ وبروكليمان ج ١ ص ١٤١ .

(٤) ابن التديم – الفهرس ص ١٠٤ - ١٠٦ .

- كتاب أخبار أبي العباس وقد يكون أساس الكتاب الذي نشره الدكتور الدوري مؤخرًا مؤلف مجهول ^(١) وقد أضيف إليه شيء بعد ذلك .
- كتاب مغازي النبي وسراياه وذكر أزواجها .
- كتاب الأخبار والنوادر .
- كتاب شحنة البريد . وهو بدوره كتاب نادر الموضوع لا نعرف كتاباً آخر ألف في موضوعه .
- كتاب الأشراف . وربما كان فيه النواة الأولى لما سوف يُؤلفه البلاذري .
- كتاب المسالك والممالك وهو من أقدم الكتب - على ما يظهر - في هذا الموضوع .
- عدا كتب أخرى في أنباء السراري ، ونوادر الشعر ، وكتاب القبائل ، وكتاب الحالات والرهائن وختصر كتاب البطون .
- وثمة مؤلف آخر يلقب بالخاز يعاصر هذا المؤلف السابق هو أبو الحسن عبد الله بن محمد بن سقير كان معلماً في دار الوزير أبي الحسن علي بن عيسى الجراح . كان عالماً بالعربية والنحو والأدب ولهم بين مؤلفاته العديدة كتاب : أخبار أعيان الحكماء ، ألفه - فيما يذكر ابن النديم - لأبي الحسن بن أبي عمر ^(٢) .
- الجوزجاني أبو إسحق ابراهيم بن يعقوب (المتوفى سنة ٨٧٣/٢٥٩) وكان من كبار العلماء الثقات في الحديث والجرح والتعديل . رحل إلى دمشق وتوفي بيغداد . وله :
- الشجرة في أحوال الرجال وهو في رواة الحديث ومنه نسخة مخطوطة في الظاهرية (حديث ٢٤٩) .

(١) يرجح الدكتور عبد العزيز الدوري نسبة الكتاب المجهول المؤلف الذي نشره باسم أخبار الدولة العباسية إلى ابن النطاح محمد بن صالح بن مهران . وقد يكون من عمل الخاز فيما نرجح .

(٢) ابن النديم - التهـرس ص ٨٢ .

— ابن سعيد القطري أبي الحسن أحمد بن عبد الله بن الحسين المتوفى سنة ٢٦١ وكان « من علماء الكتاب — فيما يذكر ابن النديم — وقد كتب كتاب التاريخ ، عمله إلى أيامه »^(١)

ويأتي مع هؤلاء المؤرخين الصغار ومن حولهم جماعة من معاصرتهم نعرفهم بالأسماء والانتاج ولكننا نجهل سني وفياتهم وإن كانوا ب بصورة عامة في أواسط القرن الثالث . ومن هذه الجماعة أولاً مؤلفان هامان بموضوع التأليف الذي قدماه . فقد كتبا عن الروم عن معرفة مباشرة ولعلهما كانا يعرفان اليونانية جيد المعرفة .

— مسلم بن أبي مسلم الجرمي . وكان مجاهداً ذا محل في الشغور ومعرفة بأهل الروم وأرضها . وقع في الأسر فترة حتى جرى فداؤه في الفداء المشهور الثالث على نهر اللامس (قرب طرسوس) في أيام الخليفة الواثق سنة ٢٣١ الذي جرى فيه امتحان الأسرى بخلق القرآن . وللجرمي — حسب رواية المسعودي — « مصنفات في أخبار الروم وملوكيهم وذوي المراتب منهم وبلادهم وطرقها ومسالكها وأوقات الغزو إليها والغارات عليها ومن جاورهم من المالك من برجان والابر والبرغر والصقالبة والخزر وغيرهم ... »^(٢) .

— أبو الحسين أحمد بن الحسين الأهوازي وقد كتب هذا الرجل بدوره كتاب معارف الروم ذكر فيه ما عاينه بالقسطنطينية وببلاد الروم من المراتب الدينية والسياسية . وقد نقل عنه البيروني في الآثار الباقيه بعض المعلومات^(٣) .

وهنالك إلى جانب هؤلاء جماعة كبيرة منها :

— جعفر بن محمد بن الفضيل وله كتاب تاريخ رأه عمر بن شبة بخطه ونقل

(١) المصدر نفسه ص ١٢٤ .

(٢) المسعودي — التشيه والإشراف ص ١٦٢ .

(٣) البيروني — الآثار الباقيه ص ٢٨٩ وص ٢٩٣ .

منه عن طريق ابن شبة المؤلف المجهول لكتاب أخبار بنى العباس وولده (الذي نشره الدكتور الدوري باسم أخبار الدولة العباسية)^(١)

– أبو القاسم الحجازي وله بدوره (التاريخ الملحق) وقد نقل عنه ابن النديم في الفهرست^(٢).

– أبو صالح بن يزداد عبد الله بن محمد بن يزداد بن سويد، وكان من الكتاب البلغاء كما كان أبوه من قبله وابنه من بعده. وقد كتب عبد الله كتاب التاريخ من بين ما كتب ثم جاء ابنه من بعده أبو أحمد محمد بن عبد الله وتم كتاب التاريخ هذا الذي كتبه أبوه إلى سنة ثلاثة وثلاثين.^(٣)

– ابن أبي شيخ واسمه سليمان ويكنى أباً أبوب . وهو إخباري راوية. يقول ابن النديم إنه لقى جلة الناس وأخذ عنه أصحاب الأخبار . وله من الكتب : كتاب الأخبار المسموعة . رأيته ... »^(٤) .

– انطراساني : محمد بن الهيثم بن شابة . وكتابه : كتاب الدولة (ويقصد العباسية) كان بين مصادر المسعودي في مروج الذهب^(٥)

– الخليل بن الهيثم الهرثمي ويبدو أن له عدة كتب من بينها كتاب : الحيل والمكاييد في الحروب وكان هذا الكتاب من مصادر المسعودي في مروج الذهب .

– ابن أبي طيفور محمد بن أحمد الجرجاني « من أهل جرجان وله من الكتب كتاب أبواب الخلفاء ومعناه من كان الخلفاء يأنسون به ويستشيرونه ويستعلقونه ويستعذدونه .. »^(٦)

(١) أخبار الدولة العباسية (تحقيق الدوري والمطبي) ص ١٦٩ .

(٢) ابن النديم – الفهرست ص ١٠٦ .

(٣) ابن النديم نفسه ص ١٢٤ .

(٤) المصدر نفسه ص ١١٤ .

(٥) المسعودي – مروج الذهب ج ١ ص ١٣ .

(٦) انظر ابن النديم – الفهرست ص ١١٠ .

— الجلودي واسمها محمد بن عيسى بن يزيد . وكان أبوه من كبار رجال الدولة العباسية . وقد نقل عنه الطبرى بعض أخبار الفتنة أيام الأمين وخبر قتله . ويبدو من الرواية أنه كان كتب ذلك ^(١)

— المكاولى : أبو العباس عبد الله بن اسحق بن سلام ، وكان حسن العلم بالآثار والفقه والشعر وله كتاب الأخبار والأنساب والسير ويبدو أنه ضاع مبكراً . وقد ذكر ابن النديم أنه رأى بعضه ولم يره كاملاً ^(٢)

— الجهمي : أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حميد بن أبي جهم العدوى (من عهد الم توكل) . نشأ في العراق وبه تعلم . وكان أدبياً شاعراً نسابياً وفيناً . غير أنه كان يتناول جلة الناس بالمثالب وقد تناول العباس بأمر عظيم فضر به الم توكل مائة سوط . وله كتب عديدة منها : أنساب قريش وأخبارها . كتاب المثالب . كتاب المعصومين . كتاب فضائل مصر . كتاب الانتصار في الرد على الشعوبية ^(٣) .

— الليثى سلمويه بن صالح . وكان من رواة الأخبار والأنساب وله من الكتب (كتاب الدولة) روى فيه عن جماعة من النسايبين . وقد نقل المسعودي عنه في التنبية والاشراف وسمى كتابه باسم : كتاب في الدولة العباسية وأمراء خراسان ^(٤) .

— الراوندى : وقد ذكر ابن النديم أنه كان يجلس للراوندية يقرأ عليهم كتاباً ألفه في (أخبار الرواية) وجود فيه كما كانوا يأخذون عنه أخبار الدولة العباسية من كتاب ألفه باسم (كتاب الدولة) في نحو ألفي ورقة ^(٥) .

(١) انظر الطبرى ج ٨ الصفحتان ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٣ ، ٤٨٨ ، ٥٤٠ وص

(٢) ابن النديم - الفهرست ص ١١٤ .

(٣) المصدر نفسه ص ١١١ .

(٤) المسعودي - التنبية والاشراف (ط. الصاوي - القاهرة ١٩٣٨) ص ٥٧ .

(٥) ابن النديم - الفهرست ص ١٠٨ .

— ابن شبيب وهو أبو سعيد عبد الله بن شبيب الربعي البصري من الإخباريين البارزين وقد كتب كتاب الأخبار والآثار .

— الغلاي أبو عبد الله محمد بن زكريا بن دينار ، أحد الرواة للسير والأحداث والمغازي ، وهو بشهادة ابن النديم من الثقات . كتب عدداً من الكتب منها : مقتل الحسين ، وقعة صفين ، كتاب الحمل ، كتاب الحرة ، كتاب مقتل أمير المؤمنين . كتاب الأجواد . كتاب المبخلين ..^(١)

— أبو اسحق اسماعيل بن عيسى العطار ، من أهل بغداد الذين عرفوا بحفظ السير وله من الكتب : كتاب المبتدأ . الردة . الفتوح . الحمل . صفين وكتاب الأولية . كتاب الفتن . كتاب حفر زمز ..^(٢)

— ابن عابد ، الذي كتب كتاب الملوك وأخبار الأمم . يقول ابن النديم ولا يعرف من أمره غير هذا ..^(٣)

— ابن زبالة ، الاخباري النسابة ، والوراق عبيد الله بن أبي سعيد النسابة ، وقد كتب كل منهما كتاباً في « أخبار المدينة » كما كتب الوراق كتاب الألقاب ..^(٤) وكتاب الشعراء .

— الغنبري أبو عمر حفص بن عمر وله من الكتب : كتاب زباد الأشراف . وذكر شباب العرب وما يجري بينهما وذكر ادعية المحاهلة . وكتاب النساء ..^(٥)

— عمر بن بكر ، صاحب الحسن بن سهل وكان إخبارياً راوية نسابة . ويبدو أنه كان ميسور الحال محباً للمعرفة فقد عمل له الفراء كتاب معاني

(١) المصدر نفسه ص ١٠٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٩ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٠٩ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٠٨ .

(٥) المصدر نفسه ص ١٠٠ .

القرآن . وله من المؤلفات كتاب أو كتب في مواضع تصل بال التاريخ دون شك . فقد ذكر له ابن النديم : كتاب يوم الغول . يوم الظهر . يوم أرمام . يوم الكوفة . غزوات بني سعد بن زيد مباها . يوم منابض ^(١) .

- أبو بكر محمد بن علي بن مروان البغدادي وله تاريخ في ستة أجزاء ذكره ابن خير في فهرسه على أنه مما قرأه في المشرق ^(٢) .

- عيسى بن داب (ولعلها دأب) وله كتاب أخبار تتعلق بتاريخ العرب القديم وتاريخ الفرس . نقل عنه حمزة الأصفهاني خبراً يقارن بين أزمان الأنبياء وملوك فارس وبين تاريخ اليمن وأولئك الملوك ويفسر سبأ على أن عبد شمس بن يشجب لم يدع بأرض اليمن أحداً إلا سباء . وقد انتقده حمزة قائلاً : « ولا أدرى كيف تصرف ابن داب في العربية لأن النبي غير مهموز وبسبأ مهموز على أن لابن داب أسوة بالناساب فإنهم زعموا أن طيباً سمي طيباً لأنه أول من طوى المناهل وأذابريء من عهدة الكلمتين ... » ^(٣)

- حفص بن أشيم وهو من الخوارج وله من الكتب : الفرق والرد عليهم . يذكر ابن النديم أنه رواه عن جبير بن غالب ^(٤) فلعله لهذا الأخير في الأصل ، ولكنه على أي حال من نوادر الكتب التي ألفها الخوارج في الدفاع عن آرائهم .

- مجاهد من ولد الربيع بن زياد بن أبيه (المنسوب لبني سفيان) كتب كتاباً في خطط البصرة وقطائعها ذكره ابن حزم الأندلسى ^(٥) ولعلنا نستطيع أن نضيف إلى هذه الجماعة من مؤلفي الأمور التاريخية في أواسط القرن الثالث اسم :

(١) المصدر نفسه ص ١٠٧ .

(٢) ابن خير - فهرسة ابن خير ص ٢٢٩ .

(٣) حمزة الأصفهاني - تاريخ سبأ ملوك الأرض ص ١٠٥ - ١٠٦ .

(٤) ابن النديم - الفهرست ص ١٨٢ .

(٥) انظر لسان الدين بن الخطيب - نفح الطيب (مل. محمد محبي الدين عبد الحميد - القاهرة ١٩٤٩) ج ٤ ص ١٥٩ .

— الْبَاحِثُ أَبِي عُثْمَانَ عُمَرُ بْنَ بَحْرٍ بْنَ مُحْبُوبَ (وُلِدَ بِالْبَصَرَةَ أَوْ أَوْلَى سَنَةِ ٧٦٧/١٥٠ وَتَوَفَّى فِيهَا سَنَةُ ٢٥٥—٨٦٨) وَهُوَ أَشْهَرُ كِتَابَ الْعَرَبِيَّةِ وَكَانَ لَا يَدْرِي مِنْ ذِكْرِهِ لَأَنَّ عَدْدَهُ مِنْ مَوْلَفَاتِهِ الْكَثِيرَةِ كَانَ مُشارِكَةً وَاضْحَىَ فِي التَّارِيخِ الْحَضَارِيِّ وَقَدْ تَحْوَى مِنَ الْإِشَارَاتِ وَالْأُمُورِ التَّارِيخِيَّةِ مَا لَا تَحْوِيهِ أَيُّ الْكِتَابِ فِي التَّارِيخِ . وَمِنْهَا :

— كِتَابُ الْبَيَانِ وَالتَّبَيِّنِ . كِتَابُ الْحَيْوَانِ . كِتَابُ الْبَخَلَاءِ . كِتَابُ التَّاجِ فِي أَخْلَاقِ الْمُلُوكِ وَهِيَ مُطَبَّوَةٌ مُوجَودَةٌ . وَكِتَابُ الْأَخْبَارِ أَوْ تَصْحِيحُ الْأَخْبَارِ وَهُوَ ضَائِعٌ إِلَّا بَعْضُ قَطْعِهِ نَقَلَهَا أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى بْنُ الْمَرْتَضَى فِي كِتَابِ الْمِنْيَةِ وَالْأَمْلِ ...

— وَلِهِ مِنَ الرَّسَائِلِ الْهَامَةِ تَارِيْخِيَّاً : رِسَالَةُ فِي بَيَانِ مَذَاهِبِ الشِّعْعِيَّةِ (مُخْطُوْطَةٌ) وَمَقَالَاتُ الزِّيْدِيَّةِ وَالرَّافِضِيَّةِ (مُخْطُوْطَةٌ) وَمَقَالَاتُ الْعَشَمَانِيَّةِ (مُخْطُوْطَةٌ) . وَمِنَ الرَّسَائِلِ (بَيْنَ مَشْوَرَةٍ وَضَائِعَةٍ) : رِسَالَةُ فِي بَنِي أُمِّيَّةِ . كِتَابُ فِي الْعَبَاسِيَّةِ . رِسَالَةُ فِي تَفْضِيلِ بَنِي هَاشْمٍ . رِسَالَةُ فِي أَمْرِ الْحَكَمَيْنِ . رِسَالَةُ فِي ثَبَاتِ إِمَامَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ . وَرِسَالَةُ فِي مَنَاقِبِ الشُّرُكِ وَعَامَةُ جَنْدِ الْخَلَافَةِ . وَفِي فَضْلِ السَّوْدِ . وَفِي مَفَارِخِ الْجَوَارِيِّ . فِي أَخْلَاقِ الْمُلُوكِ . فِي الْحِجَابِ وَذَمِهِ . فِي مَدْحِ التَّجَارَةِ وَذَمِ عَمَلِ السُّلْطَانِ ، فِي الْقِيَانِ وَفِي الْمَغْنِينِ وَفِي الْعَصَوْسِ وَفِي الْقَحْطَانِيَّةِ وَالْعَدَنِيَّةِ . وَفِي الْعَرَبِ وَالْعَجمِ . وَفِي إِمَامَةِ وَلَدِ الْعَبَاسِ . وَفِي الْمُلُوكِ وَالْأَمَمِ السَّالِفَةِ . وَفِي الْعَرَبِ وَالْمَوْلَى . وَفِي أَدِيَانِ الْعَرَبِ . وَفِي غَشِ الصَّنَاعَاتِ وَفِي حِيلِ الْمَكَدِينِ وَفِي أَخْلَاقِ الشَّطَارِ وَفِي عَدْدِ مِنَ الْأَلْعَابِ . وَفِي ذَمِ أَخْلَاقِ الْكِتَابِ . وَفِي صَنَاعَةِ الْقَوَادِ . وَفِي الْحِجَابِ . وَغَيْرُ ذَلِكِ ...

وَلَقَدْ دُرِّسَ الْبَاحِثُ دِرَاسَاتٍ وَاسِعَةً مِنَ النَّاحِيَةِ الْأَدْبَرِيَّةِ وَلَكِنَّ لَمْ يَتَصَدَّدْ أَحَدٌ بَعْدَ لَالْتَقَاطِ وَاسْتِخْرَاجِ مَا تَكَشَّفَهُ كِتَابُ الْبَاحِثُ وَرِسَالَتُهُ مِنْ جُوانِبِ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ وَخَاصَّةً مِنْهُ التَّارِيخُ الْإِجْتِمَاعِيُّ وَالْفَكَرِيُّ وَالْحَضَارِيُّ لِعَصْرِهِ مَعَ أَنَّ هَذَا الْفَكَرَ الْمُوسَوعِيَّ الذَّكِيَّ مِنْجَمٌ لِلْمَعْلُومَاتِ وَالْمَعْطَيَاتِ وَالْأَخْبَارِ

الفريدة، وقد كان بالامكان أن نضيف إليه اثنين من معاصريه هما الفتح بن خاقان وسهل بن هارون ولكن مؤلفاتهما ضاعت .^(١)

ونعود إلى جمهور المؤرخين الصغار بعد عصر الباحظ فنجد العدد الكبير أيضاً و منهم :

– الطلعاني أبو اسحق طلحة بن عبد الله بن محمد بن اسماعيل التميمي ، (المتوفى سنة ٢٧١) وهو من أهل البصرة كان نديماً للموفق شقيق الخليفة المعتمد . وكان راوية إخبارياً صنف من الكتب كتاب جواهر الأخبار وكتاب المتيمين^(٢)

– الدوري العباس بن محمد بن حاتم (المتوفى سنة ٢٧١) وقد كان أحد المصادر للمؤلف المجهول صاحب كتاب أخبار العباس و ولده^(٣) .

– الشيباني أبو علي حنبل بن اسحق بن حنبل بن هلال بن أسد البغدادي (المتوفى سنة ٢٧٣/٨٨٦) وهو ابن عم الإمام أحمد بن حنبل وتلميذه . ويعتبر من المخاطر المعروفين والثقات الصدوقين الأثبات ، غير أنه كان فقيراً فترك بغداد إلى عكبرا يقرئ الحديث فيها ثم خرج إلى واسط فاستقر بها حتى توفي وله من الكتب ، وكلها مفقود :

– كتاب التاريخ وهو على الأرجح في رواة الحديث وترجمتهم .

– كتاب الفتن . ولعله في ملاحم آخر الزمان .

– وكتاب المحن ولعله حكى فيه محنـة عمـه الإمام احمد وغيره في قضية خلق القرآن .

– ابن أبي السرح أبو العباس أحمد (المتوفى سنة ٢٧٤/٨٨٧) وقد

(١) انظر قائمة مؤلفات الأثرين لدى ابن النديم – الفهرست ص ١١٦ وص ١٢٠ .

(٢) ابن النديم – الفهرست ص ١١٣ .

(٣) انظر أخبار الدولة الصابوية (تحقيق الدوري والمطبي) ص ١٢٧ .

وصلنا منه أقدم كتاب خاص بعادات العرب وخرافاتهم واسمها :

— كتاب الرموز . ومنه نسخة مخطوطة في استانبول (مكتبة راغب رقم ١٦/١٤٦٣ — من الورقة ٩٩ وجد حتى ١٠٥ وجه) وقد نشر في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (المجلد ١١ لسنة ١٩٣١ . من ص ٦٤١ حتى ٦٥٥) بتحقيق س . محمد حسين .

— البرقي أبو جعفر أحمد بن محمد بن خالد (المتوفى في حدود سنة ٢٧٤ أو سنة ٢٧٠ أو ٨٨٣) قتل جده في السجن بالكوفة لأنّه من أنصار زيد ابن علي فهرب إلى برقة من أعمال قم وهناك نشأ وانتشر وصنف الكثير من الكتب ^(١) في إطار المذهب الشيعي ومنها :

كتاب التاريخ ، كتاب أنساب الأئم . كتاب مغازي النبي . كتاب بنات النبي . كتاب الجمل . كتاب النواذر . كتاب الأولائل . وقد ذكر المسعودي بين مصادر تاريخه مروج الذهب كتاب التبيان في التاريخ للبرقي ^(٢) وصاحب كشف الظنون يذكر أنه في أخبار بغداد فهو إذن من أقدم الكتب في تاريخ هذه المدينة . وللبرقي أيضاً كتاب الرجال وقد طبع بعناية كاظم الموسوي المياومي (طهران سنة ١٣٨٣) مع كتاب آخر يحمل العنوان نفسه من تأليف الحلي تقى الدين الحسن بن علي بن داود من رجال القرن السابع . وقد يكون كتاب الرجال للبرقي هو نفسه الكتاب المعروف بالتاريخ . وقد اقتصر فيه البرقي على بعض الصحابة الذين وقفوا بجانب الإمام علي وأيدوا خلافته عقب وفاة الرسول وعلى الشيعة بعد ذلك . وقد رتب الرواية على أساس الصحبة لصاحب الرسالة أو لأحد الأئمة . وهكذا ارتبط نظام الطبقات التي أتى بها يتولى أسماء الأئمة : فهناك بعد أصحاب النبي ، أصحاب علي ثم الحسن ثم الحسين ثم علي بن

(١) انظر قائمة كتب لدى الطوسي — الفهرست من ٤٤ - ٤٥ . وانظر أيضاً الخوانساري — روضات البنات من ١٣ - ١٤ .

(٢) المسعودي — مروج الذهب ج ١ ص ١٣ .

الحسين حتى ... أصحاب الحسن العسكري . ثم ذكر النساء حسب الرواية عن الأئمة أيضاً . وختم الكتاب بفصل ذكر فيه أسماء الصحابة الذين انكروا خلافة أبي بكر وأرادوها لعلي . وهو يقتصر في التراجم على ذكر الأسماء والنسبة ولا يعني بالجرح والتعديل ولا سنوات الوفاة .

- المروزي أبو العباس جعفر بن أحمد (المتوفى قبيل سنة ٢٧٤) أحد المؤلفين للكتب في سائر العلوم . توفي بالأهواز وبيعت كتبه ببغداد . ومؤلفاته على قول ابن النديم غزيرة جداً وله كتاب المسالك والممالك وهو أول من ألف في هذا الموضوع ولم يتممه . وله عدا ذلك كتاب تاريخ القرآن لتأييد كتب السلطان . بالإضافة إلى الكتب الأدبية الأخرى ^(١) .

- الصميري أبو العباس محمد بن اسحق بن إبراهيم بن المغيرة (ولد سنة ٢١٢ - توفي سنة ٢٧٥) المنجم الكوفي البغدادي . أصله من الكوفة وتولى قضاء الصميرية ثم أصبح من نداماء المتوكل والمعتمد لما عرف به من الشكامة والأدب والمعونة بالنجوم . وإذا كان له في الفلك كتاب يمدحه المنجمون كما قال ابن النديم - فان له في أجواء التاريخ :

- كتاب مساوىء العوام وأخبار السفلة الأغترام ولو سلم الكتاب لأعطانا دون شك صورة حية لحياة الطبقات الدنيا . - كتاب عجائب البحرة - كتاب نوادر القواد - كتاب صاحب الزمان (في تصورات الناس حول نهاية العالم) - وكتاب الدولتين في تفضيل الخلافتين ^(٢) .

- المبرد أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكابر بن عمير بن ثعلبة الأزدي البصري (ولد سنة ١٢٠ وتوفي سنة ٢٨٥) الأديب النحووي اللغوي الفقيه . وكانت اللغة همه الأول ولكنه دخل عن طريقها باب الأخبار والتأليف التاريخي . وله بين مؤلفاته الأربعة والأربعين بعض ما يمس التاريخ ومن ذلك :

(١) انظر قائمة كتبه لدى ابن النديم س ١٥٠ .

(٢) آثار ابن النديم - الفهرست ص ١٥٢ .

– كتاب الكامل ومع أنه في الأدب واللغة إلا إنه يحوي من تاريخ المخواج مثلاً ونبي أمية جانباً لا يحويه أي كتاب تاريخ . كما تكثر فيه الأخبار الأخرى المختلفة والخطب والرسائل البليغة . وقد طبع مرات .

– كتاب طبقات النحاة البصريين . ولعله أول كتاب في نحوبي البصرة ولكنه ليس أول كتاب في تاريخ النحاة فقد سبقه إلى الموضوع عدد من النحاة المؤرخين ومن ذلك : أخبار النحاة للتجرمي وأخبار التحويين لأبي سعيد السيرافي وأخبار التحويين لأبي بكر محمد بن عبد الملك التاريحي^(١) وسوف يتبع المبرد من بعد المزباني بكتاب المقتبس الكبير في أخبار التحويين ..

– وللمبرد أيضاً كتاب أدب الجليس ، كتاب نسب عدنان وقططان . كتاب الروضة ويبدو أنه في الأخبار ... ويبدو أن طريقة المبرد في كتبه وجدت بعض الرواج والمادحين أو بعض الحسد والنقد فقد ظهر مؤلفان يعارضانه :

– أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمдан الفقيه الذي كتب كتاباً في الأخبار وعنوانه الباهر يعارض فيه كتاب الروضة .

– وابراهيم بن ماهويه الفارسي الذي ألف كتاب الكامل في الأخبار يعارض كتاب المبرد الذي يحمل العنوان نفسه . وقد كان هذا وذاك بدورهما من مصادر المسعودي^(٢) أيضاً لكنهما ضاعا مع الزمن .

– الفسوبي أبو يوسف يعقوب بن سفيان بن جonian الفارسي الهمذاني المتوفى سنة ٨٩١/٢٧٧ عن بضم وثمانين سنة) وكان أحد أركان الحديث والحفظ التاريخ . ترك بلده فسا سنة ٢١٩ واتجه للدمشق وحمص وفلسطين ومصر كة ثم عاد بعد عشر سنوات ليتركه من جديد إلى العراق ومصر ، ثم استقر في ق وتوّفي في البصرة^(٣) .

نظر ابن النديم – الفهرست ص ٨٧ .

نظر المسعودي – مروج الذهب ج ١ ص ١٦ .

انظر ترجمة في مقدمة أكرم ضياء العمري لتأريخه المطبوع (المعرفة والتاريخ ج ١ ص ١١٢-٧)

ولهذا الرجل كتاب ضخم اسمه كتاب المعرفة والتاريخ^(١) كان يتألف فيما يليه من قسمين أحدهما تاريخ للأحداث السياسية على السينين وقد صاغ معظمها وكأنه من مصادر النهي في تاريخ الإسلام ، والآخر يتعلق بمعرفة الصحابة والتابعين ومن بعدهم . وقد سلم هذا القسم ومنه نسخة مخطوطة تقع في مجلدين كبيرين يشتملان عشرين جزءاً من الكتاب وأحد المجلدين مخطوط في مكتبة طوب قبو سراي باستانبول (ريfan كشك ١٥٥٤) والثاني في مكتبة أسد أفندي هناك أيضاً (رقم ٢٣٩١) ويبدا المخطوط الأول بعد موجز حول يعتقد بين سنتي ١٣٥٠ و١٣٦٠ بـ ٢٤١ . ثم يأتي صفحة حول الصحابة : اسم كل منهم ونسبة مع الحديث الذي روی عنه . ثم يأتي ذكر التابعين ثم من جاء بعدهم طبقة طبقة وينتهي الكتاب بترجم مفصلة لبعض كبار الصحابة وأولادهم . وقد طبع الموجود من الكتاب بتحقيق طيب من أكرم ضياء العمري في ثلاثة مجلدات ضخمة أضاف فيها إلى النصوص التي وجدها في المصادر مقتبسه عن المجلد المفقود (جاءت في ٧٥ صفحة) (طبع بغداد - الأوقاف ١٩٧٤ - ١٩٧٦) .

وللفسوي معجم الشيوخ رتبه على البلدان التي زارها ومنه جزءان (الثاني والثالث) مخطوطان في الظاهرية بدمشق (رقم ٧٤١٨ ، ٧٤١٩ عام) ويقعان في ٤٢ ورقة .

- ابن أبي خيثمة أبو بكر أحمد بن زهير بن حرب (المتوفى سنة ٨٩٢/٢٧٩) بغدادي تلمذ على ابن حنبل والمدائني حتى أصحي من كبار علماء الحديث والأدب والتاريخ . له من الكتب كتاب المتنميين . كتاب الاعراب . كتاب أخبار الشعراء . أما كتابه الأهم فهو : كتاب التاريخ الكبير الذي ذكر الكتابي أنه يقع في ثلاثين مجلداً صغاراً أو اثنتي عشر مجلداً كباراً . وقد نقلت عنه كثير من كتب الترجم كما كان أحد مصادر الطبراني والذهبي والخطيب البغدادي الذي قال فيه : « لا أعلم أغزر فوائد منه » ...

بقيت لنا من هذا التاريخ قطعة مخطوطة في مكتبة القرطاجيني بفاس - المغرب (ح ل 40 : 244N رقم 887 وتبعد هذه القطعة بالقسم الثالث من الكتاب

(١) أدخله بروكلمان (ج ٣ ص ٤٣ من الترجمة العربية) في كتب أخبار الدولة العباسية . ويدو أنه يعني النصف الشائع منه .

وفيه بعد ذكر أولاد بعض الرواة وإخوتهم ذكر للرواة المحدثين نُظموا على أساس المدن : مكة ومن نزلها ولكنه شمل معهم التابعين ومن جاء بعدهم ثم اليمن ثم اليمامة ثم أورد السيرة النبوية بشكل موجز وعلى السينين قبل أن يتحدث عن صحابة المدينة والتابعين فيها ثم جاء على ذكر الكوفة .. وينتهي المخطوط قبل نهاية السفر التاسع منه .

وابن أبي خيثمة يحافظ على السندي في أخباره . وقد لا تزيد الترجمة عنده على سطر ولكنها قد تطول عددة صفحات . وهو يهم بالأمور الفقهية خلال التراجم وقد يورد بعض آراء الناس وعقائدهم ويخلط الترتيب على السنين أحياناً كثيرة بالترجم . وقد أورد عند ذكر المدينة قائمة بأسماء الولاة والقضاء فيها في العهد الأموي وحتى مطالع العهد العباسي . وأما مصادره فكبار المحدثين والرواة من أمثال ابن اسحق وابن عقبة ومصعب والمدايني وابن حنبل والمدني وابن سلام .

- ابن الأزهـر : جعفر بن أبي محمد بن الأزهـر بن عيسـى (ولد سنة ٢٠٠ وتوفي سنة ٢٧٩) سمع من ابن الأعرابـي وغيرـه . وله كتاب التاريخ الذي وصفـه ابن النديـم بأنه « من جـيـاد الـكتـب ». وقد نـقل عنه كـثـير من المؤـرـخـين .

ويلفت النظر أن ابن العديم مؤرخ حلب ينقل عن كتاب الأحداث تأليف من يسميه أبو جعفر محمد بن الأزهر، ويدرك أنه ألفه لأبي نصر الطابي^(١). وقد يكون هذا المؤلف هو الأول نفسه لأنه من غير المعقول أن يكون أباً ما دام ابن العديم ينقل عنه أحداثاً تتعلق بسنة ٢٥٠ (بالقائد أحمد المولد)^(٢) وبهذا الشكل يكون كتاب الأحداث كتاباً ثانياً لابن الأزهر إن لم يكن الاسم عنواناً ثالثاً لكتاب التاريخ الأول نفسه.

— الترمذى أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى السلمى ،

(١) انتظار ابن العذم - بنيه الطلب (خطوط أحمد الثالث) المجلد الثاني الورقة ١٦٥ و سه.

(٢) ابن النديم - الفهرست ص ١١٣.

(المتوفى سنة ٢٧٩) الامام الحافظ الفزير صاحب أحد كتب السنن الأربع المعروفة وقد كتب أيضاً كتاباً في التاريخ لا شك أنه في تراجم الصحابة رواة الحديث على طريقة المحدثين كما لا شك أنه هو نفسه الكتاب الذي يحمل عنوان « تسمية أصحاب رسول الله » والذي نجد نسخة منه مخطوطة في مكتبة شهيد علي باستامبول (رقم ١/٢٨٤٠) في ١٧ ورقة ونجد منه قطعة مخطوطة أيضاً في (لاله علي) هناك (برقم ١/٢٠٨٩) .

— ابن أبي الدنيا أبو بكر عبد الله (أو عبد الله) بن محمد بن عبيد القرشي بالولاء (المتوفى سنة ٨٩٤/٢٨١ عن ثلث وسبعين سنة) من العلماء الرؤاد العالمين بالأخبار والروايات . كان على اتصال وثيق بالباطل العباسي وقد أدب عدداً من أولاد الخلفاء منهم الخليفة المكتفي (٢٨٩ - ٢٩٥) وكتبه تدخل في إطار المثل العليا الفكرية والاجتماعية لمصره ^(١) ومنها مثلاً : كتاب الفرج بعد الشدة . مكارم الأخلاق . ذم الملاهي . ذم المسكر . قرى الضيف . الصبر والثواب . الغيبة والنميمة . على أن له كتاباً تاريخية وأصحة منها :

— تاريخ الخلفاء وقد ذكره الصفدي في مقدمة كتاب الواقي ^(٢)

— كتاب مواعظ الخلفاء . — كتاب آخر الزمان وهو دون شك في النبوء بما يجري في نهاية الدنيا .

ولابن أبي الدنيا — فيما يذكر ابن التديم — كتابان تارىخيان آخران هما : كتاب النوادر وكتاب أخبار قريش . كما يذكر ابن القوطى له كتابي : الدعوات والسحاب ^(٣) .

وقد نشر كتابه الفرج بعد الشدة في مصر منذ سنة ١٩٠٦ وتحفظ له

(١) انظر قائمة كتبه لدى ابن التديم — الفهرست ص ١٨٥ وفي ذلك كشف الظنون ج ١ ص ٤٤١ .

(٢) الصفدي — الواقي ج ١ ص ٥١ .

(٣) ابن القوطى — تلخيص معجم الأداب ج ٤ القسم الأول ص ٧٨٠ و ٧٨٦ والقسم ٢ ص ٨٠٥ .

مكتبات استانبول وأوروبا نسخاً مخطوطة من بعض رسائله كذم الملاهي وقرى الضيف ، وبعض هذه الرسائل نشر في مصر ولكن كتبه الأساسية ضاعت .

— شيلمة محمد بن الحسن الخارجي الكاتب (المصلوب المحروق سنة ٢٨٠) وشيلمة لقب . « كان أولاً مع العلوي البصري ثم صار إلى بغداد » وأعطي الأمان « ثم خلط (أي أصابه بعض الاضطراب العقلي) وسعى لبعض الموارج فحرقه الخليفة المعتصم حياً بعد أن صلب على عمود خيمة». غير أن له من الكتب كتاباً في التاريخ هاماً لو أنه سلم : كتاب أخبار صاحب الزنج ووقائعه^(١)

— الشفقي إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال ... بن مسعود الشفقي (المتوفى سنة ٢٨٣ بأصبهان سنة ٨٩٦) وهو كوفي الأصل ولكنـه أقام بأصبهان . وكان في أول أمره زيدياً ثم صار إلى الإمامية وله كتب كثيرة تجعله حسب عناوينها المألوفة في زمرة الإنباريين المتأخرین^(٢) ومنها وهي تزيد على الخمسين : كتاب المغازى . كتاب السقيفة . كتاب الردة ، كتاب مقتل عثمان . كتاب الشورى . كتاب الحمل . كتاب صفين ... وتعـد على هذا النـسق حوالـي ٣٦ كتاباً عدا الكتب ذات الطابع الفقهي والديـني ومن بينـها ذكر خاصـة : كتاب التاريخ . كتاب السيرة . كتاب أخبار يزيد ، كتاب ابن الزير . كتاب أخبار عثمان . كتاب أخبار عمر . كتاب محمد (النفس الزكية) وابراهيم (ولـي عبد الله المحض) . كتاب الغارات الذي ينقل عنه المجلسي كثيراً، كما نجد قطعاً عـديدة في شـرح نـهج الـبلاغـة لـابن أبيـالـحـدـيد.

— الحربي أبو اسحق إبراهيم بن اسحق بن ابراهيم بن بشير (المتوفى سنة ٢٨٥) بغدادي من كبار الحفاظـ المـحدثـينـ والمـؤـلفـينـ فيـ المـحدـيثـ وـمنـ هـذاـ الـبابـ وـضـعـ كـتابـ المـغـازـىـ وـلـعـلـهـ مـنـ أـواـخـرـ الـكـتـبـ الـتـيـ أـلـفـ عـلـىـ الطـرـيقـ القـدـيمـ لـلـسـيـرـةـ التـبـوـيـةـ^(٣)

(١) ابن النديم - الفهرس من ١٢٧ .

(٢) انظر قائمة كتبه لدى الطوسي - التهرست من ٢٧ - ٢٨ .

(٣) انظر قائمة كتبه لدى ابن النديم - الفهرس من ٢٢١ - ٢٣٢ .

— السرخسي أبو العباس أحمد بن محمد بن مروان بن الطيب (القتيل سنة ٨٩٩/٢٨٦) وهو تلميذ الكندي الفيلسوف وأحد كبار الملحدين في نظر البيروني ، وأحد فلاسفة الإسلام في نظر القسطي . كان متفنناً في علوم كثيرة ، موسوعي الثقافة ، بلغ اللسان والتصنيف . عمل أولاً معلماً لل الخليفة المعتصم (٢٧٩ - ٢٨٩) واختص به ونادمه ثم أفضى بعض أسراره فسجنه ثم قتل في مكيدة^(١) ... كتب عدداً من الكتب في الفلسفة والموسيقى والطب . كما وضع عدداً من الكتب التاريخية والسياسية المتصلة بالدولة وبعصره وتكشف مجموعتها مدى ثقافته الواسعة المتنوعة . ومنها :

— كتاب سير المعتصم إلى الشام . وهو نوع من المذكرات الجغرافية السياسية التاريخية لعله كتبها بطلب من الخليفة نفسه . ولكنها من أوائل كتب المذكرات في التاريخ الإسلامي إن لم يكن أولاً . وقد وجدت نسختها بين كتبه المصادرية يوم مقتله فعهد بها الخليفة إلى كاتبه ثابت بن سنان الحراني فجعلها كتاباً في سيرة المعتصم .

— كتابان في السياسة هما : كتاب السياسة الصغير والسياسة الكبير .

— كتابان في الحسبة هما : كتاب الأغشاش وصناعة الحسبة الكبيرة وكتاب غش الصناعة والحسبة الصغيرة .

— كتب في أدب أهل البلاط والخاشية، منها : زاد المسافر وخدمة الملوك . آداب الملوك . الجلسات والمجالسة .

— كتب في المتعة الأدبية التاريخية منها : كتاب اللهو والملاهي في الغناء والمعنىين والمجالسة والمنادمة وأنواع الأخبار والملح . كتاب القيام .

— كتب جغرافية وتاريخية أخرى مثل : كتاب المسالك والممالك الذي امتدحه المسعودي^(٢) .

(١) انظر القسطي - تاريخ الحكماء (مختصر الرزوقي - طبعة ليدرت) ص ٧٧ .

(٢) المسعودي - التبيه والاشراف ص ٦٥ .

— رسالة في الصابئين ومذاهبهم وكتاب فضائل بغداد .

ولم يبق من هذا التراث كله شيء سوى بعض النتف ومنها ما نجده لدى ابن العديم في بغية الطلب منقولاً عن كتاب ثابت بن سنان^(١) .

٩٠٢) . أديب لغوي عرف برواية الأفاصيص القديمة والحكايات . ذكره البغدادي في تاريخ بغداد . وله :

— أبو الفضل محمد بن أحمد بن عبد الحميد الكاتب (المتوفى سنة ٢٨٧ / ٩٠٠) ويصف ابن النديم هذا الرجل بأنه « من أهل السير » وجدته هو أول كاتب بارز في تاريخ الأدب العربي . وقد كتب أبو الفضل كتاب أخبار خلفاء بني العباس . وقد وصف بأنه تاريخ كبير . وقد كان من مصادر الطبرى^(٢) كما وجده الجهشيازي بخطه ونقل عنه جدول خراج الدولة زمن الرشيد^(٣)

— العلوى، أبو عبد الله محمد بن علي بن حمزة الهاشمى (المتوفى سنة ٢٨٧ / ٩٠٠) . وهو مؤرخ محدث شاعر^(٤) . روى عن أبيه وعن عمر بن شبة كما كان أستاذ أبي حاتم الرازى . وقد كتب :

— كتاب مقاتل الطالبيين وكان من المصادر الهامة لأبي الفرج الأصفهانى في كتابه الذي يحمل العنوان نفسه .

— العزى أبو علي الحسن بن عليل بن الحسين (المتوفى بسامراء سنة ٢٩٠ /

(١) انظر ابن العديم — بغية الطلب مثلاً (خطوط أحد الثالث رقم ٢٩٥) المجلد ٢ ورقة ٨٩ وجه . وخطوط أبي صوفيا ورقة ٦٩ وجه . وقد كتب روزنثال بعثاً عن أبي الطيب السريسي سنة ١٩٤٣ درس فيه بعض النتف الباقية من كتاب فضائل بغداد وغيره . انظر :

Rosenthal, F. : *A. b. At-Tayyib As-Sarakhsî* (New Haven 1943, American Oriental Series, 26).

(٢) انظر ابن النديم — الفهرس ص ١٠٧ وانظر الطبرى ج ٣ ص ٢١٣٤ ، ٢١٩٢ .

(٣) انظر الجهشيازي — الوراء والكتاب ص ٢٨١ حتى ص ٢٨٨ .

(٤) انظر النجاشى — الرجال (ط. ايران) ص ٢٦٧ — ٢٦٨ وانظر الخطيب البغدادي — تاريخ بغداد ج ٣ ص ٦٣ .

— كتاب التوادر الذي استخدمه المرزباني في الموضع وكانت لدى القسطي نسخة منه استخدمها في كتابه إنباه الرواية^(١).

— ابن أبي خيثمة (الابن) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن زهير المتوفى سنة ٢٩٧ وهو بغدادي من المحدثين روى عن أبي حفص الفلاس وكان شديد الحفظ حتى كان أبوه يستعين به في تصنيف التاريخ الذي كتبه . وقد كتب الابن أبو عبد الله بدوره :

— كتاب التاريخ ولا شك أنه على الطريقة الحديثية .

— كتاب الركاة وأبواب الأموال بعلمه من الحديث . وهو يدخل في زمرة كتب الحراج .

— أحمد بن يعقوب الرازي المقرئ المتوفى سنة ٣٠٠ وله كتاب أخبار العباسيين أو أخباربني العباس . وكان من المصادر التي اعتمدتها المسعودي^(٢) .

— ابن خرداذبه : عبيدة الله بن عبد الله (أو أحمد) أبو القاسم المتوفى في حدود سنة ٣٠٠ . كان من موظفي الدولة . تولى البريد في ناحية الجبل (شمال غرب ايران) كما كان تديم الخليفة المعتمد على الله (٢٥٦ - ٢٧٩) . وقد أفرغ معلوماته الجغرافية في كتاب المسالك والممالك الذي أصبح به أحد الجغرافيين العرب البارزين . غير أنه ألف العديد من الكتب غيره مما يدخل في التاريخ الخضاري مثل : كتاب النداء والحلسae . كتاب الهـو والملاهي . كتاب أنساب الفرس والتواقل ...

(١) انظر البندادي - تاريخ بغداد ج ٧ ص ٣٩٨ والقسطي - إنباه الرواية ج ١ ص ٣١٧ - ٣١٨ .

(٢) جاء ذكر هذا المؤلف لدى هدية العارفين (ج ١ ص ٥٦) بالاسم والألقاب التي ذكرناها وجاء ذكره في المطبوع من مروج الذهب المسعودي (ج ١ ص ٥١) وفي كشف الظنون (ج ١ ص ٢٦) على أنه المصري وليس المقرئ . ومن غير المحتمل أن يكوننا مؤلفين اثنين مع سهولة تصحيف إحدى هاتين الكلمتين إلى الأخرى .

وقد ذكر المسعودي اسم ابن خرداذبه في مراجعه التاريخية بالتفريظ الواضح وذكر أن له كتاباً كبيراً في التاريخ . يقول المسعودي :

« ... إنه كان إماماً في التأليف متبرعاً في ملاحة التصنيف . اتبعه من هذه طريقته وأخذ منه ووطئ على عقبه وقفى أثره . وإذا أردت أن تعلم صحة ذلك فانظر إلى كتابه الكبير في التاريخ فإنه أجمع هذه الكتب جداً وأبرعها نظماً وأكثرها علمًا وأحوى لأخبار الأمم وملوكها وسيرها من الأعاجم وغيرها .. ومن كتبه النفيسة كتابه في المسالك والممالك وغير ذلك مما إذا طلبه وجده . وإن فقدته حمدته ... » ^(١) ولم يبق من انتاج ابن خرداذبة سوى هذا الكتاب الأخير .

- العقيلي : علي بن أحمد العلوى الذى قدم بغداد سنة ٢٩٨ ومات بعدها وله كتاب الرجال ^(٢) تحدث فيه عن رواة الشيعة خاصة وكان من مصادر تقى الدين الحسن بن علي الحلى (المولود سنة ٦٤٧) في كتابه عن الرجال . ويبدو أن ولداً لهذا المؤرخ العلوى اسمه أحمد بن علي كتب بدوره كتاباً في تاريخ الرجال ^(٣) .

- سعد بن عبد الله الأشعري القمي (المتوفى سنة ٢٩٩ أو سنة ٣٠١) وهو من علماء الشيعة وقد كتب بدوره كتاباً يسميه السخاوي : تاريخ الشيعة . ولعله هو نفسه أحد الكتابين التاليين أو كلاهما . وهما : كتاب مناقب رواة الحديث ، وكتاب مثالب رواة الحديث ^(٤) والكتابان يكمل أحدهما الآخر ويبدو أن أحدهما كان مرتبًا على الطبقات .

(١) المسعودي - مروج الذهب ج ١ ص ١٤ .

(٢) انظر الطوسي - الفهرست ص ٩٧ وانظر الحلى - كتاب الرجال ص ٣ .

(٣) انظر النجاشي - الرجال ج ١ ص ٦٣ والطوسي الفهرست ص ٢٤ .

(٤) ذكر الكتابين النجاشي : الرجال ج ١ ص ١٣٤ والطوسي - الفهرست ص ٧٥ وذكر السخاوي تاريخ الشيعة في الاعلان ص ٥٨٠ .

— البردعي البرديجي أبو بكر أحمد بن هارون بن روح (المتوفى سنة ٣٠١) نزيل بغداد وكان من الثقات الأخيار ومشاهير العلماء المحدثين وكتابه التاريخي إنما كان في هذا الباب واسميه : كتاب طبقات في الأسماء المفردة من أسماء العلماء وأصحاب الحديث . ومنه مخطوط بالظاهرية في دمشق في ١٧ ورقة وآخر في مكتبة كوبيرلي باستامبول (رقم ١١٥٢) . وهو يذكر الاسم والكنية والسبة إلى المدينة ويدرك أحياناً أحد شيوخ المحدث أو تلاميذه وقد قسم الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى خمس طبقات بنى عليها كتابه .

— وأخيراً نذكر الإمام الناصر للحق الحسن بن علي الاطروش بن الحسن الزيدية ، صاحب طبرستان ما بين سنتي ٣٠١ - ٩١٣ / ٣٠٤ - ٩١٦ له ابن النديم ^(١) :

— كتاب السير ، ولا شك أنه يكمل سلسلة كتب السير المعروفة التي تتحدث في الفتوح وتنظيم العلاقة مع البلاد المفتوحة .

ويأتي مع هذه المجموعة في أواخر القرن الثالث جماعة من مجھولي الوفاة منهم :

— الدروقي ، أحمد بن ابراهيم وقد كتب سيرة عمر بن عبد العزيز في خمسة أجزاء ، درسها ابن خير في بغداد سنة ٣٩٧ من خلال ثلاثة رواة ^(٢) .

— نطاحة : أبو علي أحمد بن اسماعيل بن الخصيب الأنباري المعروف بنطاحه كاتب عبيد الله بن عبد الله بن طاهر . قتله محمد بن طاهر . وكان بليغاً مترساً — فيما يروي ابن النديم — شاعراً متقدماً في صناعة البلاغة ، صديقاً لابن المعتز . وديوان رسائله يصلح حوالى ألف ورقة ، وله :

كتاب طبقات الكتاب : وكتاب أسماء المجموع المنقول من الرقاع يحتوي

(١) انظر ابن النديم - ص ١٩٣ .

(٢) انظر ابن خير - فهرس ابن خير ص ٢٧٣ .

على سمعاته من العلماء وما شاهد من أخبار الجلة^(١)

— النملي أبو نحيلة : وابن النديم يقول إنه لا يعرف من أمره غير هذا وله من الكتب : كتاب الشذور في مؤامرات الخلفاء والأمراء^(٢)

— أبو عيسى أحمد بن علي بن يحيى وله من الكتب : تاريخ سني العالم^(٣) ولعله يشبه كتاب حمزة الأصبهاني .

— عبد الله بن الحسين بن سعد الكاتب وقد كتب : كتاب التاريخ وأخبار الخلفاء من بني العباس وغيرهم وكان من مصادر المسعودي .

— النصي حسن بن موسى . صاحب كتاب الأغاني على حروف المعجم ألفه للمتوكل وذكر في هذا الكتاب — على رواية ابن النديم — أشياء من الأغاني لم يذكرها اسحق (الموصلي) ولا عمرو بن بانة وذكر من أسماء المغنيين والمغنيات في الباهلية والإسلام كل طريف وغريب . وله عدا ذلك كتاب مجردات المغنيين^(٤)

— الذهلي سعيد بن محمد وله كتاب في التاريخ اعتمد فيه على التوراة والإنجيل في إخراج التاريخ القديم . وقد نقل عنه البيروني في الآثار الباقيه وذكر أنه بحث فيه مبدأ الخلق وأن هناك أوادم كثيرة وأدواراً للخلق ...^(٥) .

— أبو حشيشة : محمد بن علي بن أمية ويكنى أبا جعفر من ولد أبي أمية الكاتب . وكان طنبوريأ حاذقاً كما ألف كتاب أخبار الطنبوريين^(٦) .

— أبو العبر الهاشمي : ويكنى أبا العباس محمد بن أحمد بن عبد الله من

(١) ابن النديم — الفهرس ص ١٢٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٤٠ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٤٤ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٤٥ .

(٥) البيروني — الآثار الباقيه ص ١١٢ .

(٦) ابن النديم — الفهرس ص ١٤٥ .

نسل العباس وله من الكتب : كتاب سماء جامع الحماقات ومؤوى الرقاعات ،
وكتاب المنادمة وأخلاق الخلفاء والأمراء . وكتاب نوادر ^(١) .

— ابن الشاه الظاهري : أبو القاسم علي بن محمد من ولد الشاه بن ميكال
وكان أديباً وفي نهاية الطرف . وله من الكتب : كتاب أخبار الغلمان . كتاب
أخبار النساء . كتاب عجائب البحرة ، وغيرها ^(٢) .

— رجل يعرف بالمنادكي له من الكتب : كتاب الهمج والرعام وأخلاق
العوام . كتاب نوادر الغلمان والخصيان ^(٣) .

— محمد بن اسحق السراج من أهل نيسابور ، وله من الكتب : كتاب الأخبار
ذكر فيه أخبار المحدثين والوزراء والولاة وغير ذلك .. ^(٤) .

(١) المصدر نفسه ص ١٥٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٥٣ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٥٣ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٥٥ .

٢ - المؤرخون الكبار

يأتي في طليعة المؤرخين الكبار مؤرخ ظهر في وقت مبكر هو :

خليفه بن خياط الليثي المصفي : (ولد حوالي سنة ١٦٠ - ١٧٠ وتوفي حوالي سنة ٢٤٠) ^(١) وهو بصري الأصل من بيت علم وحديث ينحدر من الجد إلى الأب فالحفيد . درس على شيوخ كثرين ^(٢) لكنه عانى الكثير من العنت بسبب عدائه للمعتزلة وهو في عصر المأمون وعانى الكبير من الحسد بسبب سعة علمه وثقته .

ألف ابن خياط من كتب التاريخ .. كتاب الطبقات . كتاب التاريخ وكتاب طبقات القراء وتاريخ الزمن والعرجان والمرضى والعميان . وقد اتفق أن سلم من هذه المجموعة الكتابان الأولان في خطوطات فريدة وقد طبعا مؤخراً في دمشق وبغداد . وأضيف بذلك إلى قائمة المصادر اسم هذا المؤرخ .

مصادر معلوماته تجوي أسماء محمد بن اسحق ، و وهب بن جرير (الذي

(١) يذكر ابن خلكان وفاته سنة ٢٣٠ ولكن كتابه يصل في التاريخ إلى سنة ٢٣٦ وقد ذكر ابن عساكر و ابن كثير وفاته سنة ٢٤٠ وله ترجم له ابن خلكان و ابن الأثير (الباب ج ٢ ص ١٤٠) والنهبي في تذكرة المفاظ .

(٢) نجد في التاريخ الكبير للبخاري (المجلد ١ قسم ١ ص ٣٥٩ و ٢ ص ٥٨ ، ١٢١ وفي المجلد ٢ قسم ٢ ص ٢٢٥ وفي المجلد ٤ قسم ١ ص ١٨ و ٣٦٧) أسماء شيوخ خليفه بن خياط .

نقل عنه ابن سعد وخاصة في الطبقات الكبرى) وأبي معشر السندي ، وهشام ابن محمد الكلبي (في الأنساب) .

كما تحوي خاصية اسم المدائي الذي اعتمدته ابن خياط على نطاق واسع وأسم أبي اليقطان سحيم النسابة (الذي يظهر في التاريخ والطبقات على السواء) وأسم أبي عبيدة معمر بن المثنى (فيما يتعلق بالحوارج) . وثمة عدد آخر مثل عبد الله بن المغيرة والوليد بن هشام وغيرهم يبلغون في العدد أكثر من ١٠٣ رواة . وطريقة ابن خياط في السرد التاريخي متصلة بصفته كمحاث فهو يتم بالاسناد لا سيما حين يتعلق الأمر بالأحداث الخلافية ولكنه يتناهى في الطبقات ، حيث اكتفى بذكر قائمة مصادره في أول الكتاب . إلا أن أهم ما يميزه هو أنه اتبع الطريقتين الاساسيتين اللتين ستكونان في المستقبل الطرائق الرئيسية والمفضلة لدى المؤرخين .. طريقة الطبقات (في كتاب الطبقات) وطريقة الحواليات في (التاريخ) .

ويكشف ابن خياط في كتاب التاريخ عن اهتمامات تاريخية لا نجد لها لدى الطبرى نفسه .

١ — فهو يبدي اهتماماً خاصاً بذكر أسماء الشهداء في العزوات والواقع الهامة .

ب — وهو يقدم قوائم هامة بأسماء العمال والولاة في عهود الخلفاء ومن كان من الموظفين الكبار على الشرطة وبيت المال والخزائن وغير ذلك من وظائف الادارة . فهو من هذه الناحية مصدر لا يستغني عنه لدراسة النظام الاداري والمالي الإسلامي .

ثم إنه يقدم معلومات في بعض الأحداث لا توجد لدى غيره مثل أخباره عن شمال أفريقيا واقعة الحرة والزاوية وغيرها .

وأهمية كتابه في التاريخ هو أنه أقدم كتاب في أيدينا لتاريخ الإسلام

مرتب على المخواطيات ، ولعله كان المثال الذي احتذاه الطبرى وأخذ كثيراً من المعلومات عنه .

أما كتاب الطبقات فهو في علم الرجال ، وابن خياط يكشف عن علم واسع بالأنساب ولكنه يضيق إليها الأخبار . وقد رتب كتابه على ثلاثة أنسس : التنظيم على النسب وعلى الطبقات وعلى المدن . وقد اتبعت كتب علم الرجال فيما بعد هذه الأنسس مجتمعة أو منفردة في تنظيم مادتها . وابن خياط (مع ابن سعد صاحب الطبقات الكبرى) هو أقدم من أخذ بالترتيب الأنسبى ^(١) من المصنفين في علم الرجال . وقد اعتمد التسلسل القبلي بالنسبة لآخرين من بعدهم .

ثم قسم ابن خياط رجال الطبقات على أمصارهم وهو (مع ابن سعد) أقدم من فعل ذلك . وتأتي المدينة في الطبيعة لوفرة علمائها . وكلما قل " العلماء نزلت منزلة البلد . لهذا تأتي الكوفة بعد المدينة ثم البصرة ثم المدن الأخرى .

وقد أخذ الكثيرون عن ابن خياط ، فنقته لدى المحدثين جعلته مصدراً للبخاري والأحمد بن حنبل والطبرى وابن سعد كما اعتمده الكثيرون قبل الطبرى وبعده مثل يعقوب بن شيبة والتستري وبقى بن مخلد .

وكتاب ابن خياط من وجهة نظر علم التاريخ يكشفان عن استقرار النظرة الوحدوية للأمة الإسلامية ويعبران عن ثبات المعطيات الأولى سواء في نماذج الرجال أو نماذج الأعمال — التي تبني عليها تلك الأمة سلسلة وحدتها وتراثها في الخبرة عبر الزمن .

— محمد بن اسماعيل بن ابراهيم البخاري المفعفي (١٩٤ - ٢٥٦ - ٨١٠) : وهو من الحديث النبوى ورجال الحديث في القمة . و « صحيح

(١) يظهر أن ابن خياط سبق ابن سعد في التأليف بالطبقات وبما متواتر أن لأن ابن سعد يأخذ عن ابن خياط في طبقاته .

البخاري » أحد الصحيحين المعتمدين بين كتب السنة الستة . وجد أبيه ايراني كان مولى لبعض ولاة بخارى من اليمن . درس البخاري الحديث في وقت مبكر ، وحين بلغ السادسة عشرة خرج للحج وسمع من علماء مكة والمدينة ثم رحل إلى مصر فسمع من علمائها ، وبعد رحلة استمرت ١٦ عاماً عاد إلى إل بخارى علماً من أعلام الحديث والمحاذين . وقد اضطر أن يترك بلده فترة من الوقت حين رفض تعلم أولاد واليها : خالد بن أحمد النهلي ، ثم عاد إليها وتوفي في قرية تبعد فرسخين عن سمرقند .

وإذا كانت شهرته تقوم على « الصحيح » فقد انسحب جزء من هذه الشهرة على كتابه : « التاريخ الكبير » وهو مصنف ضخم جمع نحواً من أربعين ألف ترجمة لرجل وامرأة من رواة الحديث مرتبة على حروف المعجم وتدأ بالمحمدين . وقد ملأت ثمانين مجلدات مطبوعة (طبع في حيدر آباد ما بين ١٩٤١ - ١٩٦٣) ولعله أقدم كتب التراجم المرتبة على الأحرف الأبجدية .

وقد تردد في ادخال هذا الكتاب الذي يقوم على التراجم ، وعلى نوع خاص منها هو تراجم أهل الحديث فقط . في دنيا التاريخ . ولكن هذا النوع التاريخي ظهر مع ظهور علم التاريخ ورافقه واندمج به . وكما ظهرت المواضيع الأخرى في التدوين ظهر هذا الموضوع في المدرسة العراقية ، ولعله تمثل قبل البخاري بعدد من المؤلفين منهم :

— عبد الله بن المبارك ، أبو عبد الرحمن (المتوفى بهيت وهو عائد من الغزو سنة ١٨١) وله كتاب التاريخ .

— عبد الله بن محمد بن أبي شيبة (المتوفى سنة ٢٣٥) وله أيضاً كتاب التاريخ .

— الأثرم أحمد بن محمد من أصحاب احمد بن حنبل وله كتاب التاريخ .

— يحيى بن معين المتوفى سنة ٢٣٣ وقد صنع أصحابه من أقواله كتاب التاريخ باسسه .

ومع أن ضياع هذه التواريخ (عدا الأخير منها) يمنعنا من أن نؤكد صفة التراجم فيها ولكن أصحابها كانوا ، كالبخاري ، من المحدثين المهمتين بصورة أساسية بترجمة أهل الحديث ، الفرع التاريخي الذي أخذ يوازي الفرع الآخر من التراجم المنصبة على الصحابة . وكما بلغ احصاء الصحابة هذا والتابعين مع ترجمتهم أوجه في طبقات ابن سعد (المتوفى سنة ٢٣٠) بلغ العمل على جمع تراجم الحفاظ ورواية الحديث أوجه على يد البخاري وإن كان الامر ان في النتيجة واحداً . وإذا أخذ (التاريخ الكبير) شأنه لما يحمل من قيمة دينية تخدم علم الحديث إلا انه لم يكن الجهد التاريخي الوحيد لصاحبته . فالبخاري كتب عدا ذلك الكتاب :

- التاريخ الأوسط : وهو مرتب على السينين ولعله أقدم كتب الوفيات .
ولكنه ما يزال مفقوداً ليس منه سوى ٥٦ ورقة مخطوطه ضائعة البقية في مكتبة
بنكسيبور في الهند (١٢ : ٣٢ رقم ٦٨٧) .

- التاريخ الصغير و منه مخطوطات عديدة في برلين وكلكتا ، والظاهرية
بدمشق ، وقد نشر بتحقيق محمد الجعفري في الله آباد سنة ١٣٢٤ ثم أحمد
آباد سنة ١٣٢٥ .

- التاريخ في معرفة رواة الحديث ، ونقلة الآثار والسنن وتميز ثقافتهم من ضعفائهم وتاريخ وفائهم . ومنه مخطوط في مكتبة سراي باستانبول (مدينة رقم ٥٢٤ في ١٨ ورقة) .

- التواريχ والأنساب : وهو كتاب تاريخي لا منهج له يضم بعض المعلومات أو التواريχ المأمة ويتناول بالترجمة بعض الشخصيات العلمية . ومنه خطوط في مكتبة أحمد الثالث باستانبول رقم ٢٩٦٩ / ٢ في ١٧ ورقة (من ورقة ٣٨٢ وجه حتى ظهر ٣٩٩) .

— كتاب الكنى وقد طبع في حيدر آباد سنة ١٣٦٠.

وهذا الجهد التاريخي الواسع جعل البخاري في رأي الكثيرين ومنهم ابن

حجر السخاوي «أول من صنف في تاريخ الصحابة والصحابيين»^(١). وهذا لم يسلم عمله من النقد والتقصص وقد ألف عدد من العلماء من بعده في تصحيح هفواته أو إكمال نواقصه . ولكنكه يظل على أي حال رئيس مدرسة الترجم تاماً كما صار ابن سعد رئيس مدرسة الطبقات وكما سوف يكون الطبرى وأس مدرسة التاريخ بجانب رئاسته في التفسير .

— ابن قتيبة الدينوري : (٢١٣ — ٨٢٨ / ٢٧٠ — ٨٨٣) ، عبد الله بن مسلم إمام في اللغة والأدب والأخبار والقرآن والحديث من بيت علم مستقل الفكر . وأبوه من مرو ولعله ولد في الكوفة أو بغداد . وإنما لقب بالدينوري لأنه ولد قضاء دينور زماناً . وقد تربى في بغداد على أبي حاتم السجستاني وحرمهما ابن يحيى والرياشي وأقرأ كتبه في بغداد أيضاً فمن تلاميذه السكري وإبراهيم ابن محمد الصائغ وعبد الله التميمي . وكان واسع الصلة بالفتح بن خاقان الوزير وكتب له أدب الكاتب .

وقد أتت مؤلفاته تصل إلى ٤٧ مؤلفاً . منها ما هو في القرآن والحديث ومنها ما هو في الخبر ، ومنها ما هو في اللغة والشعر . وأما ما يتعلق بالتاريخ فعدد المؤلفات . ومنها ما هو موجود مثل طبقات الشعراء (مطبوع باسم الشعر والشعراء) . كتاب الأنواء (مطبوع) ، الميسير والقداح (مطبوع) ، فضل العرب على العجم (منه قسم مطبوع وآخر مخطوط في دمشق وفي القاهرة) ومنها ما هو ضائع مثل .. كتاب الحكاية والمحكي . الجواهير الحاضرة ، كتاب حكم الأمثال ، آداب العشرة .

على أن أهم كتبه دون شك - كتابان معروفان موجودان هما كتاب عيون الأخبار وكتاب المعارف. وثمة كتاب ثالث مخطوط في دمشق يُعرف بتاريخ ابن قتيبة

(١) انظر السخاوي - الاعلان بالتوبيخ (طبعة روزنثال - العربية) ص ٥٤٠ .

وكتاب رابع ينسب اليه هو الإمامة والسياسة . أما عيون الأخبار (مطبوع في ٤ أجزاء) فهو مجموع عشرة كتب .. كتاب السلطان . كتاب الحرب والسؤدد . الطبائع والأخلاق الملموسة . العلم والبيان . الزهد . الأخوان . الخواج . الطعام . النساء . فكتاب السلطان يتحدث عن سيرته و سياساته و عمله و صحبه وعن الكتابة والقضاء والمظالم والمحاجب ... وكتاب الحرب يتحدث عن أدابها وأخبار الجناء وحيل الحرب والفروسية والدواب ... وكذلك الكتب الأخرى فهو اذن كتاب في التاريخ الحضاري ، لا ظل للسياسة والأحداث والزمن التسلسل فيه ولكنه كالمنجم يستخرج منه الكثير من عناصر الحضارة الإسلامية .

وأما كتاب المعارف فليس بكتاب مبسوط في التاريخ ولكنه أشبه بمخطط لكتاب كدائرة المعارف شديد الإيماز .. فيه قوائم أحداث وشيء من السيرة وجداول أسماء وأنساب وذكر لفرق الرجال . ولعل ابن قتيبة وضعه لسد حاجة الكتاب والناس إلى تاريخ موجز يحوي المعلومات الأساسية أو لعله وضعه مشروعًا لكتابه تاريخ عالمي يبدأ بالخلقة وينتهي في عهد المعتصم شاملًا تاريخ الأنبياء وأنساب العرب والسيرة والصحابة والتابعين والخلفاء وأصحاب الرأي والنسب وأخبار الحديث والشعر والولاة وصناعات الأشراف وأخبار الملوك العرب والعمجم

ومصادر ابن قتيبة في كتاب المعارف تعتمد على الكتب والروايات الشفهية فهو يروي عن ابن اسحق والواقدي والكلي ويرجع في تاريخ الخلق والأنبياء رجوعاً مباشراً إلى « العهد القديم » ولعله أول من رجع مباشرة إليه .

وابن قتيبة لا ينقد المصادر فحسب ولكن ينقد المعلومات أيضاً . ويورد الآراء السائدة وقد يعطي أحياناً بعض الأحكام الشخصية كرأيه في الحجاج وفي المزانة الظاهرية بدمشق كتاب مخطوط يحمل اسم .. تاريخ ابن قتيبة^(١) . وقد ذكر صاحب كشف الظنون في كلامه على تاريخ أبي حنيفة الدينوري

(١) هو مخطوط في دار الكتب الظاهرية رقمه ٨٠ تاريخ .

كلمة المسعودي عنه إذ يقول إن ابن قتيبة أخذ ما ذكره أبو حنيفة وجعله عن نفسه .

أما كتاب الإمامة والسياسة ... فكتاب مطبوع أكثر من مرة ويبحث في تاريخ الخلافة وشروطها منذ وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم حتى عهد المأمون . وقد تشكك العلماء في نسبة الكتاب إلى ابن قتيبة . وأول من أعلن ذلك وعلمه هو غاينغوس المجريطي في صادر كتابه عن الأندلس سنة ١٨٨١ ثم تبعه دوزي وآخرون . وأوجه الشك في نسبة الكتاب كثيرة ..

- ١ - فلم يذكر أحد من مترجمي ابن قتيبة هذا الكتاب له .
- ٢ - وذكر في الكتاب أنه استمد عدداً من معلوماته من حضر فتح الأندلس وقد كان هذا الفتح سنة ٩٢ وميلاد ابن قتيبة سنة ٢١٣ .
- ٣ - وفي الكتاب جهل تاريخي لا يمكن أن يفوت ابن قتيبة كاعتباره أبو العباس والسفاح شخصيتين وجعله الرشيد خلفاً للمهدي وذكره أن ابنه عبدالله دس له السم وليس للمهدي ابن بهذا الاسم .
- ٤ - في الكتاب عناية بأخبار الأندلس لا يعرفها ابن قتيبة وغيره في العراق لعهودهم .
- ٥ - شيخ ابن قتيبة الذين يردون عادة في كتبه عنهم لا ذكر لهم أبداً في هذا الكتاب .
- ٦ - المؤلف مالكيّ الموى والمذهب وابن قتيبة حنفي .
- ٧ - يظهر في تصاعيف الكتاب أن مؤلفه مقيم في دمشق وابن قتيبة لم ير هذه المدينة .
- ٨ - في الكتاب رواية عن ابن أبي يعلى محمد بن عبد الرحمن الانصاري المتوفى سنة ١٤٦ قبل ولادة ابن قتيبة بخمس وستين سنة !

٩ - في الكتاب ذكر لبلاد لم تكن موجودة زمن الرشيد . فمراكم لم يغزاها موسى بن نصیر وإنما بناها يوسف بن تاشفين سنة ٤٥٤/١٠٦٢ م سلطان المرابطين .

١٠ - وأخيراً فان اسلوب الكتاب مغاير للألف أسلوب ابن قتيبة، فيه عنابة بالقصص والرواية .

ويرجح مرغليوث أن يكون مؤلف الكتاب من أهل القرن الثالث ، وعصر ما بعد الرشيد ، يوم اهتم الناس بالإمامية وكيفية انتقامها وشروطها ... ولكن يظهر أن عهده متاخر عن ذلك أيضاً وربما كان من القرن الرابع . وقد يكون لأكثر من مؤلف واحد لأن ثمة اختلافاً بين قسمي الكتاب . وقد يكون صاحبه إنما قصد إلى القصص والرواية الشعبية ففيه مواد خرافية وذكر بعض الرسائل والخطب والمحوار الموضوع الذي يصعب القبول بأصله أخذه كوثائق ونصوص سياسية ، وبعض الرسائل فيه تتحدث أحياناً عن أمور جرت بعدها في الزمن وهذا يعني أنها وضعت بعد الأحداث واستنبطت منها ولم تكن بالعكس قبلها . وإذا كان هذا النوع من العرض التاريخي يجعل الكتابة حية شيقة إلا أنه في الوقت نفسه يمنعها أن تكون مصدراً للمعرفة العلمية .

فإذا تركنا كتاب (الإمامة والسياسة) جانباً فان ابن قتيبة في كتبه الأخرى يبدو ذا مادة تاريخية وافرة وقدرة على الاستنباط والجمع والتنظيم واضحة كما يظهر في منهجه التاريخي حيادياً يؤكّد على الحقائق ويعرض الآراء السائدة ولكنه لا يكتم رأيه فيها .

وعلى أي حال فكتب ابن قتيبة تبدأ بالنسبة للتأليف التاريخي مرحلة من النظرة العالمية والحضارية لم يعرفها المؤلفون السابقون إلا جزئياً . وان تكن محاولة محدودة بالقدر الذي سمحت به معارف ابن قتيبة وعصره ومواهبه . وبالرغم من أن أهل الحديث يضعونه على طريقتهم المعهودة في الريمة

المنهجية إلا أن ابن قتيبة يظل بالنسبة للمؤرخين مرحلة هامة من مراحل الوعي التاريخي الإسلامي .

البلاذري ^(١) .. أحمد بن يحيى بن جابر (توفي سنة ٨٩٢/٢٧٩) وهو من رجال البلاط العباسي منذ عهد المتوكل حتى المعتر وقد عين مربياً لابنه عبد الله . وكان أحد النقلة من اللسان الفارسي إلى العربية . ومصادر معلوماته تعتمد شيوخه الأربع في بغداد . ابن أبي شيبة ، والقاسم بن سلام ، والمدائني و محمد بن سعد ولكنه أغنى معارفه غنى كبيراً بالرحلة . فقد زار مدن الشام والهزار و ايران بحثاً وراء المعرفة بل زار موقع الأحداث التاريخية بنفسه . ولكن حسده للناس كان يقتله حقداً ويملاً فمه هجاء و خاصة للأشراف .

وقد كتب البلاذري عدداً من الكتب منها .. كتاب البلدان الصغير ^(٢) و كتاب البلدان الكبير (ولم يتمه) و كتاب عهد أردشير لكن كتبه التي صنعت مجده هي : كتاب فتوح البلدان وخاصة أنساب الأشراف . و فتوح البلدان سجل شامل لفتوح الإسلامية وهو معروف بهذا الاسم ولو أنه في المخطوطات يحمل اسم (أمور البلدان) وقد فصل فيه البلاذري فتوح كل بلد وكل ما يتعلق به نقاًلاً عن أهل البلد أنفسهم وكتبهم . وأهمية الكتاب تظهر فيما أورد من معلومات ثقافية واقتصادية وادارية فقد فصل في متازل السلطان والقبائل العربية بعد الفتح . وفي إنشاء المرافق العامة وفي انتقال الهجرة ومسالكها وفي مصدر الأسماء الخاصة ... وبالرغم من أنه استخدم الواقدي عن طريق كاتبه محمد ابن سعد وروایات المدينة فإنه أضاف بعض الروایات التي يحوم حولها الشك لأنها كانت شفوية في الأصل فوق منها في بعض الأخطاء الكرونولوجية . وقد يورد الخبر الواحد أحياناً أكثر من رواية واحدة ولكن الاختلاف بين الروایات ليس بكثير في النهاية لا سيما حين يورد أكثر من نص لمعاهدة واحدة . وقد استطاع أن يصفي المادة التي جمعها ثم ينسقها . أما كتابه الثاني أنساب الأشراف

(١) قالوا ينسب إلى البلاذر وهو ثغر شربه جده فوسوس .

(٢) لعل هذا الكتاب هو نفسه فتوح البلدان .

فهو موسوعة ضخمة ما يزال في معظمها مخطوطاً^(١) فقد طبع منه الجزء الأول وبعض الرابع والخامس . ويظهر في هذا الكتاب تلقي طريقة الخبر بالأنساب في الطبقات بالتاريخ وتلقي طريقة الرواية المتفصلة والخبر المفرد مع الرواية التاريخية المتصلة والتاريخي المطرد . فتجد كتب التاريخ ولكن على أساس عمود الأنساب لا الزمن التاريخي ثم جعل لكل موضوع عنواناً فرعياً خاصاً به كأنه وحدة مستقلة تماماً على ما عرفنا من عناوين كتب الأخباريين . فهو ليس مؤلفاً تاريخياً متصل الحلقات ولكنه مجموعة روايات في إطار الأنساب توسيع حتى احتوت الأخبار والشعر والترجم .

ومصادر البلاذري في أنساب الأشراف تعتمد على المؤلفات المكتوبة وعلى الرواية الشفهية . فهو يوائم بين المصادرين حسب الحاجة لكن منهجه في كل الأحوال هو أن يختار الروايات التي يعتمدتها وأن ينقدتها أحياناً لكنه يوردها دوماً مع ذكر الأسانيد . ويكتب أحياناً « قالوا ... » ويعني ذلك أن نوعاً من الإجماع قد تم حول قبول بعض الروايات والرواة .

وهو يورد الروايات لكنه يقدم ما اتصل منها .. برواية المنطقة أو القبيلة ،

(١) في استانبول من كتاب أنساب الأشراف النسخة المخطوطة الوحيدة في العالم (بمكتبة عشر أفندي) وهي في مجلدين ضخمين مجموع صفحاتها ٢٤٦٤ صفحة . وهو مع ذلك مخروم الآخر . وفي برلين جزء مخطوط منه (يسمى الجزء « ١١ ») وقد نشره آلوارت سنة ١٨٨٣ (وهو يوافق آخر الجزء الأول من نسخة استانبول ومطلع الجزء الثاني ٨٦ صفحة زائد ٢٩) وفي باريس جزء مخطوط منه (منقول عن استانبول . وفي اليمين جزء (يسمى بالرابع) . وقد طبع المستشرقان Max Schloessinger سنة ١٩٣٨ و S.D. Goitein سنة ١٩٣٦ . جزئين يطلق عليهما الجزء الرابع (القسم الثاني) والخامس . كما نشر Levi della Vida في المدد R.S.O. لسنة ١٩١٤ - ١٩١٥ فصلاً يتعلق بعلي بن أبي طالب وترجم سنة ١٩٣٨ مع المستشرق Pinto الفصل المتعلق بمعاوية . أما ما نشره آلوارت Alwardt من قبل فيتناول عبد الملك بن مروان وقد أطعاه عنوان تاريخ عربي مجهول . وينظر أن الجزء الأول من المجلد الرابع طبع في القدس سنة ١٩٧١ . ويحمل الدكتور عبد العزيز الدوري حالياً تحقيق الكتاب ونشره كله . وقد كان محمد حميد الله نشر الجزء الأول منه (القاهرة ١٩٥٩) كما نشر محمد باقر محمودي مؤخرأ (بيروت ١٩٧٤) الجزء الثاني .

ثم يتممها بالروايات الأخرى .. فأخباره عن (الشورى) تعتمد الواقدي والزهري (أي روایات المدينة) ثم يضيف اليها روايات أبي حنف و هي أقرب إلى الرأي العلوي و واقعة الحرة عنده يرويها بصورة أساسية المدائني والواقدي وعوانة وأشياخ المدينة ويجمع فيها بين الروایات المدنية والأموية . أما الأنساب فيأخذها عن الزبير بن بكار ، وأخباره عن عبد الملك بن مروان تستند إلى عوانة ابن الحكم مباشرة أو بواسطة المدائني وعلى الواقدي فهي شامية مدينة ولكن يضيف إليها الروایات العراقية . وبالرغم من « عباسيته » واتصاله بالباطل العباسي الاتصال المباشر فإن أخباره محايدة لا تضيق بالموضوعية ومتونة لا تشد وراء الاستطراد والهوى .

وقد نقل عن البلاذري كثيرون وان تحامى النقل عنه رجال الحديث لارتباطهم في ثقته وثقة أصحاب الأخبار عامة كالمدائني والواقدي وابن الكلبي ، لكن الطبرى لا ينقل عنه . وأما أبو الفرج الأصفهانى فقد نقل عنه مرات عديدة . لكن قائمة الآخذين عنه تطول بعد ذلك وفيها .. الصولى (في الأوراق) . والشريف المرتضى (في الأمالي) والقاضى عبد الجبار بن أحمد (في الشافى) وابن أبي حميد (في شرح نهج البلاغة) وابن خلkan وابن عساكر وياقوت والزبيدي (في تاج العروس) ... الخ .

وإذا كان كتاب أنساب الأشراف محاولة لإقامة وحدة الأمة الإسلامية من خلال الاستقرارية العربية وأعمدة الأنساب المتصلة فإن كتاب فتوح البلدان محاولة مماثلة بجعل خبرات هذه الأمة وعهودها وأعمالها قواعد ثابتة في الإدارة والتشريع والعمل .

— ابن طيفور أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر المروزى (٢٠٤ - ٢٨٠ هـ)

وهو شاعر أولًا ثم مؤرخ للآداب ثم اخباري مؤرخ . مروزى الأصل بدأ مؤدب صبيان ثم لزم سوق الوراقين ، في بغداد حيث ولد ومات ، وعاش يرزق من شعره وعلمه ولمنا وجد بعض الهجاء على لسانه كما ظهر بعض العداء في

مواقف الناس منه . وهو احدى ثمرات تلك الفترة الخصبة من التاريخ العباسي العراقي في القرن الثالث . وقائمة المؤلفات وراءه طويلة تزيد — حسب رواية ابن النديم وياقوت — على ٥٦ كتاباً معظمها في الشعر والشعراء وتاريخ الأدب . على أن له منها بعض كتب التاريخ المأمة مثل : كتاب المعروفين من الأنبياء وكتاب بغداد (وهو كتاب في تاريخ المدينة) ومقاتل الفرسان . ومقاتل الشعراء . وأخبار التظاهرات . وكتاب الحجاب . وكتاب الجواهر وكتاب المدايا . وكتاب المؤنس . وكتاب المؤلفين وقد سبق به ابن النديم .

وله مجموعة من الكتب تتصل بالتاريخ مثل فضل العرب على العجم . اسماء الشعراء الأوائل . الجامع في الشعراء وأخبارهم . أخبار مروان وأآل مروان و اختيار أشعارهم . أخبار وأشعار عدد من الشعراء منهم : ابن النطاح ، العتاي ، منصور التمري ، أبو العناية ، بشار ، ابن ميادة ، ابن هرمة ... الخ وله في هذا الباب أيضاً كتاب جمهرة بني هاشم وكتاب المختلف من المؤتلف . كما أن له مجموعة من كتب التعليم السياسي على شكل القصص مثل : خبر الملك العالي في تدبير المملكة والسياسة . كتاب الملك المصلح والوزير المعين . كتاب الملك البابلي والملك المصري الباغين . كتاب الملك الحكيم الرومي ... هذا إلى بعض كتب القصص والسمور والرواية التاريخية .

ولم يبق من هذا الجهد كله سوى جزء من كتاب هو القسم السادس من كتاب بغداد وقد طبع ^(١) في مائتي صفحة ويبدأ بخلافة المأمون وينتهي بوفاته . ويبدو ابن طيفور في هذا الجزء مؤرخاً حسن الاطلاع . وقد انفرد بعدد من الأخبار في عبد المأمون لا نجد لها لدى غيره (مثل حركة جند بغداد للمطالبة

(١) طبع ثلاث مرات أولها على يد المستشرق H. Keller في ليفربور سنة ١٩٠٨ ثم في القاهرة سنة ١٩٤٦ وأخيراً طبع بمنوان (بغداد في تاريخ المخلافة العباسية) في مكتبة المفى بغداد سنة ١٩٦٨ وقد ترجمه X.C. Scely إلى الإنكليزية وطبع في نيويورك سنة ١٩٢٠ . كما بقي أيضاً من مؤلفات ابن طيفور الجزمان ١١ و ١٢ من كتاب المثور والمنظوم .

بالأرزاق . توجيهه محمد بن حميد الطوسي إلى مكة . أخبار أبي دلف العجلي . موقف المؤمن من أهل الشام ...) وهي تزيد في مجموعها على عشرين خبراً . أما مصادر معلوماته فأبرزها عمر بن شبة ، فابن طيفور يروي عنه . ولكن ثمة العديد من المصادر الأخرى التي لا يあげ لإيراد سندتها الكامل مكتفياً بأن يذكر في مطلع الخبر .. « قال فلان ... » أو « حدثني فلان .. » وهو لهذا ولغيره متهم في صدقه بل ينسبون إليه سرقة الشعر والتاليف والتصحيف واللحن ... ^(١)

وأهمية ابن طيفور أنه كان من الرعيل الأول الذي بدأ كتابة التاريخ المحلي . فكتابه عن بغداد هو أول كتاب في سلسلة الكتب الطويلة التي سوف تظهر في تاريخ بغداد نفسها وفي تاريخ المدن عامة .

أبو حنيفة الدينوري ^(٢) أحمد بن داود (ولد في العقد الأول من القرن الثالث وتوفي سنة ٢٨٢ أو سنة ٢٩٠) .

هو فارسي الأصل أمضى شبابه في الرحلات بين العراق والمحاجز والشام والخليج وعاش بأصفهان مدة . كان موسوعي المعارف لأن دراسته متنوعة الثقافة جداً . فقد درس النحو واللغة على البصريين والكوفيين كما درس علم الهيئة وعمل بالرصد الفلكي في اصفهان ودرس الحساب والهندسة والنبات والطب والبغرافيا دراسته لعلوم القرآن والحديث واشتهر ككاتب بلغ حتى اعتبره أبو حيان التوحيدي - وهو من هو في الأساليب الأدبية - ثالث ثلاثة هم أربع من كتب في العربية ^(٣) .. ومواهب أبي حنيفة قربته إلى البلاط العباسي وخاصة إلى الموفق أخى المعتمد فاختص به .

(١) انظر ترجمته في ياقوت وأنظر قبل ذلك ابن النديم - الفهرس صفحة ١٤٦ - ١٤٧ .

(٢) دينور بلد حدد مكانه الأنثري المستشرق شترووس في عربستان وهو (ماء الكوفة) قرب همدان وموقعه الآن خراب وأطلال . سقطت المدينة منذ القرن الرابع الهجري .

(٣) الثلاثة هم الحافظ وأبو زيد البلخي وأبو حنيفة الدينوري .

ومجموعة كتبه تعكس تنوع ثقافته فقد كتب في النبات وفي القرآن والجغرافيا والتاريخ وغيرها حوالي عشرين كتاباً . يهمنا منها ..

— كتاب البلدان وهو كبير وليس له شهادة وقد دثر . ولعله في الجغرافيا التاريخية .

— كتاب الأخبار الطوال . وهو كتاب التاريخ الخام الذي تركه أبو حنيفة وقد ظل مجهولاً حتى اكتشف مخطوطه في لينغارد سنة 1877 ونشره كراتشيفسكي ثم اكتشف مخطوط آخر أقدم من الأول في سوهاج سنة 1957 فنشر في مصر سنة 1960 ومنع ذلك فيما يزال بعض الباحثين يشككون في نسبة هذا الكتاب إلى أبي حنيفة^(١)

وخطة الكتاب تتناول الأحداث المستمرة الطويلة المدى وينقسم إلى ثلاثة أقسام الأول منذ آدم حتى جميع الأنبياء . والثاني تاريخ الفرس الساسانيين والروم . والثالث حروب العرب والعجم وهو القسم الأهم ويشمل تاريخ الفتوح (دون التعرض للذكر تاريخ الراشدين إلا بقدر) وقصة الفتنة الكبرى وصفين والخوارج والحسين وال伊拉克 (دون ذكر تاريخ الأمويين) ثم يختصر التاريخ العباسي حتى موت المعتصم سنة ٢٢٧ هـ . وأهمل أبو حنيفة ذكر الحقبة التي عاشها بنفسه . إنما قصد أن يكتب نوعاً من التاريخ العالمي يبرز فيه خاصة التاريخ الفارسي وقصة الفرس في العهد الإسلامي .

ومصادر أبي حنيفة في معظمها مفقودة اليوم مثل كتاب الأنساب لابن الكيس النعمي مالك بن عبيد ، وأخبار الملوك وأخبار الماضي لعييد بن شريه البحري وهي ودواوين الشعراء وهو يروي عن الكلبي والأصمعي وعن الهيثم بن علي خاصية ، فقد ورد اسمه في الكتاب عشر مرات . كما يروي عن الشعبي

(١) بعض المستشرقين انطلاقاً من علم انطباق اسم الكتاب على محتواه يحاولون الشك في الكتاب معتقدين أن المؤلف الأصلي الذي يحمل عنوان الأخبار الطوال قد ضاع والكتاب الذي وجد إنما هو كتاب مؤلف آخر لكنه يحمل العنوان نفسه .

أبي عمرو عامر بن شرحبيل التابعى الرواية، بمعنى أن أبو حنيفة قد جمع في نسق واحد بين الاسرائيليات والمصادر والروايات العراقية والمدنية . فكان بذلك نموذجاً للمثقف الفارسي المسلم في ذلك العصر .

وقد راعى أبو حنيفة في « الأخبار الطوال » التسلسل الزمني في التاريخ ولكنها انتقى الأخبار وفقاً لفهم خاص في التاريخ العالمي فتوسع في الحوادث والحركات التي اختار مما يجعل كتابه أقرب إلى أن يكون سلسلة أخبار يلتصل بعضها بعض لتتوازن مع التاريخ الإيراني الذي يحتل المكان الرئيسي . فهو قبل الإسلام يهم بتاريخ الرسل كثيراً ويقدم صوراً متوازية لتاريخ اليمن والجزيرة وبينية ويتسع في تاريخ فارس وبعد الإسلام يمر بفترة الرسالة المرور السريع ليركز اهتمامه على تاريخ العراق وايران .

ومنهجه أبي حنيفة أن يهمل الأسانيد الطويلة و يؤثر السرد الروائي المتصل متحجحاً فيه الكثير من الشعر حتى لقد تبادل الفرق والأحزاب الرسائل عنده شرعاً . وفي أسلوب من هذا النوع لا مكان للنقد . حتى لقد قبل أبو حنيفة - كما لاحظ مار غليوٹ - نصاً مسجوعاً لنسخة معاهدة قامت في الجاهلية بين اليمن وريمة وفي مطلعها كلمات التوحيد ولم يخامره أي شك في صحتها مع أن أهل اليمن كانوا وثنيين ويتكلمون لغتهم الجنوبية الخاصة ويدونون ما يدونون بالخط المعروف بالمسند السبي^٣ .

وشعرية الدينوري تأخذ شكل الميل للعباسيين في كتابه . لكن ما من شك في أن الرجل إنما أجاب في كتابه على حاجة ثقافية معينة في عصره هي تقديم تاريخ متصل ذي صبغة إسلامية ل التاريخ فارس والعراق قبل الإسلام وبعده . - اليقوبي .. أحمد بن اسحق بن جعفر بن واضح (توفي سنة ٢٩٢ هـ / ٩٠٥ م)^(١) . هو من أسرة كتاب تعمل في دواوين الخلافة وقد جمع إلى هذه الخبرة العملية

(١) تذكر المصادر ومنها ياقوت أن سنة وفاته هي سنة ٢٨٤ ولكن نشر كتابه البلدان وحديثه فيه عن الخليفة المستضد (٨٩٢ - ٩٠٢) يؤكد مع بعض الدلائل الأخرى أن تاريخ وفاته يجب أن يتأخر إلى سنة ٢٩٢ / ٩٠٥ (انظر مقدمة فيكت لشره كتاب البلدان)
Wiet, Les Pays, VIII, p. 244

الموروثة ثقافة واسعة يوم أكثر من الرحلات البعيدة في شبابه وأبعد طلباً للعلم . وقد كتب كتاباً في الجغرافيا وآخر في التاريخ كان كلاهما متميزاً في مادته . وقد وصلنا الكتابان كما وصلتنا رسالة صغيرة منه بعنوان : مشاكلة الناس لزمامهم (طبعت) .

فاما كتاب (البلدان) فهو أقدم ما وصلنا من نوعه من الكتب^(١) . (طبعه دي غويا De Goeje في ليدن سنة ١٨٩٢ ثم طبع في مصر) وهو في الجغرافيا التاريخية . ومعلوماته الجغرافية تركت أثراًها الواضح في كتابه التالي التاريخي .

وأما كتاب (التاريخ)^(٢) فهو موجز تاريخي منظم يتناول التاريخ العالمي منذ الخلق حتى سنة ١٨٧٢/٥٢٥٩ م في « خطة لا بد أنها احتجت إلى قسط طيب من البحث لتحقيقها »^(٣)

فقد كان فمه للتاريخ العالمي يتناول بجانب تاريخ الآباء وتاريخ الفرس والبابلية ، تواریخ الأمم الأخرى القديمة .. من آشورية وبابلية وهندو ويونان ورومان وفراعنة وبربر وحبش وزنج وترك وصين . فهو من هذه الزاوية تاريخي عالمي حقيقي وإن اصطيف بعضه بالأسطورة بسبب ضيق المصادر وغلبة المرافة فيها . وقد اهتم في هذه التواریخ بالجانب الحضاري أكثر من اهتمامه بالجانب السياسي ولخص - بقدر ما سمح لها معارفه - ما كان متوفراً لدى الناس في عصره من معلومات عن الأمم الأخرى القديمة كما عكس في مادته لواناً من ألوان امتراج الثقافات في ذلك العصر .

(١) نجد عنوان البلدان على كتاب لم sham بن محمد الكلبي سنة ٢٠٤ من قبل وكتب أخرى سبقت اليقوبي .

(٢) مرغليوث . المؤرخون (مترجم) صفحة ١٣٩ .

(٣) نشر (تاريخ اليقوبي) أول مرة من قبل Houtsma في مجلدين في ليدن سنة ١٨٦٠ ثم سنة ١٨٨٣ ثم طبع طبعة في النجف سنة ١٣٥١ هـ ، وطبعة ثالثة أخرى في بيروت سنة ١٩٦٠ في مجلدين .

وحين وصل اليعقوبي إلى التاريخ الإسلامي اخترط لنفسه أن يذكر التقاويم الفارسية والرومية وأن يورد تفاصيل فلكية في مطلع كل عهد تعين الخبراء في النجوم على تتبع مجرى الأحداث^(١) ثم اخترط أيضاً أن يسجل في ختام كل عهد أسماء الرجال الذين شاركوا فيه مع الخلفاء وأمراء الملح وقادات الحملات ومشاهير القضاة . حتى إذا قارب عصره أوجز في الأخبار جدأً فلا تأخذ ثورة الزنوج من اهتمامه إلا ملاحظات بسيطة وهذا ما يظهر أكثر علمآً بالعهدين الأموي والعباسي الأول منه بعصره .

ومصادر اليعقوبي في تاريخه متعددة تعكس انتباهاً بارعاً «للمنهج التاريخي» فهو في قسم التاريخ القديم يرجع إلى المصادر الأصلية .. الكتاب المقدس . وحين يتحدث عن التاريخ الابراني لا ينسى أن ينبه أن مادته أسطورية لا يوثق بها . ويأخذ عن المصادر اليونانية المترجمة حين يكتب عن الثقافة اليونانية . أما في التصميم الإسلامي فقد ذكر مصادره في مقدمة هذا القسم واتبع في هذه المصادر نهجاً انتقائياً لأنه رأى أن ما رواه الأشياخ المتقدمون من العلماء والرواة وأصحاب السير والأخبار والتاريخيات متباين ، فقد اختلفوا في أحاديثهم وأخبارهم في السنين والأعمار ولذلك أخذ منهم بأجمع المقالات والروايات . ومصادره لهذا ذات ألوان عديدة فهي علوية تارة وعباسية أخرى وميدنية حيناً (عن الراقدى وابن اسحق) وعراقية حيناً آخر (عن المدائنى والهيثم بن عدي) وقد أخذ النسب عن ابن الكلبى والفالك عن ما شاء الله الحاسب والخوارزمي الفلكى . أما منهجه في العرض فهو اهمال الأسانيد لأنها كانت استقررت في تلك الآونة وقد أعاد انتشار التدوين على ذلك الاستقرار . ثم انه قلما يذكر المصدر لأنه اكتفى بذلك مصادره الأساسية في مطلع البحث ولكنه حين يقترب من عصره يذكر بين حين وآخر مصادره الشفوية والأشخاص الذين زوّدوه بالمعلومات .

(١) ذكر اليعقوبي (التاريخ ج ٢ صفحه ٣) أن مصدره في ذلك هو كتاب « طوالع السنين والأوقات لما شاء الله الحاسب ». كما يأخذ من الخوارزمي المنشم .

وقد اتبع اليعقوبي في عرض مادته تسلسل العهود خليفة بعد خليفة^١ واتبع في عهد كل خليفة توالي السنين جاماً بين أسلوب العهود والحواليات . وأكثر اليعقوبي من ايراد الرسائل والخطب كنصوص سياسية ووثائق . وجاء أحياناً بمعلومات تاريخية تفرد بها .

ولكنه في إيجازه التاريخي كشف عن براعة محدودة سواء في اختيار الأعمال الهمامة والأساسية لكل خليفة أو في اعطاء التفسيرات التاريخية الواضحة للأحداث . وقد كشف في اهتمامه بالأمور الأخلاقية عن مفهوم « براغماتي » للتاريخ عنده فكانه أراد أن يبين أن هذا العلم أنها غايتها التربية والعبرة . وهذا المفهوم بالرغم من أنه اسلامي الجذور إلا أنه مفهوم مبكر في الظهور وكان تمهدأ لما سوف يكتبه الباحثون في فائدة التاريخ من أفكار فيما بعد ، بين القرن الخامس والثامن .

وبالرغم من أن اليعقوبي كان متزناً في أخباره دقيقاً في تحرير الحقائق والمعلومات التي يورد إلا أنه لم يستطع أن يمنع ميله من الظهور في تصاويف الأسطر فهو واضح العيل العلوي حين يتحدث عن الراشدين والأمويين « كثير الأسهاب في ايراد أقوال الأئمة وخطبهم وسيرهم عند ذكر وفياتهم ولعلنا تكون أكثر دقة إن قلنا أن وجهة نظره إمامية » بدليل أنه يمر بإيجاز عرضي بثورة زيد بن علي^(١) .

ويظهر اليعقوبي بالمقابل نوعاً من التسامح والمجاملة حين يتحدث عن العباسين ويحاول أن يمر ببعض الأحداث المحرجة في تاريخهم مرور المجامل (كمقتل أبي مسلم وقصة البرامكة ومقتل موسى الكاظم) . وقد لاحظ مرغليوث أنه قد يكون معتزلياً الهوى^(٢) لأنه يسميهم – كما يشتهون – بأهل التوحيد ولكنه

(١) الدوري . نشأة علم التاريخ صفحة ٥٢ - ٥٣ .

(٢) مرغليوث . المؤرخون (مترجم) صفحة ١٤٠ .

مع ذلك لا يشار كهم الفكر المنطقي الريفي حين يسمح لبعض الخوارق والمعجزات أن تجد طريقها للتسجيل في تاريخه .

ولا شك أن الكتاب بمصادره ومعلوماته يكمل تاريخ الطبرى . ويمثل بالنسبة لتطور التدوين التاريخي أول تاريخ عالمي بمعنى العالمية للكلمة .

— الطبرى .. محمد بن جرير (٩٢٢/٣١٠ - ٨٤٠ / ٢٢٥) .

وهو علَّامٌ معروف في التاريخ الإسلامي (وفي التفسير) بلغ به التدوين التاريخي نهاية عمر التكوين والنشأة وسجل قيمة من قمم التاريخ الحقيقي . ولسنا لنعيid هنا ترجمة الرجل ^(١) فنهى معروفة ونكتفي ببعض ملامحها فقد بدأ الدراسة في آمل من طبرستان ثم في الري وتلمذ على الرازى والدولابى وكتب عن ابن حميد أكثر من مائة ألف حديث . ورحل إلى بغداد فلم يلحق ابن حنبل ثم ذهب إلى البصرة وأقام بواسطه ثم بالكوفة وكتب عن محمد بن العلاء الحمداني مائة ألف حديث ثم عاد إلى بغداد ثم غرب إلى الشام ثم مصر سنة ٢٥٣ . ثم عاد إلى بغداد فواسط فطبرستان ثم بغداد ثم طبرستان ثم بغداد .. كل ذلك في طلب العلم حتى انتهت إليه الرئاسة في التفسير والفقه والتاريخ . ونحن ندين له بكتابين من أهم كتب الثقافة الإسلامية .. التفسير والتاريخ .

وقد أمل الأول في ثمانين سنوات (٢٨٣ - ٢٩٠) ثم فرغ من التاريخ سنة ٣٠٣ وانتهى به إلى سنة ٣٠٢ وقد كان في وده لو أمل في كل منها ثلاثين ألف ورقة ! وله كتاب ثالث في القراءات كان في ١٨ مجلدة ولكنه ضاع .

والطبرى طالب علم دائم لا يعرف التعب ، مكثر في مادته ذلك أنه بقي أربعين سنة يكتب كل يوم ورقة . وما من شك في أنه كان حديد الذاكرة في مادته وإن كان ضعيف الحفظ للشعر والأدب .

(١) ترجم له كثيرون . ومن أطول الترجمات القديمة ما أورده ياقوت في ٤٠ صفحة . وقد صدر عنه كتيب في سلسلة أعلام العرب (رقم ١٣) بقلم الدكتور أحمد محمد الحوفي .

وكان له رأيه الخاص في الفقه وله خصوصاته الشديدة مع الحنابلة والخوارج والروافض ومع المذهب الظاهري وصاحبها داود بن علي الأصفهاني، وقد أثار من التأييد والخصوصة ما هو جدير بالرجال العظام. وهذه فانه حين توفي دفن ليلاً خوفاً من أعدائه ثم بقي أنصاره بعد ذلك يصلون أشهراً على قبره رحمة وذكراً.

وكتاب التاريخ الذي كتبه الطبرى هو أحد كتابين ضخمين شهيرين في التراث العربى الإسلامى هما التفسير والتاريخ، والناس ينسبونهما إلى اسمه بدل العنوان الأصلي لهما . وتاريخ الطبرى يحمل اسم تاريخ الرسل والملوك ويسمى بعضهم : تاريخ الأمم والملوك^(١) ، ويمكن أن نقسم هذا التاريخ قسمين أساسين : ما قبل الإسلام وما بعده .

فأما في القسم الأول فقد بحث في الخلقة والبدء وهبوط آدم وقصة قابيل وهابيل ثم عرض للأنبياء نوح وإبراهيم ولوط وأسماعيل وأيوب وشعيب ويعقوب ويوسف وموسى والياس وداود وسليمان وهو وصالح ويونس وعيسى ومحمد . وأخر بعد ذلك للأمم فذكر تاريخ الفرس منذ عهده الأول أيام من شهر إلى كسرى ابرويز وواقعة ذي قار ويزدجرد بن شهريار ثم تحدث عن بي إسرائيل وأخبارهم ثم ذكر ملوك الروم منذ المسيحية ثم عطف على عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم ثم ملوك اليمن وبعض مشاهير الأسماء العربية كالزباء ثم تحدث عن اجداد الرسول تمهيداً لعهد الرسالة . ولم يتبع في هذا القسم ترتيب السنين ولكنه أورده على أساس المواضيع .

وفي القسم الثانيتناول التاريخ الإسلامي منذ عهد الرسول حتى سنة ٣٠٢ وفرغ من التأليف سنة ٣٠٣ ومصادر الطبرى في كتابه واضحة لأنه سجلها في استاد أخباره وأهمها^(٢) :

(١) انظر ياقوت - معجم الأدباء ج ١٨ ص ٦٨ ثم النطیب البغدادی - تاريخ بغداد ج ٢ ص ١٦٢ .

(٢) راجح في مصادر الطبرى مقالاً هاماً كتبه جواد علي في مجلة المجمع العلمي العراقي بنوان موارد -

أ— في تاريخ الرسل والأنبياء ، كتب التفسير وسيرة ابن اسحق ، وكتب وهب بن منبه .

ب— في تاريخ الفرس ، ترجمات بعض كتبهم وخاصة كتب ابن المقفع وهشام الكلبي وما لديه من معلومات منقلة عن ثائق ومدونات الحيرة (١) .

ج— في تاريخ الروم على ما نقله كتاب النصاري منه إلى العربية .

د— وفي تاريخ اليهود على كتبهم وقصصهم التوراتي .

ه— وفي تاريخ العرب قبل الإسلام على ما كتب عبد بن شرية ومحمد ابن كعب القرظي وهب بن منبه وخاصة هشام الكلبي وابن اسحق .

و— وأما في السيرة النبوية فقد استند إلى مؤلفات أبان بن عثمان وعروة ابن الزبير وشريحيل بن سعد وموسى بن عقبة وعاصم بن عمر وابن شهاب الزهري وابن اسحق .

ز— وأخذ حروب الردة والفتح عن سيف بن عمر الأسلمي والمدائني .

ح— ومصادره في موقعي الجمل وصفين ما كتبه أبو مخنف والمدائني وسيف بن عمر .

ط— كما أخذ تاريخ الأمويين عن عوانة بن الحكم وأبي مخنف والمدائني والواقدى وعمر بن شبة وهشام الكلبي .

ى— فإذا انتهى إلى العهد العباسي اعتمد أحمد بن أبي خيثمة وأحمد بن زهير والمدائني وعمر بن راشد والمهيم بن عدلي والواقدى وابن طيفور (وإن لم يذكره إلا مرة واحدة) ...

= تاريخ الطبرى (الجزء الأول لسنة ١٩٥٠ والجزء الثاني لسنة ١٩٥٢ والجزء الثالث لسنة ١٩٥٤) .

(١) راجع تاريخ الطبرى ٦٢٨/١ : ٧٧٠/١ .

وأهم الملاحظات التي يمكن أن تسجل حول هذا العمل التاريخي الصخم :

١) ان المادة التاريخية التي أتى بها الطبرى في تاريخه تعتبر من أوثق المادة لأنها ، كمحادث دقيق، حاول انتقاءها وتنخلها جهد طاقته ، وأوردها دوماً بالنصوص عن أصحابها الرواة الأولين .

٢) إذا ظهرت لديه في بعض الأحيان (في التاريخ السابق للإسلام) بعض اللمحات الحضارية فان هذه اثنا كanan موجهاً بصورة خاصة إلى التاريخ السياسي وحده . ولم يسجل أشياء أخرى إلا ما كان يتضمن الحديث عن الأحداث والمشاكل السياسية .

٣) أنه ذكر في تاريخ الفرس كثيراً من الحقائق التي لا نجد لها عند غيره .

٤) انه كان دقيقاً في تاريخ الروم دقة تدعو إلى العجب ، مع قلة المصادر حوله في هذا الموضوع ، فقد ذكر أباطرة الروم والرومان قبلهم حتى عصر هرقل وهم واحد وستون عدداً من أشتر كانوا مع أبنائهم أو غير أبنائهم . ومدة حكمهم جميعاً ستة قرون وبضع سنوات . ويدعو الباحث من صحة المعلومات التي أوردها ومن دقتها وترتيبها . وإذا تجاوزنا عن أخطاء طفيفة قد تكون من فعل النساخ والرواية فمن الواضح ان الطبرى أخذ معلوماته هذه عن مصادر أو جماعات تستند إلى وثائق صحيحة .

٥) لم يمل الطبرى مع أيّ هوى في ايراد الأخبار التاريخية الإسلامية . وكان حياته في الغالب عن ورع ودقة علمية ، لأنّه اثنا أهل التاريخ تأييداً وتنمية لكتابه في التفسير القرآني . ولعله لم يمارس حتى النقد في الروايات التي أوردها لأنّه وجد أنّ أحاديث التاريخ فيما عدا الشؤون السياسية - لا تبني عليها أحكام شرعية واضحة .

٦) أهمل أحداث عصره وكان فيها موجزاً سريعاً الخطوط مقللاً كلّ الإقلال وهذا فهو « كشاهد » على العصر من أشد الناس ضئلاً بشهادته .

وقد نُقل « تاريخ الرسل والملوك » بالرواية الشفهية والإملاء عن الطبرى

رغم ضخامته التي تزيد على ١٠ مجلدات في بعضطبعات . وإذا تناول فيه الطبرى التاريخ العام منذ الخليقة حتى عهده فتاريخ ما قبل الإسلام كله لا يشغل إلا أقل من عشر الكتاب مع أنه يشمل تاريخ الأنبياء جميعاً وتاريخ الفرس والروم والخالقية . أما في التاريخ الإسلامي فقد قام الطبرى فيه بما قام به البخاري ومسلم في الحديث : أي اختيار المادة الصحيحة أو المتفق على صحتها من مجموع المادة التي تراكمت حتى عهده .

ولما كانت مصادر الطبرى هي في الواقع مجموع أسماء الإخباريين التي درت معنا في هذه الفصول السابقة تقريرياً وبخاصة كتب المدائنى ، لهذا فإن الناس حين اجتمع لهم الطبرى تركوا الكتب الصغرى إليه واكتفوا به عنها جميعاً . ومن هنا كانت شهرته كمنظم ومنسق وجامع لأطراف المادة التاريخية حتى نهاية القرن الثالث الهجرى .

وقد انعكس في تاريخ الطبرى أثر ثقافته كمحدث وفقىه . فأسلوبه في التدوين على منهج أهل الحديث ، ويمكن أن يلخص في نقطتين رئيسيتين :

١ - التعويل على الروايات : « ولعلم الناظر في كتابنا هذا ان اعتمادى في كل ما أحضرت ذكره فيه إنما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها والآثار التي أنا مستندها إلى رواتها فيه .. فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الملاصين مما ينكره قارئه من أجل انه لم يعرف له وجهأ من الصحة .. فليعلم أنه لم يؤت ذلك من قبلنا وإنما أتى من قبل بعض ناقليه اليانا وإنما أدينا ذلك على نحو ما أدي اليها » (١)

٢ - الحرص على السندا، وإنما كان هذا الحرص نتيجة النقطة الأولى . وقد تساهل الطبرى في هذا السندا في الأجزاء الأخيرة من الكتاب وبخاصة فيما بين الجزء التاسع إلى الحادى عشر حتى ليندر أن يظهر في صفحات متواتلات .

(١) الطبرى ج ١ ص ٧ - ٨ .

وكان الطبرى إذا انتقد أهتم بفقد السند أكثر من الاهتمام بالمعلومات المروية بعده . وبالرغم من أنه تحرى الثقات من الرواية قدر طاقته ومن أن الأسانيد كانت قد استقرت لعهده إلا أنه أبقى على الطريقة كاملة في كتابه . وهذا ما سمح للطبرى أن يحتفظ في كتابه بكثير من المقطفات التاريخية المبكرة في الوجود والمعاصرة لبعض الحوادث والتي صاغ روايتها ومؤلفاتهم فليس توجد إلا في كتابه . إن كتابه أشبه بمعدة التنين الضخم التي تجد جميع المواد مكانها فيها دون دمج أو تمثيل يجعل منها كتلة متتجانسة واحدة . وقيمة الطبرى إنما هي خاصة فيما حفظ من هذه المادة الضيائعة لا بالرأى الذي أعطاه فيها . لأنه لم يعط رأيه أبداً في الذي قدم من المعلومات . وإذا كان ثمة من شيء كشف فيه عن رأيه فعلاً فهو نوع اختيار المادة . وهو اختيار للراوى في الواقع وليس للرواية نفسها فهو — فيما عدا الانتقاء — حيادي تمام الحياد ، والمادة أمامه قطع من الأخبار صاغ منها تاريخاً كاملاً . وما من شك في أن هذا التاريخ ان كان متقطع العرض بسبب الاهتمام بغير الروايات فإنه كان في الوقت نفسه أيضاً متوازناً من جهة ومحيطاً بجميع الأحداث من جهة أخرى ، وقد كان هذا كله سبيلاً آخر لاكتفاء الناس به عن كل ما عداه أو سبقه من المؤلفات . والواقع أننا لا نجد بعد الطبرى من حاول إعادة فحص أو تقدير المادة التاريخية لفترات التي كتب عنها الطبرى نفسه أي الفرون الثلاثة الأولى . ولعله بشهرته وأحاطته كان السبب غير المباشر في ضياع قسم من تلك التدوينات التاريخية الأولى ، وقد أهتم الناس من بعده بمتابعة عمله من حيث وصل في ذيول بعد ذيول .

وقد أتم الطبرى منهجه التاريخي هذا بقواعد أخرى اتبعها :

٣ — الإكثار من ايراد النصوص الأدبية من خطابة ورسائل وحوار وشعر في مناسباتها التاريخية .

٤ — كان يختتم عهد كل خليفة بالأخبار العامة عنه بما لا يخضع للنظام

الحولي ، كوصفه الحسدي وذكر أولاده وأهله ورجال عهده في مختلف الأعمال .

هـ - اتبع في تنظيم مادته النظامين المعروفين معاً : فلما لم يكن بامكانه اتباع التسلسل الزمني الحولي في الفترات الغامضة السابقة للإسلام فقد أوردها على أساس المواضيع ، على الشكل الذي يسمى في الإصطلاح *Chronicles* بينما نظم تاريخه في القسم الإسلامي حوليات على السنين أي *Annals* ولم يكن أول من اخترط هذه الطريقة فقد سبقه إليها في التدوين التاريخي كثيرونمنذ أواخر القرن الثاني . ولعل أولهم هو *المheim بن عدبي* .

وأهم ما يؤخذ على الطبرى في منهجه :

١) ضمور النقد عنده . كان يقف خارج الأحداث وخارج الرواية نفسها في بروز عقلي واضح ، رامياً منذ مطلع الكتاب عهدة كل أمر على رواته . وإذا كانت تلك امامة تقدر لعام الحديث فانها في التاريخ نقطة نقاص . وقد أورد في بعض الأحيان روایات غير معقولة أخذ عليه ابن الأثير ايرادها على صورتها دون نقد وتفكير مع أنها « منافية للعقل ... ولا يجوز أن تسطر في الكتب »^(١) ولعله أنقص في منهجه كمحدث فلم يعدل رواة التاريخ الذين نقل عنهم كما يعدل المحدثون علماء الحديث . ولقد روى بعض الروایات البيئة الكذب ، فلم يشر إلى ذلك حتى لقد أخذ عليه ابن خلدون نفسه بعض ما روى عن سبب نكبة البرامكة^(٢) . على أن الطبرى كان أحياناً يقول : « ... والصحيح عندنا » في نوع من التوجيه التقدي . ولم يعتمد من الأصل في النقل على من كان مظنة شبهة عنده من أمثال محمد بن السائب الكلبي ، ومقاتل بن سليمان الا في الندرة . واعتمد مؤلفات سيف بن عمر المتحولة على التاريخ لأنها موثقة من أهل الحديث بدل الواقدي المشبوه الرواية في نظره .

(١) انظر ابن الأثير - الكامل ج ١ ص ٢١ - ٢٢ .

(٢) انظر ابن خلدون - المقدمة ص ٢٣٠ .

٢) لم يذكر عند النقل من الرواية ، عن أي كتاب من كتبهم ينقل . ولل كثير منهم كتب تعد بالعشرات فإذا ذكر المدائحى لم نعلم عن أي من كتبه الـ ٢٤٠ يأخذ . وكذلك ما أخذه عن سيف بن عمر وعن هشام الكلبى في كتبه التي تزيد على ٢٤٠ كتاباً ولو فعل لأعطانا ثباتاً واسعاً ضخماً يلخص الثقافة التاريخية كلها لعصره .

٣) كان يقطع الأحداث بالروايات المتعددة وبالسنين على السواء . ويشرد في الحديث إلى أخبار عارضة تقطع الخبر الأصلي مما جعل تاريخه يفتقر إلى الوحدة وارتباط السياق ، وتشتت في الروايات على هواها دون ضابط أو تنسيق ، فلَا يأخذ الحادث لهذا كله صورته الحقيقية الحية .

أما أهم ما يؤخذ على الطبرى في مادته التاريخية فهو :

- ١ - أنه لم يحفظ التوازن بين فترات التاريخ قبل الإسلام وبعده .
 - ٢ - أنه أسرف في قبول الإسرائييليات والأوهام الخرافية فيما يتعلق بيده الخلق وقصص الأنبياء دون تمحیص .
 - ٣ - أن ارتباط الطبرى بالمصادر والأسناد الماضية حرمه فيما يظهر من أن ينظر في أحداث عصره ويسجلها بنفسه وهذا جاءت صورة الأحداث التي عاصرها باهته في كتابه ولم يتتبه إلى تفاصيل هامة فيها . و « ظهر القديرون من وزراء عهده وخلفائه في صورة الظلال المتممة » . وقد يكون فهمه للتاريخ على أنه مستودع خبرات الأجيال السابقة فقط سبباً آخر في عدم اهتمامه بجيله وعصره وظهور نوع من الضعف والإيجاز في القسم الأخير من تاريخ الطبرى ، وكان مفروضاً أن يكون - مع مكانة الطبرى وخبراته ورحلته في العالم الإسلامي - أهم أقسام الكتاب .
- ويؤخذ على تاريخ الطبرى عدا هذا أمور أخرى :

- ٤ - فقد كان فهمه للتاريخ العالمي أضيق من فهم بعض المؤرخين السابقين له

كاليعقوبي مثلاً أو ابن قتيبة . فتاريخ العالم عنده محدود بالخط الذي يصل ما بين الأنبياء والعهد الباحتلي عبر الساسانيين وتاريخ اليمن ثم يأتي التاريخ الإسلامي تتوسعاً ضيقاً لكل ذلك التاريخ .

٥ - ثم ان فهم الطبرى للتاريخ كان محصوراً بالأمور السياسية خاصة ، وبالمشكل الداخلى للدولة بصورة أخض . وإذا كان من الهام في التاريخ الإسلامي مثلاً أن يخصص جانب منه لتاريخ الفتوح التي تلت الفتوح الأولى كفتح الأندلس والعلاقات مع الدول والمناطق غير الإسلامية كالبيزنطية والفرنجية وأحوالهم وأمرائهم ، فان الطبرى لم يول هذه الأمور أي عناية . وحتى في الأمور الداخلية فقد شغله الحدث السياسى عن أن يسجل أمور الإداره أو القضاء أو الاقتصاد أو المجتمع .

٦ - ومفهوم التاريخ عند الطبرى متأثر بالنظرة الدينية أكثر من تأثيره بالنظرية التجاربية ... فهو عنده تعبير عن المشيئه الإلهية أولًا ثم مستودع خبرات عليا للأمة الإسلامية تكشف عن وحدة هذه الأمة يقدر ما تبيّن قيمة تجاربها ووحدة رسالتها التاريخية .

وعلى أي حال فان ما قد يوجه إلى منهج الطبرى وإلى تاريخه من نقد لا يمكن أن يلغى شيئاً من قيمته كثورخ أول انتهى به العصر الأول للتدوين التاريخي ، وكثولف ظلت أجيال المؤرخين في العصور التالية عيالاً على كتابه في كل ما يتصل بالقرون الثلاثة الأولى من تاريخ الإسلام .

وقد عني الناس بهذا التاريخ منذ صدر أحفل العناية وتتابع الوراقون على نسخه وتنافست مكتبات الملوك والأمراء في اقتناه . ذكر المقرizi أنه كان بجزانة كتب العزيز بالله الفاطمي ما ينبع على عشرين نسخة منه احداها بخط المؤلف ^(١) . وسرعان ما تتابع المؤرخون في التنليل عليه بين فترة وأخرى .

(١) المقرizi - الخططج ١ ص ٤١٨ .

بل يذكرون أن الذيل الأول على هذا التاريخ وضعه الطبرى نفسه ثم تالت الذيول من عريب بن سعيد صاحب «صلة تاريخ الطبرى» حتى الذيل الأخير الذي كتبه الملك الصالح أىوب بن الكامل (المتوفى سنة ٦٤٧) موجزاً فيه جميع الذيول .

وقد اختصر تاريخ الطبرى كثيرون ذكر ابن النديم منهم محمد بن سليمان الهاشمى ، وأبا الحسين الشمشاطى المعلم من أهل الموصل ؛ ورجل يعرف بالسليل بن أحمد وآخر كاتب يعرف بـ.....^(١) والشمشاطى هو أبو الحسن علي بن محمد العدوى (توفي سنة ٣٨٠) وقد ذيَّل على تاريخ الموصل للأزدي كما اختصر تاريخ الطبرى بمحذف الأسانيد والمكررات ثم زاد عليه بأن تتممه من سنة ٣٠٣ إلى وقته فجاء في ثلاثة آلاف ورقة كما حكاہ التجاشي ^(٢) كما اختصر الطبرى مع بعض الزيادات عريب بن سعد القرطى فوصل به إلى سنة ٣٢٠ في «الصلة» وتلاصنه مع التذليل عليه وكذلك فعل المكين بن العميد في القرن السابع (١٣م) . وكما اختصر تاريخ الطبرى مبكراً فقد ترجم كذلك مبكراً أيضاً ومنذ القرن الرابع الهجري إلى الفارسية . قام بترجمته أول من قام أبو علي محمد بن عبد الله البلعى المتوفى في النصف الثانى من ذلك القرن . بأمر من الأمير أبي صالح منصور بن نوح بن نصر السامانى وهي ترجمة اختصرت فيها الأسانيد وأصابته ببعض التصرف . ثم نقلت هذه الترجمة الفارسية إلى التركية في العهد العثمانى مرتين كانت الثانية منها ما بين سنتي ٩٢٨ - ٩٣٨ وطبعت هذه الترجمة الأخيرة في الآستانة سنة ١٢٦٠ هـ . كما نقلت الترجمة الفارسية الأولى إلى الفرنسية من قبل زوتينبرغ Zotenberg وطبعت في باريس سنة ١٨٧٤ في أربعة مجلدات وترجمت كذلك إلى لغات أخرى .

وبالرغم من هذه العناية البالغة فإن ضخامة الكتاب جعلت أجزاءه العربية

(١) انظر ابن النديم - الفهرست ص ٢٣٥ . والاسم الناقص نسيه ابن النديم .

(٢) التجاشي - الرجال ص ١٨٧ وانظر أيضاً آغا بزرگ - التريرية الى تصانيف الشيعة ج ٣ ص

. ٩٠ - ٩١ وص ٣٤٠ .

تتفرق أيدي سبا بين المكتبات . فلما أقبل المستشرقون في القرن الماضي على طبعه طبعة علمية كاملة لم يجدوا منه نسخة واحدة كاملة ، فاضطروا إلى تأليف نسخة متکاملة من الأجزاء المتفرقة وطبعوه طبعة أولى ما بين سنتي ١٨٧٩ - ١٨٩٨ في ثلاثة أقسام بلغت في مجموعها ٢٨ مجلداً .

القسم الأول : الأجزاء المتعلقة بما قبل الإسلام وبالسيرة النبوية والخلفاء الراشدين حتى سنة ٥٤٠ .

القسم الثاني : تاريخ الدولة الأموية تقريراً أي ما بين سنتي ٤١ و ٥١٣٠ .

القسم الثالث : ما بين سنتي ١٣١ حتى سنة ٣٠٢ .

وقد أحقوها به في نهايةه المنتخب من ذيل المذيل في أسماء الصحابة والتابعين للطبرى ، وقسمًا من مختصر عريب بن سعيد سموه : الصلة . كما أتبعوا الطبعة بالفهرس الشاملة . ثم أعيد طبعه مرة أخرى في ليدن ما بين سنتي ١٨٩٧ - ١٩٠١ وكان الطبع في الحالين تحت اشراف المستشرق دى غويه ولجنة من كبار المستشرقين منهم نولدك ، وغويدي ، ومولر .

وعلى أساس هذه الطبعة الأوروبية طبع في مصر في المطبعة الحسينية سنة ١٣٣٩ / ١٩٢٠ ثم في مطبعة الاستقامة سنة ١٣٥٨ / ١٩٣٩ بعد حذف التعليقات والفالهارس . ثم طبع طبعةأخيرة في دار المعارف بالقاهرة اعتمدت على ما ظهر من المخطوطات الأخرى لأجزاء الطبرى مع نسخته الأوروبية . وقد قام بهذه الطبعة محمد أبو الفضل ابراهيم ما بين سنة ١٩٦٠ - ١٩٦٧ . ثم كررها سنة ١٩٦٧ وهي في عشرة مجلدات خصص معظم الجزء الأخير منها للفهارس .

ويبدو أن هذه العناية كلها لم تمنع من ضياع بعض تاريخ الطبرى . فان النسخة الأوروبية ناقصة ، وقد رقعها المستشرقون من التواریخ الأخرى (ابن الأثير ، والمغازي ، والفتح لابن حبيش) ما بين الصفحتين ٢٣٨٣ - ٢٤١٤ من القسم الأول . ثم جمع دى غويه ما عثر عليه من نواقص الطبعة في كراس

صغير أصدره بعدها . غير أن هذه النواقص ، ما عُثر عليه منها وما قد يعثر عليه من بعد ، ليست بالي تشكل نقصاً هاماً في جملة الكتاب أو تقلل من قيمة نسخه المطبوعة المتداولة .

وقد جاء بعد الطبرى مؤرخون آخرون كثيرون ولكن ما كتبوه عن صدر الإسلام كان يفتقر إلى الأصلية وإلى إمكان عثورهم على مصادر لم يتفق للطبرى أن وقعت تحت يده .

ومن المسعودي إلى مسكونيه إلى هلال الصابيء إلى ابن الجوزي إلى ابن الأثير إلى سبط ابن الجوزي ثم إلى الذهبي وابن كثير خط طويل من العمل التأريخي يأتي الطبرى دوماً في مقدمته . وهذا انحطاط الطويل كان يصدر دوماً عن إيمان واحد بأن ثمة رسالة تاريخية متقدة عبر الأنبياء إلى آخر النبئين ثم إلى الأمة الإسلامية .

وقد كان تطور الكتابة التاريخية جزءاً من التطور الثقافي العام الذي عرفه المجتمع الإسلامي في القرون الثلاثة الأولى ، وهذا التطور كان إسلامياً صرفاً لم يتاثر بمؤثرات ثقافية أجنبية أى في جوانب ثانوية منه ومحفوظة . وإذا كان التاريخ تعبراً عن مشيئة الله في الناس فقد استخدم للعبرة ولبيان التجارب والخبرات والإجماع والسنن ، وإذا كان اعتبر منذ البدء علماً خاصاً أو نوعاً من العلم فإنه بالمقابل عبر عن اتجاه نحو الفلسفة الجبرية ونحو ارتباط الإنسان بقدر الله كما عبر عن شعور متزايد بقيمة التراكم الزمني في تكوين الأمة . وفي هذه القرون الثلاثة الأولى من التاريخ الإسلامي لم يوضع علم التاريخ فقط ولكن تحديداً أيضاً منهجه وخططه وأساليب كتابته ، في إطار لن تخرج منه إلاً تماماً في العصور التالية .

القسم الثاني

التاريخ الإسلامي في العصر العباسي
ما بين أوائل القرن الرابع وأواخر السابع الهجري

الفصل السابع

الملامح العامة لـ جـالـ التـارـيخ في المـشـرقـ العـبـاسـيـ

إذا شئنا مراقبة تطور هذا العلم ورجاله عبر العصور الإسلامية المتواترة والبلاد الإسلامية المتعددة فقد نستطيع أن ندرك شيئاً من ذلك بدراسة سواء في المراحل الزمنية أو في المناطق المختلفة على هدى الأحداث السياسية البارزة . وهكذا نجد أن تطوره بعد القرن الثالث في المشرق يمكن أن يقسم إلى فترتين اثنتين ، بينما اتّخذ التاريخ في الأندلس والمغرب تطوراً موازياً آخر ذا طابع محلي في المواضيع والمادة خاصة لا في المنهج ، وبهذا الشكل :

١ - ندرس أولاً "في قسم خاص من الكتاب التاريخ في المشرق ما بين مصر إلى اليمن إلى ما وراء النهر منذ مطلع القرن الرابع حتى سقوط عداد على يد المغول في أواسط القرن السابع سنة ٦٥٦ / ١٢٥٨ م يدخل في ذلك العهد البويري والسلجوقي والخوارزمي في العراق وليران من جهة والنصر الفاطمي ثم الأيوبي من جهة الشام ومصر واليمن من جهة أخرى . وهذه هي الفترة العباسية — الفاطمية .

٢ - ثم ندرس في قسم ثانٍ من الكتاب تطور التدوين التاريخي في المشرق أيضاً ، ما بين أواسط القرن السابع حتى أواخر القرن العاشر ، وتلك هي الفترة التي تبدأ بظهور المغول الأيلخانيين ثم الجلايرية في إيران والعراق من جهة وبظهور المماليك في مصر والشام من جهة أخرى ، وتنتهي بالصفويين وآخر التركان في إيران والغراف وسيطرة العثمانيين على بلاد العرب وهذه هي الفترة المملوكية المغولية - التركمانية .

٣ - ونخصص بعد ذلك قسماً خاصاً للتاريخ في الأندلس والمغرب . منذ عهد الأمراء الأمويين والخلافة والأدارسة ثم ملوك الطوائف إلى عهد المرابطين والموحدين والمرinيين وحتى ظهور الشفاعة الحسينيين في أواسط القرن العاشر في المغرب .

التاريخ فيما بين أوائل القرن الرابع الهجري وأواسط السابع

الملامح والميزات العامة

بلغ التاريخ ، كعلم ، سن الرشد أي فترة الاستقلال بعادته واسميه ومناهجه ورجاله في أواخر القرن الثالث الهجري وكانت الباواكيير الأولى من مؤلفاته قد ظهرت منذ أواسط القرن الثاني . ثم ما زال المؤرخون يوفدون بين المواد المستمدّة من السيرة والكتب الاخبارية المتنوعة وعناصر التاريخ الأجنبي لتنسيقها وإدماجها في رواية تاريخية متسلكة متصلة الزمان ، وما زالوا يخضعونها لفكرة تاريخية متزايدة النبوءة والوضوح في أبعاد الزمان والمكان وتنوع الأمم حتى استكمل علم التاريخ عناصره : في المنهج والمادة والمثليين وصار علمًا مستقلاً ، بصرف النظر عن مكانته غير البارزة بين العلوم الإسلامية الأخرى

وعن أثر نشأته الأولى في تلك المكانة وتحقيق علماء الدين وعلوم الدين عامةً لهذا العلم .

ومنذ مطالع القرن الرابع بدأ علم التاريخ ، مسيرته العلمية المستقلة لحدٍ كبير مسجلاً طوراً خاصاً جديداً في تلك المسيرة ومتاثراً دون شك بنمو العلوم الأخرى واتساع نطاق الحضارة المادية وانتشار الورق .

إذا كان عمل التاريخ ، حسب المفهوم القديم ، تسجيل أخبار الأحداث والناس فقد كان دوماً وبالضرورة على صلة بأحداث السياسة وأخبار الرجال ولا شك أنه تأثر بها أكثر من تأثر أي علم إسلامي آخر . بل لعل الفروع الثقافية كلها كانت تسير وتتطور من وراء الأحداث ومن فوقها ، لا يهم الفقيه بالحاكم ولا صاحب الفلسفة بالمعارك الخارجية ولا الطبيب باحتلال بلد أو الفiziائي بموت أمير ، إلا المؤرخ فان عينه ويده مرتبطة بالأحداث نفسها وبالرجال . ومن هنا قد يكون من الضوري أن نستعرض في أسطر أبرز الملامح السياسية لهذه القرون المتدة ما بين مطالع القرن الرابع المجري (العاشر الميلادي) وأواسط القرن السابع (الثالث عشر الميلادي) .

فقد كانت الخلافة العباسية تجتاز أزمة الخصوص للقواد الأثراك في بغداد منذ مصرع المتوكل سنة ٢٤٧ وحتى ٣٣٤ حين استطاع البوهيمون زرع حكمهم بعد الاستيلاء على غرب إيران في عاصمة العباسين نفسها وبجانب الخلفاء ولدها تزيد على مائة سنة . أما إيران الشرقية فكانت تبنت في الوقت نفسه أسرة محلية وهي البيت الساماني الذي استمر حتى سنة ٣٨٩ ليحل محله بعد ذلك الغزنويون .

أما في الجزيرة وشمال الشام فقد ظهر الحكم الحمداني في الموصل وحلب ما بين سنة ٣١٧ حتى ٣٩٤ ، وأما في الشام الجنوبي ومصر فقد كانت الدولة الطولونية قد تركت البلدين منذ سنة ٢٩٢ ثم ظهر الأخشidiون ما بين سنة ٣٢٣ - ٣٥٨ ثم قدم الفاطميون من أفريقيا (تونس) ففتحوا مصر والشام وامتد نفوذهم إلى الحجاز واليمن وتقاسم العالم الإسلامي الشرقي خلافتان : إحداهما

عباسية سنية في المشرق والأخرى فاطمية شيعية في الشام ومصر حتى اليمن
مدة قرنين تقريباً .

على أن الخليفة العباسية عرفت ، بالرغم منها ، نوعاً من اليقظة السياسية
منذ أواسط القرن الخامس حين تدفق عليها الغزّ الآتراك بزعامة السلاجقة من
سهوب تركستان واستطاعوا سنة ٤٤٧ دخول بغداد والحلول محل البوهين
فيها . وقد توطنوا في قلب الأنضوص فيما بين سنة ٤٥٠ - ٤٧٥ كما احتلوا
في الوقت نفسه بلاد الشام مزيجين عنها التفوذ الفاطمي .

وفوجئت هذه المنطقة من ساحل المتوسط الشرقي ، في نهاية القرن الخامس
سنة ٤٩٢ بهجوم الفرنجية عليها ، في الحروب المدعومة بالحروب الصليبية والتي
استمرت قرنين (١٠٩٥ - ١٢٩١م) . ونشأت في المنطقة امارات لاتينية أربع
انقضت إحداها مبكرة لكن الإمارات الأخرى استمرت فترة طويلة قبل
أن تتفرض . وفي أواسط القرن السادس استيقظ الشرق الإسلامي يقظة قادها
البيت الزنكي في مثلث الموصل - حلب - دمشق ثم ظهر صلاح الدين والبيت
الأيوبي فالنبي الخليفة الفاطمية وحل محلها في ما بين اليمن والقاهرة إلى دمشق
وإلى الجزيرة الشامية . واستمر هذا البيت يحكم المنطقة حتى سقط في مصر
بانقلاب المماليك عليه سنة ١٢٥٠ وسقط تحت ضربات المغول في الجزيرة
والشام سنة ١٢٦٠ .

أما في العراق وإيران فقد ظل التفوذ السلاجقي موجوداً حتى أواسط القرن
السادس (سنة ٥٥٢ خاصة) ثم زال من معظم المناطق وحل محله في أقصى
الشرق الدولة الغورية ما بين سنة ٥٤٣ - ٦١٢ وفي غرب إيران دول صغرى
تدعى بالدول الأتابكية ، ما لبثت أن ابتلعتها شيئاً فشيئاً الدولة الخوارزمية التي
كانت نشأت في خوارزم سنة ٤٧٠ وبلغت أوجها في عهد علاء الدين خوارزمي
ما بين سنة ٥٩٦ - ٥١٧ ولكنها سقطت رغم جهود جلال الدين منكويerti
تحت سنابل المغول سنة ٦٢٨ . وقد تغير مصير المنطقة كله فجأة بدخول هذا

العنصر الجديد المدمر إليها ، عنصر المغول الذين تحركوا منذ مطالع القرن السابع فدخلوا بعد سلسلة هجمات إلى قلب العالم الإسلامي وبعد أن دمرت الدولة التوارزمية الغوريين جاء المغول فدمروها ثم أتوا على خلافة بغداد سنة ٦٥٦/١٢٥٨ ثم على الإمارات الأيوبية كلها ، حتى أوقفهم المالك في معركة عين جالوت سنة ١٢٦٠ بعد ستين من سقوط بغداد .

سجل التاريخ الإسلامي هذه الأحداث العاصفة التي رأى فيها خلافتين إسلاميتين تعیشان وتتهیا ، وثلاثة هجمات غربية مدمرة : اثنتان من الشرق السلاجقة ثم المغول وواحدة من الغرب : الفرنجة ، وما رافق كل ذلك من هزّات كما سجل في الوقت نفسه بعض الوجه الآخر الحضاري أيضا ، من أجيال علمية وفكرية خلال هذه القرون .

وبالرغم من أن الفترات التاريخية الطويلة تمتنع عادة على الدقة الشديدة في الملاحظات وتعطي الدراسة طابع العميم المخل ، وبالرغم من أن الفترة التي ندرس تمتد ثلاثة قرون ونصف القرن لكننا قد نستطيع أن نعطي علم التاريخ في هذه القرون حجمه وملامحه من خلال النظر في رجاله ومادته ومناهجه وأهدافه في مختلف مدارسه الإقليمية .

رجال التاريخ

في هذه الفترة الطويلة دخل ميدان التاريخ أنواع شتى من الرجال قد يزيدون على الألف عدداً ويختلفون في الوظيفة الاجتماعية اختلافهم في التكوين العلمي والاهتمامات الفكرية وفي العنصر القومي والمذهب الديني وفي الإقليم السكني ، على أننا قبل الإيغال في الدراسة يجب أن نقدم بين أيديها ملاحظات أساسية ثلاثة :

الأولى : أن العالم الإسلامي كله كان مجالاً مفتوحاً وحرجاً لرحلة أي عالم من

منطقة إلى أخرى حتى لقد ندر من العلماء من استقر في بلده . وكانت الرحلة خاصة إلى العاصمة الكبرى وبصورة أخص إلى بغداد أم الدنيا .

الثانية : أن العلماء المسلمين كانوا عقولاً مفتوحة للاختصاصات المتعددة حتى لقد ندر أن عرف عالم بفرع واحد من فروع العلوم .

الثالثة : أن التنوع القومي خاصة والإقليمي والمذهبي لم يكن يأخذ المعانى الخامسة الحادة التي قد تفهمها منها اليوم . وكانت الرابطة الإسلامية حتى بالنسبة لبعض المؤرخين من أهل الكتاب - أقوى من أن تدفعهم إلى التجريح أو التهجم أو إلى تعمد تسجيل المساوىء دون الحسنات .

١ - في عدد المؤرخين وتوزعهم الزمني والمكانى

ليس ثمة من إحصاء أو شبه إحصاء لرجال هذا الفرع العلمي الهام في الثقافة الإسلامية ولا لغيره ولو وجد مثل هذا الإحصاء لأعطي على الأقل فكرة عن مدى اهتمام الحضارة العربية الإسلامية بالتاريخ وألم肯 بالمقارنة العددية مع رجال العلوم الأخرى بيان مدى قيمته ومكانته من الفكر والناس . على أنها قمنا في محاولة محدودة بإحصاء تقريري لمؤرخي ما بين القرن الرابع ونهاية الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ وفي المشرق الإسلامي وحده فإذا بين أيدينا من الأسماء ما يزيد على ألف ومائتي اسم ، ولو دفعنا التقسيمي إلى مدى أبعد لوصل الرقم إلى زيادة مائة أخرى في الغالب وربما وصل المائتين وهو رقم ضخم يجعل المعدل أكثر من ثلاثة مؤرخين في السنة الواحدة .

ولا يتوزع هؤلاء المؤرخون التوزع المتتسق ما بين أنطاكى ومدن المشرق الإسلامي كما لا يتوزعون التوزع المتوازن عبر السينين والقرون . فثمة مراكز جذب وتكافئ جغرافية كانت تجمعهم إليها كما ثمة فترات زمنية ، ديناميكية

الحركة والفكر ، كانت تطلعهم بالأعداد الوافرة .

وإذا كنا نستطيع بصورة عامة أن نقول إن مراكز هؤلاء المؤرخين كانت المدن الكبرى فإن نسبة هذه المدن منهم كانت بدورها تتفاوت . ويجيب الغوص لا وراء الأسباب السياسية فقط ولكن وراء الأسباب الاقتصادية أحياناً والفكرية لتحليل اختلاف التكاليف في أعداد المؤرخين بين بقعة وأخرى ولتحليل ظهور التاريخ أيضاً في شعوب لم تكن في الأصل ذات اهتمام تاريخي .

وقد كان طبيعياً أن تكون بغداد – بسبب من مكانتها السياسية والدينية والعلمية – أكبر مركز للتدوين التاريخي في المشرق الإسلامي لأنّه ما من عالم كبير إلا رحل إليها في طلب العلم أو قصدها ليشتهر ويُعرف على النطاق الإسلامي الأوسع .

وبالرغم من أن الفسطاط (ثم القاهرة) كانت مركز دولة ثم خلافة مستقلة وكان لها مراكزها العلمي الضخم إلا أنها لم تنافس بغداد في أي مجال من مجالاتها، ومن ذلك التاريخ . وربما كان للطابع الفاطمي الشيعي أثره في عدم منافسة القاهرة لها في جذب العلماء المسلمين . وقد تلت بغداد في كثرة المؤرخين مدن عدّة ، وخاصة ما كان منها مراكز دول شبه مستقلة سواء في إيران أو الشام كما تلتها مصر . على أن الكثرة الواضحة كانت في إيران وخاصة في مرو ونيسابور وأصفهان وتلي ذلك القاهرة الفاطمية دون باقي مدن القطر المصري ثم تأتي في العدد بلاد الشام (في دمشق وحلب خاصة) ثم بلاد العراق (في الكوفة والموصل خاصة) وتأتي في النهاية بلاد اليمن . أمّا الحججاز فينقطع التاريخ تقريباً له منذ القرن الرابع إلا ما يتصدق به عليه المؤرخون الطارئون تكريماً للمدن المقدسة وتعريفاً بها . وهكذا فإن ثلاثة أربع المؤرخين كانوا من بغداد أو كانوا على صلة بشكل أو باخر معها . وبخاصة منهم مؤرخو إيران الذين يختلطون لهذا السبب مع مؤرخي العراق ويقولون معهم جمهوراً يزيد عن ثلثي المؤرخين في هذه الفترة^(١) .

(١) آتتنا هنا طي المعطيات الرقمية الإحصائية لهذه التقديرات واكتفينا بالنسب المئوية التي –

وليس عجيباً بعد هذا أن نرى أن كافة المؤرخين الكبار، ذوى السمعة التاريخية المعروفة والآثار الضخمة الباقيه إنما كانوا عراقيين ، ولم يظهر بعد الطبرى – الذى عاش واشتهر في بغداد على أي حال – أي مؤرخ كبير وعلى المستوى الاسلامي الأوسع لا في إيران ولا في الشام ولا مصر. ذلك أن بغداد وال العراق كانت تلخص وتتمثل علم العالم الاسلامي كله .

وأما من الناحية الزمنية فالظاهرة الواضحة هي تكاثف المؤرخين وتکاثرهم في القرن الرابع خاصةً وفي النصف الأول من القرن السابع . وإذا كان القرن الرابع قرن الجغرافيا العربية فإنه كذلك قرن التاريخ . اهتمام الناس بعملية التدوين التاريخي وإقبالهم عليها كان في الواقع جزءاً من تلك الفعالية الواسعة التي شملت جميع نواحي الحياة وجميع فروع المعرف في ذلك القرن الذي يمكن أن يعتبر فترة الأوج والنضوج في الحضارة العربية الاسلامية . وكثرة الألوان والأنواع التاريخية التي ظهرت فيه إنما كانت نتيجة لاغراءات التطلع العلمي الموسوعي الذي طبع بطابعه ذلك القرن . ولم يكتُر عدد المؤرخين فقط ولكن كانوا أيضاً أحسن فهماً لمعنى التاريخ وهدفه . ثم نجد بالمقابل أنه لا تقل اعدادهم في القرنين التاليين الخامس والسادس فقط ولكن يسوء أيضاً « نوع » التسجيل التاريخي . يختفي فيه الانفتاح والموسوعية ويرى التقليد . وهذا السبب فيما يظهره يضيع الكثير منه . فإذا جاءت أواخر القرن السادس وجاء النصف الأول من القرن السابع أصحاب التاريخ نوع من اليقظة وعاد المؤرخون إلى التكاثر الواضح . ولعل السبب في ذلك هو تلك اليقظة السياسية الحضارية التي أصحاب المشرق الاسلامي من جراء التحدي الفرنجى الصليبي من جهة ثم التحدي المغولي من الجهة الأخرى . كان ظهور الزنكيين والأيوبيين أولأ ثم ظهور الخوارزميين جواباً على التحدىين يستحق التسجيل ، كما كان دافعاً – فيما يبدو – للعودة إلى النظرية العالمية ، ولعل هذا هو السبب في ظهور المؤرخين الكبار في مطالع هذه

= نحسب أنها تؤدي الغرض الذي نقصد في توزيع المؤرخين الجغرافي .

الفترة (كالطبرى والمسعودى) وفي أواخرها (كابن الأثير وسبط ابن الجوزى) ،

٢ - في الوظيفة الاجتماعية

كان التاريخ حتى عصر الطبرى من ميادين العاملين بالثقافة والعلم ومقصوراً بالذات على رجال علوم الدين خاصةً أو اللغة على قلة ... لم يحاوله أحد غيرهم إلا أنه منذ القرن الرابع انضم إلى الفقيه والمحدث واللغوي في روایة التاريخ وتدوينه مجموعات أخرى عديدة التنوع من العلماء .

صحيح أن الأسماء اللامعة والهامة من المؤرخين في هذه القرون كانت تضم جماعة واسعة من الفقهاء والمحدثين المشهورين منهم : في إيران الحاكم التيسابوري (ت ٤٠٥) وأبو نعيم الأصبهانى . وابن منه (ت ٤٧٠) وشيرويه ابن شهريار (ت ٥٠٩) والنسفي (ت ٩٣٧) صاحب القند في تاريخ سمرقند (٢٠ مجلداً) والتميمي الأصبهانى (ت ٥٣٨) مؤلف سير السلف . وابن فندق ظهير الدين البيهقي . والرافعى (ت ٦٢٣) صاحب التدوين في أخبار قزوين ...

ومنهم في العراق الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣) وابن ماكولا صاحب الإكمال (ت ٤٨٣) وابن عقيل (ت ٥١٣) صاحب كتاب الفنون في أكثر من أربعمائة مجلد والسمعاني صاحب الأنساب وذيل تاريخ بغداد والمجم ال الكبير ، وابن الأزرق الفارقي (توفي بعد سنة ٥٧٦) والإمام ابن الجوزى . وابن الأثير . وابن نقطة (ت ٦٢٩) صاحب إكمال الإكمال ، ومحب الدين بن التجار (ت ٦٤٣) صاحب ذيل تاريخ بغداد (١٧ مجلداً) وابن الدبيبي (ت سنة ٦٣٩) صاحب الذيل الآخر . وابن دحية وغيرهم .

ومنهم في الشام : أبو الحسين الرازى (المتوفى سنة ٣٤٧) والسميساطى (المتوفى سنة ٤١٧) وابن الأكفانى هبة الله (ت ٥٢٤) وابن عساكر وابن قدامة المقدسى (ت ٦٢٠) وابن سعادة البوذى (ت ٦٣٧) وابن العديم وسبط

ابن الجوزي وبهاء الدين بن شداد وابن أبي أصبيعة وأبو شامة . وابن عبد الدائم (ت ٦٦٧) ...

ومنهم في مصر : المؤيد الشيرازي الداعية ، وابن منجب الصيرفي ، والسلفي صاحب معاجم الشيوخ (ت ٥٧٦) والمنذري صاحب التكملة... وغيرهم . صحيح هذا كله لكنه نجد بجانب هذا الرعيل الواسع مجموعات أخرى متنوعة أيضاً أهمها :

(أ) الموظفون من عمال الدواوين والكتاب ورجال البلاط حتى الوزراء وقد كان رجال هذه الطبقات الرسمية ذوى شأن خاص في النظام السياسي وعلى اطلاع أكثر من غيرهم على دخائل الأحداث كما كانت تحت أيديهم محفوظات الدولة ووثائقها وكان بعضهم هو من صانعي تلك الأحداث وكتاب تلك الوثائق وكان في ذلك كله ما يغري الكثير منهم بكتابة التاريخ وخاصة في تلك الفترات التي عاشها الكاتب أو أتيح له الاطلاع على دخائلها . وإذا نجم عن ذلك تغيير واضح في أسلوب التاريخ وفي مادته وروحه إذ غاب فيه السند وكثُرت فيه الوثائق فقد أُسهم ذلك في تكريس ظهور «التاريخ» كعلم للمعلومات العامة وأُسهم خاصة في إعطاءه الطابع المدنى (Profane) بدل الطابع الديني .

ذلك أن هؤلاء الموظفين الكبار من الوزراء ومن كتاب الديوان خاصة انصب اهتمامهم على تاريخ الأحداث السياسية يسجلونها مع وثائقها ، وقد نجد أحياناً أن الفقيه والمحدث قد تتحيا عن مكانهما أحياناً في تدوين التاريخ السياسي فقط وظلا على استئثارهما بكتابة التراجم وابقاء هذا الميدان تحت نفوذهما فترة طويلة . وإذا كان التاريخ السياسي أكثر قرباً إلى معنى التاريخ لا سيما بعد تحوله إلى حوليات عن الأسر المالكة وحوادث الحكام فإن وجهة نظر رجال الدين يجعل تراجم «العلماء (وهم) ورثة الأنبياء» أصدق تعبيراً عن التاريخ الحق للأمة الإسلامية من النظم السياسية الزائلة^(١) التي تشوب أخبارها الأعمال

(١) انظر جب - الموسوعة الإسلامية - مادة تاريخ (في الترجمة العربية ج ٤ ص ٤٩٦) .

المنافية للدين في كثير من الأحيان .

وهكذا بينما نجد السلسلة القديمة من المحدثين ورجال الدين والرواة المؤرخين مستمرة وهم بالراجم خاصة نجد أن مجموعة أخرى قد نشأت بجوارها من كبار الموظفين وقد قدمت الكثير من الإنتاج التاريخي الممتاز . ويأتي في طليعة المجموعة مسكونيه ، والصولي وثابت بن سنان ثم هلال الصابيء والروذراوري في العراق : والبيهقي أبو الفضل محمد بن الحسن المتوفى سنة ٤٧٠ صاحب تاريخ بيهق الذي يزيد على ثلاثين مجلداً . والشعالي صاحب الغرر ، والعتبي (ت ٤٢٧) صاحب البيهقي ونظام الملك الوزير من ليران ، والمبسيحي الوزير وابن أبي مريم والقاضي القضايعي من مصر ، وكل هؤلاء فيما بين القرن الرابع والخامس ويستمر الأمر ويتسع في القرنين التاليين :

ففي في الشام ابن زريق التنوخي (المتوفى بعد سنة ٥٠٨) وحمدان أبا الفوارس بن أبي الموفق (المتوفى سنة ٤٤٢ أو سنة ٥٥٤) والخصيفي القاضي المرتضى (ت ٥٤٩) وابن القلansi صاحب ذيل تاريخ دمشق (ت ٥٥٥) ، والعظيمي صاحب تاريخ حلب (توفي بعد سنة ٥٥٨) والعماد الأصبهاني الأديب المعروف (ت ٥٩٧) والقاضي العماد الأصبهاني أيضاً صاحب البستان الجامع وابن عنن الوزير الشاعر (المتوفى سنة ٦٣٠) وابن المستوفى صاحب تاريخ اربيل (ت ٦٣٧) وابن نظيف الكاتب الحموي (ت بعد ٦٣١) وابن أبي الدم الحموي (ت ٦٤٢) وابن حمويه الجوني (ت ٦٤٢) .

ونرى في العراق وليران : السمناني أبا القاسم (المتوفى سنة ٤٩٩) والباشاني أحمد بن محمد (ت ٥٠١) والإقليدي صاحب كتاب الوزراء (ت ٥٠٧) وابن بابه الكاشي (ت ٥٤٤) وشهردار بن شيريويه (ت ٥٥٨) وابن حملون صاحب التذكرة (ت ٥٦٠) . وأبا غالب الشيباني الكاتب صاحب الذيل على الطبرى (ت ٥٩٧) وابن الأزرق الفارقى (ت بعد سنة ٥٧٦) وابن فندق ظهير الدين البيهقي (ت ٥٦٥) والمتجمنقي الحراني (ت ٦٢٦) والقيليوي البغدادي (ت ٦٣٣)

والبنداري الأصفهاني (ت ٦٤٣) والنسوي شهاب الدين محمد (ت ٦٤٧) والزيلدي (ت ٦٤٧) وابن الشعار الموصلي (ت ٦٤٥) صاحب عقود الجمان .

ونرى في مصر : القاضي الرشيد ابن الزبير (٥٦٢) وابن مسلمة الكاتب وابن منجب الصيرفي (ت ٥٥٠) وابن الطوير القيسري . وابن ظافر الأزدي (سنة ٦١٣) والقاضي الفاضل (٥٩٧) وابن وصيف شاه (ت بعد ٦٠٦) وابن نباتي (ت ٦٠٦) والقططي الوزير (ت ٦٤٦) ...

(ب) وقد دخل في جوقة التأليف التاريخي أيضاً بعض الأمراء والملوك في هذه الفترة ومنهم : الأمير منصور ابن شاهنشاه الأيوبي صاحب مضمار الحقائق وابن ماكولا الأمير الوزير صاحب الأكمال ، وابن ندى الجزري والأمير العباسى أبو الحسين يوسف (ت ٦٥٦) وابن أبي الهيجاء وابن مأمون البطائحي وأسامة بن منقذ ، بل ثمة خبر يذكر أن ملك شاه السلطان السلاجوقى كتب رسالة يصف بها مملكته^(١) ويروى أخباره كما أن نور الدين محمود بن زنكى كتب كتابين أحدهما في الجهاد والثانى هو الفخر النورى^(٢) . وقد نقل ابن أبيك الدواداري عن كتاب تحفة القصر في عجائب مصر الذي ينسب إلى العاضد الفاطمى^(٣) آخر الخلفاء الفاطميين . كما نقل ابن أبي أصيحة بعض أخبار الحارث ابن كلدة الطيب عن كتاب البستان الذى ألفه الخليفة العباسى الواثق بالله (٢٢٧ - ٢٣٢)^(٤) . وأمّا ابن المعتر فمعروف التأليف وله في التاريخ الأدبى كتاب طبقات الشعراء وغيره .

ويلحق بهذه الطبقة بعض الأشراف من العلوين وآل بيت النبي الذين اهتموا خاصة بعلم الأنساب وألفوا فيه المؤلفات الضخمة التي بلغت أحياناً

(١) البنداري - هدية المارفين ج ٢ ص ٤٧١ .

(٢) انظر سبط ابن الجوزي - مرآة الزمان ج ٨ ص ٣١٣ .

(٣) انظر ابن أبيك - كنز الدرر - الدرة المنية ج ٦ ص ٣٥٢ - ٣٥٣ .

(٤) انظر ابن أبي أصيحة - طبقات الأطباء (ط . بيروت ١٩٦٥) ص ١٦٥ .

١٠ و ٢٠ و ٦٠ مجلداً ، كابن عبد الصمد الماشمي (أواسط القرن السادس) والشريف العابد الممشقي وابن زهرة الحسني الحلي (بعد سنة ٥٨٠) وابنه القاضي الزيدى والجوانى نقىب الأشراف (سنة ٥٨٨) والأدرىسي الاسكندرانى (سنة ٦١٠) وأبو طالب الماشمى (٦٢١) وعزيز الدين العلوى المروزى (٦٣٢) صاحب حظيرة القدس في ٦٠ مجلداً .

(ج) ولم يقتصر ميدان التاريخ على هؤلاء وأولئك من الفقهاء والمحاذين من جهة أو رجال الإدارة والسياسة من جهة أخرى ، ولكن دخله كذلك أصحاب المهن الحرة بل والأعمال المهنية الصغيرة المحدودة الدخل .

فقد ظهر مثلاً عدد من الأطباء المؤرخين من جملتهم : سعيد بن البطريق (ت سنة ٣٢٨) الذي اشتهر بالطب شهرته بالتاريخ ، وابن بطلان (المتوفى بعد سنة ٤٥٥) وابن جرير التكريتي (ت ٤٧٢) صاحب زبيج التواريخ . وابن شراره الحلى (ت ٤٩٠) . وابن أبي صادق النيسابوري (حوالى ٤٧٠) . وابن جزلة أبو غالب (ت ٤٩٣) . وابن أبي الصلت أمية بن عبد العزيز المصرى (ت ٥٢٩) . وابن المارستانية (ت ٥٩٩) الذي وضع تاريخ بغداد في مائة مجلد . وابن أبي أصيحة صاحب طبقات الأطباء وابن زفيقة الشيباني (ت ٦٣٥) والدنسري (ت بعد ٦١٥) صاحب تاريخ دنسير . وابن اللباد عبد الطيف البغدادي (ت ٦٢٩) ... الخ .

وظهر في المؤرخين كذلك بعض أصحاب المهن المتواضعة من النساخين والوراقين والفرضيين الشروطيين : ومنهم مثلاً : أبو الحسين ابن القواس الوراق (من القرن الخامس) ومحمود الوراق (بعد ٤٥٠) . وشجاع الذهلي الوراق النساخ (ت ٥٠٧) الذي ذيل على تاريخ بغداد . وأبو اسحق الجبال الوراق ، وابن حنظلة وأولاده باعة الكتب (القرن السابع) وابن شنيف أبو الفضل الكتبى (ت ٦٤٠) .

وقد برع من هؤلاء خاصة جماعة قفزوا إلى الصاف الأول في المؤرخين :

فابن النديم (ت ٣٨٥) صاحب الفهرست ، أهم كتاب في تاريخ العلوم الإسلامية حتى أواخر القرن الرابع ، كان ورافقاً . والمؤرخون الثلاثة الأواخر الذين كانوا آنذاك على ذيل الطبرى في القرنين السادس والسابع كانوا من هذه المجموعة ، فالهمدانى محمد بن عبد الملك (ت ٥٢١) صاحب تكملة تاريخ الطبرى كان فرضياً . وأبو الفرج صدقة الحداد (ت ٥٧٠) كان فرضياً ناسخاً والقادسي محمد بن أحمد كان كبيراً (ت ٦٣٤) . ومثل هؤلاء كان أبو شجاع محمد بن الدهان (ت ٥٩٢) فهو فرضي منجم ، والحظيرى أبو المعالى سعد ابن علي دلال الكتب (ت ٥٦٨) وهو صاحب زينة الدهر .

ولعل أبرز المؤرخين النساخين اثنان هما ابن أبي طي (ت ٦٢٦) المؤرخ الضخم الذي كتب أربعة عشر مؤلفاً في التاريخ بعضها في مجلدات عديدة ولم يبق من أعماله أي كتاب . وياقوت الحموي التاجر النساخ الذي كان ينسخ الكتب ويتجار بها وبغيرها والذي ترك للتراث الإسلامي أشهر معجمين للبلدان والأدباء .

وبالرغم من المفارقة الظاهرية بين النشاط العلمي والاقتصادي فقد وجد بين المؤرخين أيضاً بعض التجار من أمثال : ابن المجاور الدمشقي (ت بعد ٦٣٠) صاحب تاريخ المستبصر ، وأبي الثناء الحراني (ت ٥٩٠) صاحب تاريخ حران .. والعليمي أبي الخطاب (ت ٥٧٤) المعروف بابن حوائج كاش . كما أن ياقوت الحموي نفسه كان يعمل بالتجارة مع التأليف والنسخ .

(د) وأخيراً فئة ظاهرة في التأليف التاريخي لا بد من تسجيلها هي ظهور أسر مؤرخة ، كما كانت ثمة أسر يتوارث رجالها العلم والفقه والحديث . ولعل هذا من ذاك . وتواتر الاهتمام التاريخي كان يستمر عدّة أجيال أحياناً في الأسرة الواحدة . وغالباً ما كانت هذه الأسر ، من تلك التي تتوارث « الوظائف » الحكومية أو جاه المكانة العلمية والوظائف الدينية . ومن تلك الأسر مثلاً :

- آل الجراح : وهي أسرة كتاب ووزراء ظهر منها ما بين أواسط القرن الثالث وأواسط الرابع عدة كتاب مؤرخين كداود بن الجراح كاتب المستعين (٢٤٨ - ٨٦٢ / ٢٥١) ثم ابنه محمد بن داود ، ثم حفيده على بن عيسى بن داود (المتوفى سنة ٣٣٤) وزير المقتدر وابن الحميد الآخر أبي القاسم عبد الله بن علي بن محمد بن داود (المعروف بابن أسماء وهي اخت على بن عيسى) ...

- آل الصابيء : وهي أسرة الكتاب الصابية التي قضاها معظم أيام بروزها وخدمتها للخلافة العباسية وهي على دينها الأول . وكان منها : أبو اسحق ابراهيم بن هلال الصابيء (المتوفى سنة ٣٨٤ / ٩٩٤) ثم حفيده الذي خلفه أبو الحسين هلال بن المحسن بن ابراهيم (المتوفى سنة ٤٤٨ / ١٠٥٥) وقد أسلم في أواخر حياته وجاء من بعده ابنه المؤرخ الثالث في الأسرة محمد غرس النعمة (المتوفى سنة ٤٨٠ / ١٠٨٦) ...

- ومن مثل هذه الأسر الكتابية المؤرخة ولكن على جيلين مثلاً : ابن أبي طاهر وابنه عبد الله ، وثابت بن سنان بن قرة ثم ابنه سنان .. وأبن صالح عبد الله بن محمد بن يزداد وابنه محمد الذي عم كتاب أبيه في التاريخ إلى سنة ٣٠٠^(١) .

وأما من أسر الفقه والعلم فهناك مثلاً :

- آل السمعاني أسرة العلم المروزية : وإذا كان أشهرهم هو عبد الكريم ابن محمد بن أبي المظفر منصور (المتوفى ٥٦٢ / ١١٦٧) فإن أبوه (المتوفى سنة ٥١٠) وجده من قبله قد شاركا في التأليف التاريخي كما شارك به ابنه عبد الرحيم من بعد وقد توفي سنة ٦١٤ .

- آل البناء : وهم أسرة بغدادية واسعة من الفقهاء الحنابلة وكان منها

(١) ابن النديم ص ١٤٧ وص ١٢٤ .

عدد من المؤرخين أصحاب الماجم و التعليقات التاريخية ، منهم :
أبو علي الحسن بن أحمد (المتوفى سنة ٤٧١ / ١٠٧٨) صاحب التعليق ،
وأبو غالب أحمد بن أبي علي الحسن (المتوفى سنة ٥٢٧ / ١١٣٢) .

— آل أبي جراده : أسرة القضاة الحلبين .. وأبرز أبنائهم كان في آخرها
تقريباً وهو كمال الدين عمر بن العديم المؤرخ الذي كشف في مؤلفه
عن أسرته ، وفي مؤلفه التاريخي الواسع بغية الطلب عن إسهام أبيه وجده
وعميقه في التدوين التاريخي .

— آل المقدسي : أسرة الفقه الحنبلي في دمشق منذ أواسط القرن السادس
إلى ما بعد أكثر من قرنين وقد برز منها في التاريخ والتراجم خاصة
نتي الدين أبو محمد عبد الغني بن عبد الواحد (المتوفى سنة ٦٠٤ / ١٢٠٤)
وابن قدامة وموافق الدين عبد الله بن أحمد (المتوفى سنة ٦٢٠ / ١٢٢٣)
وابن قدامة الآخر أبو العباس أحمد بن عيسى (المتوفى سنة ٦٤٣ / ١٢٤٤)
وضبياع الدين محمد بن عبد الواحد (المتوفى أيضاً سنة ٦٤٣ / ١٢٤٤) .

— آل عساكر : وقد كان أولها أبرز الرجال فيها وهو ابن عساكر صاحب
تاريخ دمشق (المتوفى سنة ٥٧١ / ١١٧٥) ثم جاء ابنه من بعده (المتوفى
سنة ٦٠٠) فأضاف على مؤلف أبيه كما حاول التأريخ من بعده ابن
أخيه أبو سعد عبد الله بن الحسن وقربيه الآخر نظام الدين أبو سعد
علي (المتوفى سنة ٦٤٥) .

— ومن الأسر : آل الجوزي وقد أطاعت اثنين كلاهما من كبار المؤرخين
في الإسلام : أبو الفرج عبد الرحمن (المتوفى ٥٩٨) وبسطه يوسف
ابن قرأو غلو المعروف ببسط ابن الجوزي (المتوفى سنة ٦٥٤) .

— والأمراء من آل منقذ : إخوة وأبناء وأحفاد أسامة بن منقذ (المتوفى سنة
٥٨٤) . فقد عمل هو على التاريخ كما عمل أخواته الثلاثة : علي بن مرشد
(المتوفى سنة ٥٤٥) وأبو عبد الله محمد ، وأبو المغيث منقذ (المتوفيان

في أواسط القرن السادس) وعمل عليه كذلك مرهف بن أسامة (المتوفى سنة ٦١٤) والخفيف مرهف بن مرهف .

٣ - في التكوين العلمي والاهتمامات الفسكونية والمذهبية

(أ) لم يكن التكوين العلمي الأول لمختلف المؤرخين متفقاً أو متشابهاً، فقد جاءوه من أبواب مختلفة وعبر تكوينات ثقافية متعددة . بلى ! كانت القاعدة الثقافية للجميع تقوم على أساس من العلوم الدينية . باعتبارها القاسم المشترك بين مختلف المسالك إلى العلوم ؛ والجانب الإجباري في عملية التربية ومواد التعليم كانت هي « العلم » . ولكن التميز والاختصاص بالتاريخ لم يكن نتيجة الدراسة والانصراف العلمي كالحديث والفقه أو الفلسفة أو الطب بقدر ما كان نوعاً من الهواية المباحة والميدان الحر . يمارسه الكثيرون دون استعداد مسبق في كثير من الأحيان .

وإذا كان بين المؤرخين ، في هذه الفترة العباسية – الفاطمية عدد كبير من المحدثين والفقهاء الذين ملأوا الميدان التاريخي بالترجم خاصّة ، فقد وجد أيضاً عدد واسع من ذوي الثقافة الأدبية والشعرية : من أمثل : الشاعري صاحب البيتية وذيلها (ت ٤٢٧) والباخرزي صاحب دميا القصر (ت ٤٦٧) وأبي الفضل البهقي صاحب تاريخ بيهق والأبيوردي الشاعر (ت ٥٠٧) وهلال الصابيء وابنه محمد غرس النعمة والخطيري الأديب (ت ٥٦٧) والعماد الأصبهاني ، والقاضي الفاضل ، وأسامة بن منقذ وابن عين الشاعر وابن القلانسي ، وابن نظيف الأديب الشاعر وابن شاهنشاه الأيوبي وابن حمدون الكاتب والقاضي الرشيد ابن الزير (ت ٥٦٢) والعظيمي الشاعر (ت بعد ٥٥٨) وسبط ابن التعاويذي (ت ٥٨٤) وعمارة اليمني (ت ٥٦٩) وابن الشعار الموصلي وأبي النصر العتي .

كما وجد بينهم عدد من اللغويين وال نحوين القراء ومنهم : المجاشعي

(ت ٤٧٩) صاحب كتاب الدول (٣٠ مجلداً) وأبو بكر الباطرقاني المقرئ (ت ٤٦٠) صاحب تاريخ القراء . والأخسيكي أبو الوفا (ت ٥٢٠) وأخوه أبو رشاد (سنة ٥٢٦) والماندائي أبو العباس أحمد (ت ٥٥٢) وابن هلال الصعيدي التحوي (ت ٥٢٠) صاحب خطط مصر . وابن الأباري اللغوي النحوي (ت ٥٧٧) والطوائفي مجد الدين النحوي (ت ٦١٧) .

وبعضهم دخل التاريخ عبر علوم الأولى وعلى أساس من الثقافة الفلسفية أو الطبية . وقد تميز هؤلاء عامة بنظرية أعمق وأشمل في التدوين التاريخي وحاول بعضهم فلسفته كما حاول بعضهم الجمع بينه وبين الكون والوجود بنوع من الصلة والتسلسل . ويبرز في هذا الميدان قدامة بن جعفر صاحب كتاب الخراج وزهر الريبع في التاريخ . والمسعودي الذي ثرّ معلوماته الدينية والفكيرية الغزيرة في كل مكان من مؤلفاته . ومسكويه صاحب تجارب الأمم الذي درس الكيمياء والفلسفة والمنطق والأدب . وابن الداية (ت ٣٣٩) مؤرخ ابن طولون والوزير عز الملك المسيحي (ت ٤٢٠) الكاتب المنجم والذي كتب تاريخ مصر في ١٣ ألف ورقة (٢٦ ألف صفحة) تنتهي حوارده سنة ٤١٦^(١) ، والمظہر المقدسي صاحب البدء والتاريخ . وابن اللباد عبد اللطيف البغدادي وأغابيوس المنجبي صاحب العنوان الكامل للحكمة ، وابن فندق ظهير الدين البيهقي صاحب مشارب التجارب وتنمية صوان الحكمة (ت ٦٥) ، والطرطوشي أبو بكر (ت ٥٢٠) وابن أبي أصيبيعة السكمال .

(ب) ومن جهة أخرى فيمكن أن نلاحظ في هذه الفترة العباسية — الفاطمية أن التاريخ كمادة علمية أخذ يستغرق جهد بعض العلماء جميعه ؛ بمعنى أنه أصبح موضوع نشاطهم الفكري الوحيد أو الرئيسي وليس أحد الشهادات الهامشية أو الثانوية . فالمسعودي مثلاً كان بحثه وانتاجه كله منصبًا على المواضيع

(١) ثمة في مكتبة الاسكندرية جزء منه . وكتاب تاريخ مصر واحد من حوالي ثلاثة مئة مؤلفاً للمسعودي هناك عدد منها تراوح أوراقه ما بين ١٥٠٠ إلى ٢٣ ألف ورقة .

التاريخية الفكرية وابن زولاق رغم تفقّهه لم يترك سوى مؤلفات في التاريخ وبها الشتهر . وكذلك هلال الصابيء والروذراوري والبيهقي وابن القلاني وابن الطوير الشيباني والقططي وابن العديم . وقد مزج بعضهم معه الشعر : كالعظيمي وابن عين وابن نظيف .

وبعضهم حمل بسبب من عنایته بالتاريخ لقب : التاريخ أو التاريني . وإذا كان أحمد بن محمد الرازى قد حمل لقب التاريخ في الأندلس ففي المشرق عرف : محمد بن اسماعيل (القرن السادس) بلقب : التاريخ لكثرة اشتغاله به . وكان يحيى بن علي بن عبد اللطيف المعرى (القرن السادس) يعرف « بتاريخ الشام » .

ومن الملاحظات الهامة في هذا المجال أن نموذج المسعودي ومسكويه اللذين ظهرا في القرن الرابع ومطلع الخامس واقتصر اهتمامهما على التاريخ وحده وكانتا في الوقت نفسه من كبار المؤرخين لهذا النموذج لن يظهر فيما بعد حتى يأتي العصر المملوكي . وبالرغم من أنها تعدّ عدداً من أهم المؤرخين ظهروا وخاصة في أواخر الفترة العباسية من أمثال ابن الأثير وسبط ابن الجوزي وابن النجاش فإن هؤلاء وأمثالهم كانت لهم اهتمامات فقهية أو حديثية موازية للاهتمام التاريني ولعلها كانت بالنسبة إلى عصرهم هي الاهتمام الأساسي وهي السبب في سمعتهم الكبرى بين المعاصرين وإن كان الأثر التاريني الذي تركوه هو الذي جعل أسماءهم كثوراً في حين كبار تبرز فيما بعد وتبقى للناس .

(ج) ومن جهة ثالثة فإن الجماعات غير المسلمة في المجتمع الإسلامي ، في هذه الفترة أسهمت بدورها في تدوين التاريخ . وإذا لم يظهر لليهود خاصة في هذه الناحية إلا النشاط الذي لا يكاد يذكر فإن عناصر مسيحية عديدة منها القبطية ومنها السريانية قد دخلت ميدان النشاط التاريني . وإذا كان بعضها قد اقتصر على أمور طائفية خاصة أحياناً مثل عمرو بن متى وأبي صالح الأرمني فإن بعضها كتب تاريخ العالم مثل ابن العبرى ، وأغاييوس المنجى ، وابن

«راهب وبعضها كتب تاريخ عصره مثل ابن جرير وابن شرارة أو سيرة بعض الحكماء كابن همامي وأتوا جميعهم على أي حال بمحضها وافرة من المعلومات التاريخية إلى هذا العلم».

٤ - في أقاليم المؤرخين (المدارس الإقليمية)

إذا كان تدوين التاريخ قد بدأ في الإسلام ، في أقاليم محددة كونت لنفسها مدارس خاصة في المادة والتنظيم فإن المدرسة العراقية عادة ، في القرن الثالث خاصة ابتلعت المدارس الأخرى واستقطبتها . فلم يبق من مدارس الشام والمدينة واليمن سوى بقايا وأقباس في الوقت الذي كانت فيه بغداد تجذب كافة العلماء من كل صقع ومن كل اختصاص . غير أن هذا التألق الذي ساق إلى مدرسة بغداد بكافة القدرات الفكرية عاد فخمد منذ مطلع القرن الرابع ، ونلاحظ أن توزيعاً جديداً للمدارس التاريخية قد ظهر . ومع أن جلوة بغداد لم تخمد في هذا التوزيع وظلت هي المدينة – الأم التي تلخص الفكر الإسلامي كله إلا أن أقاليم جديدة من العالم الإسلامي دخلت بدورها ميدان التأليف التاريخي هي مصر والمغرب والأندلس خاصة وظهرت لها تقاليدها في الرواية التاريخية الإقليمية وفي التأليف الإقليمي بعد أن كانت في القرنين الأولين على الأقل وبعض الثالث من العهد الإسلامي صامتة سلبية تنتظر ما يأتيها من المشرق كما أن الأقاليم القديمة النشاط في التاريخ ظلت تتطلع بدورها أقباساً من العلماء المؤرخين ثم ما لبثت أن تحولت بدورها إلى مدارس متواطدة . وسرعان ما أعطى العلماء هذه الإقليمية التاريخية فلسفتها والتبرير :

– فمن ذلك تزايد التاريخ مع الزمن . يقول المسعودي : « ... ووجدنا الأخبار زائدة مع زيادة الأيام ، حادثة مع حدوث الأزمان وربما غاب البارع منها عن الفطن الذكي ولكل واحد قسط ينحصر بمقدار عنایته »^(١)

(١) المسعودي – مروج الذهب (طبعة بلا) ج ١ ص ١٢ .

— وقد وجد في البلاد المختلفة من شعروا بهذه الحقيقة وبأن لديهم من الأخبار والأحوال ما يستحق التسجيل وما يقولونه بالإضافة إلى ما يسجله أصحاب التواريχ العامة ، وفي ذلك الكثير من الترعة الوطنية من جهة ، ومن نزعة التقدير للأخبار المحلية المشهودة مقابل الأحداث البعيدة غير المشهودة من جهة أخرى وهذا مثلاً هو مبرر ابن القلansi تأليفه « المثيل في تاريخ دمشق » على تاريخ هلال الصابيء ، ومبرر تأليف عدد من التواريχ البلدانية والإقليمية الأخرى .

— ومن جهة ثالثة فإن « لكل قطر — كما قال المسعودي — عجائب يقتصر على علمها أهلها . وليس من لزم جمرات وطنه وقوع بما نبى إليه من الأخبار عن إقامته كمن قطع الأقطار وزرع أيامه بين تقاذف الأسفار واستخرج كل دقيق من معدنه ... »^(١) ويزيد المقرizi هذه الناحية ليضحايا في قوله : « وأهل كل قطر أعرف بأخباره . ومؤرخو مصر أدرى بما جرياته ... ». « وإن ابن زوالق أعرف بأحوال مصر من ابن الأثير ... فإنه كان حاضراً وشاهداً... »^(٢) .

— ومن جهة رابعة ، فإن « ... الواجب على صاحب المعرفة من أهلها (البلاد) أن يعلم جل أبنائها ويخفظ أيام أمرها . ولا شيء أزرى عليه من أن يجهل أخبار أرضه . ولعله يتطلب أخبار غيرها فيكون كمن ترك الواجب وتبع التوافل ... » تلك وصية أبي الحسين علي ابن أحمد السلامي في كتابه (أخبار ولاة خراسان) نقلها عنه جمال الدين اليموري والسخاوي^(٣) وقد ذكروا أيضاً أن على طالب الحديث أن يعرف أخبار المحدثين وأهل العلم من بلده أولاً ثم من البلاد الأخرى . يقول صالح

(١) المصدر ذاته .

(٢) المقرizi — انتظام الخفا (طبعة الشيال) ج ١ ص ٢٢٢ .

(٣) انظر السخاوي — الإعلان (ط . روزنثال المترجمة) ص ٤٤١ - ٤٤٣ .

ابن أحمد التميمي الحافظ (ت ٣٨٤) في كتابه طبقات الهمذانيين : « ينبغي لطالب الحديث ومن عني به أن يبدأ بكتاب حديث بلده ومعرفة أهله .. ويعرف أهل التحديث به وأحوالهم معرفة تامة إذا كان في بلده علم وعلماء قديماً وحديثاً . ثم يشتغل بعد بتحديث البلدان والرحلات فيه ...»^(١) .

ولا شك مع كل أولئك في أن للتفصيل السياسي الذي عرفته البلاد الإسلامية ما بين القرن الرابع والسابع ، أثره في ظهور الأنماط الإقليمية من التواریخ . إنها إنما كانت محاولة لإثبات الشخصية المحلية وتبرير الانفصال السياسي واعطائه الأساس التاريخي بجانب ما في ذلك أحياناً من الفخر أو محاولة إثبات الحقوق الشرعية أو المبادئ المذهبية والسياسية .

ولا شك من جهة أخرى في أن للتفاخر بحمل الروايات والحديث والتنافس بين الأمصار في الرواية والرجال والسنن المتبين وكثرة الحفاظ أثراً آخر في ظهور الكثير من مؤلفات التاريخ الإقليمي والبلداني . وكثير من المؤلفين ببرروا اقدامهم على التأليف لمذهبهم بالرغبة في ابراز علماء المصر وإثبات فضليه وبعضهم سمي هذا النوع من التاریخ : « فضائل » مثل فضائل الاسكندرية مثلاً لابن الصباغ وفضائل الشام والقدس وغيرها وبعضهم سماه بشكل أدق : طبقات المحدثين مثل كتاب : طبقات المحدثين بأصحابها^(٢) لأبي الشيخ الأنصاري عبد الله بن محمد بن حيان (ت ٣٦٩) أو تاريخ مدينة بغداد أو مدينة دمشق ..

ومن هذا وذلك توزعت الأقطار الإسلامية تدوين التاریخ مرة أخرى ، ولكن على أساس جديد لعبت به القوى السياسية الدور الأول بمعنى أن المدارس الجديدة إنما كانت تقوم وتتوطد حيث تظهر الدول المنقطعة : قامت في الأندلس والمغرب حيث ظهرت إمارة ثم خلافة الأمويين وظهرت إمارة الادارسة

(١) المنظيب البغدادي - تاريخ بغداد ج ١ ص ٢١٤ .

(٢) من هذا الكتاب نسخة خطوظة في دار الكتب الظاهرية بدمشق رقم ٦٥ تاريخ .

والأغالبة وسوف تدرسها فيما بعد في فصل خاص ، وقامت في مصر حيث ظهر الأخشidiون بعد الطولانيين ثم الفاطميون ثم الأيوبيون ، وقامت في إيران حيث أخذت — مع وجود اللغة الفارسية والعواطف القومية والرواسب الزرادشتية — طابعاً خاصاً ندرسه بدوره لوحده . أما الشام واليمن فلأنهما على ما يبدو ظلا قطرتين تابعتين تارة لل الخليفة العباسي وولاته وتارة أخرى ل الخليفة مصر الفاطمي وولاته فإن مدرستهما التاريخية ظلت أضعف في القوى غير مشهورة المؤلفات ولا كثيرة المؤلفين نسبياً .

على أنه من الضروري أن نسرع إلى القول إن هذه المدارس الإقليمية لم تكن تنسى بجانب الأحداث المحلية الخاصة النظرة الأفقية الشاملة للعالم الإسلامي عامة . لم تكن تشغليها التفاصيل الإقليمية عن أحداث الأقطار الإسلامية الأخرى والاهتمام بها وخاصة منها ببغداد عاصمة الخلافة . وهذا يعني أنه مقابل تلك النظرة الانطوية المتوجهة إلى الداخل وإلى الأقليم الخاص كان ثمة لدى المؤرخين في هذه الفترة ذاتها نظرة افتتاحية معاكسة تتجه بهم إلى خارجه وإلى ما وراءه من أقاليم الإسلام . وإنما كانت الكتب التاريخية إذ ذاك حصيلة التأثر على مستويات مختلفة بهاتين النظرين المتناقضتين : وإذا كان الاهتمام المحلي بالأمور التاريخية الإقليمية إنما ينبع :

- (أ) من حب الوطن والت العصب له والتناحر برجاه .
- (ب) من الحاجة الحياتية لمعرفة التجارب السياسية المحلية والاستفادة منها .
- (ج) من الرغبة في تمجيد الحكماء المحليين لأغراض سياسية أو نفعية .
- (د) من قرب المعلومات وأصحابها إلى المؤلفين والاهتمام بالقرب أكثر من بعيد .
- (هـ) ومن أسباب سياسية واقتصادية شئ تتعلق بتحول الأحداث المهمة مع الأيام من منطقة إلى أخرى .

إذا كان ذلك كله ، فإن عوامل أخرى كانت تعمل عملها بالمقابل في اتجاه

الشمولية الإسلامية ، وفي اتجاه إدخال تواريخ الأقاليم الإسلامية المختلفة ضمن التاريخ الإقليمي المحدود ولعل أهم هذه العوامل في تلك الفترة :

(أ) نمو واستقرار الشعور بأن المسلمين يكونون أمة واحدة . والنصوص القرآنية في ذلك : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » و « إن هذه أمتك أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » كانت تجذب تعبيرها العملي في اهتمام المؤرخين المسلمين بكل بلد إسلامي . وهذا مثلاً يجذب في « ذيل تاريخ دمشق » لابن القلانيسي أخبار السلابقة في العراق وإيران ، وفي تاريخ بيهق ، بعض تاريخ العراق وفي تاريخ مصر لابن ميسير أخباراً من الشام والعراق والمغرب ... وتاريخ ميافارقين للفارقي كان نوعاً من التاريخ الإسلامي كله وتاريخ أحداث بغداد ...

(ب) الارتباط السياسي بالخلافة في بغداد خاصة أو في القاهرة . ومع أن هذا الارتباط كان شكلياً وخاصة مع الخلافة العباسية في بغداد فإن مؤرخي الأقاليم كانوا لا يستطيعون إغفال أخبار العاصمة التي ترتبط بها أقاليمهم . وهم لا يغفلونها لأنها على الأقل مؤثرة التأثير المباشر أو غير المباشر على تطورات الحكم المحلي ورجاله .

(ج) الرحلة بين أقطار العالم الإسلامي . فقد كانت دار الإسلام مملكة واحدة في نظر العلماء وال Hwyrafeen والتجار والرجال . وكانت حركتهم فيها خلال تلك العصور حركة ناشطة ، مستمرة ، لدرجة تستطيع معها أن نعتبر « الرحلة » لمختلف الأغراض الحدودي مميزات القرون الإسلامية الوسطى (ما بين الرابع إلى السابع) . وإذا كانت الحركة التجارية سبباً أساسياً في الرحلة بين الأقطار ، فإن آثارها كانت محدودة في التدوين التاريخي وأهم منها في هذا المجال رحلة العلماء في طلب العلم .

وقد بدأ هذا النوع من الرحلة في جيل الصحابة إذ كان بعضهم يرحل من قطر إلى قطر في طلب حديث لم يسمعه بنفسه ومن هؤلاء جابر بن عبد الله وأبو أيوب الأنصاري . واتبع جيل التابعين السنة ذاتها لتأقي العلم على الصحابة المترفين في الأمصار بعد الفتوحات وكان لظهور الوضع في الحديث والأنبار أثره في تنشيط هذه الحركة ، ومن التابعين الرحالة : سعيد بن المسيب والحسن البصري وأبي العالية الرياحي وعامر الشعبي ومسروق . ثم اتسع نطاق الرحلة بعد ذلك حتى صارت الرحلة في القرون الثالث والرابع والخامس ولا سيما إلى بغداد وعلمهَا وإلى مراكز العلماء الأخرى في نيسابور أو دمشق أو القاهرة تقليداً علمياً لا يعتبر العالم عالماً حقاً إن لم يقم به ولا نجد ترجمة لعالم معروف في تلك الصدور ليس فيها على الأقل زيارة لبغداد وأخذ عن علماء هذا البلد أو ذاك . ويقدم الراهن رمزي أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد (المتوفى سنة ٣٦٠) قائمة بأسماء المحدثين الذين رحلوا في الأقطار مرتبة على الطبقات فذكر من رحل إلى عادة أقطار ومن قصباً قطرآً واحداً ...^(١)

وقد كان أثر هذه الرحلات واضحاً جداً في أمرين :

انعكس الأول في امتزاج علم الأمصار الذي ظهر في مجتمع الحديث وفي الأنبار المدوة في القرن الثالث خاصة مما قلل أثر التعصب الإقليمي في هذه النواحي وإن لم يترك أثراً كبيراً في الفقه كما لم يمنع أصحاب كل إقليم من التوسيع في روایة أخبارهم الخاصة أكثر من توسعهم في روایة أخبار المناطق الأخرى .

وانعكس الثاني ، من ناحية التدوين التاريخي خاصة ، في توارييخ الأقاليم المختلفة المنظمة على أساس التراجم ، فإنها أصبحت تحيي ، بجانب التراجم المحلية مجموعة واسعة من تراجم العلماء العابرين والزوار من كل صنع ،

(١) الراهن رمزي - المحدث الفاصل (خطوط الظاهرية بدمشق - رقم ٢٦ ، ٤٠٠ عام) ج ١
ورقة ١٧ ظهر - ١٨ وجه .

وهكذا أضحت تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، في واقعه ، تاريناً لعلماء العالم الإسلامي منذ ظهور بغداد حتى أواسط القرن الخامس وصارت ذيوله من بعده موسوعات هؤلاء العلماء . وصار تاريخ دمشق لابن عساكر مصدر معلومات عن عدد من علماء إيران ومصر . وصار تاريخ نيسابور أو مرو أو همدان يعني كل باحث في تاريخ الفكر الإسلامي في أي قطر من قطراته .

ونضيف أخيراً إلى هذا كله أن الرحلات لأسباب أخرى ، كرحلات الحج ، والوفود وحب الاستطلاع والتتجسس والدعوة كلها كانت تسهم في كسر الطوق الإقليمي عن التواريخ وتدفعها ، رغم عنوانيتها الإقليمية أحياناً واهتماماتها المحلية ، إلى الإحاطة بأخبار بعض أقاليم العالم الإسلامي أو كلها .

وقد أعطى هؤلاء المؤرخون ، منذ القرن الرابع خاصة ، علم التاريخ ملامحه الأساسية وأبعاده الفكرية المميزة . ويمكن أن نرى جانباً من هذه الملامح والأبعاد إن درسنا ما طرأ من تطور على مادة التاريخ من جهة وعلى منهج التاريخ من جهة أخرى ثم نظرنا أخيراً في الميزات العامة للفكر التاريني الإسلامي في هذه القرون ما بين الثالث والسابع من جهة ثالثة ...

ذلكم موضوع الفصول التالية .

الفصل الثامن

تطور المادة التاريخية

مادة التاريخ هي التي تطورت أوسع التطور في تلك القرون التي تلت القرن الثالث في الشرق وأوسع ما أصابها من التطور إنما كان خاصة في القرن الرابع (العاشر الميلادي) . ولقد نستطيع أن نرى ملامح هذا التطور في كثرة المادة وتأثيرها بالنموحضاري وبمجالات السياسة والإدارة وبنمو العلوم الأخرى وبالتمزق السياسي كما نرى تلك الملامح في ظهور أنواع من تواريخ المدن والأسر والسير والمذكرات والقصص .

١ - تكاثر المادة في الكمية

أبرز ما طرأ على مادة التاريخ هو **الكثرة والوفرة** ، السكرّة في عدد المؤلفات والوفرة في كمية المادة المدونة وفي تنوعها . وإذا كانت كثرة المؤلفات ناجمة عن دخول الكثيرين ميدان التاريخ بالثبات فإن وفرة المادة المدونة قد جعلت تلك المؤلفات تتضخم تدريجياً إلى أحجام كبيرة رغم ما يعترضها من ارهاق النسخ ، وبعد أن كان التأليف التاريخي في القرنين الأول والثاني لا يتجاوز أحياناً كثيرة رسالة من بعض ورقات صارت مؤلفات القرن الثالث خاصة كتبآ من عدة

مئات من الأوراق ثم جاء الطبرى في نهاية هذا القرن ليكرس تقليداً جديداً^١
سوف يستمر من بعده يجعل كتب التاريخ في عدّة ألوف من الأوراق وعادة
أجزاء ضخمة ، وليس يقتصر هذا التضخم على كتب التوارييخ العالمية الجامحة
ولكنه قد يصيب أحياناً كتب توارييخ المدن أو الأسر والنسب والترجمـ أو حتى
بعض الفترات المحدودة من التاريخ التي قد لا تزيد على عشرات من السنوات ،
كما قد تصيب كتب القصص التاريخي المرسل أو بعض التاريخ الحضاري ...

وهكذا فقد كتب المسعودي في القرن الرابع كتاب أخبار الزمان في ثلاثة
مجلدات ثم اختصره في أربع مجلدات هي مروج الذهب . ولعل ضخامته قد كانت
السبب الأساسي في ضياعه فلم يبق منه سوى المجلد الأول . وقد كتب أبو
الحسن علي بن عيسى بن الفرج الربعي الرهيري النحوي المتوفى سنة ٤٢٠/١٠٢٨
أو كتب المجاشعي أبو الحسن بن فضال القيراني (المتوفى سنة ٤٧٩/١٠٨٥)
كتاب الدول ، رآه ياقوت في الوقف السلجوقى ببغداد في أكثر من ثلاثة
مجلدات^(١) ولأن كتب ابن الجوزي في القرن السادس تاريخه العام المنتظم في
مجلدات وطبع نصفه وأعقبه ابن الأثير بتاريخه الكامل في ١٢ مجلداً فيقي إلى
اليوم وطبع فان سبط ابن الجوزي ألف مراة الزمان في ٤٠ مجلداً هي مبعثرة
المخطوطات اليوم في أنحاء الدنيا ولم يطبع منها سوى قسم محدود .

وقد حظيت توارييخ المدن بدورها بالضخامة الواسعة بما حملته من مفهوم
« الترجم » الذي حوطها من تاريخ سياسي – عمراني إلى تاريخ للرجال من عرروا
تلك المدن ولادة أو نزولاً أو زيارة وهو نوع لا يناسب من الأسماء والعلومات .
وهكذا كتب الخطيب البغدادي على أساس الترجم تاريخ بغداد في ١٥ مجلداً
فكانت مطلع سلسلة من الكتب حول بغداد كتب حلقاتها عدد من المذيلين منهم
السعاني الذي وضع الذيل الأول في ١٥ – ٢٠ مجلداً وابن النجاشي ذيل في
١٧ مجلداً حتى جاء ابن الفوطي في النهاية بذيل من ٥٥ مجلداً ... وتفرد ابن

(١) انظر ياقوت – معجم الأدباء ج ٥ ص ٢٨٩ .

المارستانية أبو بكر عبيد الله بن علي التيمي الفقيه الطبيب (المتوفى سنة ٥٩٩ / ١٢٠٣) فكتب : ديوان الاسلام الاعظم في تاريخ مدينة السلام (بغداد) في مائة مجلد . ولعله لم يتمه وحال الموت بيته وبين التمام .

وقد مؤرخو المدن الآخرون تواريخ بغداد في الضخامة فكتب ابن عساكر تاريخ مدينة دمشق في ثمانين مجلدة . وكتب السمعاني تاريخ مرو في عشرين وكتب النسفي عمر بن محمد (المتوفى سنة ٥٣٧ / ١١٤٢) كتاب (القند) في تاريخ سمرقند) في عشرين مجلدة أيضاً . وكتب العباسي الخوارزمي مظهر الدين أبو محمد محمود بن محمد الاسلامي (المتوفى سنة ٥٦٨) ثمانين مجلدات في تاريخ خوارزم ...

وإذا كانت الترجم هي التي تمد هذه المؤلفات بالرفد وتساعدها على التضخم فإن بعض المؤلفات التاريخية لم تكن في حاجة إلى الترجم ولا كانت في حاجة إلى شمول التاريخ العالمي العام كي تتضخم وتحتل المجلدات بالعشرات . بعض المؤلفين كانوا من الخصب ومن الولع بالتفاصيل والوثائق بحيث قدموها عدداً من التواريχ الضخمة لفترات محدودة من الزمن وأحياناً في منطقة محددة أيضاً . فقد كتب هلال الصابيء (المتوفى سنة ٤٤٨) تاريخ قرن تقريباً (ما بين سنى ٣٦٣ - ٤٤٧) في ٤٠ مجلداً بقى منها واحد . وكتب العماد الأصبغاني اقامته في الشام مع صلاح الدين (٥٨٩ - ٤٦٢) في سبع مجلدات سمها البرق الشامي . بل كتب أبو الفضل محمد بن الحسين البيهقي (المتوفى سنة ٤٧٠ / ١٠٧٧) تاريخ بيهق خلال فترة لا تزيد عن نصف قرن في ثلاثة مجلدة بقى منها خمس فقط (بالفارسية) .

وإذا كانت مصر إقليماً لا مدينة فقد تميزت بأن تواريختها المحلية كانت في الغالب تواريχ اقليم لا تاريخ مدينة (الفسطاط أو القاهرة) وقد كتب الوزير المسيحي تاريخ مصر حتى مطالع القرن الخامس في ٢٦ ألف صفحة .

وسرت العدوى ذاتها إلى كتب المعلومات التاريخية على اختلافها وهكذا

صرنا نرى : كتاباً في الأخبار التاريخية المرسلة مثل كتاب نشوار المحاضرة للتنوخي يزيد على احدى عشرة مجلدة ، وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني يبلغ إحدى وعشرين ! وكتاب تاريخ القراء لابن العطار (المتوفى سنة ٥٦٨) يصل إلى عشرين مجلداً . وإذا كتب الشاعري كتاب يتيمة الدهر في أربع مجلدات لتأريخ الشعر والأدب فان بعض ذيوله مثل كتاب خريدة القصر للعماد الأصبهاني وكتاب زينة الدهر للحظيري أبي المعالي (المتوفى سنة ٥٦٨ / ٦٥٤) بلغ كل منها عشر مجلدات . وقد كتب ابن الشاعر الموصلبي (المتوفى سنة ١٢٥٦ / ٦٥٤) في القرن التالي عشر مجلدات في تاريخ أدباء عصره سماها (عقود الجمان) .

وسمحت الأنساب وفروعها وعلاقتها لعلماء النسب في التوسع وهكذا كتب السمعاني ثماني مجلدات في (الأنساب) وكتب ابن القاضي الزيدي (المتوفى سنة ٥٩١) كتابه نزهة عيون المشتاقين في عشر مجلدات . وكتب أبو طالب الماشمي العباسي (المتوفى سنة ٦٢١) (الحاوي لأنساب الناس) في أكثر من عشر . وأمّا المروزي اسماعيل بن الحسين العلوي (المتوفى سنة ٦٣٢) فكتب : (حظيرة القدس) في الأنساب في ستين مجلدة .

٢ - تنوع المادة مع الازدهار الحضاري

وكما تضخم المؤلفات تنوعت المعلومات التاريخية وتعددت المواضيع المطروقة التعدد الواسع . شعر الناس أن كل شيء يستحق أن يسجل ويكتب من جهة وأن الحياة السياسية أصبحت تراثاً طويلاً من جهة أخرى . كما شعوا بارتباط التاريخ مع العلوم وال المعارف الأخرى فأطلقوا بها عليه . وهكذا بينما دخل – وعلى نطاق واسع – ما نستطيع أن نسميه التاريخ الحضاري على أبحاث التاريخ الإسلامي تأثر التاريخ بالمقابل سواء بمحاجات التنظيم السياسي أو بمختلف أنواع العلوم المجاورة له ومن هذا وذاك وأولئك كانت له ثروة هائلة من المعلومات لم يعرفها تاريخ أمة من قبل .

وقد عدد الذهبي ما سماه «فنون التاريخ» التي تدخل في تاريخه الكبير المحيط : تاريخ الاسلام . ولم ينهض لها على حد قوله - ولو عمله ، على أساسها بلاء في ٦٠٠ مجلد^(١) - فجعل تلك الفنون «أربعين» فناً ونوعاً يشكل تاريخ السيرة والآئية والصحابة والخلفاء والملوك خمسة فنون منها أما باقي الفنون فانما تتعلق تارة بتاريخ التنظيم السياسي (تاريخ الوزراء . تاريخ الأمراء والأكابر ونواب المالك والولاة وكبار الكتاب) أو بتاريخ الحضارة (تاريخ البخلاء وتاريخ التجار وتاريخ أولي الصنائع العجيبة . وقطاع الطريق . ولعب الشطرنج والردد والقمار وتاريخ الملائحة والشاق وشربة التحمر وأهل الملاعة وأولي الدهاء والمخثين وأهل المجون وعقلاء المجانين وتاريخ السائلة والشاذين والوراقين والقصاصين والنذماء والأذكياء والمطربين ... وتاريخ الرهبان وأولي الصوامع . وعجائب الأسفار والشجعان والفرسان والشطار والسعاة ...) أو تتعلق بالعلوم والعلماء (تاريخ الفقهاء . الحفاظ . النحو . القضاة . الوعاظ . الأطباء . الفلسفه المتكلمين . الشيعة . الخوارج ...) وإذا كان الذهبي متأنراً عن العصر الذي ندرس حوالى القرن مما قد يمنع من الاستشهاد بتوزيعه التاريخي فإن الاعتراض ينتفي إذا ذكرنا أن كافة فنون التاريخ التي صنف وعدد إنما كانت موجودة معروفة قبله بقرون وقد توطدت وألف الناس فيها أو في معظمها منذ القرن الثاني والثالث الهجريين ثم انتشرت في القرون التالية .

فاما في نواحي الحضارة والحياة فإن بلوغ المجتمع الاسلامي في القرن الثالث والرابع أوج تطوره وفاعليته الحضارية أوجد حاجات فكرية مستجدة عليه ، وقد انعكست هذه الحاجات ، في إنتاجه الفكري وفي الكتب التي ألفها الناس وتداولوها وكلها تدور حول كبير في نطاق التاريخ .

وإذا أفرز الخيال الشعبي قصصاً خيالياً يمتد بين الأسطورة وبين ألف ليلة وليلة فإنه أنتج بين هذا وذاك قصصاً تاريخياً أيضاً غرضه الأسмар والتثقيف

(١) لا يوجد هذا النص في تاريخ الاسلام الكبير للذهبوي وإنما ذكره السخاوي نقلاً عن ابن حجر . انظر السخاوي - الاعلان (ط . روزنثال) ص ٥١٨ - ٥٢٢ .

والوعظ والتبيسيط . وقد ذكر ابن النديم عشرات من هذه المؤلفات القصصية التاريخية التي كان يشارك أحياناً في تأليفها بعض المؤرخين المعروفين كعمر بن شبة والهيثم بن عدی وأحمد بن أبي طاهر والجهمي . أو كانت تنسب إلى مؤرخين معروفين كقصص الفتوح المنسوبة للواقدي أو يضعها الوراقون والمصنفوون بأسماء وهمية .

وقد ذكر ابن النديم قول محمد بن اسحق : « كانت الأسمار والخرافات مرغوباً فيها ومشتهاة في أيام خلفاء بني العباس وسيما في أيام المقتدر (٢٩٥) - (٣٢٠) فصنف الوراقون وكذبوا ... »^(١)

وهكذا ظهرت قصص عنترة ، والنعمان ، والأميرة ذات الهمة من المؤلفات الكبرى الواسعة وقصص العشاق والمحروب القبلية العربية وشيبان مع كسرى أنو شروان من المؤلفات المحدودة . وهي تحوي من الجو الاجتماعي لتلك العصور ما لا تحويه كتب التاريخ نفسها .

وإذا لم يكن الخاصة بالذين تفتنتهم مثل هذه الأخيلة الشعبية فقد كانت لهم بدورهم مؤلفاتهم الخاصة للأسمار والمنادمة . ويلفت النظر أن يحاول الجهمي خاصية (المتوفى سنة ٩٤٣ / ٣٣١) من رجال البلاط تأليف كتاب للسمر يختار له ألف سمر من أسمار العرب والعجم والروم . كل جزء يقوم بذاته ليلة كاملة في خمسين ورقة . وقد كتب في ذلك ٤٨٠ ليلة أي ٤٨ ألف صفحة وتوفي قبل أن يكمل مشروعه^(١) الذي ضاع من بعده . وكان العمود الفقري في هذه الأسمار هو التاريخ دون شك . ويمكن أن يدخل في هذا الباب نفسه ذلك القصص التاريخي الحر الذي كان يؤلف ويروى عن المتصوفة والزهاد وعن التوادر أو الأجوية المسكتة أو أخبار الغلمان والجواري والنساء ... الخ ، وما كتبه التنوخي مثلاً في كتبه : (الفرج بعد الشدة) و (المستجاد من فعلات الأجواد) والكتابان

(١) ابن النديم - الفهرست ص ٣٠٨ .

(٢) ابن النديم - الفهرست (من ٣٠٦) .

مطبوعان ، وما كتبه هو نفسه في المجلدات التي تزيد على العشرة والتي سماها نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، وما كتبه ابن ظافر عن بدائع البدائة وما كتبه غرس النعمة عن (المفوat النادرة) وما كتبه المقدس عن (التوأمين) وكتبه ابن الجوزي عن (عقلاء المجانين) وعبد القاهر بن علوى المعرى في (نزة الناظر وروضة الخاطر)^(١) وأبو العلاء محمد بن محمود النيسابوري في كتاب (سر السرور)^(٢) وغيرها كثيرة . وكلها من حكايات التاريخ المرسلة التي تتحدث عن « تاريخ ما أهمله التاريخ » من حياة الناس العاديين أو الطبقات المترفة على السواء ... ويدخل في هذا الباب بعض الكتب الجنسية أيضاً وكتب الاتهار والضحك . ومن ذلك :

– كتب أبي حسان محمد بن حسان النعمي ، من أيام التوكيل ، ومنها :
كتاب برجان وصاحب أخبار النساء والباء . كتاب البغاء وكتاب السحق ...^(٣)

– كتب الكتبجي ومنها : كتاب جامع الحماقات وأصل الرقاعات .
كتاب الملح والمحمقين . كتاب المخرقة . كتاب الصفاعة...^(٤)

– كتب ابن الشاه أبي القاسم علي بن محمد الظاهري . وكان أديباً مفاكهها في نهاية الظرف قوله : كتاب أخبار الغلمان . كتاب أخبار النساء .
كتاب عجائب البحر^(٥)

– كتب جراب الدولة أحمد بن محمد بن علوة السجزي وكان طبوريأً من الظرفاء والمتطايبين ويلقب بالريح . قوله : كتاب النوادر والمضاحك

(١) انظر ابن الديم - بقية الطلب (خطوط فيض الله رقم ١٤٠٤) ورقة ٢٥٠ وجه .

(٢) المصدر نفسه - خطوط أحمد الثالث ج ٥ ورقة ٣١١ ظهر و ٣١٣ ظهر .

(٣) ابن الديم - الفهرست ص ١٥٢ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٥٣ .

(٥) المصدر نفسه ص ١٥٣ .

في سائر الفنون والتوادر وقد سماه : ترويج الأرواح وفتح السرور
والأفراح وهو كتاب كبير جعله فنونا ...^(١)

— كتب أبي العبر الهاشمي محمد بن أحمد بن عبد الله بن العباس
(المقتول سنة ٢٥٠) ومنها كتاب سماه جامع الحماقات ومأوى الرقاعات .
كتاب المنادمة وأخلاق الخلفاء والأمراء^(٢) .

— كتب الصيمرى أبي العنبس محمد بن اسحق البصري وكان من أهل
الفكاهة والمعرفة بالنجوم وقد أدخله المتكلم في جملة ندمائه وظل من
ندماء البلاط في أيام المعتمد ومن كتبه : نوادر القواد . نوادر الحوصي .
كتاب الراحة ومنافع العبارة . كتاب الدولتين في تفضيل الخلافتين .
كتاب الجوابات المسكتة . كتاب السحاقات والبعامير . كتاب مساوي
العوام وأخبار السفلة الأغتاب . كتاب أخبار أبي فرعون كندر بن
جحدر...^(٣)

— كتب المنادى الذي وضع : كتاب الهمج والرعام وأخلاق العوام .
كتاب نوادر الغلمان والخصيان^(٤) .

— كتب الحكيمى أبي عبد الله محمد بن أحمد ، وكان من الأنباريين ومن
كتبه : حلية الأدباء وهو كتاب أخبار . كتاب الفكاهة والدعابة...^(٥)

— كتب أبي العيناء ، أبي عبد الله محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر الهاشمى.
(المتوفى سنة ٢٨٣ / ٨٩٦) عن ٩٢ سنة . وهو بصري الأصل ومن

(١) ابن النديم — الفهرست ص ١٥٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٥٢ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٥٢ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٥٣ .

(٥) المصدر نفسه ص ١٥١ .

ندامي المتوكل . كتب كتاباً في نوارده باسم أخبار أبي العيناء روى فيه بعض القصص الحمقاء التي عاشها . وهو من أقدم من صنف في ذلك وكان كتابه أساساً لكتاب ابن الجوزي بعده بثلاثة قرون : كتاب الحمقى والمنفلين (وقد نشر في دمشق سنة ١٣٤٥) .

— كتب ابن خلاد الراهنمي أبي محمد المحسن بن عبد الرحمن القاضي . ومن رواة الشعر والأدب والأخبار وله كتاب ربيع العقيم في أخبار العشاق . وكتاب النوارد والشوارد كتاب أدب الموائد . كتاب المناهل والأعطان والحنين إلى الأوطان ...^(١)

— كتب عبيد الله بن أحمد بن أبي طاهر ومنها : كتاب المظفرات والمظفرات^(٢) .

هذا إلى كتب بالعشرين ألقت في هذه المواضيع من مثل : كتاب المؤثر في ملح الخدور لأبي القاسم الحسين بن علي المغربي الوزير الفاطمي^(٣) وكتاب المجالسة وجواهر العلم لأبي بكر أحمد بن مروان الدينوري (المتوفى سنة ٣١٠ ٩٢٢) وهو قصص ومقامات في ٤٧ باباً ومحفوظة موجود في باريس ودمشق . وكتاب هوائف البختان وعجب ما يحكي عن الكهان لأبي بكر محمد بن جعفر ابن سهل الحرائطي السامراني الذي قدم من دمشق سنة ٣٢٥ وتوفي سنة ٣٢٧/٩٢٨ والذي كتب أيضاً كتاب اعتلال القلوب في أحاديث المحبة والمحبين ... ومنه مخطوطة في القاهرة^(٤) وكتاب عقلاه المجانين للحسن بن محمد بن الحسين التيسابوري (المتوفى سنة ٤٠٦ / ١١١٥) وكان عالماً باللغاري والقصص والسير

(١) المصدر نفسه ص ١٥٥ .

(٢) ابن النديم - النهرست ص ١٤٧ .

(٣) انظر ابن الصديع - بغية الطلب (مخطوط فيilen آلة ١٤٠٤) ورقة ٢٥٩ ظاهر ، ورقة ٩٤ وجه ومحفوظة أسد الثالث ، ج ٧ ورقة ٢٩٢ ظاهر و ٢٩٣ وجه .

(٤) انظر بروكلمان (الترجمة العربية) ج ٣ ص ١٣٨ .

وكتابه هذا نشر في دمشق سنة ١٩٢٤^(١)

هذا إلى كتب عديدة في الجو نفسه كتبت في القرون التالية وتقع بين قصص السمر وبين التاريخ ونعود فنلتقي فيها بما كنا أسميناه بالتاريخ الحر أو سمر الخاصة ومن ذلك ما كتبه :

— غرس النعمة محمد بن هلال الصابيء (المتوفى سنة ٤٨٠) فله بجانب كتاب المفوّات النادرة (المطبوع) كتاب الريّبع الذي نجد مقتطفات منه لدى ابن العديم^(٢).

— ابن عقيل أبو الوفا علي الظفري البغدادي (المتوفى سنة ٥١٣) وكان الرجل قمة في الفقه وفي الخصب الفكري بحيث خلط جميع معارفه في الفقه والتاريخ والأخبار والشعر في كتاب واحد سماه (الفنون) ... رأى منه بعض العلماء المجلد كذا بعد الأربعينات^(٣). ولم يبق من الكتاب سوى مجلد واحد (طبع قسماً منه جورج المقدسي — بيروت سنة ١٩٧٠).

— الخطيري أبو المعالي سعد بن علي دلال الكتب (المتوفى سنة ٥٦٨) وبين كتبه كتاب : لمح الملح وهو مخطوط موجود.

— البسطامي ضياء الدين أبو شجاع عمر بن محمد (المتوفى سنة ٥٦٢) وله : لقطات العقول.

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ١٤٨ - ١٤٩ .

(٢) ابن العديم — بنية الطلب (مخطوط أحمد الثالث) ج ٢ ورقة ٦٢ ظهر وورقة ٢٠٣ ظهر وج ٣ ورقة ٢٨٧ وجه وج ٤ ورقة ٩٣ وجه ... الخ .

(٣) انظر ابن الحشبي — شذرات النهجب ج ٤ ص ٣٥ - ٤٠ . والذهببي هو الذي يبروي خبر عدد المجلدات في كتاب الفنون وأبن الجوزي يجعلها مائتين بينما يجعلها بعضهم ثمانين . ويعلق الذهببي على ذلك . أنه لم يصنف في الدنيا أكبر من هذا الكتاب .

— الشيرازي أبو القاسم مسلم بن محمود (المتوفى أواخر القرن السادس) وله : عجائب الأسفار وغرائب السير .

— الأزدي أبو منصور ظافر بن حسين (المتوفى سنة ٥٩٧) وقد كتب تاريخ الشجعان .

— جمال الدين محمد عوض المتوفى بعد سنة ٦٣٣ . وقد كتب لباب الألباب وجوامع الحكايات (وهما مطبوعان) .

أما الذي أوفى على الجميع في هذا الباب وجعله جانباً هاماً من نشاطه الفكري ومن تأليفه فهو :

— ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن (سنة ٥٩٧) ففي قائمة كتبه التي تزيد على ٨٠٠ مؤلف نجد مجموعة واسعة من الكتب من عناوينها : أخبار الأذكياء (مطبوع) ؛ الظراف والتماجنون (مطبوع) ؛ عيون الحكايات (مجلدان) . ملتفط الحكايات (مجلد) ؛ تلبيس البليس (مطبوع) كتاب القصص (مجلد) كتاب صيد الخاطر (٣ مجلدات) . كتاب الأنس والمحبة ، كتاب البر والصلة ، كتاب فتوح الفتوح ، كتاب ملح الأعاريب ، كتاب فضائل العرب ، كتاب تنوير الغبش في فضل السودان على الحبشي ... الخ^(١) .

ولم تكن الكتب المتعلقة بالغناء والطرب بأقل من ذلك انتشاراً وإثارة للاهتمام . فإذا نحن وضعنا جانباً ذلك الصرح التاريخي الضخم الذي أقامه أبو الفرج الأصبهاني في كتابه الأغاني وهو تراث كامل في تاريخ هذا الفن في الإسلام غطي على المؤلفات الأخرى ومحاها كما غطي تاريخ الطيري على مؤلفات من سبقه في التاريخ فإن المؤلفات في الغناء وتاريخه وفي الطرب والطنبورين وفي الخمر والشراب كثيرة ومن ذلك :

(١) انظر القائمة الكاملة في كتاب ابن الجوزي لمبد المجيد الملوجي ونجد جانباً منها كبيراً لدى سبط ابن الجوزي - مرآة الزمان ج ٨ ص ٤٨٢ - ٤٨٩ .

- كتب اسحق بن ابراهيم الموصلي : (١٥٠ - ٢٣٥) وهو من رجال أيام ما بين الرشيد والواثق ، ولكن تلك الكتب كانت ثروة الناس من بعد في بابها . كان راوية واسع الاطلاع ترك ما يزيد على عشرة كتب في أخبار مشاهير المغنين (عزبة الميلاء . ابن مسحح . حنين الحيري . الأبيحر . الغريض . ابن سريح . ابن عائشة . ابن صاحب الوضوء . معبد ... الخ). كما أن له كتب : الاختيار من الأغاني كتبه للواثق . كتاب الشراب . كتاب الرقص والزفن . كتاب التدماء . كتاب المذامات . كتاب قيام الحجاز . كتاب القيام . كتاب النوادر المتخيصة . كتاب الاختيار في النوادر ... وأما أهم كتبه فهو كتاب الأغاني . وكان بين الأيدي في تلك الفترة كتابان ينسسان بهذا الاسم إلى اسحق : واحد من تأليفه فيما يظهر يروي أخبار المغنين واحداً واحداً ، وثانٍ يدعى بالأغاني الكبير ، ويدرك ابن النديم أنه موضوع من قبل أحد الوراقين المسماى سندى بن علي وكان يورق لاسحق فاتفق هو وشريك له على وضع الكتاب الذي أصبح يعرف بكتاب الشركة وكان في أحد عشر جزءاً^(١).

- كتب أبي حشيشة : محمد بن علي بن أمية الكاتب ، وكان طنبورياً حاذق الصنعة وله كتاب في أخبار الطنبوريين^(٢).

- كتب جحظة أبي الحسن أحمد بن جعفر من نسل خالد بن برمك وهو شاعر مغنٌ طنبورى حسن الأدب « وقد لقي العلماء والرواة وأخذ عنهم » توفي سنة ٣٢٦ وله : كتاب الطنبوريين . كتاب النديم . كتاب المشاهدات . كتاب ما شاهده من أمر المعتمد .

- كتب أبي أيوب المديني : سليمان بن أيوب ، من أهل المدينة من

(١) ابن النديم - الفهرست من ١٤٠ - ١٤١ .

(٢) ابن النديم - الفهرست من ١٤٥ .

الظرفاء العارفين بأخبار المغنين ، وله في ذلك – كما يقول ابن النديم عدّة كتب منها : أخبار عزة الملائكة . كتاب قيام الحجاز . كتاب قيام مكّة . كتاب طبقات المغنين . كتاب المزاهين . كتاب أخبار ظرفاء المدينة . كتاب أخبار ابن عائشة . كتاب أخبار حنين الحيري . كتاب ابن سريج . كتاب الغريض . كتاب ابن مسجع ...^(١)

– كتب السرخيسي أبي الفرج أحمد بن الطيب وهو أدب كثير الرواية . وله من الكتب : كتاب أدب الملوك وكتاب الدلالة على أسرار الغناء^(٢) .

– كتب ابن خرد ذبه أبي القاسم عبد الله بن أحمد . كان يتولى البريد للخليفة المعتمد كما كان من ندامائه المختصين به وله من الكتب : كتاب الشراب . كتاب الندماء والجلساء . كتاب اللهو والملاهي . كتاب أدب السماع ...^(٣)

– يحيى بن أبي منصور الموصلي . وكتبه كانت واسعة الانتشار في القرن الرابع ومنها : كتاب الأغاني ، الذي عمله على الحروف الأبجدية . وكتاب العود والملاهي ...^(٤) .

– كتب ابن المرزبان أبي عبد الله محمد بن خلف . وكان حافظاً للأشعار والأشعار والملح وقد كتب : كتاب المتيمين المخصوصين . كتاب الشراب ويحتوي على عدّة كتب . كتاب الروض . كتاب الجلساء والنديمة . كتاب النساء والغزل . كتاب أخبار العرجي . كتاب ذم الحجاب . كتاب ذم التقلاء . كتاب المدايا^(٥) .

– كتب الكسروي علي بن مهدي ، وكان أدبياً حافظاً متصللاً بمحاشية

(١) المصدر نفسه ص ١٤٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٤٩ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٤٩ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٤٩ .

(٥) المصدر نفسه ص ١٤٥ .

- الخلفاء العباسين في القرن الرابع ومن كتبه : كتاب الأعياد والنوازير .
كتاب مراسلات الانحصار ومحاجات الخلان^(١).
- كتب ابن بسام علي بن محمد الشاعر وهو من الظفراء الكتاب وله من الكتب : كتاب الزنجين وهم المعاقرنون^(٢).
 - كتب أبي اسحق ابراهيم بن أبي عون المنجم ، وكان من أهل الأدب وان يكن محرق الدين . وقد ألف كتاب الجوابات المسكتة . وكتاب بيت مال السرور^(٣).
 - كتب حماد بن اسحق الموصلي ومنها : كتاب الأشربة . وكتاب أخبار الندامى^(٤).
 - كتب حمدون بن اسماعيل الكاتب ومنها كتاب النداء والخلساء^(٥).
 - كتب يونس بن سليمان الكاتب المعروف بيونس المغنى ، وكانت له كتب مشهورة في الأغاني والغناء منها كتاب القيآن^(٦).
 - كتب ابن بانة عمرو بن محمد . وكان من نداءات المتكفل وقد توفي سنة ٢٧٨ وله كتاب : مجرد الأغاني^(٧).
 - كتب النصيبي حسن بن موسى ، وقد ألف للمتكفل كتاب الأغاني على

(١) المصدر نفسه ص ١٥٠ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٥٠ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٤٧ .

(٤) المصدر نفسه ص ٢ - ١٤٣ .

(٥) المصدر نفسه ص ١٤٤ .

(٦) المصدر نفسه ص ١٤٥ .

(٧) المصدر نفسه ص ١٤٥ .

حروف المعجم وذكر فيه أشياء لا يعرفها غيره وذكر من أسماء المغنين والغنيات في البلاهيلية والاسلام كل طريف وغريب وله كتاب مبهرات الأغاني ...^(١).

- كتب أبي الحسن علي بن هارون وكان راوية للشعر أدبياً ظريفاً نادم جماعة من الخلفاء إلى أن توفي سنة ٣٥٢ وعمره خمس وسبعون سنة. وله من الكتب : كتاب النوروز والمهرجان . وكتاب ناقض به أبو الفرج الأصبهاني .

هذا إلى كتب قريض الجراحى المغنی (المتوفى سنة ٣٢٤) في (صناعة الغناء وأخبار المغنين) وكتب الحافظ : رسالة القیان ، طبقات الندماء والمغنين عند الفرس والاسلام (ضمن كتابه الناج في أخلاق الملوك) وكتابه (طبقات المغنين) الذي طبع مع مجموعة رسائله ، وكتاب الطنبوريين والطنبوريات لعلي بن الحسين ابن علي بن كوجك العبسى الحلبي الذي نقل عنه ابن العديم^(٢) ، وكتاب شعار الندماء لأبي الحسن محمد بن أحمد الأفريقي^(٣) وكتاب جامع الفنون وسلوة المحزون في ذكر الغناء والمغنين لأبي الحسين بن الطحان^(٤) من القرن الرابع وكتاب أبي العباس أحمد بن أحمد بن علي بن بابه الكاشي (المتوفى سنة ٥١٠) واسمه رأس مال النديم وهو مخطوط في مكتبة بنتة (المند) رقم ٢٢٤٧ وكتاب ابن حموية الجوني أبي المظفر يوسف بن محمد الدمشقي (المتوفى سنة ٦٤٧ / ١٢٤٩) واسمه تقويم النديم وعقبى النعيم المقيم وهو مخطوط بدار الكتب في القاهرة .

ويدخل في باب هذه الكتب التاريخية الحضارية دون شك كتب الديارات

(١) المصدر نفسه ص ١٤٥ .

(٢) ابن العديم - بقية الطلب (مخطوط أحمد الثالث) ج ٨ ورقة ١٣٩ وجه .

(٣) المصدر نفسه . مخطوط ج ٨ ورقة ٥٩ وجه .

(٤) المصدر نفسه . مخطوط ج ٨ ورقة ١٩٤ ظهر ، ج ٧ ورقة ٦٥ ظهر .

التي كانت تجمع أخبار الغناء وال فهو والندامى والأعياد ... وكانت مادة من مواد التأليف التاريخي الأثيرة إلى الكثيرين . ولعل أقدم كتاب فيها إنما كان : كتاب الحيرة وتسمية البيع والديارات ونسب العباديين لشام ابن محمد الكلبي (ت ٢٠٤ / ٨١٩) وقد ضاع .

ونعرف بعده :

- كتاب الديارات لأبي الفرج الأصفهانى ، وهو ضائع بدوره ، وإنما ذكره له ابن خلkan والصفدي وساجي خليفة^(١) ، وقد نقل عنه البكري في معجم ما استجم ونقل ياقوت في البلدان وابن فضل الله العمري^(٢) في مواضع كثيرة .

- كتاب الديرة للسري الرفاء الموصلى (المتوفى سنة ٣٦٢ / ٩٧٢) وقد ذكره ياقوت وابن خلkan .

- كتاب الديارات الخالدین الأخوين أبي بكر محمد وأبي عثمان سعيد شاعري سيف الدولة وخازنی كتبه وقد توفيا في أواسط القرن الرابع (٣٨٠ و ٣٥٠) .

- الأديرة والأعمار في البلدان والأقطار . للشمشاطي (أو السعيساطي) أبي الحسن علي بن محمد بن المظفر العدوى من حاشية الحمدانين في المائة الرابعة (توفي سنة ٣٨٠) . ذكر ابن النديم أنه يعاصره^(٣) وقد وصف في كتاب الرجال التجاشي بأنه أكبر كتاب عمل (في موضوعه) فيه

(١) انظر ابن خلkan - الوفيات ج ٣ ص ٣٠٨ الصفدي - الروايج ١ ص ١١٨ (ط . ريتز)
ساجي خليفة - كشف الظنون ج ١ ص ٧٦٢ .

(٢) انظر البكري - معجم ما استجم (ط . غوتنغن سنة ١٨٧٦) مثلاً ص ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٥ ... الخ . وانظر العمري - مالك الأبسار ج ١ ص ٢٦٩ ، ٢٦٢ ، ٣٠٨ ... الخ .

(٣) ابن النديم - الفهرس ص ١٥٤ وانظر هدية المارفرين ٢ ص ٦٨٣ .

بضعة وثلاثون ديراً وعمرأً . ونقل عن هذا الكتاب ابن العديم^(١)
ويسميه كتاب الأديرة وقد رأه بخط المؤلف .

- كتاب الأديرة لمحمد بن الحسن بن رمضان التحوي - وقد أشار إليه
ابن النديم^(٢) ونقل عنه ياقوت .

- كتاب الأديرات لأبي الحسن علي بن محمد المعروف بالشاباشي (المتوفى
سنة ٣٨٨ / ٩٩٨) وهو أشهر هذه الكتب ، والوحيد بينها الذي وقع
في أيدينا وقد طبع أكثر من مرة (بتحقيق كوركيس عواد منذ سنة
سنة ١٩٥١) . ونجده فيه من الآباء والأحداث التاريخية ما لم يستخلص
لكان مؤلفاً في الأخبار والتراجم والتقاليد الاجتماعية وفي آباء الموسيقى
والغناء والتصوير والطعام واللباس والزيارة وأساليب العيش وأمر الأدباء
والندمان والوزراء والمعزين في ذلك العصر عدا قيمته البلدانية والأدبية .

واستمر التأليف في الأديرة بعد ذلك ولكن على ضعف . ومن ألف فيها :

- ابن بطلان : أبو الحسن المختار بن عبدون الملقب بـ «يوانس الطيب»
(المتوفى بعد سنة ٤٥٥ / ١٠٦٢) وقد كتب كتاباً عن الأديرة والرهبان .
وعلمه من هذه الرسالة ثلاثة نسخ مخطوطة على الأقل .

- أسامة بن منقد الأمير الشيزري (المتوفى سنة ٥٨٤) فإن له بين مؤلفاته
التي تبلغ ٢٤ مؤلفاً كتاب المنازل والأديرة .

ويدخل في باب التاريخ الحضاري ما كتب المؤلفون منذ القرن الثالث
المجري حول أخبار المدن والتحف وهو موضوع راج الرواج الكبير في
القرن الرابع ، مع استحضار الحضارة . ومن المؤلفات في ذلك :

(١) النجاشي - الرجال ص ١٨٧ . وانظر ابن العديم - بثية الطلب (مخطوط أحمد الثالث) ج ٨
ورقة ٢٢٠ ظهر وورقة ٩١ وجه وورقة ١٧٠ ظهر .

(٢) ابن النديم - الفهرس ص ٨٤ .

- كتاب الهدايا المنسوب للجاحظ (٢٥٥) وقد ذكره ياقوت^(١) وأضاف أنه منحول . ولكن الكتاب على أي حال كتب ووجد من قبل مؤلف مجهول .
- كتاب الهدايا للمؤرخ الشاعر أبي الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور ذكره ابن النديم^(٢) .
- كتاب الهدايا والسنّة فيها للفقيه الحنفي ابراهيم بن اسحاق الحربي ذكره ياقوت^(٣) .
- كتاب الهدايا لأبي عبد الله محمد بن خلف بن المرزبان (٣٠٩) البغدادي . ذكره ابن النديم^(٤) .
- كتاب الهدايا لأبي بكر بن المازبان (ولعله المؤلف السابق نفسه) وقد وصلنا مختصر منه . بعنوان منتخب من الهدايا في إحدى عشرة ورقة وهذا مختصر في ليدن .
- كتاب الهدايا الذي نسبه ابن النديم لمجهول سماه بالحنديسابوري^(٥) .
- كتاب التحف والهدايا من تأليف الأخوين أبي بكر محمد ، وأبي عثمان سعيد ابني هاشم الخالدين وقد توفي الأول سنة ٣٨٠ في أغلب الظن وتوفي الثاني بعده سنة ٣٩٠ . والكتاب في أحد عشر باباً تحيي أخبار التحف والهدايا والذخائر الثمينة ومنه أربع نسخ مخطوطة في استامبول والقاهرة . وقد طبع بتحقيق سامي الدهان (دار المعارف — القاهرة ١٩٥٦م) .

(١) ياقوت — معجم الأدباء ج ١٦ ص ١٠٨ .

(٢) ابن النديم — انهرست (ط . فلوجل) ص ١٤٦ .

(٣) ياقوت — الأدباء ج ١ ص ١١٢ .

(٤) ابن النديم — الفهرست ص ١٤٩ .

(٥) المصدر نفسه ص ١٧١ .

- كتاب المدايا وضعه أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى بن سعيد الخراساني . الرواية الكثير السماع (المتوفى سنة ٣٧٧) . ذكره ابن التديم وأضاف أنه كان في ٣٠٠ ورقة وأنه شهد منه نسخة بخطه^(١) .
- كتاب التحف والظرف لابن لبيب غلام أبي الفرج البغاء . والبيغاء شاعر معروف (توفي سنة ٣٩٨) وقد ذكر التعالبي هذا الكتاب في البقية^(٢) .
- كتاب التحف والظرف لابن عفيون . ذكره القرى في نفح الطيب وأضاف أن الكتاب وقع لأبي الحسن ابن زنون وهو أسير ونقل منه^(٣) .
- كتاب التحفة والظرفة لعبد الرحمن بن نصر الدمشقي (من رجال القرن الخامس أو السادس^(٤)) ذكره ابن ظافر الأزدي في بدائع البدائة ونقل عنه بعض الخبر^(٥) .
- كتاب المدايا والتحف مؤلف مجهول من عهد المستنصر الفاطمي (القرن الخامس المجري) كان في حاشية الخليفة ومات بعد سنة ٤٦٣ . وقد نشر الكتاب خطأً بعنوان النهايات والتحف كما نسب خطأً إلى القاضي الرشيد بن الزبير (نشر في الكويت بتحقيق محمد حميد الله سنة ١٩٥٩) . وقد توفي القاضي الرشيد الأسواني سنة ٥٦٢ بينما يذكر المؤلف أنه شهد تحف القصر الفاطمي تباع أيام الشادة المستنصرية (بين سنى ٤٥٧ - ٤٦٤) وشهد رسول البيزنطيين إلى المستنصر الفاطمي .
- كتاب البحماهر في معرفة الجواهر للبيروني وهو ضائع .

(١) المصدر نفسه ص ١٢٢ وياقوت ، الأدباء ج ١٨ ص ٢٧١ .

(٢) الثعالبي - يقية الدهر (ط. مصر) ج ١ ص ٢٠٥ .

(٣) القرى - نفح الطيب (ط. أوروبا) ج ٢ ص ٤٢٤ .

(٤) ابن ظافر - بدائع البدائة (ط. محمد أبو الفضل إبراهيم سنة ١٩٧٠) ص ٣٨٧ .

— كتاب التحف والمدايا للسمعاني تاج الإسلام عبد الكريم بن محمد (المتوفى سنة ٥٦٣ / ١١٦٨) ، وهو ضائع .

— كتاب العجائب والطرف والمدايا والتحف لقاضي الرشيد ابن الزبير الأسواني المقتول سنة ٥٦١ أو سنة ٥٦٢ ، وهو ضائع أيضاً . وقد اختلط أمر هذا الكتاب على ناشر الكتاب السابق الذكر وحسبه إيه .

كما يدخل في باب التاريخ الحضاري كذلك ما كتب من أخبار الفروسية وال Herb و السلاح و الخيل و البذرة و طرق القتال . وقد كان مثل هذه الكتب موجوداً منذ العهد الساساني ، وترجم منها للعربية كتب : الرمي لبهرام جور ، والضرب بالصوالحة ، وتعبيبة الحروب وآداب الأسوارة . وأدب الحروب لازدشير بن بابل . كما كتب مثلاً للمنصور (كتاب آداب الحروب وصورة العسكرية الذي وضعه عبد العباس بن علوي) وكتب للمأمون أيضاً كتاب الحيل للهريمي الشعراوي — وهو مخطوط موجود ^(١) . وقد استمر الخلط نفسه في هذه الكتب ومنها :

— كتاب الخيل والفروسية الذي وضعه محمد بن يعقوب ابن أخي خزام الخيلي وقد نقل عنه ابن العديم ^(٢) .

— كتاب تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب لمرضي ابن علي الطرسوسي ^(٣) .

— كتاب الحروب والسياسة لابن المهندس أبي الفضل الدمشقي (المتوفى سنة ٥٩٩ / ١٢٠٣) وهو ضائع .

(١) انظر حول هذه الكتب : ابن النديم — الفهرست ص ٣٤ - ٣٥ .

(٢) ابن العديم — بنية الطلب (مخطوط أحمد الثالث) ج ٨ ورقة ١٣١ ظهر .

(٣) نشر هذا الكتاب كلود كاهن في نشرة الدراسات الشرقية (المهد الفرنسي بدمشق) سنة ١٩٤٧ - ٤٨ .

— كتاب عمدة السالك في سياسة المالك (وهو في أساليب الحرب) لأبي يوسف المنجنيقي (المتوفى سنة ٦٢٦) وقد ذكره ابن خلkan^(١).

— التذكرة المروية في الحيل الحربية لعلي بن أبي بكر المروي (المتوفي سنة ٦١١ / ١٢١٤) بحلب ، وقد نشر محققاً مرتين (سور ديل — دمشق سنة ١٩٦٠ ، المرابط — دمشق ١٩٧٢).

٣ — أثر الحاجة السياسية والإدارية

وننتقل إلى حاجات التنظيم السياسي والإدارة لنجد أن جهداً متصللاً قد بذل عن طريق التدوين التاريخي لتأصيل وتوطيد المؤسسات التي تقوم عليها الدولة ولتعليم الأجيال اللاحقة ، تجارب الأجيال السابقة . وهكذا فتح على علم التاريخ باب واسع آخر من المعلومات من خلال الكتب التي تتحدث عن الوزراء والمحاجب والكتاب والقضاء والولاة والشرط وكتب الخراج والمحسبة وكتب التعليم السياسي وأخبار كل أو لثالث ، وهي بال什رات ومعظم مواضعها أضحت عنواناً لسلسل طويلة من المؤلفات عبر العصور عصرآ بعد عصر واحتضنت أحياناً بقطر واحد دون قطر ... ففي كتب الوزارة جاءت سلسلة طويلة يبدأها أن أول من بدأها هو :

— أبو عبد الله محمد بن داود بن الجراح (المتوفى سنة ٢٩٦ / ٩٠٨) بتأليفه (كتاب الوزراء)^(٢) وقد كان ابن الجراح نفسه وزير يوم وليلة لابن المعتز خليفة يوم وليلة ! وقد ضاع الكتاب ... كما ضاعت الكتب التي تابعته ، وقد تابعه بالفعل جماعة متواصرون في مطلع القرن الرابع راقهم

(١) ابن خلكان — وفيات ٣٣٦/٣ (ط . بولاق) وانظر كذلك حاجي خليفة — كشف الظنون

ج ٢ ص ١١٦٧ .

(٢) ابن النديم — الفهرس ص ١٢٨ .

الموضوع الجديد فاندفعوا يؤلفون فيه ويعلاونه دون شك بذلكياتهم .

- واحد منهم هو صاحب ابن الجراح : أحمد بن عبيد الله بن محمد ابن عماد الثقفي الكاتب (المتوفى سنة ٣١٩ / ٩٣١) (وكان يعرف بمحار العزيز) وله مشاركة تاريخية واسعة تجلت في عدد من الكتب التي كتبها مثل : أخبار مقاتل آن أبي طالب (ويدعى كتاب المبيضة) ورسالة في بنى أمية ، ورسالة في تفضيل بنى هاشم وكتاب أخبار عبد الله بن معاوية وكان من كتبه أيضاً ، الزيادات في أخبار الوزراء^(١) .

- ثم شاركهما في الكتابة كذلك : أبو الحسن علي بن الفتح الكاتب (المتوفى بعد سنة ٣٣٦ / ٩٤٧) ، وكان يعرف بالمطوق . وقد انتهى إلى سنة ٣١٩ / ٩٣١ وزارة أبي القاسم عبيد الله الكلوذاني وروى أخبار علدة من وزارة المقتصد^(٢) في كتابه مناقب الوزراء .

- وكتب إبراهيم بن محمد بن نقطويه (المتوفى سنة ٣٢٣ / ٩٣٤) بدوره وفي الوقت نفسه كتاب الوزراء .

- وابراهيم بن موسى الواسطي ، الذي عرض كتاب ابن الجراح^(٣) .

- وأبو الحسن علي بن الحسن وقد لقب بابن المشطة ، وقد عاش لما بعد سنة ٣١٠ / ٩٢٢) وبلغ في تصنيفه : أخبار الوزراء إلى آخر أيام الراضي بالله^(٤) .

وقد نجا من هذه المجموعة من المصنفات المتعاصرة كلها مصنف واحد وضعه :

(١) المصدر ذاته ص ١٤٨ ويسمه الكتاب خطأ ابن عماد .

(٢) أشار إلى هذا الكتاب المسعودي (مروج الذهب ج ١ ص ١٦) وحفظ بعض الفقرات منه المؤلف المجهول صاحب كتاب الشعائر والتحف ص ٤٧ ، ص ٢٢٩ ، وابن حجر في رفع الأصر (خطوط باريس) ورقة ٨٠ ظهر ، وذكره ابن النديم في القهرس ص ١٢٩ .

(٣) المسعودي - مروج الذهب ج ١ ص ١٦ .

(٤) المسعودي - مروج الذهب (ط . بلا) ج ١ ص ١٥ .

ـ الجهشياري أبو عبد الله محمد بن عبدالوس الذي (توفي سنة ٣٣١). ومحن
نجهل الكثير عنه . ولكننا نعرف أنه عاش تلك الفترة واكتوى بما
اكتوى به أمثاله من الكتاب في ذلك العصر من المصادرية والاضطهاد ،
والكتاب الذي كتبه باسم كتاب الوزراء مؤلف ضخم بقيت لنا منه
القطعة الأولى وتوقف عند وزارة الفضيل بن سهل للمأمون . أى أن
هذا الذي يحرمنا من شهادة الجهشياري لعصره ومشاهداته فيه ولكننا
يملوء بالوثائق والأخبار الحامة .

ثم جاء بعد ذلك :

ـ أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله الصولي الكاتب (المتوفى بين سنة ٣٣٥ و٣٦١ / ٩٤٦ - ٩٤٧) الذي وضع (تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء)
الذي بقي لنا منه بعضه وقد ذكر عنه المسعودي أن « فيه غرائب لم
تفح لغيره وأشياء تفرد بها لأنه شاهدتها ... » .

ـ أبو عبد الله محمد بن أحمد الفارسي الرازي (المتوفى سنة ٣٦١) وله
كتاب أخبار الوزراء^(١) .

ـ الصاحب أبو القاسم اسماعيل بن عباد بن عباس الطالقاني (المتوفى سنة
٣٨٥ / ٩٩٠) فكتب (أخبار الوزراء)^(٢) ... وهو ضائع بدوره .

ـ ثم ألف التوحيدى أبو حيان علي بن محمد بن عباس (المتوفى سنة
٤٠٠ / ١٠٠٩) كتاب مثالب الوزيرين (العميد وابن عباد) وقد ضاع
أيضاً .

ـ وجاء الشعالي أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل النيسابوري
(المتوفى سنة ٤٢٩ / ١٠٣٨) فكتب بدوره (تحفة الوزراء) الذي قدمه إلى

(١) انظر هدية المارفون ج ٢ ص ٤٧ .

(٢) ابن النديم - الفهرست ص ١٣٥ .

وزير خوارزمي الغزنوی أبي عبد الله الحمداني . ومنه مخطوط في القاهرة (دار الكتب رقم ٥ نحو ش في ٤٢ ورقة) وقد رتبه الشاعري على خمسة أبواب : أصل الوزارة . آدابها ، فضائلها ، أقسامها ، نكت الوزراء .

- ثم جاء أبو الحسن هلال بن المحسن بن ابراهيم الصابيء . الكاتب (المتوفى سنة ٤٤٨ / ١٠٥٥) فوضع (تاريخ الوزارة والأمراء) . وقد نشر المستشرق آمدو ز ما وجده منه (بيروت سنة ١٩٠٤) .

- وجاء الماوردي نور الدين أبو الحسن على بن محمد بن حبيب المتوفى سنة ٤٥٠ / ١٠٥٧) صاحب الأحكام السلطانية ، فكتب أيضاً : (كتاب الوزارة) ومنه مخطوط في استانبول (أمانة رقم ١٣٤٥ في ٧٢ ورقة بخط جميل مجدول ، كتب هدية إلى أحد الوزراء) .

- وكتب ابن ماكولا ، بعد ذلك . أبو نصر علي بن هبة الله بن علي العجلي البغدادي الأمير الوزير (المتوفى سنة ٤٨٧ / ١٠٩٣) فكتب (كتاب الوزارة) الضائع .

- وكتب الإقليدي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحسين الفارسي (المتوفى سنة ٥٠٧ / ١١١٣) كتاب الوزارة الضائع بدوره^(١) .

- وأعقبه أبو الحسن محمد بن عبد الملك المدائني (المتوفى سنة ٥٢١ / ١١٢٧) بوضع : كتاب أخبار الوزراء الذي لم نعرف عنه غير اسمه وجعله ذيلاً على كتاب الصولي .

على أن الكتاب التالي كتب بالفارسية أولاً وهو الذي وضعه :

- أبو شروان ابن خالد الوزير السلجوقي المتوفى سنة ٥٣١ فقد وضع

(١) هدية المارفون ج ٢ ص ٨١ ومن المحتمل أن يكون الإقليدي هذا والرازي المذكور في الصفحة السابقة شخصاً واحداً كرمه صاحب هدية المارفون بتاريخين مختلفين لوفاته .

لوزراء السلجوقية تاريخاً باسم (فتور زمان الصدور وصول دور زمان الفتور)
أرّخ فيه للدولة السلجوقية من أول عهد ملکشاه حتى عهده فجاء
ابن أخيه :

- العمام الأصبهاني أبو عبد الله محمد بن صفي الدين محمد بن حامد
الكاتب المشهور (المتوفى بدمشق سنة ٥٩٧ / ١٢٠١) فعرب ذلك
الكتاب وأضاف عليه أخبار الوزراء وتاريخ السلجوقية حتى سنة ٥٧١
وسماه : نصرة القطرة وعصرة القطرة في أربع مجلدات . والكتاب
مخطوط موجود في باريس ولكن مخصره الذي صنعه البنداري هو
الذي طبع منذ سنة ١٩٠٠ باسم تاريخ الدولة السلجوقية .

- وكتب بعد ذلك القادسي محمد بن أحمد الخبلي السكري البغدادي (المتوفى
سنة ٦٣٤ / ١٢٣٧) . (كتاب تاريخ الوزراء) وقد ضاع^(١) .

- ثم جاء كاتب اسمه خليل بن المحسن فكتب كتاباً في الموضوع نفسه
ضاع بدوره بالرغم من أنه حظي بذيل عليه كتبه :^(٢)

- أبو طالب تاج الدين علي بن أنجب بن عثمان بن الساعي البغدادي
السلامي ، خازن كتب المستنصرية (المتوفى أيضاً سنة ٦٧٤ / ١٢٧٥) .
كتاب : أخبار الوزراء في دول الأئمة الخلفاء ... وهو ضائع بدوره^(٣) .

وفي الوقت نفسه تقريراً وضع :

(١) لم تذكر المصادر كتاباً في الوزراء القاديسي غير أنا وجنتا الإشارة إليه لدى ابن خلkan (ج ٦
ص ٢٣٠ ترجمة الوزير ابن هبيرة) .

(٢) ذكر عبد الله مخلص في مقدمة لكتاب الإشارة إلى من قال الوزارة رجلين كتاباً في تاريخ الوزراء
متالين باسم تاج الدين علي وتوفي سنة ٦٧٤ أحددهما علي بن المحسن والثاني علي بن أنجب ونعلم
أنه وهم وأهلاً شخص واحد هو ابن الساعي نفسه (انظر من ١٠ من كتاب الإشارة ، طبع
المهد الفرنسي بالقاهرة سنة ١٩٢٤) .

(٣) كشف الظنون ج ١ ص ٢٧٨ والسبحاري - الإعلان (ط . روزنثال) ص ٥٥٢ .

- أبو الفضل جمال الدين أحمد بن مهنا العبيدي الحسبي (المتوفى سنة ٦٨٢ / ١٢٨٣) كتاب وزراء الزوراء الذي نقل عنه ابن الفوطي عدداً من التراجم والأخبار^(١).

وسوف تظل السلسلة متصلة من بعد ... في العصور التالية.

ولم تكن الكتب في الكتاب والقضاة والولاة أقل اغراء للمؤرخين وقد تركوا فيها تراثاً واسعاً. غالباً ما كان أهل كل عمل يورّخون لسابقيهم فيه، وكما كان الوزراء والكتاب يورّخون لأنفسهم كان القضاة يورّخون لأبناء مهمتهم بدورهم. وكانت هذه التوارييخ تأخذ أحياناً شكل الدليل المهني للصنعة وشكل المعلومات التي يعدّ حفظها من أول المؤهّلات لها. ومن مؤرخي القضاة:

- أبو بكر محمد بن خلف بن حيان المعروف بوكيع القاضي (المتوفى سنة ٣٠٦ / ٩١٨) وهو معاصر للطبراني وقد كتب أوسع كتاب حتى عهده في «أخبار القضاة» وهو مطبوع في ثلاثة أجزاء (القاهرة ١٦٤٧).

- الإصطخري أبو سعيد بن أحمد بن يزيد بن عيسى من ولد هانيء بن قبيصية (٢٤٤ - ٣٢٨ / ٨٥٨ - ٩٤٠) قاضٍ قيم وقد صنف كتاباً حسناً في (أدب القضاة) لم يصنف مثله في بابه^(٢) على حد قول ابن كثير.

- وكتب أبو بكر أحمد بن كامل الشجري (٢٦٠ - ٣٥٠ / ٨٧٣ - ٩٦١) كتاب أخبار القضاة الشعراء ومحظوظه في استانبول (بني ٢٢٣/٢).

- وكتب الحافظ عبد الغني بن سعيد بن علي بن بشر الأزدي المصري السمرقندى (المتوفى سنة ٤٠٩ / ١٠١٨) كتاباً في أخبار القضاة^(٣).

(١) انظر ابن الفوطي - تلخيص مجمع الآداب (نشر مصطفى جواد - دمشق ١٩٦٣) القسم الأول من الجزء الرابع ص ١٠٢ ، ١٠٤ ، ٣٣٠ ، ٣٣٣ ، ٣٢٣ ، ٢٧٩ ، ١٤٥ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ والقسم الثالث ص ١٠٤ ، ص ٣٠٤ .

(٢) ابن كثير - البداية والنهاية (حوادث سنة ٢٢٨) ج ١١ ص ١٩٣ .

(٣) ذكره السحاوي - الاعلان بالتوبیخ (ط . روزنال) ص ٥٧٤ .

- وكتب كل من سليمان بن علي بن عبد السميم وأبي الحسن الموسوي الرضي بدورهما كتابين في الموضوع نفسه^(١).

- وكتب الماوردي المعروف (ت. سنة ٤٥٠) كتاب أدب القاضي وهو رغم اختصاصه يحوي الكثير من الأمور التاريخية. طبع بتحقيق محيي هلال سرحان في بغداد سنة ١٩٧٢ في جزأين.

- ثم كتب القاضي أبو القاسم علي بن محمد السمناني الرحي (المتوفى في نهاية القرن الخامس سنة ٤٩٩ / ١١٠٥) مؤلفه روضة القضاة وهو مخطوط نشر قسمه الأول^(٢) وفي نهاية الكتاب فصول في تاريخ القضاة حتى زمانه.

- وتبعه القاضي أبو العباس أحمد بن بختيار بن علي الماندائي الواسطي (المتوفى سنة ٥٥٢ / ١١٥٦) فوضع كتاب الحكم ولادة الأحكام في دار السلام.

وأنقضى عهد القضاة الكبار في بغداد قبل أن تنتهي هي نفسها سنة ٦٥٦ فلم يظهر من تاريخ خاص بهم من بعد ذلك فيما نعلم.

ويلحق بكتب تاريخ القضاة كتب الحسبة وهي أصلق بالتاريخ الحضاري منها بتاريخ الاحتساب والمحاسبين. كانت كتبًا تعالج الأمور العملية ، في طابع تعليمي يوضح عمل المحاسب ولم تكن تحوي إلا القليل عن تاريخ هذه المؤسسة الاجتماعية الكبيرة الأهمية في تاريخ المدن الإسلامية . ونعد من كتب الاحتساب المعروفة ما كتبه :

- أبو العباس أحمد بن محمد بن مروان السريسي (المتوفى سنة ٢٨٦)^(٣) .

وقد سماه الحسبة الكبيرة . وهو أول كتاب نعرفه في هذا الموضوع .

(١) ذكرها المصادر السابق نفسه ولكن لم تنشر على تراجم لها ولعلها من القرن الخامس .

(٢) نشر الأستاذ صلاح الدين الناهي في بغداد سنة ١٩٧٠ القسم الأول من الكتاب وهو قضائي لا تاريخي ثم نشر الجزء الثاني بعد ستين .

(٣) حاجي خليفة - كشف الظنون ج ١ ص ٦٦٥ .

وباءدت الفترات من بعده لظهور الكتب المماثلة فلم يظهر من كتاب فيها حتى جاء :

- الماوردي أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري (المتوفى سنة ٤٥٠) فوضع (كتاب الرتبة في طلب الحسبة) الذي ضاع^(١).
- وأدخل الغزالي أبو حامد محمد بن محمد بن محمد (المتوفى سنة ٥٠٥ / ١١١١) فصلاً واسعاً في الموضوع ضمن كتابه إحياء علوم الدين.
- ثم كتب عبد الرحمن بن نصر الشيزري (المتوفى سنة ٥٨٩ / ١١٩٣) أهم كتاب في الحسبة نعرفه بعنوان نهاية الرتبة في طلب الحسبة (وقد طبع في القاهرة - الباز العربي ١٩٤٦) فكان الكتاب الأم للكتب التي كثُرت في العصر المملوكي من بعد كما ظهرت في الأندلس والتي يبلغ مجموعها أكثر من ثلاثين كتاباً في أيدينا منها سبعة عشر مخطوطاً وأثنا عشر مطبوعاً ...

وقد أرَخَ الكتاب بدورهم لأنباء صناعتهم ، كما فعل القضاة . ومن عمل على ذلك بعد أحمد بن الحارث الخزار (صاحب كتاب أسماء الخلفاء وكتابهم والصحابة) وبعد أبي علي أحمد بن اسماعيل بن الحصيب الأنباري المعروف بنطاحه صاحب (طبقات الكتاب) :

- محمد بن أحمد بن الحسين بن الحرون (من مطالع القرن الرابع) وهو بغدادي من أولاد الكتاب وقد ألف بين ما ألف : (كتاب الكتاب)^(٢).
- داود بن علي بن الجراح (النصف الثاني من القرن الثالث) الذي كتب : أخبار الكتاب .
- وتلاه حفيده علي بن عيسى بن داود الوزير (المتوفى آخر سنة ٣٣٤)

(١) تذكر بعض المصادر الماوردي كتاباً بهذا الاسم . ومن الأرجح أنهم إنما يقصدون ذلك الجزء من كتابه (الأحكام السلطانية) الذي يتحدث فيه عن الحسبة . فان صح هذا فالكتاب موجود مطبوع ...

(٢) ابن النديم - التهرست ص ١٤٨ .

بعد أن وزر ثلاث مرات لل الخليفة المقتدر : فكتب كتاب الكتاب وسياسة المملكة وسيرة الخلفاء .

وكتب بعد ذلك في الموضوع نفسه ثلاثة من المؤلفين في أواسط القرن الرابع هـ :

– أبو الحسن أحمد بن محمد بن حمارة الكاتب صاحب كتاب امتحان الكتاب وديوان ذوي الألباب .

– أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن زنجي الكاتب (المتوفى سنة ٣٣٤ / ٩٤٦) صاحب كتاب الكتاب والصناعة الذي كان أحد مصادر كتاب الوزراء للصابيء وقد فقد ...

– أبو اسحق ابراهيم بن أبي عون أحمد بن المنجم مؤلف كتاب الدواين^(١)

وتلامهم بعد ذلك :

– ابن حاجب النعمان الكبير أبو الحسين علي بن عبد العزيز بن ابراهيم الكاتب الملقب برئيس الرؤساء (وقد توفي سنة ٤٢٣) بعد خدمة للخلفاء دامت أربعين سنة وعمر وصل الثالثة والثمانين ، وقد كتب (ذخيرة الكتاب) لأبناء مهنته^(٢) . ونقل عنه ابن النديم بعض الصفحات.

– هلال الصابيء (المتوفى سنة ٤٤٨ / ١٠٥٦) وقد ألف : كتاب الكتاب^(٣).

غير أن هذا النوع من التواريخ الكتاب اضمحل بعد ذلك فلا نكاد نسمع عن تاريخ يخص هذه الفترة لأنها لم تعد ذات مكانة سياسية أو ثقافية كبيرة بينما صار الوزراء هم رأس هذا الجهاز الإداري الصغير بالنسبة لل الخليفة وقصره

(١) انظر في هؤلاء الثلاثة : ابن النديم – الفهرست ص ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٤٧ .

(٢) ابن النديم – الفهرست ص ١٩٣ ، ٢٢ .

(٣) الصفدي – الواقي بالوفيات . ترجمة هلال الصابيء (نقل عن مقدمة أمدروز لكتاب الوزراء طبعة سنة ١٩٠٤) .

كان الوزير في البلاط السلجوفي قد ابتلع مكانة الكاتب ونفوذه لدى السلاطين السلاجقة كما أضحت منصب الكتابة ثانٍ للغة (يكتب بالفارسية والعربية) ويختص بإنشاء الرسائل فقط ويشارك معه فيها صاحب الطفراء الذي يشبه أن يكون نائب الوزير ورئيس الكتاب والديوان وحامل الأختام الرسمية . ولهذا اقتصرت الكتب المؤلفة للكتاب على تعليمهم «الصناعة» ليكونوا موظفين بارعين . ولم يهم المؤرخون الحجاب ، بجانب الوزراء الكتاب فكتبوه عنهم ومن ذلك :

- ابن أبي طاهر أبو الفضل أحمد (المتوفى سنة ٢٨٠ / ٨٩٣) صاحب تاريخ بغداد الذي كتب في الوقت نفسه (كتاب الحجاب) الصائغ^(١) .
- المرزباني أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى بن سعيد (المتوفى سنة ٣٧٨ / ٩٨٨) وهو خراساني الأصل ، اخباري واسع التصنيف جداً . مؤلفاته ليست كثيرة في العدد فقط ولكن في الأوراق التي تبلغ المئات دوماً وتتعدد أحياناً كثيرة على الآلاف . ومنها : كتاب زمر الحجاب في مائتي ورقة .
- وكتب هلال الصابيء (المتوفى سنة ٤٤٨ / ١٠٥٥) كتاب : رسوم دار الخلافة يروي نظم المراسم وتقالييد القصر التي يسهر على تنفيذها الحجاب ، والكتاب مطبوع .
- سبط ابن التحاويدي أبو الفتح محمد بن عبيد الله بن نشتكين البغدادي الشاعر (المتوفى سنة ٥٨٤ / ١١٨٨) وقد كتب (المحجة والمحاجب) . وكما لحق بالقضايا أمر الحسبة لحق بالكتاب أمر الخراج وقد كان هذا الموضوع من الأهمية في النظام السياسي ومن المساس بتكوين الدولة وأوضاع الرعية ، ومن الضرورة العلمية والعملية لأصحاب الدواوين والكتاب وللناس

(١) ابن النديم - الفهرست ص ١٤٦ .

بحيث تكاثرت فيه الكتب منه كتاب^(١) أبي عبيد الله معاوية بن يسار وزير المهدي الذي نقل الخراج إلى المقاومة وصنف كتاباً ذكر فيه كافة أحواله فكان أول مصنف في هذا الموضوع ثم تبعه مؤلف أشهر منه هو أبو يوسف قاضي الرشيد . وكانت المؤلفات في الخراج تحمل اسم (الخراج) وقد تحمل أحياناً اسم الأموال ولكنها تحيي في الحالين اشارات ومعلومات تاريخية في الدرجة الأولى من القيمة والشأن وقد ذكر منها ابن النديم ثمانية عشر كتاباً حتى عهده (في النصف الثاني من القرن الرابع) ومن المؤلفين في ذلك :

- أبو عبيد القاسم بن سلام بن مسكن (المتوفى سنة ٢٢٤ / ٨٣٩) وكتابه (الأموال) من أهم الكتب التي وصلتنا في موضوعه مع كتاب أبي يوسف.
- أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد السكريم بن عبد الكهم ويعرف باسم أبي سهل الأحول (المتوفى سنة ٢٧٠) وله كتاب الخراج وقد نقل عنه ابن العديم في القرن السابع بعض أخبار التاريخ^(٢) .
- ابن الماشطة أبو الحسن علي بن الحسن ولقبه المظلوم بابن الماشطة (توفي بعد ٣١٠) وقد ناهز التسعين ، وله كتاب الخراج^(٣) وكان متقدماً في هذا العمل .
- ابن بشّار أحمد بن محمد بن سليمان الكاتب (من مطالع القرن الرابع) وقد وضع في الخراج كتاباً كبيراً في نحو ألف ورقة رأها ابن النديم بخطه^(٤) .

(١) الطقطقي - الأحكام السلطانية ص ١٦٣ ويذكر ابن النديم أن حفصويه هو أول من ألف كتاباً في الخراج (انظر ص ١٣٥ من الفهرست) ولم نستطع التحقق من سنة وفاة حفصويه لنعرف سببه لمعاوية الوزير .

(٢) ابن العديم - بنية الطلب (مخطوط اياصوفيا) الورقة ٦٢ وجه .

(٣) ابن النديم - الفهرس ص ١٣٥ .

(٤) ابن النديم - الفهرس ص ١٣٥ .

وقد ازدحم النصف الأول من القرن الرابع بعدد من المؤلفين تناوبوا الكتابة في هذا الباب كدليل على اهتمام الناس بعمرقة أصل نظامهم المالي ، ومنهم :

الكلواذاني ، أبو القاسم عبيد الله بن أحمد بن محمد ويرقى نسبه إلى أزدشير بن بابلث . كان صاحب ديوان السود في مطلع القرن الرابع وتوفي بعد سنة ٣٣٦ ، وقد كتب كتاباً للخارج سنة ٣٢٦ ثم عدل له بنسخة أخرى سنة ٣٣٦^(١).

عبد الرحمن بن عيسى بن الجراح ، الكاتب ، وزير المتقى (٣٢٩) - ٩٤٠ / ٣٣٣ شقيق الوزير علي بن عيسى . وله كتاب تاريخي هام ضائع هو : سيرة أهل الخارج وأخبارهم وأنسابهم في القديم والحديث . يحانب كتاب آخر في الخارج كبير لم يتممه . وكتاب في التاريخ منذ سنة ٢٧٠ حتى أيامه^(٢).

قادمة بن جعفر الكاتب البغدادي (المتوفى سنة ٣٣٧ / ٩٤٨) وكتابه : (كتاب الخارج وصنعة الكتابة في البلاد ومعرفة خرائجها وترتيب الكاتب وما يحتاج إليه من الرياسة) كتاب معروف وقد بقي لنا منه نصفه الثاني ومنه نسخة خطوظة في استانبول (مكتبة كوبيرلي رقم ١٠٧٦) نشر بعض المستشرقين قسماً منها .

البياشي أبو النصر محمد بن مسعود وهو من كبار فقهاء الشيعة الإمامية قبل أن تعمي الأصل وقد عاش في سمرقند في أواسط القرن الرابع . أنفق على العلم ٣٠٠ ألف دينار ورثا عن أبيه وكانت داره كالمسجد بين ناسخ أو قاريء أو مقابل أو معلم من الناس ...^(٣) وقد ألف

(١) المصدر نفسه ص ١٣١ .

(٢) ابن النديم - الفهرست ص ١٢٩ .

(٣) انظر الخوانصاري - روضات الجنات (طبع حجر - طهران ١٣٤٧) ص ٥٣٠ .

ما يزيد على ٢٠٨ كتب من بينها كتاب الجزية والخارج^(١).

ثم جاء من بعد ذلك :

— أبو الحسين اسحق بن يحيى بن سريح النصراوي (ولد سنة ٣٠٠ / ٩١٢) ومات بعد سنة ٣٧٧ / ٩٨٧ وكان عارفاً بأمور الدواين ومناظرة العمال وصناعة الخارج فكتب كتاب الخارج ، كبيراً في جزأين ثم كتب كتاب الخارج الصغير . بجانب كتاب جمل التاريخ^(٢).

— أبو الفرج محمد بن محمد بن سهل الشلحي الكاتب (المتوفى سنة ٤٢٣ / ١٠٣١) ، وقد ألف أيضاً : كتاب الخارج^(٣).

— عميد الرؤساء ابو طالب محمد بن ايوب بن سليمان البغدادي الوزير (المتوفى سنة ٥٤٨ / ١٠٥٥) كتب للخليفة القائم ١٦ سنة وقد ألف كتاباً في الخارج^(٤)

وتتيب أمثل هذه الكتب بعد هذه الفترة لأن الحكم السلاجوقى الذي ساد المنطقة منذ سنة ٤٤٨ قد عدل النظام المبالي الخارجى القديم التعديل الواسع فلم يعد له سوى القيمة التاريخية ...

ولم يهمل المؤلفون موضوع التقدّر والسلكة . كانوا يبحثونه تارة مع كتب الخارج (كما فعل أبو يوسف) أو مع كتب الفتوح (كما فعل البلاذري) أو مع الأحكام السلطانية وشئون الكتابة (كما فعل الماوردي) على أنهم كانوا أحياناً يفردونها ومن أولئك :

— أبو بكر المعروف بركيع القاضي صاحب أخبار القضاة وله كتاب التصرف والنقد والسلكة ، وكتاب المكاييل والموازين .

(١) انظر قائمة كتب الطويلة لدى ابن النديم - الفهرس ص ١٩٤ - ١٩٦ .

(٢) المصدر السابق ص ١٣٦ .

(٣) الصدقي - الواقي ج ١ ص ١١٦ .

(٤) ابن الفوطي - تلخيص معجم الألقاب (نشر مصطفى جبراد - دمشق ١٩٦٣) ج ٢/٤ ص ٩٣٩ - ٩٤١ .

٤ – التأثر بعادة العلوم الأخرى ونحوها

ولم يكن في وسع التاريخ أن يعيش في عزلة عن تلك الحركة العلمية الواسعة التي أخذت الناس منذ القرن الثاني الهجري وبلغت أوجها في القرن الرابع . كان لا بد لنمو الفلسفة والمنطق وتطور الفكر الحغرافي بالاطلاع والرحلات وضلع الكثرين في الفلك والأزياج أن تؤثر بشكل أو باخر على الفكر التاريخي نفسه وعلى طرائق التدوين . لقد وجد المؤرخون في العلوم الأخرى مادة عقلية جديدة ، وإذا سمحت لهم هذه المادة بتوسيع مصادرهم وبالتالي في إضافة مادة جديدة إلى مصادر التاريخ فأهم من ذلك أنها أدت خاصة إلى تطوير المنهج التاريخي وإدخال طرائق جديدة تزيد في دقة وسعة معلوماته من جهة وفي منطقة الأحداث من جهة أخرى .

وعلاقة التاريخ بالنجوم والفلك نجحت عن امتداد المترجمين أنفسهم على ميدان التاريخ . وآخوان الصيفا يتعلمون مما ينبغي على المنجم معرفته : « معرفة التواريخ والبدايات » و « الملل والدول وتبدل الأشخاص على سير الملك . والخروب والفنون والحوادث والكائنات من الغلاء والرخص والمحسب والجلب والوباء والأمراض ... وحوادث الأيام ... الخ ». فكانوا عمل المنجم هو التاريخ ولكن المستنتاج من الأفلاك لا المروي من قبل الناس . وهكذا فإن كتب النجوم كانت تحوي بعض المادة التاريخية ومن أمثلتها كتاب الألوف لأبي معشر مما يجعل القفز بينها وبين التاريخ والتقل عنها إليه ميسوراً للمؤرخين ومغرياً لهم .

وهكذا فقد كان من شأن انتشار علم الفلك والنجوم أن استخدمت الأزياج والعلوم الفلكية في تاريخ الأحداث وتحديد أوقاتها . وأحياناً في تعليلها . ولعل من أقدم الأمثلة على هذا التأثر « العلمي » في التاريخ كتاب الآثار الباقة لأبي الريحان البيروني (٤٤٠ / ١٠٤٨) . على أننا نجد الكثير من التحديدات الفلكية للأحداث بالأبراج وغيرها لدى حمزة الأصفهاني في تاريخ سني ملوك الأرض

والأئباء واليعقوبي ، والسعودي ، والمطهر المقدسي وابن حوقل وابن ميسير في مصر وابن القلاني في دمشق وابن العديم في حلب .

ولقد أخذ بعض المؤرخين عن أصحاب النجوم والفلسكيين حساباتهم المتعلقة بتاريخ الدنيا وتاريخ الأمم فيما قبل الإسلام . يقول حمزة الأصفهاني « ولم أجد لتواريخ سني (القبط) ذكرآ في الكتب إلا في الزينة »^(١) وبهذه الوسيلة توفر لهم مقدار من المادة التاريخية الهامة . وكان يعقوبى يشير في بداية حكم كل خليفة إلى الطوالع والتنبؤ . وكثير من التواريخ البلدانية كانت تشير إلى الطوالع التي كانت قائمة عند بناء أي مدينة من مثل ما ذكره ابن العديم عن تاريخ حلب وتاريخ أنطاكية وما ذكره ابن الأزرق عن بناء ميافارقين .

وكثيراً ما كانت معرفة النجوم والطالع سبلاً إلى تعليل بعض الأحداث : كمقاتل بعض الناس^(٢) أو خلود بعض المدن^(٣) أو ميلها إلى القرن^(٤) أو تفسير بعض الكوارث الطبيعية من فيضانات وأوبئة ومجاعات .

(ب) واستخدمت معطيات الفلسفة والمنطق وعلم السياسة خاصة وعلم الكلام في بعض الكتب التاريخية وعلى مستويات مختلفة تدل كثراً منها على تلك الصلة الواشحة ما بين الفكرين الفلسفى والتاريخي : فقد شهد القرن الرابع خاصة محاولات للمزاوجة بين التاريخ والفلسفة في نظام فكري منسجم متتكامل . يذكر السعودي أن سنان بن ثابت بن قرة اهتم بتأليف كتاب « استفتحه بجموع من الكلام في أخلاق النقوص وأقسامها من الناطقة والغضبية والشهوانية وذكر

(١) حمزة الأصفهاني - تاريخ سني ملوك الأرض (ط . دار الحياة - بيروت) ص ٧٤ .

(٢) انظر ما ذكره روزنثال في هذا الصدد في علم التاريخ عند المسلمين النص الانكليزي من ٩٨ - ١٠٠ ، والترجمة العربية ص ١٥٥ - ١٥٧ .

(٣) انظر الطبرى ج ٩ ص (١٤٦٢/٣) حوادث سنة ٢٤٧ والتنبؤ فيه بقتل المتوكل .

(٤) انظر ما يقوله ابن حوقل عن دمشق ومكة وسرقند واردبيل وصقلية - صورة الأرض (طبة دار الحياة - بيروت) ص ١٦٢ .

لعاً من السياسات المدنية مما ذكر أفالاطون في كتابه في السياسة المدنية وهو عشر مقالات، ولعاً مما يجب على الملوك والوزراء . ثم خرج إلى أخبار زعم أنها صحتت عنده ولم يشاهدها ووصل ذلك بأخبار المعتصد بالله وذكر صحبته إياه وأيامه السالفة معه ثم ترقى إلى خليفة خليفة في التصنيف مضادة لرسم الأخبار ...» وانتقده المسعودي فقال انه : « انتحل (بذلك) ما ليس من صناعته واستنهج ما ليس من طريقته ... »^(١) وجرت محاولة أخرى على المستوى نفسه ولعلها أكمل منها وأعمق لأنها كانت محاولة لفلسفة التاريخ والشخصان أحداثه من الناحية الظاهرية على الأقل للإطار الفلسفـي . وصاحبها هو المظہر بن طاهر في كتابه البدء والتاريخ ، الذي ألفه سنة ٩٦٦/٣٥٥ . فقد بدأ الكتاب ببحث نظري طويل حول المعرفة والعقل والكون وإثبات الباري وصفاته والرسالة والنبوة ليصل إلى الخلق ثم آدم ثم الأنبياء ثم الرسول وتاريخه والصحابة ثم تاريخ الأنبياء والعباسيين . « فالناظر في هذا الكتاب كالمشرف المطلع على العالم مشاهداً حركاته وعجب أعماله والسابق له قبل تركيبه وحدوده ... »^(٢) غير أن هذه المحاولة كانت فجة من جهة كما لم تجد الحماس لدى المؤرخين من جهة أخرى فلم يظهر من يتابعها بقيمة تجربة فريدة أروع ما فيها هو تلك الرغبة الحارة فيربط الكون والحياة بنظرة كلية شاملة توحد ما بين الفلسفة والتاريخ في نظام فكري واحد .

بل ! جرت بعض المحاولات الفلسفية الأخرى ولكن على مستوى ثانٍ كانت تنظر إلى التاريخ من زاوية مكانه بين العلوم وتصنيفه في إطارها العام . ومن ذلك محاولة الخوارزمي في كتابه مفاتيح العلوم ومحاولات أخوان الصفا في رسائلهم وأكثر منها جدية وقيمة محاولة متأخرة قام بها فخر الدين الرازي في كتابه جامع العلوم^(٣) (أواخر القرن السادس / الثاني عشر الميلادي) فقد بحث فيه

(١) المسعودي - مروج الذهب (ط . بلا) ج ١ ص ١٦ - ١٧ .

(٢) المقدسي - البدء والتاريخ ج ١ ص ١٧ (ط . هوارت) .

(٣) كتبه الرازي في الأصل بالفارسية يعنوان حدائق الأنوار في حقائق الأسرار وقد شاع وبقيت =

مكانة التاريخ وجعله خادماً للدين ثم أعطى بعض الآراء التي فلسف فيها طبيعة علم التاريخ ذاكراً أنه لا يعرف مواجهة مشاكله بصورة منتظمة متدرجة من البسيط إلى المقدد . ولا يميز بين المعلومات الواضحة وغير الواضحة . وطرق بحثه بعضها معقد وبعضها مبسط ولا تدرج في الانتقال بينها ثم استنتج من ذلك عدم وجود ترتيب منطقي في بحث التاريخ وعلى ذلك فقد قسم أبحاثه إلى تسع زمر أو فصول تبدأ بتاريخ ملوك العجم ثم تاريخ الرسول وتنتهي بأحوال «ملك البشر علاء الدنيا والدين قطب الإسلام والمسلمين » تكش بن خوارزمشاه الذي عاش الرازي في كفنه .

على أننا نجد تأثير الفلسفة في التاريخ على مستوى ثالث لدى مؤرخين آخرين من القرن الرابع أيضاً كالم Saunders . فان الرجل رغم فكره الموسوعي العجيب وثقافته الواسعة لم يحاول محاولة المقدسي في خلق نظرة كلية وإنما بث قراءاته الفلسفية ومعلوماته الواسعة في الإلهيات والطبيعتيات والمنطق وما وراء الطبيعة وعلم الكلام وعلم الأديان ، في ثانياً كتبه وإذا كانت كتبه الباقيه (مروج الذهب والتبغ والأسراف وجزء أخبار الزمان) تكشف بوضوح عن ذلك فإن عنوانين كتبه الأخرى التي تبلغ خمسة وثلاثين كتاباً تكشف كلها عن طبيعتها الفلسفية – التاريخية . إن طريقة الم Saunders كانت في بث معطيات الفكر في ثانياً الأحداث التاريخية . ولم يكن يترك فرصة لا ينجزها لتلخيص كتاب أو عرض فكرة أو ذكر جدل جرى أو شرح مذهب أو استطراد وراء مناقشة فلسفية أو وضع بعض الخطوط في فلسفة التاريخ وقد نجد المنهج نفسه ولكن على مقاييس أضيق بكثير لدى مسكونيه ، ولدى قدامة بن جعفر كما نجد لدى بعض المؤلفين ، في القرن الرابع الهجري خاصة مسن كتبوا تواريχ العالم ، وذكروا فيها تاريخ الهند والصين والروم والأغريق وأدخلوا ضمن تلك التواريχ اشارات

= ترجمة العربية التي أعطيت عنوان جامع المعلوم ومنه خطوطكان في اكسفورد رقم
Or. Fraser 182, 183 (Ethe 1481, 1982)

وموجزات عن الأفكار الفلسفية والدينية لتلك الأمم . كاليعقوبي وحمزة الأصفهاني والبيروني ولكنها كانت تدخل المؤلفات ، كما دخلتها عند المسعودي كادة تاريخية تزيد في غناها وليس كمنهج فكري للتطبيق التاريخي فيها .

أما الجانب الأهم الذي ظهر فيه أثر الفكر الفلسفي في التاريخ ، منذ القرن الرابع خاصة فهو ناحيتان :

أولهما : الحكمة والموعظة : وهي طفولة الفلسفة ولما كانت العبرة هي بعض أهداف التاريخ فإن تسرب الحكمـة الشعبية والآراء والنظارات المبتسرة كان سهلاً ميسوراً ومقبولاً في الوقت نفسه وقد وجد المؤرخون الأخلاقيون في التراث الإسلامي من الآيات والأحاديث والأمثال العربية المرسلة والشعر ، وفي تراث الفرس التاريخي مما يروى عن بزر جمهـر وأزدشير وأنوشروان ، وفيما يروى من حكم الإغريق والاسكتندر وأرسطاطاليس معيناً لا ينصلب من الحكم والمواعظ والشعارات التوجيهية الجاهزة للدخول في ثنيـا المواقف التاريخية واعطـاها صفة المنطق اللازم أو القانون الحيـاني أو البديـهية الفـكريـة أو التـحـذـيرـيـة ... « وقد كـوـنـتـ هذهـ الحـكـمـيـاتـ بـصـورـةـ عـامـةـ ،ـ جـزـءـاـ هـاماـ مـنـ السـيرـ والـتـرـاجـمـ فـيـ كـتـبـ التـارـيخـ المـؤـلـفـةـ عـلـىـ النـمـطـ التقـليـديـ »^(١) وأـكـثـرـ المـواضـيعـ الـفـلـسـفـيـةـ الـتـيـ تـعـاوـرـتـ عـلـيـهـاـ الـأـقـلـامـ فـيـ الـبـحـثـ التـارـيخـيـ هـيـ تـلـكـ الـتـيـ تـنـصـلـ بـجـلـورـ دـيـنـيـ وـتـجـدـ مـنـابـعـهاـ فـيـ بـعـضـ الـآـيـاتـ وـالـأـحـادـيـثـ كـفـسـرـ الـحـيـاةـ ،ـ وـزوـالـ النـعـيمـ الـدـنـبـويـ ،ـ وـجزـاءـ السـيـئةـ بـالـسـيـئةـ وـعـصـيـانـ اللـهـ وـفـضـلـ الـإـحـسانـ ..ـ وـلـاـ يـكـادـ يـخـلـوـ مـؤـلـفـ فـيـ التـارـيخـ مـنـ اـسـتـشـهـادـ بـقـصـةـ أـوـ بـأـيـةـ أـوـ حـدـيـثـ أـوـ مـثـلـ أـوـ بـيـتـ شـعـرـ أـوـ قـوـلـ مـنـ أـقـوـالـ الـحـكـمـاءـ يـدـعـمـ بـهـ أـخـبـارـهـ وـيـعـطـيـهـ طـابـ الـفـكـرـ وـالـحـتـمـيـةـ وـالتـوجـيهـ .ـ ذـلـكـ كـانـ مـنـ الـأـثـقـالـ الـهـامـةـ الـتـيـ حـمـلـهـاـ التـارـيخـ الـإـسـلـامـيـ عـلـىـ الـعـصـورـ .ـ

ثانيهما : علم السياسة : وآداب السلطان ولعله الأهم والأبقى من الفكر الفلسفـيـ -ـ التـارـيخـيـ .ـ وبـالـرـغـمـ مـنـ أـنـ الـمـؤـلـفـاتـ فـيـهـاـ كـانـتـ فـيـ مـعـظـمـهـاـ

(١) روزنـالـ -ـ عـلـمـ التـارـيخـ مـنـ ١٠١ـ (ـ ١٦٠ـ مـنـ التـرـجمـةـ الـعـرـبـيـةـ)ـ .ـ

تأخذ شكل الحكم والمعضة مما يجعلها من ثمرات الناحية السابقة إلا أن إفراد الباحثين كتبًا خاصة بهذه المواضيع وكثرة هذه الكتب جعلت منها تياراً فكرياً – فلسفياً مميزاً يزدوج فيه تأثير الدين وواجباته بتأثير الفلسفة ومعطيات السياسة مع مبادئ الأخلاق فهو خليط من كل أو لثك ، أضيف إليه في الوقت نفسه أثر أجنبى من آداب السلطان الفارسية وبعض نواحي علم الأخلاق الإغريقي ... وهكذا ظهرت مجموعات من المؤلفات : كتب السياسة وكتب الإمامة .

في شئون السياسة : كتبت منذ القرن الثالث المجري وبدون انقطاع سلسلة من الكتب الفكرية السياسية ، ذات جذور ومستند من التاريخ الإسلامي والأحداث التي مرت به وبغيره ولكنها تهدف إلى هداية الملوك والأمراء سواء السبيل في الحكم على الأساس الإسلامي القويم . وقد سميت هذه الكتب أحياناً بأداب السلطان وأحياناً بسياسة الملوك ، ويزعم صاحب كل مؤلف فيها وضع نظرية سياسية تطبيقية . متكاملة أو شبه متكاملة على أساس من العقيدة الإسلامية لسياسة الحكم . على أن هذه الكتب ظلت جمیعاً في إطار الصيحة والمعضة لم تتجاوزها إلى إيجاد النظرية السياسية الكاملة . وظلت في حدود التعليمات النظرية لم تحاول اخراجها إلى الواقع العملي واقتراح المؤسسات ، وظلت ذات طابع مثالي لم تنتقل منه إلى أدانة الواقع الظالم ورفضه به الدعوة للثورة عليه وأخيراً فقد اعتمدت أولاً وأخيراً على الواقع الديني الإلهي والمؤيد العلوى القويم وندر أن اهتمت إلا من باب الشفقة والاحسان والرحمة – بالماسي الحياتية التي تعيشها الرعية معتبرة أن مسؤولية الحكم فيها لم تكن أمام الرعايا ولكن أمام الله . الرابطة الوحيدة التي كانت تربط هذه الكتب بالتاريخ وتجعل منها نوعاً من فلسفة التاريخ السياسي أو تطوير الحكم هي الأمثلة العديدة التي كانت تلتقط من التاريخ حسب المناسبات للتدليل على صحة الرأي المقترح . وكانت تشتمل أحياناً على مختصرات للتاريخ الإسلامي .

كان أول ظهور هذه الكتب السياسية — التأريخية بجواباً على الكتب السياسية الأجنبية التي ترجمت إلى العربية منذ مطلع العصر العباسي ، فإن موجة من الكتب الفارسية السياسية قد دفعت إلى الناس من قبل الترجمة الإيرانية ومن أمثلتها : خدای نامه ، الأدب الكبير ، الأدب الصغير ، والسكا نامع و اختيار نامه ، و سيرة أزدشير وأنوشران ... أقنعت الناس أن للفرس السياسة والأدب والحدود والرسوم كما اقتنع الناس من ترجمة غيرها أن «الروم العلم والحكمة والهند الفكر والروية والحقيقة والسرور والأناة والترك الشجاعة والإقدام ... »^(١) وزاد في الاقتناع بذلك أن جمهرة الكتاب التي اتخذها الخلفاء العباسيون أعواضاً على الإداره كانت من الإيرانيين . وقد أجباب أنصار الفكر الإغريقي على ذلك بترجمة كتب السياسة الإغريقية : لأفلاطون وأرسطو ونخلوا الإغريق أحياناً ما لم يكتبو ، كما فعل يوحنا بن البطريرق ترجمان المأمون في كتابه سر الأسرار لتأسيس السياسة وتدبير الرياسة^(٢) وذلك رغبة منهم في إثبات الفكر السياسي الإغريقي أمام الفارسي ... وبين هذا وذاك وجد متكلمو الإسلام والمفكرون المجادلون دونه أنهم بدورهم مطالبون بصياغة الفكر السياسي الإسلامي ، من خلال العقيدة والتاريخ ومن هذا المزاج ، ظهر تيار من الكتب طويل كان من مؤلفيه :

— سهل بن هارون بن رامنوي المستميساني (المتوفى سنة ٢١٥ / ٨٣٠) صاحب خزانة الحكمة للمأمون وكان شديد الشعوبية وان وصف بالحافظ براعته وفضله وقد كتب كتاب تدبير الملك والسياسة^(٣) ولعله من أقدم المؤلفات في هذا الباب .

— الفتح بن خاقان بن أحمد بن عز طوح البغدادي وزير الموكيل الذي

(١) انظر أبي حيان التوحيدي — الامتعة والموانسة (ط . القاهرة ١٩٣٩) ج ١ ص ٧٤ .

(٢) نشر هذا الكتاب وأثبت انتقاله على الإغريق عبد الرحمن بدوري في كتابه (الأصول اليونانية للنظريات السياسية الإسلامية — القاهرة ١٩٦٤) .

(٣) ابن النديم — الفهرست ص ١٢٠ والحافظ — البيان والتبيين ج ١ ص ٢٤ .

قتل معه سنة ٢٤٧ وله بين كتبه العديدة كتاب أخلاق الملوك^(١).

— ويعزى كتاب بالعنوان نفسه أيضاً إلى رجل من حاشية الفتح بن خاقان هو محمد بن الحارث التغلي^(٢).

— أبو الحسن علي بن ربن الطبرى الطبيب النصراني (المتوفى حوالي سنة ٢٤٧) وقد أسلم على يد الم توكل وكتب كتاب الدين والدولة مرج فيه التاريخ بالمناقشة الفلسفية لإثبات تفوق الإسلام «وفساد اليهودية وبطلانها ومخازي الشنية والدهرية وضلالها ...» وقد أعاشه الم توكل نفسه على كتابة هذا الكتاب^(٣) وقد ذكر ابن النديم لابن ربن كتاب تحفة الملوك أيضاً.

— الباحظ (سنة ٢٥٥) وله بين كتبه المشهورة الكثيرة كتاب التاج في أخلاق الملوك وثلاثة أرباع الكتاب من التاريخ الإسلامي والفارسي وباقيه أفكار وآراء فكرية لتنظيم علاقة الملك بالحاشية والناس . وقد أهداه الباحظ للفتح بن خاقان .

— ابن أبي طاهر أبو الفضل أحمد (سنة ٢٨٠) صاحب تاريخ بغداد كتب بدوره : كتاب خبر الملك العالى في تدبير المملكة والسياسة .

— أبو أحمد عبيد الله بن عبد الله (سنة ٣٠٠) له كتاب الرياسة في السياسة.

— أبو زيد البايخي أحمد بن سهل (سنة ٣٢٢) وقد كتب : كتاب السياسة

(١) المسعودي - مروج الذهب ج ١ ص ١٤ وهدية المارفون ج ٢ ص ٨١٤ والفتح بن خاقان هذا هو غير سيه الآشر الإشبيلي الأندلسي الوزير المقتول أيضاً سنة ٥٢٨ بمراکش ، مؤلف قلائد العقیان ومطبع الأنس وغیرهما ...

(٢) انظر ابن النديم ص ١٤٨ .

(٣) كان الكتاب قد طبع في مانشستر سنة ١٩٢٣ وقد طبع بالمرية في بيروت سنة ١٩٧٣ بتحقيق عادل نويصيف .

الكبير وكتاب السياسة الصغير^(١).

— السرخيسي أبو الفرج أحمد بن الطيب وله كتاب السياسة ، وكتاب أدب الملوك^(٢).

— أبو جعفر أحمد بن يوسف بن ابراهيم النجم المصري (بعد سنة ٣٣٠) المعروف بابن الديمة المؤرخ وقد كتب كتاب العهود اليونانية نحمله لليونان وهو من وضعه في قواعد السياسة^(٣).

— أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمي القررواني (سنة ٤١٢) وله من جملة كتبه كتاب أدب السلطان والتأدب له في عشر مجلدات كتبه وهو في خدمة العزيز بالله الفاطمي^(٤).

— الخطيب الاسكافي أبو عبد الله محمد بن علي (سنة ٤٢١) وله كتاب لطف التدبر في الرياسة ومنه خطوط في مكتبة أحمد الثالث باستانبول رقم ٢٦٣٣.

— هلال الصابيء أبو الحسن بن المحسن (سنة ٤٤٨) الكاتب المؤرخ وله أيضاً كتاب السياسة.

— وقد عاصره الماوردي أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصري (سنة ٤٥٠) صاحب كتاب الأحكام السلطانية في الولايات الدينية الذي اشتهر بسبب ارتباطه بمؤسسات الدولة رغم طابعه الفقهي النظري . وللماوردي كتاب آخر على المنهج نفسه هو سياسة الملك .

— القراء أبو يعلى محمد بن الحسين الحنبلي (سنة ٤٥٨) وقد عاصر الماوردي

(١) ابن النديم - الفهرست ص ١٣٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٤٩ .

(٣) نشره عبد الرحمن بدوي في كتابه الأصول اليونانية .

(٤) الصندي - الرواقي ج ٢ ص ٣٠٤ - ٣٠٦ .

وكتب كتاباً بالعنوان نفسه الذي كتب به الماوردي : الأحكام السلطانية وليس من خلاف كثير بين الكتابيين سوى اضافة وجهة النظر الحنبلية في بعض الأمور .

- نظام الملك الحسن بن علي الطوسي الوزير (القتيل سنة ٤٨٥) وقد ألف خلال وزارته الطويلة للسلطان ملكشاه السلجولي كتاب سياسة نامه بالفارسية أو سير الملك وجعله على تسعه وثلاثين فصلاً نُثر فيها آراءه في إقامة الدولة وتنظيمها مع الشواهد التاريخية .

- وكتب الإمام الغزالي أبو حامد محمد بن محمد بن محمد (سنة ٥٠٥) بالفارسية أيضاً كتابه : التبر المسبوك في سياسة الملوك ، الذي ترجم في القرن التالي إلى العربية وبقي إلى اليوم فخر فرهنگ العربية بهذه الترجمة؛ وقد تكاثرت أمثل هذه الكتب في القرن السادس وخاصة في ظل حكم نور الدين وصلاح الدين اللذين أنعشما بأعمالهما الفكر الإسلامي :

- كتب الطرطشي أبو بكر محمد بن الوليد بن خلف الفهري (سنة ٥٢٠) كتاب سراج الملوك وهو مطبوع .

- وألف نظامي عروضي السمرقندى الوزير (سنة ٥٦٠) كتاب جهار مقالة بالفارسية وجعله أربع مقالات في كل مقالة عشر قصص تاريخية تعلق بأركان الملك الأربع : الكاتب والشاعر والمنجم والطبيب .

- وكتب ابن ظفر المكي أبو عبد الله محمد بن محمد التحوي (سنة ٥٦٨) كتاب : سلوان المطاع في عدوان الطياع ، وجعله في قوانين الحكمة ونوارد أخبار السلاطين على لسان الطيور والوحوش . وبالرغم من أنه كتبه لبعض القواد في صقلية إلا أنه انتشر في مصر والشرق وترجم بسرعة إلى الفارسية في القرن السابع .

- عبد الرحمن بن نصر الشيزري (سنة ٥٨٩) وله كتاب المنهج المسلوك .

في سياسة الملوك ، ومنه مخطوطات في استانبول (أحمد الثالث رقم ٣٠١٤) ودار الكتب بالقاهرة (٢٩٢٧ أدب) وقد طبع .

— ابن الجوزي الإمام أبو الفرج (سنة ٥٩٧) وله حسن السلوك إلى مواعظ الملوك ، ومنه مخطوطات عديدة في أيا صوفيا (رقم ٤٨٢٥)^(١) وغوطا رقم (١٨٨٠) والمتحف البريطاني .

— ابن المهندس أبو الفضل محمد بن عبد السكرين بن عبد الرحمن الحارثي الدمشقي (سنة ٥٩٩) ومن تصانيفه كتاب الحروب والسياسة .

— القناوي أبو الحسن شيث بن ابراهيم بن محمد (سنة ٥٩٩) وقد كتب : تهذيب ذهن الوعي في اصلاح الرعية والراعي .

— وثمة مخطوط مجهول المؤلف في مكتبة البو دليان بأكسفورد (Or Sale 74) من القرن السادس بعنوان ايضاً كتاب المسالك وتدبير الدول والممالك .

— وكتب ابن ماتي أسعد بن المذهب (سنة ٦٠٦) صاحب قوانين الدوافين كتاب حجة الحق على الخلق في التحذير من سوء عاقبة الظلم وبيان حسن السياسة وهو كبير وكان صلاح الدين يدlim النظر فيه وقال القاضي الفاضل وقت من الكتب على ما لا تمحص عدته فما رأيت والله كتاباً يكون قبلة باب منه . وإنه والله من أهم ما طالعه الملوك^(١) .

— ابن ظافر الأسداني جمال الدين علي بن ظافر بن الحسين الوزير (سنة ٦١٣) وله بين كتبه العديدة كتاب أساس السياسة^(٢) .

— ابن حمويه الجوني أبو محمد عبد الله بن عمر بن علي (سنة ٦٤٢) وقد كتب كتاب السياسة الملكية^(٣) .

(١) انظر المقريري - الخططج ٣ ص ٥٩ .

(٢) هدية المعرفين ج ٢ ص ٧٠٦ .

(٣) سبط بن الجوزي - مرآة الزمان ج ٨ ص ٧٤٨ وابن كثير البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٦٥ .

- ابن الحداد محمد بن منصور بن حبيش الوعاظ ، وقد كتب الجوهر التنيس في سياسة الرئيس . ونسخة المؤلف بخطه ما تزال محفوظة في مكتبة أبياصوفيا باستانبول رقم (٤٨٢٤) ^(١) .

- الأمير ابن ندى البجزري محظي الدين بن الصاحب شمس الدين المتوفى بدمشق سنة ٦٥١ وكان صاحب البجزرة وقد كتب عدة كتب سياسية هي : لطائف الواردات ، معلم التدبير ، مرشد الملك ، ضوابط الملك ، وظائف الرئاسة والتذكرة الملوكية ^(٢) .

- سبط ابن الجوزي يوسف بن قزأوغلو (سنة ٦٥٤) صاحب مرآة الزمان قوله : كنز الملوك في كيفية السلوك ^(٣) .

- ابن أبي الربيع شهاب الدين أحمد بن محمد (المتوفى حوالي أواسط القرن السابع) ألف لل الخليفة المستعصم آخر خلفاءبني العباس كتاب سلوك المالك في تدبير المالك (وهو مطبوع) .

- وجاء في نهاية القرن السابع ابن الطقطقى فكتب كتاب الفخرى في الآداب السلطانية يجعل نصفه لوصف الحكم المثالى ولقواعد السياسة والنصف لتلخيص التاريخ الإسلامي كله .

وسوف تستمر هذه السلسلة وتتوسع أكثر التوسع في القرون التالية .

وأما كتب الإمامية : فقد تفرد هذا الموضوع وانتزع من ضلع البحث السياسي الفكري وحده لأنّه كان المحور الذي قامت من حوله خلافات الدنيا الإسلامية منذ أيامها الأولى . وإذا كان الجدل حوله سياسياً في صدر الإسلام الأول فقد تحول مع الأيام إلى جدل تاريخي - سياسي من جهة كما دخلته معطيات الفكر الفلسفى ورواسب الديانات الأخرى من جهة ثانية ، فإذا

(١) الصندي - الواقي بالوفيات ج ١ ص ١٧٢ - ١٧٣ .

(٢) كشف الغلوون ج ١ ص ١٥١٩ .

به يتضخم على الأيام ككرة الثلج وتتفتح فيه مذاهب بعد مذاهب من الرأي . وإذا كان الشيعة أولاً والخوارج هم الذين حددوا أركان نظريةاتهم في الخلافة وكتبوا في ذلك الرسائل والمؤلفات فقد كان طبيعياً أن يتبلور الجدل مع الأيام وخاصة بعد أن وطد العباسيون المذهب الشيعي في عصرهم الأول فيدخل على نظرية الإمامية أمور من الفلسفة والتاريخ والفقه والمنطق والأدب .

ومن الصعب أن نتابع كل فرقة فيما ألفت حول هذا الموضوع ولكن من المؤكد أن نظريات الإمامية ولا سيما الشيعية منها قد دخل عليها السكير من المطبيات الفكرية الفلسفية التي تalamع مع تطور المذهب الباطني وتعقد ب بصورة خاصة . وقد كانت الكتب الأولى في الإمامية أكثر تبسيطًا بكثير وأكثر اعتماداً على المطبيات التاريخية من الكتب المتأخرة التي يظهر فيها أثر الفقه والمنطق والآلهيات ... وإذا بكسر الخوارج (ونحاشة الأباضية) والشيعة في جمع الأدلة التاريخية والدينية والسياسية والفلسفية والمنطقية على صدق نظرتهم فقد اضطرت السنة بالمقابل لمحارتهم واللحاق بهم وكثيراً ما كانت كتب السنّيين تأخذ شكل «الرد على ... » مثل كتاب الباقلاني أو شكل الاستعراض لمختلف الفرق والنحل مثل كتاب ابن حزم والشهرستاني ، كما كانت كذلك كتب الخوارج وكثير منها في الرد على المرجنة وعلى المعتزلة وعلى الشيعة ... وقد ضاع الكثير من كتب الجدل حول الإمامية من مختلف الفرق منذ زمن طويل وابن النديم في أواخر القرن الرابع يكتب معرضاً يجهله كتب الخوارج قائلاً: «ولعل من لا نعرف له كتاباً قد صنف ولم يصل إلينا لأن كتبهم مستورة مخوّلة»^(١) .

ومن المؤلفين القداماء في الإمامية :

— ابراهيم بن اسحق الأباضي (سنة ١٤٥) وله كتاب الإمامية ولا شك أنه يعكس رأي الخوارج الأباضية^(٢) .

(١) ابن النديم — الفهرس ص ١٨٢ .

(٢) نفس المصدر ص ١٨٣ .

- الناجي الميم بن الهيثم وكتاب الإمامة الذي كتب هو بدوره أباً ضبي .
- وكان علي بن اسماعيل بن ميم التمار الطيار أول من تكلم في مذهب الإمامة الشيعي وكتب كتاب الإمامة . وكان جده من أصحاب الإمام علي .
- وهناك أبو محمد هشام بن الحكم مولى شيبان ، وهو أحد أصحاب جعفر الصادق ومن كبار متكلمي الشيعة ، وقد توفي فيما بين نكبة البرامكة وخلافة المؤمنون ولهم كتاب الإمامة .
- مؤمن الطاق (ولقبه أهل السنة شيطان الطاق) أبو جعفر محمد بن النعمان الأحول من أصحاب الإمام الصادق وقد كتب كتاب الإمامة أيضاً ...

ويتوالى المؤلفون بعد ذلك من الشيعة الإمامية : الشكال صاحب هشام ابن الحكم ، وأبو جعفر بن محمد بن قبة ، ثم أبو سهل اسماعيل بن علي التويجتي صاحب كتاب الاستفقاء في الإمامة وابن أخته أبو محمد الحسن بن موسى التويجتي وكلاهما متكلم مشارك في الفلسفة والمنطق والكلام مؤلف فيها . ثم يأتي السوسنجردي ، والطاطري ، والحوالقي وأبو عبد الله ابن مملوك الخضرمي^(١) وهناك من مؤلفي الشيعة الزيدية في الإمامة : أبو الحارود وهو أبو النجم زياد ابن المنذر العبدلي ، وفضيل الرسان بن الزير ، وأبو خالد الواسطي وابن أبي الأسود والحسن بن صالح ابن حي ومقاتل بن سليمان ...^(٢) .

ومن العلماء والمؤرخين المؤلفين في الإمامة أيضاً :

- الواسطي أبو عبد الله محمد بن زيد من كبار المتكلمين (توفي سنة ٣٠٦)

(١) يراجع في هذه الأسماء وما قبلها المصدر السابق فيما بين ص ١٧٥ - ١٧٨ .

(٢) انظر في هؤلاء ابن النديم - الفهرست ص ١٧٨ و ١٧٩ .

(٣) لا نذكر هنا الكتاب المنسوب إلى ابن تقية (سنة ٢٧٦) المسي الإمامة والسياسة فهو كتاب تاريخ لا سياسة ولا يظهر فيه تأثير الفلسفة والعلوم على التاريخ .

« وله كتاب الإمامة وقد جُود فيه » .

— ابن أبي ثلح أبو بكر محمد بن أحمد البغدادي الكاتب (٣٢٥) وله :
تاریخ الأئمۃ .

— المسعودي (سنة ٣٤٦) وينجد في قائمة كتبه كتباني : الاستبصار في الإمامة والصفوة في الإمامة . وقد لخص هو نفسه موضوع الأول بقوله إن فيه وصف أقاويل الناس في ذلك من أصحاب النص والاختيار وحجاج كل فريق . كما قال عن الثاني إن فيه « ضروب علم الظواهر والبواطن والجلي والنفي والدائر والموافق ... » وفي ذلك ما يكفي لبيان وقوف الكتابين على العدوة بين التاريخ والفلسفة .

— أبو الحسين الملقي (سنة ٣٧٧) وله كتاب التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ونبشته المخطوطة في الظاهرية بدمشق (وقد طبع سنة ١٩٤٩ في القاهرة) .

— وثمة رسالة في الإمامة مخطوطة في مكتبة الاسكندرية (رقم ٣٨٤٣ ج) لعلها من تأليف الوزير أبي القاسم اسماعيل بن عباد الملقب بالصاحب (المتوفى سنة ٣٨٥) وابن النديم يذكر له كتاب الإمامة في تفضيل علي ^(١) .

— وكتب الطبرى محمد بن جریر بن رستم (غير صاحب التاريخ) من رجال القرن الرابع كتاب : دلائل الإمامة وهو على المذهب الشيعي (طبع في النجف سنة ١٩٤٩) .

— وكتب أبو عبد الله بن رزام (من القرن الرابع) كتاب الرد على الإمامية .

— كما كتب سعد بن محمد أبو عثمان الغساني القيرواني التحوى كتاباً في الرد على الملاحدة .

(١) ابن النديم — الفهرس ص ١٣٥ .

— وكتب الباقلاي أبو بكر محمد بن الطيب (سنة ٤٠٣) منطلقاً من مذهبه السنّي كتاب التمهيد في الرد على المحدثة والمعطلة والرافضة والخوارج والمعزلة . ومناقشته تقوم بين التاريخ والفلسفة ، كما كتب كتاب : كشف الأسرار وهتك الأستار في الرد على الباطنية .

— الشیخ المفید محمد بن محمد النعمان البکری البغدادی (سنة ٤١٣) وقد کتب بین کتبہ الكثیرة : الإفصاح فی إمامۃ علی بن ابی طالب (مطبوع)

— البغدادی أبو منصور عبد القاهر بن طاهر (سنة ٤٢٩) صاحب كتاب الفرق بین الفرق .

— المرتضی علی بن الحسین (سنة ٤٣٦) وله : الشافی فی الإمامة (مطبوع).

ويلاحظ منذ مطالع القرن الخامس أن کتب الخوارج حول هذا الموضوع قد انقطعت منذ فترة طويلة وأن کتب الشیعة قد استقرت على الشكل الجدلی وعلى التصعيد في حرمة البيت العلوی وبعضها انقطع بعد أن اطمأن إلى قیام خلافة أخرى لآل البيت في مصر (الفاطمیة) ، وأنظمة متعددة هم في موقع متفرقة (المغرب مثلاً وطبرستان) بينما اتجهت الكتب السنّية الباحثة في هذا الموضوع إلى «تبظیر» الخلافة العباسیة ووضع القواعد والنظريات والحدود والمراسيم لها كجزء من نظام الكون كله ، ومن واقع ما جرى في التاريخ العباسی . ويتجلى هذا خاصّة في كتاب الماوردي والفراء (الأحكام السلطانية) اللذين ظهرا في أواسط القرن الخامس .

وهكذا فإن الكتب المقلبة تأخذ كلها طابع الجدل الفكري النظري والمناقشة التي تستند إلى الفقه والفلسفة وعلم الكلام أكثر مما تستند إلى التاريخ ولم يكن السبب في ذلك فقط أن الحجج التاريخية قد تلجمت وانقطعت ولكن بسبب أن الحصمين الأساسيين اللذين كانوا يقفان في تلك الفترة للخلافة العباسية هما : الشیعة الإمامية التي مشت في طريق الجدل النظري دون العمل الثوري والباطنية التي انتشرت وفشت بين الناس بسبب ظهور الفاطميين وتنظيمهم الدعوة

وإقامة مراكز «الأزهر» لها ولدعاتها . والباطنية تقوم على قاعدة فكرية فلسفية واسعة وهذا أخذت مشكلة الإمامة منذ القرن الرابع والخامس شكل البحدل بين الفريق العباسي ، والفريق الفاطمي الباطني وضمن هذا الإطار كان بين المؤلفين :

— على بن سعيد الإصطخري (من مطالع القرن الخامس) كتب كتاباً في الرد على الباطنية .

— وفي الوقت نفسه ألف معتري آخر هو اسماعيل بن أحمد البستي كتاباً بعنوان : كشف أسرار الباطنية . منه نسخة خطوطية لدى المستشرق غريفيني في ميلانو .

— محمد بن مالك بن أبي الفضائل الحمادي اليمني (أواسط القرن الخامس) من فقهاء السنة في اليمن وقد كتب (كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة) ومنه نسخة خططية في دار الكتب بمصر وطبع سنة ١٩٣٩ م.

— الجوياني عبد الملك بن عبد الله المعروف بإمام الحرمين (سنة ٤٧٨) وقد كتب كتاب غياث الأمم في التباث الظلم يتحدث به عن الإمامة . ومنطلقاته سنية عباسية تتناول صفات أهل الحل والعقد وصفات الإمامة والمناسبات التي توجب الزعامنة والطواريء التي توجب الخلع والانخلاع وإمامية المفضول كما يعني بالحديث عن الأئمة والولاة . ومنه خطوط في دار الكتب بالقاهرة (التيمورية) رقم ٨ اجتماع ، ونسخ أخرى في بلدية الاسكندرية (رقم ٩٢ تاريخ) .

— الإمام الغزالى أبو حامد محمد بن محمد بن محمد (سنة ٥٠٥) نصب من نفسه مدافعاً عن نظرية الإمامة العباسية في كتابه المستظهرى الذي دعى أيضاً بفضائح الباطنية لأنّه كتبه في غمرة استفحال أمر الباطنية الإسماعيلية خاصةً وانتشار ارهابهم في الناس وفند أعمالهم وعتقداتهم في الإلهيات والنبوات والإمامية والقيامة والتکاليف الشرعية وفي التأويل

الباطني ... وانتهى « بإقامة البراهين الشرعية على أن الإمام القائم بالحق الواجب على الخلق طاعته في عصرنا هذا (عصر الغزالي) هو الخليفة المستظہر بالله ... ».

— وكتب مجهول لعله من القرن السادس (المجري) كتاباً « في ذكر الإمامة وما يتعلق بوجوبها وجوائزها والأحكام الخاصة وال العامة وإقامة الأدلة والبراهين على صحتها ... » وهو خطوط كتب بخط عمر ابن ابراهيم الواسطي سنة ٦٣٢ نسخة في مكتبة فيض الله باستانبول (رقم ١١٧٢).

— وكتب ابن الحشاب أبو محمد عبد الله بن أحمد البغدادي التحوي (المتوفى سنة ٥٦٧) كتاباً في تاريخ الأئمة منه نسخة مخطوطة في إيران.

وتظهر بعد القرن السادس ، وبين الفينة والأخرى كتب في الموضوع لا تعدو أن تكون أصداء وتكراراً للقديم ومنها ما كتبه :

— سبط ابن الجوزي في كتابه تذكرة الحواصن ، وخصوص الأئمة .

— ابن طاووس رضي الدين أبو القاسم علي بن موسى بن جعفر (سنة ٦٦٤) وله على المذهب الشيعي اليقين في إمرة أمير المؤمنين . وكشف المحجة لثمرة المهجحة .

— الأربلي أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح (سنة ٦٩٣) وله على التشيع أيضاً كتاب كشف الغمة في معرفة الأئمة .

ولقد وددنا لو كان في الوسع تناول هذه الكتب وما فيها بشيء مهما قل من التحليل والمقارنة لولا أن الموضوع يخرج بنا خارج نطاق البحث المحدد . على أنه يجب أن لا تفوتنا هنا تسجيل ملاحظة هامة هي أنه ما من شك في أن دراسة عن قرب أكثر إلى هذه الكتب المتشابهة الموضوع خلال العصور المتالية من شأنها أن تكشف الكثير من المفاهيم السياسية والدينية العميقة للعصور التي

صدرت فيها . وتكشف بصورة خاصة تطور النظرية السياسية الإسلامية تحت تأثير التاريخ المعاش ، والأحداث التي اغتنت بها التجربة السياسية للشعوب الإسلامية .

(ج) وتأثير التاريخ إلى هذا وذلك كله بنمو الجغرافيا وتكاثر رحلات الناس . وإذا كانت الحضارة الإسلامية العباسية حضارة « التاجر » فإن الفترة ما بين القرن الثالث حتى أوائل الرابع كانت الفترة التي بلغ فيها ذلك التاجر أوج نشاطه وتنقله واطلاعه على مختلف البلدان والطبع والأجناس والمناطق والامتراج بها .

أن نوعاً من النوع العلمي لأنواع المعرفة قد ظهر في القرن الرابع وهذا « النوع » ميزة من ميزات العصور المتوجهة نحو الاشباع الثقافي ونحو فرات الأوج الحضاري . وإذا كان القرن الرابع فيما يذكرون هو قرن الجغرافيا لأن كافة الكتب الأساسية فيها إنما ظهرت في هذا القرن فإنه كلملك قرن التاريخ ، وقرن تأثر التاريخ بهذا الفيصل من المعلومات الجغرافية ، مما نجم عنه ظهور جيل من المؤرخين الجغرافيين .

ولعل أبرز من تمثل فيه التأثر بالجغرافيا من المؤرخين هو المسعودي في كتابيه الباقيين (مروج الذهب) و (التبنيه والاشراف) فقد كان لا ينقطع ، كلما سنت الفرصة ، و وخاصة في الأجزاء الأولى ، عن ايراد المعلومات الجغرافية العامة التي جمعها أو قرأها وهي خليط من الجغرافيا الفلكية والبشرية والتاريخية والطبيعية .

ويشبه المسعودي في التأثر الجغرافي اليعقوبي الذي قال عن نفسه « ... أني عنيت في عنفوان شبابي ... بعلم أخبار البلدان ... لأنني سافرت حديث السن واتصلت أسفاري ودام تغريبي فكنت متى لقيت رجلاً من تلك البلدان سأله عن وطنه ومصره ؟ وعن بلده ؟ ... زرعه ما هو ؟ وساكنيه من هم عرب أو عجم ؟ ... وعن شرب أهله حتى أسأل عن لباسهم ... ودياناتهم ومقاليهم

والغالين عليه ... واستظهر بمسألة قوم بعد قوم ... حتى سالت خلقاً كثيراً ... من أهل المشرق والمغرب وكثبتت أخبارهم وذكرت من فتح بلداً .. بلداً وجند مصرأً مصرأً من الخلفاء والأمراء وبلغ خراجه وما يرتفع من ماله ... »^(١)

غير أن اليقoubi الذي جمع بهذا الشكل الاستقرائي التراكمي « علم أخبار البلدان » فصل علم الأخبار عن البلدان عند التأليف يعكس المسعودي فجعل التاريخ كتاباً وللبلدان كتاباً آخر وإن كان كل منها متأثراً أوسع التأثير بالآخر . ونجد التأثر ذاته وإن يكن على شكل إقليمي لا عالمي في تاريخ المستبصر الذي كتبه :

— ابن المجاور الدمشقي (?) أبو الفتح يوسف بن يعقوب (بعد سنة ٦٣٠) فجاء الكتاب كتاب جغرافيا بشريه وتاريخيه أكثر مما هو تاريخ لمنطقة جنوب الجزيرة العربية وعمان .

ولقد كانت المعلومات الجغرافية في كتب التاريخ قليلة قبل القرن الرابع وذات صبغة عملية : إدارية — شرعية تتصل بعلاقات الشعوب في الدولة الإسلامية مع نظام الحكم كما يتجلى ذلك في كتب الفتوح (فتح البلاذر مثلاً) وكتب الخطط . أما بعد القرن الرابع فقد كان دخول المعرف الجغرافية إلى التاريخ نابعاً من الرغبة في المعرفة وسعة الاطلاع وتتويع المصادر . وقد شجع على ذلك أن بعض كتب الجغرافيا كانت مثقلة بأخبار التاريخ مثل كتاب ابن حوقل (صورة الأرض) وكتب المسالك والمالك ...

غير أن المؤرخين ، بعد القرن الرابع ، لم يذهبوا قدماً مع هذا التأثر الذي انحصر فيما بعد في اتجاهات خمسة :

الأول : فاما في كتب التاريخ العامة (العالمية) فان من تابعوا الطبرى في خطه التاريخي (مثل ابن الأثير) لم يأبهوا كثيراً بالوصف الجغرافي للأقاليم

(١) اليقoubi — البلدان (ط . دى غويه) من ٢٢٢ .

رغم أن عدداً منهم قد أقرّ (مثل مسکویه) بأنّ أخبار البلدان تشكل مجموعة خاصة من المصادر التاريخية التي يمكن للمؤرخ أن يستخدمها^(١) ومن تابعوا المسعودي اكتفوا بإيجاد تقليد في التأليف التاريخي يقضي ببدء المؤلفات بلمحات جغرافية عامة عن المناطق والأقاليم في الأرض ، ونجد ذلك واضحاً في المنظمه وموجزه شذور العقود لابن الجوزي وفي الجزء الأول من مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي ... وفي البداية والنهاية لابن كثير فيما بعد ولدى العيني والدواداري ...

الثاني : وأما في كتب التاريخ الإقليمية فقد جرى تقليد آخر من النوع نفسه هو التمهيد للبحث التاريخي بنظرة جغرافية طبغرافية للإقليم : جباله وأنهاره ومدنـه وأديانـه وسكانـه . ومن أمثلـة ذلك كتاب الإكليل للهمـداني في تاريخـ الـيـمـنـ وكتابـ بغـيةـ الـطـلـبـ فيـ تـارـيـخـ حـلـبـ لـابـنـ العـدـيمـ وكتابـ الـاعـلـاقـ الـخـطـيرـةـ فيـ ذـكـرـ أـمـرـاءـ الشـامـ وـالـجـزـيرـةـ لـعزـ الدينـ بنـ شـدادـ .

الثالث : ومثل ذلك التقليد جرى في التواريـخـ الـبلـدـانـيـةـ المـتـعـلـقـةـ بـالـمـدـنـ وـبـخـاصـةـ بعدـ المـقـدـمةـ الطـبـغـافـيـةـ الـتـيـ قـدـمـ بـهـ الـحـطـيبـ الـبـغـادـيـ لـتـارـيـخـ بـغـادـ وبعدـ شـهـرـ هـذـاـ التـارـيـخـ شـهـرـ شـهـرـ جـعـلـتـهـ النـمـوذـجـ لـلـاحـتـذـاءـ فـلـاـ يـكـادـ يـخـلـوـ تـارـيـخـ مـدـيـنـةـ مـنـ مـقـدـمةـ طـبـغـافـيـةـ .ـ وإـذـاـ تـرـكـناـ جـانـبـاـ مـثالـ تـارـيـخـ مـكـةـ وـالـمـدـيـنـةـ وـنـفـصـيـلـ مـوـاقـعـهـ مـاـ يـرـجـعـ إـلـىـ حـاجـاتـ الـحـجـيجـ وـالـعـبـادـاتـ الـدـيـنـيـةـ فـإـنـ الـرـشـحـيـ قـدـ قـدـمـ لـتـارـيـخـ بـخـارـىـ بـمـقـدـمةـ طـبـغـافـيـةـ ،ـ كـتـبـ مـثـلـهـ أـبـوـ نـعـيمـ لـكـتابـهـ تـارـيـخـ أـصـفـهـانـ ،ـ وـالـحـسـنـ أـبـنـ مـحـمـدـ الـقـمـيـ لـتـارـيـخـ قـمـ وـالـمـقـضـلـ الـمـافـرـوـخـيـ فـيـ مـحـاسـنـ أـصـفـهـانـ .ـ وـنـجـدـ التـنـظـيمـ نـفـسـهـ فـيـ تـارـيـخـ دـمـشـقـ لـابـنـ عـساـكـرـ الـذـيـ خـصـصـ جـزـءـاـ وـاضـحـاـ لـطـبـغـافـيـةـ الـمـدـيـنـةـ .ـ

(١) انظر مسکویه - تجـارـبـ الـأـمـمـ ١ - المـقـدـمةـ (طـ .ـ كـاـيـانـيـ - لـيـدـنـ ،ـ لـندـنـ ١٩٠٩ـ) .ـ

الرابع : ذكر خطط المدن : ولم يكن يقصد بها ذكر تخطيط المدينة القائمة زمن المؤلف ولكن تخطيطها التاريخي والأثري . وقد ظهر هذا النوع من التأليف قبل ظهور التأثير الجغرافي . وأمّا السبب في ظهر من أسماء المدن التي اتبّعه التأليف الأول إليها : فهناك خطط الكوفة للهيثم بن عدّي وخطط البصرة له أيضاً وكتاب القبائل والخطط لأبي زكريا الأزدي صاحب تاريخ الموصل ، وهذا يعني حفظ منازل العرب في أماكنهم الجديدة . ويعني أيضاً أنه تأليف خاص بالمدن الإسلامية المنشآ .

غير أن هذا النوع من الدراسة الطبقية الأثرية لم يجد صدى له إلا في مصر (القسطاط) فهناك استقر واذهر وظلت كتب الخطط تظهر تباعاً للفسطاط فالقطائع فالقاهرة حتى القرن التاسع الهجري (١٥ ميلادي) وكان ممّن عمل على ذلك :

– الكندي أبو عمر محمد بن يوسف التجيبي (٩٦١ / ٣٥٠) صاحب كتاب الولادة والقضاء وقد كتب من جملة كتبه : كتاب الخطط عن إنشاء القسطاط وأحيائها ومعاهدها وآثارها . فهو حسب قول المقرئي أول من رتب خطط مصر وآثارها .

– وبعد قرن جاء القضايعي : أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر الشافعي (١٠٦١ / ٥٥٤) فكتب : المختار في ذكر الخطط والآثار .

– ابن هلال الصعيدي النحوي أبو عبد الله محمد بن بركات (٥٢٠ / ١١٢٦) وقد كتب تاريخ خطط مصر .

– الجواني شرف الدين أبو علي محمد بن أسد نقيب الأشراف (٥٨٨) وله خطط مصر .

ثم جاء ابن عبد الظاهر بعد ذلك ، وابن المترجم الذي كان آخر من

كتب خطط مصر قبل المcriزي .

الخامس : ذكر المنازل والديار والموقع في الجزيرة العربية . ذلك أن علاقات هذه الواقع بالتاريخ العربي والأدب والشعر واللغة جعل من الضروري معرفة تلك الواقع وتاريخها . ومن ذلك مثلاً :

- كتاب الرمخنري (٥٣٨) المسمى كتاب الجبال والبقاء والمياه .
- وكتاب ابن عراق أبي الحسن علي بن محمد الخوارزمي العماني (سنة ٥٦٠) المسمى : اشتقاد أسماء المواقع والبلدان .
- وكتاب الإسكندرى أبي الفتح نصر بن عبد الرحمن الطوسي (٥٦٠) المسمى أسماء البقاء .

وقد اختصره من بعده مؤلفان : أبو موسى محمد بن عمر الأصبهاني (سنة ٥٨١) وأبو بكر محمد بن موسى الحازمي (سنة ٥٨٤) وكلها تمزج التاريخ بجغرافية الواقع وخاصة في الجزيرة العربية .

٥ - أثر التمزق السياسي

وتأثير التاريخ في هذه الفترة بالتمزق السياسي الذي أصاب الشرق الإسلامي العباسي منذ أواخر القرن الثالث . وبالرغم من أن هذا التأثير هو موضوع جدل ولا تستطيع أن تؤكده إلى أي حد يمكن اعتبار « محلية » التاريخ هي المقابل في الحياة الفكرية لفقدان الوحدة السياسية إلا أنها لا تستطيع اهمال هذه الظاهرة . ذلك أن ضعف المركز السياسي (بغداد) الذي سمح للقوى المحلية في أنحاء الخليفة العباسية بأن تنمو وتتلاً حليودها الخاصة قد رافقه في الوقت نفسه ظهور تواریخ محلية مستقلة عن تاريخ الوحدة السياسية الواسعة للمخلافة العباسية ، كما وازاه أيضاً وكصدى للحكم الاستبدادي ولبروز الشخصيات الحاكمة من جهة

ولحكم الأسر وبروز الأسر الصغرى المتسلطة من جهة أخرى ظهور السير للشخصيات البارزة من سياسية وعلمية وظهور التواريix الخاصة للأسر المحلية الصغيرة . وإذا هزت بعض الأحداث الفاجعة التي تعرض لها دون انقطاع أبناء الأسرة العلوية والطالييون بصورة عامة فظل الشيعة يعملون على تسجيل ذلك باستمرار تحية لآل البيت وتنجعاً وتأكيداً للولاء وشحذاً لعزم الفرق الشيعية فإن الاهتمام بالمواضيع المحددة قد ضعف بالمقابل وأخذت تخبو تلك الطريقة ، الأخبارية الأصل ، في التأريخ لبعض الأحداث المهمة ، بكتب أو رسائل خاصة .

وهكذا فإن التواريخ العالمية التي توجت وأعقبت عصر النضج السياسي العباسي والتي تمثلت في تاريخ الرسل والملوك للطبراني (المتوفى سنة ٣١٠) وتاريخ أخبار الزمان ومن أباده الحدثان ، ومرجع الذهب ومعاذن الجوهر للمسعودي (المتوفى سنة ٣٤٦) تغيرت مفاهيمها في الوحدة أولاً فصارت مع مسكونيه (المتوفى سنة ٤٢١) تاريخ تجارب الأمم المتعددة . ثم ضعف مفهوم التواريخ العالمية الواحدة نفسه وغاب عن التأليف التاريحي ، انسجاماً مع الواقع السياسي المزق ، وغياب الوحدة الإسلامية ، فلم تعد تظهر هذه التواريخ حتى نهاية الفترة العباسية حين عادت من جديد ، مع ابن الأثير (المتوفى سنة ٦٣٠) في «الكامل» ومع سبط ابن الجوزي (المتوفى سنة ٦٥٤) في «مرآة الزمان» ...

بل ظهر الكثير من المؤلفات في التاريخ العام ولكن عناوينها تكشف مفاهيم التفرق والخصوصية فيها . وقد كانت هذه العناوين على الأشكال التالية :
إما مقتصرة على الخلفاء مثل :

— أخبار الخلفاء للدولابي^(١) أبي بشر محمد بن أحمد بن حماد الأنباري
الوراق الحافظ (المتوفى سنة ٣١١ أو سنة ٣٢٠) .

(١) السعدي — الراوي بالوفيات ج ١ ص ٥١ ، والسماني — الأنساب ورقة ٢٣٣ ظهر .

- سير الخلفاء . للرازي^(١) أبي بكر محمد بن زكريا الطبيب (المتوفى سنة ٣١١).
- تاريخ الخلفاء . للسرخسي أبي نصر زهير بن حسن بن علي الجذامي (المتوفى سنة ٤٥٤ / ١٠٦١).
- تاريخ الخلفاء . لشريويه أبي شجاع بن شهردار الممذاني (المتوفى سنة ١١١٥ / ٥٠٩).
- الأنباء في تاريخ الخلفاء . للعمراني جمال الدين محمد بن علي بن محمد (المتوفى بعد سنة ٥٦٠ / ١١٦٥).
- الاكتفاء بأنباء الخلفاء . لابن الكربلائي عبد الملك بن قاسم التوزري (المتوفى بعد سنة ٥٧٥ / ١١٨).
- تاريخ الخلفاء . للروماني (السروجي) أبي الحسن علي بن عبد الله بن أبي السرور المصري (المتوفى سنة ٦٤٨ / ١٢٥٠).
- الأصططا في أخبار الملوك والخلفاء . لابن طاوس أبي القاسم علي بن موسى الحسني الحلبي (المتوفى سنة ٦٦٤ / ١٢٦٦).
- أخبار الخلفاء (٣ مجلدات) لابن الصاعي علي بن أنجب البغدادي (المتوفي سنة ٦٧٤ / ١٢٧٥).

أو كانت مقصورة ومحددة باسم العباسين مثل :

- تاريخبني العباس . لسعفة أحمد بن اسماعيل بن عبد الله البجلي القمي الشيعي (المتوفى حوالي سنة ٣٣٠).
- أخبار العباسين . لأحمد بن يعقوب المصري (المتوفى في حدود سنة ٣٠٠) أحد مصادر المسعودي .
- أخباربني العباس . لعبد الله بن الحسين بن سعد الكاتب (المتوفى سنة ٣٧٢).

وبعد أن كانت هذه التوارييخ العامة العباسية تحمل اسم : «كتاب الدولة»

(١) المسعودي - مروج الذهب ج ١ ص ١٥ ، والصفدي - الواقف ج ١ ص ٥١ .

في القرن الثالث — وقد كتبها تحت هذا العنوان نفسه ، سبعة مؤلفين على الأقل وهم : الهيثم بن علي ، ومحمد بن الهيثم بن شابة ، وأبن ناجية وأبن النطاح وأبن مهران ، والمدائني وسلمويه والراوندي والحسن بن ميمون البصري — تحول العنوان بعد ذلك إلى « الدول » المتعددة ، فصارت العناوين :

- كتاب الدول . وقد كتبه الربيعي أبو الحسن علي بن عيسى بن الفرج الزهيري (المتوفى سنة ٤٢١) في ثلاثين مجلداً ، أو كتبه المجاشعي^(١) أبو الحسن بن فضال القيرواني (المتوفى سنة ٤٧٩ / ١٠٨٦) .
- كتاب تاريخ البلاد الإسلامية لأبي منصور ظافر بن الحسين المصري الأسدى (المتوفى سنة ٥٩٧ / ١٢٠١) .
- كتاب الدول المنقطعة لابن ظافر جمال الدين علي بن الحسن الأسدى (المتوفى سنة ٦١٣ / ١٢١٦) .
- كتاب نزهة المقلتين في أخبار الدولتين (وليس يعني بذلك الدولة العباسية بل الفاطمية والصلحية) لابن الطوير القاضي (المتوفى سنة ٦١٧ / ١٢٢٠) .
- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (النورية والصلحية) لأبي شامة عبد الرحمن بن اسماعيل الدمشقي (سنة ٦٦٥) .
- كتاب الدول لياقوت الحموي (المتوفى سنة ٦٢٦) .

بل أخذت العناوين ملامح التمزق الأوسع والتدبر المؤلم ، كما يتجلى ذلك في عناوين :

- كتاب زهر الريبع في الأخبار والتاريخ لقدامة بن جعفر (المتوفى ٣٣٧) .
- كتاب الأوراق وكتاب « الأخبار المشورة »^(٢) للصولي أبي بكر محمد ابن يحيى (المتوفى سنة ٣٣٥ / ٩٤٧) .

(١) انظر ياقوت — الأدباء ج ٥ ص ٢٨٩ .

(٢) أما الأوراق فمروءة وأما الأخبار المشورة فقد ذكره ابن خير الأنجلسي في فهرسه من ٤٠٧ .

- كتاب البداية والنهاية لابن منقد أبي الحسن علي بن مرشد بن علي الكتاني (المتوفى سنة ٥٤٥ / ١١٥٠).

وحتى حين ظهر في أواخر القرن السادس (بين سنة ٥٧٠ - ٥٧٥) كتاب المتنظم لابن الجوزي أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (المتوفى سنة ٥٩٧) وأراد صاحبه أن يجعله تاریخاً عاماً لم يكن ذلك التاريخ على ضخامته ولا سيما في نصفه الثاني المطبوع أكثر من تاريخ بغداد خاصة ومنطقة العراق المحيطة بها بصورة عامة . لقد كان ابن الجوزي يمثل في الواقع و يؤرخ تلك الفترة التي استيقظت فيها الخلافة العباسية وأصبحت فيها لا خلافة شاملة كما كانت من قبل ولكن مجرد إمارة محلية عراقية يحكمها خليفة بغداد الذي حمل بجانب اسمه الديني المحدود سلطة زمنية في منطقة العراق يومذاك . الوحيدون من المؤلفين الذين حافظوا على فكرة «الوحدة» الإسلامية ومثلوا تلك الفكرة على مستوىها نفسه من الضعف والضبابية ، وعبروا عن بقائها في النقوس رغم التمزق السياسي الظاهر هم أولئك الذين ذيلوا على الطبرى واعتبروا تواريختهم مكملاً لتاريخه . لقد كانوا يعبرون بذلك عن إيمانهم بوحدة تجارت الأمة الإسلامية ، وباستمرار تاريخها الواحد المتصل . وهكذا فان السلسلة التي توالت فيها أسماء أبي اسحق السقطي (أواسط القرن الرابع) وعربي بن سعيد (المتوفى سنة ٣٦٠) وعبد الله ابن أحمد الفرغاني (المتوفى سنة ٣٦٢) ثم هلال ابن ابراهيم الصابيء (المتوفى سنة ٤٤٧) ثم ابنه غرس التعمة (المتوفى سنة ٤٨٠) ثم محمد بن عبد الملك المهداني (المتوفى سنة ٥٢١) ثم أبي الحسن علي بن عبيد الله الزاغوني (المتوفى سنة ٥٢٧) ثم صدقة الحداد (المتوفى بعد سنة ٥٧٠) ثم أبي غالب الشيباني (المتوفى سنة ٥٩٧) ثم محمد بن أحمد القاديسي (المتوفى سنة ٦٣٤) . هذه السلسلة من أصحاب الديول المتالية إنما كانت تحاول الابقاء على التقاليد ودعم فكرة الوحدة الإسلامية بالاستمرار في كتابة التاريخ بروح إسلامية شاملة (بيان إسلامية) ولكن أعمال هؤلاء التي لم يكشف عن وجود معظمها حتى الآن قد توحى بأنها من الدرجة الثانية في القيمة التاريخية وقد تدفع إلى الاعتقاد بأنها تتركز خاصة

على العراق وعلى المناطق المتصلة به الاتصال المباشر .

وإذا لم نعتبر ضياع معظم هذه النذيرات التي كتبها هؤلاء وضياع معظم توارييخ «الأوراق» و«الدول» وتوارييخ «العباسيين» و«الخلفاء» التي سبق ذكرها دليلاً على قيمتها المتواضعة فإننا قد نفسر ذلك الضياع بأنّه الدليل على اهمال الناس لتعلقها التاريخي العام الشامل أو أنها كانت من الإقليمية بحيث لم تستطع الارتفاع ولا البرهان على وجود الوحدة الشاملة والا فمن العجيب ضياع الكثرة الكاثرة من هذه المؤلفات وأن يضيع منها خاصة كتاب «الدول» الضخم الواسع للطبراني بينما يبقى بالفعل ما ألف قبلها من تأليف الطبراني والمسعودي وما ألف بعدها على يد ابن الأثير وسبط ابن الجوزي ثم الذهبي والآخرين ...

والواقع أننا يجب أن ننتظر حتى نهاية الفترة العباسية التي ندرس أي حتى التصف الأول من القرن السابع لنرى من جديد يقطنة التوارييخ العامة الواسعة ، تبعاً ليقطنة العالم الإسلامي في وجه الغزوين الصليبي والمغولي والأزمة الخطيرة التي عاناهما ذلك العالم أمام تلك الهجمات المدمرة المديدة . ففي تلك الفترة ما بين سنة ٦٠٠ حتى ٦٥٠ ظهرت في وقت واحد مجموعة واسعة من الكتب «البان .. إسلامية» الشاملة ومن التوارييخ العامة الجامحة لمختلف نواحي الحياة الإسلامية . وإذا كان الطبراني قد كتب في مطالع القرن الرابع تاريخه الشامل فقد جاء ابن الأثير فكتب بين سنة ٦١٥ - سنة ٦٢٩ كتابه «الكامل» . وإذا كتب المسعودي بعد الطبراني مباشرة كتابه «أخبار الزمان» فقد استيقظ هذا الاسم نفسه من جديد في عصر ابن الأثير وكتب :

- ابن أبي طي يحيى بن حامد النجاشي الشيعي (المتوفى سنة ٦٣٠ / ١٢٣٣) كتابه حوادث الزمان ، جعله لأحداث التاريخ على الأحرف الأبيدية في خمس مجلدات وكتب أيضاً تاريخه الضخم الآخر : معادن الذهب في تاريخ الخلفاء والملوك وذوي الرتب ، وقد ضمّن الكتابان

إلا من بعض المقتبسات التي أخذها ابن الفرات (المتوفى سنة ٩١٠) من الكتاب الثاني .

— سبط ابن الجوزي يوسف بن قز أو غلي (المتوفى سنة ٦٥٤ / ١٢٥٦) الذي كتب (مرآة الزمان) في أربعين مجلداً ما تزال في معظمها مخطوطة موزعة في المكتبات .

— ابن نظيف الحموي أبو الفضائل محمد بن علي بن عبد العزيز الغساني الحموي (المتوفى بعد سنة ٦٣١ / ١٢٣٤) الذي كتب في عدة مجلدات كتاب الكشف والبيان في حوادث الزمان . بجانب كتابه المختصر الآخر في التاريخ العام «التاريخ النصوري» .

— ابن أبي الدم أبو اسحق ابراهيم بن عبد الله الحموي (المتوفى سنة ٦٤٢ / ١٢٤٤) وقد كتب كتاب (المقفي) على الأحرف الأربعية في مجلدات عديدة بجانب المختصر الآخر في التاريخ العام (التاريخ المظفرى) .

واستيقظ أيضاً ذلك العنوان الذي كتبه في عصر المسعودي :

— ابن سوار أبو عبد الله محمد بن الحسين (ابن أخت عيسى بن فرخان شاه) واسم تاريخه : التاريخ الجامع لفنون الأخبار . فكتب العماد الأصفهاني القاضي (وهو غير العماد الكاتب) تاريخاً بعنوان :

الستان الجامع للتاريخ .. وقد توفي العماد القاضي بعد سنة ٥٩٣/١١٩٧.

وانتشرت على التوالي التوارييخ العامة في تلك الفترة من أواخر عهد الخلافة العباسية فأعطتنا عدداً من أهم المؤلفات التاريخية الكبرى ويكفي أن نعد منها كتب :

— ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ومعجم البلدان ، كتاب الدول (وهو ضائع) .

— ابن الأثير : أسد الغابة في معرفة الصحابة . الكامل في التاريخ .

- والمقدسي عبد الغني بن عبد الواحد الحنبلي (المتوفى سنة ٦٠٠) كتاب الكمال في معرفة الرجال في خمس مجلدات .
- والقططي (المتوفى سنة ٦٤٦) إنباه الرواة على أنباه النحاة، وإخبار العلماء بأخبار الحكماء وأخبار المصنفين ومؤلفاتهم .
- ابن النجاشي محب الدين بن محمود البغدادي (المتوفى سنة ٦٤٣) الكامل في معرفة الرجال .
- سبط ابن الجوزي سنة (٦٥٤) : مرآة الزمان .

- وابن أبي أصبيعة (المتوفى سنة ٦٦٨) كتاب : طبقات الأطباء . وكتاب معالم الأمم وأخبار ذوي الحكم (ضائع) .

فكانوا كان هؤلاء المؤلفون يقيمون جرد الحساب الأخير لتاريخ وحضارة العصور العباسية كلها ويجمعون أطراف أخبارها وأعمال رجالها حتى أواسط القرن السابع ، ويكاد هذا القرن في الاهتمام التاريخي يعدل القرن الرابع .

٦ - ظهور التواريХ المحلية والخاصة

ومقابل هذا التراخي في الاهتمام بالتاريخ العامة (في أواسط الفترة) ظهرت بالطبع التواريХ الإقليمية والمحلية وتاريخ المدن . كان ذلك نوعاً من التعويض . ضاقت رقة التواريХ ، مع ضيق مناطق الدول ورفاع الإمارات كما قصرت وتنقصت أحياناً كثيرة في الزمن . فاقتصرت على فترة محددة أو على أسرة معينة أو على مدينة أو على شخصية واحدة . وبالرغم من أنه لم يكن ثمة حد واضح ولا خط فاصل لدى المؤلفين بين التاريخ الإقليمي والتاريخ العام ولا بين الأخبار الحضارية والسياسية ، فإن جموع الكتب التاريخية التي أرخت للفترة الممتدة ما بين القرن الرابع حتى القرن السابع كانت محدودة المدى الزمني كما أخذت العناوين المحلية أو عناوين المدن ، أو اختصت بأسر أو بأشخاص ... وقد اختفت تدريجياً من بينها تلك العناوين «الأخبارية» والمواضيع التي تفرد

لحدث خاص أو واقعة سياسية محددة كما كان عليه العهد بالرسائل والكتب التاريخية في القرنين الثاني والثالث . ومعظمها إنما كان في القرن الرابع ولم يجاوزه . وهكذا كانت أعداداً محدودة تلك الكتب التي تتحدث مثلاً : عن البرامكة ، كالكتب التي ألفها :

- أبو حفص عمر بن الأزرق (من القرن الرابع) وكتابه *أخبار البرامكة* كان أحد مصادر ابن العديم في كتابه *بغية الطلب* وقد نقل عنه^(١).
- والمرزباني (المتوفى سنة ٣٧٨) وقد ألف فيهم كتاباً أشار إليه ياقوت وأخذ عنه^(٢) وذكر ابن النديم أنه في ألف صفحة.
- وابن الجوزي (المتوفى سنة ٥٩٧) وقد أشار إلى كتابه في البرامكة صاحب *كشف الظنون*^(٣).
- وذكر السخاوي لبعضهم من المؤلفين المجهولين كتاباً في *أخبار البرامكة* في مجلدين^(٤).

وكتب آخرون في *أخبار الزنج* ، أو *أخبار الخارج* أو ثورة بابل الخرمي أو يزيد بن معاوية والأمويين ومن ذلك :

- في *أخبار صاحب الزنج* كتاب أبي بشر أحمد بن ابراهيم بن أحمد القمي الشيعي (المتوفى بعد سنة ٣٥٠) وكان جده من أصحاب ذلك الزعيم علي بن محمد من عبد القيس الذي ترجم ثورة الزنج .
- وكتاب شيلمة محمد بن الحسن الخارجي الكاتب (المتوفى محروقاً سنة

(١) ابن العديم - *بغية الطلب* (مخطوط أحمد الثالث) ج ٨ ورقة ٢٦١ ظهر ، ومتصل (المكتبة الأهلية بيارات رقم ٢١٣٨ Ar ٢١٣٨) وورقة ١٥ ظهر .

(٢) انظر ياقوت - *الأديبا*ج ٧ ص ١٣٤، ج ١٨ ص ٢٦٩ وانظر ابن النديم - الفهرس ص ١٣٤ .

(٣) حاجي خليفة - *كشف الظنون* ج ١ ص ١٨٥ رقم ١٨٤ (ط . فلوبيل) وج ١ ص ٢٦ (ط . مهران) .

(٤) انظر السخاوي - *الاعلان* ص ٥٧٦ .

٢٨٠) واسم كتابه أخبار صاحب الزنج وو قائله^(١).

وفي أخبار الحوارج الذين كانت ثوراتهم الحادة قد خدمت واستقر أمر بعض فرقهم في عمان وأفريقيا ومنها :
— كتاب كتبه المسعودي (المتوفى سنة ٣٤٦).

وفي أخبار بابك كتب واقد بن عمر التميمي كتاباً قرأه ابن النديم
ونقل عنه^(٢).

وفي أخبار المتنسّع كتب مؤلف مجهول اسمه ابراهيم نقل عنه الرشخي في
تاریخ بخاری^(٣).

وفي أخبار يزيد بن معاوية كتب كل من :

— أبي العباس محمد بن العباس اليزيدي المتوفى سنة ٣١٣.

— وأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري اللغوي (المتوفى سنة ٣٧٠)^(٤).

كما كتب أبو عبد الرحمن خالد بن هشام الأموي كتاب التاريخ وأخبار
الأمويين ومناقبهم وذكر فضائلهم وما أتوا به عن غيرهم وما أحدثواه من السير
في أيامهم^(٥).

وندر جداً أن توقف مؤرخ في العصور التالية للقرن الرابع ليؤرخ حادثاً
مفرداً كما فعل مثلاً :

— ابن زريق أبو الحسن يحيى بن علي بن محمد التنوخي المصري (المتوفى

(١) انظر الطوسي — الفهرس من ٤٥ وانظر ابن النديم — الفهرس من ١٢٧ .

(٢) الرشخي — تاريخ بخاري ص ٩٤ .

(٣) انظر ابن النديم — الفهرس من ٣٤٣ .

(٤) انظر كشف الظنون ج ١ من ٢٨٩ وج ١ من ٣١ (ط . طهران) .

(٥) المسعودي — مروج الذهب ج ١ ص ١٥ .

بعد سنة ٥٠٨ / ١١٤) والذي أرخ لدخول السلاجقة والصلبيين إلى الشام في كتاب ضاع أثره .

- والعماد الأصفهاني الكاتب المعروف (المتوفى سنة ٥٩٨ / ١٢٠٢) في كتابه الفتح القدسي حول معركة حطين .

إن الموضوع الوحيد الذي استمر حيا على الأقلام والتأليف بسبب من ارتباطه المذهلي بالفرق الشيعية هو موضوع مناقب ومصارع آل أبي طالب وقد ألف فيه الكثيرون ومنهم :

- ابن حمزة العلوى أبو عبد الله محمد القرشى (المتوفى سنة ٢٨٧ / ٩٠٠) وقد سمى كتابه مقاتل الطالبين .

- التقفى أبو العباس أحمد بن عبيد الله بن محمد بن عمار التقفى الكاتب (المتوفى سنة ٣١٩) واسم كتابه : كتاب الميسنة في أخبار مقاتل آل أبي طالب^(١) .

- أبو الفرج الأصبهانى (المتوفى سنة ٣٥٦) وكتابه مقاتل الطالبين مطبوع معروف .

- الشیخ المفید أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العکبری العربی الحارثی (٣٣٦ - ٤١٣ - ٩٤٧ - ١٠٢٢) وقد كتب : الارشاد إلى معرفة حجيج الله على العباد ، وهو تاريخ الأئمة الإثنى عشر (مخطوط في ليدن والقاهرة وطهران) وقد طبع في طهران منذ حوالي مائة سنة ١٢٩٧ و ١٣٠٨).

- الطبرسی أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب (المتوفى بين أواخر القرن الخامس ومطلع القرن السادس) والذي كتب : تاريخ الأئمة .

- وابن الحشاب أبو محمد عبد الله بن أحمد البغدادي النحوي (المتوفى

(١) ابن التيم - الفهرس ص ١٤٨ .

سنة ٥٦٧ / ١١٧١) وله أيضاً تاريخ الأئمة (مخطوط) .

- والطبرسي أبو جعفر محمد بن علي بن شهراشوب المازندراني (المتوفى ٥٨٨ / ١١٩٢) وقد كتب بين كتبه العديدة : مناقب آل أبي طالب .

- ابن الأختضر عبد العزيز بن محمود (المتوفى سنة ٦١١ / ١٢١٤) وله : معالم الفترة النبوية ومعارف أهل البيت الفاطمية العلوية .

- الكنجي أبو عبد الله محمد بن يوسف القرشي الدمشقي (المتوفى سنة ٦٥٨ / ١٢٦٠) وقد كتب : كفاية الطالب في مناقب آل أبي طالب (مطبوع) .

ولإذا كانت التوارييخ المحلية التي ظهرت في مصر خاصة وفي الشام واليمن قد كونت نوعاً من المدارس التاريخية الإقليمية في هذه البقاع مما يرشحها لأن تبحث في فقرات خاصة بها من بعد ، فإن المدرسة العباسية – الأئمّة نفسها اقتصرت توارييخها الشاملة منذ القرن الرابع على المناطق العراقية خاصة والإيرانية مما جعلها بدورها مدرسة إقليمية كبرى وإن تكون أمّ المدارس الأخرى . كما تزرت توارييخها أيضاً منذ القرن الرابع ما بين أنواع من التوارييخ : بعضها للأقاليم والمدن وبعض " للأسر وبعض لسير الأشخاص أو للتراجم . وهذا التمزق لم يكن قاصراً بالطبع على هذه المدرسة ولكنه شمل المدارس الثانوية التابعة لها بدورها أيضاً ، في مصر خاصة وفي الشام واليمن على السواء .

وطغيان توارييخ المدن على التدوين التاريخي يعكس شعور هذه المدن والأقاليم المرتبطة لها بالانفصال عن المركز والتفرد في المصير وبوضوح الأسهام الذي لديها ضمن التراث المشترك . وبالرغم من أن تاريخ بغداد لم يكن أول التوارييخ البلدانية التي كتبت – وكان طبيعياً أن لا يكون أولها لأن بغداد العاصمة الكبرى سوف تتأخر كثيراً قبل أن تشعر بوحدتها وتعرف باقتصاص الأقاليم عنها – ومع ذلك فإن تاريخ بغداد حين كُتب توالى على كتابة الديjول عليه عدد واسع من المؤرخين حوالي ثلاثة قرون . ولما كانت هي المدينة – الأئمّة فقد أضحت تاريختها

بدوره التاريخ الأم ، والنموذج المحتلى للمدن الأخرى . وبعد أن كان ابن طيفور في القرن الثالث خاصة قد كتب تاريخ بغداد على أساس سياسي وأرخ خلفاً لها من العباسين الأوائل ومن تبعهم فقد كان انحطاطها السياسي سبباً في تحول الأنطوار المؤرخة إلى فعالياتها العلمية والفكرية . وقد جاء الخطيب البغدادي فعبر عن عملية التعريض هذه حين كتب تاريخ هذه المدينة لا على أساس أحداثها السياسية وخلفاً لها وزرائها والكتابة في إطار النسيج التاريخي السنوي أو الحادثي ، ولكن على أساس الرجال الذين اضطربوا في أسواق تلك المدينة وجوانبها ومدارسها وبلاطتها وقصورها والصومع ... مزق المدينة كوحدة أحداث تاريخية اجتماعية متفاعلة ليجعل منها تجمع أفراد وتراماً عرضياً لأشخاص متrockين لمصادرهم ... وصار الاطار المكانى لهذه المدينة ولغيرها من سور وأبواب هو الرابطة وناسج الوحدة والصلة بين هؤلاء الأفراد الذين كان تنظيمهم في هذه التواريخ «المدينة» البلدانية على أساس المعاجم وحرروف الأسماء يسهم مرة أخرى في تمزيقهم أيضاً بما يجمع بين أصحاب العصور المتبدلة ، بسبب التقارب في الاسم أو يبعد بين المعاصررين لتبين الاسم أيضاً ...

على أن هذا التحطيم لعلاقات الزمان من جهة ولنسيج الأحداث التاريخية بتحويلها إلى تراجم من جهة أخرى كانت تقابلها حسنة واحدة هامة هي أن المؤرخين البلديين بصورة عامة اعتبروا رجال العلم والفكر هم التاريخ وهم أولى الناس باحتلال صفحاته دون رجال السياسة أو على الأقل أكثر بكثير من رجال السياسة من كتاب ولاة وملوك وأمراء .. عدم الاعتراف بالزمن واهتمام التطور الحادثي في التواريخ البلدانية قابلهما تركيز متصل على ابراز الفاعليات الفكرية ومساهمتها في الحركة الحضارية العامة . وإذا كان في هذا الموقف اعتراف بتفاهمة الدور السياسي لهذه المدن وأصحاب الحكم فيها ، فإن فيه بالمقابل إدراكاً للقيم الفكرية الحالية وتقديراً لقيمة الإنسان وعمله ولمسؤوليته عن ذلك العمل . وليس بهم أن يكون مصدر هذا التقويم نابعاً من الرغبة في الحفاظ على التراث الديني خاصة فالهام هو النتيجة التي نجحت عن ذلك وهي ربط

وتسجيل الجماعات العلمية في الاسلام مجموعة مجموعه مع بلدانها ، بشكل نستطيع معه بكل سهولة أن نكتب تاريخ الحركة الفكرية الاسلامية وعلاقات رجالها بعضهم مع بعض على المستوى نفسه من الوضوح وأحياناً في وضوح أشد من التاريخ للتحركات السياسية .

وقد استمر اعتبار المدن وحدات حضارية فكرية فترة طويلة من الزمن . تزيد على أربعة قرون (ما بين أواسط القرن الثالث ونهاية القرن السابع) ، وكانت هذه الفترة كافية لكي يظهر بعض المدن المأمة ، ذات التراث الحضاري أو القيمة السياسية ، سلسلة من التواريخ توالى على كتابتها عدد من أبناء تلك المدن ، حتى أصبحت كتابة هذه التواريخ البلدانية نوعاً من التقليد لدى العلماء يدرسه في جيل بعد جيل أبناء تلك المدن ويكمله بين فترة وأخرى أحد أو ثلاثة الأبناء البارزين . ومن المما أن نلاحظ هنا أن أوائل التواريخ البلدانية إنما نشأت منذ القرن الثالث . وإذا وضعنا جانبًا تاريخ مكة للأزرق الذي يمت في جوهره إلى ما ألف في السيرة النبوية فإن أقدم تاريخ لقطر من الأقطار هو : تاريخ مصر وفتح المغرب الذي ألفه عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم (٢٥٧/٨٧) وهو يفتقر إلى النقد الصحيح ، « ومن الغريب أنه لم يعتمد في تاريخ مصر القديم على مواد مصرية أصلية ولكن على مصادر يهودية وروايات منقولة عن أهل المدينة » ، « ويلاحظ هذا الترجح الخالي من النقد بين السير الخرافية والروايات الصحيحة نوعاً ما في الكتاب الجامع لآثار اليمن الموسوم بالأكليل للهمداني (٣٣٤/٤٩٦)^(١) » وقد استطاع صاحب تاريخ بغداد : ابن أبي طاهر طيفور أن يكون أكثر دقة واتزانًا لأنه إنما كان يتكلم عن مدينة حدثة الظهور ، ولكن الكثير من التواريخ البلدانية التي وصلتنا لا تخلو من العناصر الخيالية والأوهام والخبر الأسطوري ولا سيما حين تتناول في الأقسام الأولى منها التواريخ القديمة للمدن . ومن أمثلة ذلك ما نراه في الفصول الأولى من تاريخ

^(١) انظر فيما يتعلق بهذه النقاط جب - مادة علم التاريخ - الموسوعة الاسلامية (الترجمة العربية) - ج ٤ ص ٤٩٣ - ٤٩٤ .

بخارى للترشخي وتاريخ طبرستان لابن اسفندیار وفي الجزء الأول من تاريخ دمشق لابن عساکر والأوراق الأولى من تاريخ میافارقین لابن الأزرق الفارقی وفي الجزء الأول من بغية الطلب ومن زبدة الحلب في تاريخ حلب لابن العدیم . على أن هذه التواریخ نفسها قد حفظت لنا بالمقابل الكثير من المواد القيمة التي استبعدت كتفاصيل أو اهملت أو اختصرت في التواریخ الجامعة الواسعة ، ومن هنا تأتي قيمتها الكبيرة .

وسوف نطوي الأمثلة على هذه التواریخ البلدانیة في هذا الفصل لأن متابعتها تخرج بنا إلى دراسة المدارس ولأنها أيضاً من الكثرة والwsعة بحيث تکاد تستغرق الجهد التاریخي کله أو معظمـه . ولهذا نكتفيـها هنا بتسجیلـها كظاهرة أساسـية في الفكر التاریخي وننـبع بحث الاتجاهـات التي تتصلـ بها .

وكما انتشرـت تواریخ المدن والأقالیم وتكاثـرت ، انتـشرـت وتكاثـرت بالمقابل تواریخ الأسر الصغیرـة والأفراد البارزـين ومعظمـ ما كتبـ في هذا الباب فـإنـما كانـ إما نوعـاً من التـفاخر وتسـجلـ الأـمـجادـ الخـاصـةـ ، أو نوعـاً من المـلقـ والـتـقربـ للـحكـامـ طـلبـاً لـالـلـذـلـفـيـ وـالـإـنـعـامـ .

وتـوارـیـخـ الأـسـرـ ، إـذـا تـجاـوزـناـ آلـ الـبـیـتـ ، كـانـتـ لاـ تـقـبـصـرـ عـلـيـ الأـسـرـ الـكـبـيرـةـ الـهـامـةـ وـلـكـنـهاـ تـتـنـاـولـ أـحـيـاناـ بـعـضـ الأـسـرـ الـمـحـلـوـدةـ الـقـيـمـةـ وـالـأـهـمـيـةـ وـالـتـيـ يـؤـرـخـ بـعـضـ أـفـرـادـهـ لـأـسـرـتـهـ بـغـيـةـ التـأـكـيدـ عـلـىـ شـائـنـهـ وـقـيـمـتـهـ السـيـاسـيـةـ أـوـ الـفـكـرـيـةـ أـوـ الـاجـتمـاعـيـةـ . وـإـذـا كـانـ التـارـیـخـ لـعـضـ الأـسـرـ الـحاـکـمـةـ يـتـحـولـ غالـباـ إـلـىـ تـارـیـخـ إـقـلـیـمـيـ أـوـ تـارـیـخـ لـلـدـوـلـ فـإـنـ التـارـیـخـ لـأـسـرـ الصـغـیرـةـ كـانـ ظـاهـرـةـ الـاجـتمـاعـيـةـ تـتـصـلـ بـالـطـبـقـةـ الـاجـتمـاعـيـةـ الـقـبـلـیـةـ أـوـ الـاقـطـاعـیـةـ ، أـوـ كـانـ ظـاهـرـةـ فـکـرـیـةـ ، دـفـاعـیـةـ فـیـ الـغالـبـ ، لـلتـغـطـیـةـ بـفـخـرـ الـعـلـمـ عـلـىـ تـواـضـعـ النـسـبـ أـوـ بـلـجمـعـ الـمـجـدـ مـنـ أـطـرـافـهـ فـیـ نـبـلـ الـأـصـلـ وـالـعـلـمـ فـیـ وـقـتـ ماـ .

فـمنـ أـمـثـلـةـ تـوارـیـخـ الأـسـرـ ماـ كـتـبـهـ بـعـضـ الـمـؤـرـخـینـ عـنـ الـبـرـامـکـةـ مـنـ أـمـثالـ أـبـیـ حـفـصـ عـمـرـ وـبـنـ الـأـزرـقـ الـكـرـمـانـیـ وـغـیرـهـ . وـقـدـ كـانـتـ تـوارـیـخـهـمـ بـالـعـرـبـیـةـ

إلاً أننا نجد مؤلفاً في القرن الثامن يكتب عنهم بالفارسية هو :

عبد الجليل بن نظام الدين يحيى بن عبد الجليل اليزيدي ، الذي كتب أخبار البرامكة سنة ٧٦٢ في مجلد^(١) .

ومن المؤلفين في الأسر الأخرى :

- أبو اسحق ابراهيم بن هلال الصابيء (المتوفى سنة ٣٨٤ / ٩٩٤) حول الأسرة البوهية باسم : التاجي في أخبار الدولة الديلمية ، لأنَّه أله بطلب من تاج الملة عضد الدولة البوهية ولم تبق منه إلا قطع قليلة خطورة (طبع منها في بغداد سنة ١٩٧٧ قطعة متفرغة من كتاب التاجي).
- مؤلفو الكتب التي صدرت بالفارسية باسم سلجوقي نامه : أحدهما لظهير الدين النيسابوري (المتوفى سنة ٥٨٢ / ١١٨٦) وقد ذيل عليها مؤلفان في أوائل القرن السادس هما :
- عبد الحميد الكرماني وأبو حامد محمد بن ابراهيم الكرماني والكل مطبوع .
- كما ألف بالعربية وفي الفترة نفسها كتاب مجهول المؤلف باسم : مطالع الشروق في محسن بن سلجوقي .
- وجاء القسطنطي الوزير الحلبي (المتوفى سنة ٤٤٦) فكتب : أخبار السلجوقيَّة . وهو ضائع .
- وكتب القسطنطي نفسه : كتاب الأئمَّة في تاريخبني مرداس ، الذين حكموا حلب في معظم القرن الخامس .
- وكتب ابن الأثير المؤرخ (المتوفى سنة ٦٣٠) كتاب الباهر في الدولة الأتابكية لتأريخ هذه الأسرة .
- وألف قبل ذلك أبو البقاء هبة الله بن نما بن علي بن حمدون الحلبي

(١) انظر ذيل كشف الظنون البندادي ج ١ ص ٤١ .

الربيع (المتوفى سنة ٥٢٠ / ١١٢٦) كتاب المناقب المزيدية في أخبار الملوك الأسدية . يؤرخ لبني مزيد الأسرة العربية التي حكمت جنوب العراق ما بين القرن الخامس حتى أواسط السادس للهجرة .

— وكتب عدد من آل منقذ ، تلك الأسرة العربية التي حكمت قلعة شيزر في أواسط سورية ما بين أواسط القرن الخامس وأواسط القرن السادس ، تاريخ هذه الأسرة .

كتبه أولاً ، في أواسط السادس ، أبو عبد الله محمد بن مرشد المقدسي الكتاني (شقيق أسامة) ثم كتبه مؤرخ مجاهول من واقع الوثائق التي وجدها في أواخر القرن السادس . وكتب أيضاً أسامة بن منقذ ، أشهر أمراء هذه الأسرة ... وكل أولئك قد ضاع .

وإذا كانت هذه التوارييخ نماذج لتاريخ الأسر السياسية الحاكمة فإن ثمة أمثلة على الأسر الاقطاعية الواسعة أو العلمية ومن ذلك :

— أخبار بني سليمان ، التاريخ الذي كتبه لأشهر أسر عمارة النعمان علماً وما لاً واحد من أبنائهما هو القاضي أبو المعالي أحمد بن مدرك ابن سليمان التنوخي المعربي في أواسط القرن السابع وكان أحد المصادر التي اعتمدتها ابن العديم ^(١) .

— نسب بني صالح (بن علي بن عبد الله العباسي) وقد كتبه القاضي أبو طاهر صالح بن جعفر الهاشمي الحلي (النصف الأول من القرن السابع) وقد أخذ عنه ابن العديم أخباراً كثيرة ^(٢) .

— كتاب الأخبار المستفادة في ذكر بني أبي جراده وقد كتبه المؤرخ

(١) ابن العديم - بغية الطلب (محفوظة أحمد الثالث) ج ١ ورقة ١١٤ وجه ، ١٩٧ وجه ، ١٩٨ وجه ، ٢٢٣ وجه .

(٢) انظر مثلاً ابن العديم - بغية الطلب (محفوظة أحمد الثالث) ج ١ ورقة ٢٣٩ ظهر ج ٢ ورقة ١٦٤ ظهر ج ٥ ورقة ٢٨٣ وجه .

ابن العديم في تاريخ أسرته في عشرة كراريس بطلب من ياقوت الحموي الذي نشر الكتاب كله تقريباً في معجم الأدباء.

وندخل تاريخ الأسر من بابه الأوسع ان نحن اعتبرنا - ومن الحق أن نعتبر - كتب الأنساب في اطار التاريخ وعند ذلك نجد أن فيضاً هائلاً من كتب الأنساب الأسرية يدخل التاريخ من مثل ما كتبه :

- أبو الفرج الأصبهاني المعروف (المتوفى سنة ٣٥٦) - عدا مقاتل الطالبيين - حول نسببني شيبان ونسب المهابة (بني المهلب لانقطاع الأصبهاني إلى الوزير المهمي).

- وأبو عبد الله محمد بن أسعد الجوني النسابة (من أواسط القرن السابع) الذي كتب (نزهة القلب المعنئ في نسببني المهابة) ونقل عنه ابن العديم بعض المقتبسات^(١) ويدرك السخاوي كتب أنساب الظهررين والتوييريين والطبريين والقسطلانيين وال فهو د... الخ^(٢).

٧ - ظهور السير الفردية والذاتية والمذكرات والقصص التاريخي

فاما سير الأفراد فان نحن تجاوزنا السيرة النبوية ، التي كان لها على الدوام من يتناولها بالرواية والاختصار والبساط والنظم واعادة الكتابة ، وجدنا بابها قد اتسع ، وورد فيه زمر بعد زمر من السير . فهناك سير أعداد من الصحابة وسير الخلفاء الراشدين وسير عدد من رجال البيت والأئمة خاصة . وفي كل هذه التواحي كتبت ثم كتبت أعداد من الكتب والرسائل لم يكن القصد منها الإبداع التاريخي بقدر ما كان التعبير عن الاحتراز والتقدير . ولعل أهم الزمر هي تلك

(١) انظر المصدر السابق ٩ ورقة ٢٤٤ وجده ٢٤١ ظهر .

(٢) انظر السخاوي - الاعلان ص ٥٩٧ ، من ٥٨٤ .

التي كانت تحمل اسم « المناقب » وقد توجهت لتكريم كبار الرجال الدينيين في المجتمع الإسلامي ، نصبتهم نماذج للمسلم الكامل وللأسوة الحسنة . وأبرز كتب « المناقب » التي تكررت معاودة المؤلفين لكتابتها ، وتعاونوا على قتاولها جيلاً بعد جيل هي التي تتعلق بمناقب « الفقهاء » الكبار ، أصحاب المذاهب الكبرى .

وهكذا نجد أكثر من اثني عشر كتاباً في مناقب أبي حنيفة ونجد ضعف هذا العدد لمناقب مالك بن أنس كما نجد أكثر من ذلك في مناقب الشافعي . وأقل قليلاً كانت الكتب في مناقب ابن حنبل^(١) . أما في مناقب جعفر الصادق والأئمة فالكتب عشرات بعد عشرات وإذا كانت الكتب في أئمة مذاهب السنة نوعاً من التمجيد لمذاهبيهم فالكتب في أئمة الشيعة كانت تعبراً عن الولاء لهم ولآل البيت .

وقد نال كبار رواة الحديث وكبار الحفاظ بعد ذلك ونتيجة لذلك نصيب من هذا التكريم و « المناقية » . وانا لنجد كتبآ تفرد لترجم البخاري مثلاً ومسلم بن الحجاج وأبي داود السجستاني وابن ماجه والترمذى والنمسانى وهم أصحاب الصحيحين والسنة الأربع . كما نال التكريم نفسه كبار الزهاد والمتصوفين فلهم بدورهم كتب تروى سيرهم وذكر أماتهم وأقوالهم ... وأكثر ما قام بذلك هم الوعاظ المعروفون^(٢) كابن الجوزي . وفي الوقت نفسه كانت القيمة الاجتماعية للشعر والأدب والغناء تدفع في اتجاه آخر إلى كتابة سير « الشعراء » خاصة مع حفظ أشعارهم وسير المغنين البارزين .. ومن هذا الباب ثمة أعداد كبيرة جداً من الكتب في أخبار فلان أو فلان من الشعراء والأدباء

(١) من شاء تفصيل أسماء كتب المناقب وجدها لدى السخاوي في الجواهر والدرر . والنص مطبوع في كتاب روزنفال - علم التاريخ عند المسلمين (ص ٥١١ - ٥١٥) من النص الإنجليزي ص ٧٣١ - ٧٣٦ .

(٢) ألف ابن الجوزي مثلاً في سير كل من : الحسن البصري وسعيد بن المسيب وسفيان الثوري ومشهور الكرخي ... الخ .

أو المغنين . وكثيراً ما كان بعض تلاميذ أو أنصار كبار العلماء أو الرجال البارزين في المجتمع الإسلامي يكتبون بدورهم سيرهم تعبيراً عن الإعجاب والاحترام . ومن أمثلة ذلك ما كتبه السلفي الحافظ من سيرة أبي المظفر محمد ابن أحمد بن محمد الأبيوردي ، وكتبه الضياء المقدسي من سيرة أبي عمر محمد ابن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي وسيرة عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي ... وهي بضاعة راحت بصورة خاصة بعد القرن السابع أبي في العصر المملوكي وكثير طارقوها والكتابون فيها كثرة واسعة^(١) .

وما من شك في أن هذه الزمر المتعددة من كتب السير المختلفة وإن كانت ذات مقاصد دينية (اجتماعية وعلمية) أو أدبية فإنها كانت في الوقت نفسه من كتب التاريخ ومن ميدانه رغم ما كانت تضمه أحياناً من التعاليم الدينية ، أو مسائل الفقه أو الأدب والشعر أو الموعظ ، أو القصص الخرافى والأوهام . ولعل هذه الأمور كانت تعطي بعض كتب المناقب والسير هذه ملامح التاريخ الحضاري والاجتماعي وكانت تعكسه أكثر مما تعكسه السير الأخرى المتعلقة بأقطاب السياسة . لقد كانت أحياناً كثيرة نوعاً من الاحتجاج على الظلم السياسي والاجتماعي ومحاولته من قبل المؤلفين لتوجيه رجال السياسة إلى الطريق الصحيح وتوجيه الناس إلى المذهب الأقوم أو لتعليمهم سبيل الخلاص من الظلم والفساد بالزهد والهرب والترفع وإيثار الآخرة . ولهذا نلاحظ تزايد هذا النوع من كتب المناقب والسير للزهاد والأولياء والصالحين مع تقدم العهد حتى تصبح في العصر المملوكي من المواضيع التقليدية وتصبح أعدادها بالعشرات بعد العشرات ...

ولم يكن أهل الخل والعقد ورجال السياسة أقل حظاً في مجال السير . وسيرهم الشخصية كانت تسجل تاريخ نظمهم في الفرات التي عاشوها ومعظم هذه

(١) انظر القائمة الطويلة التي أوردها السنخاوي في الجواهر والدرر (مخطوط دار الكتب) الأوراق ٢٩٨ ظهر - ٢٩٤ وجه (روزنثال ٧٣٩ - ٧٥٠) .

السير ان لم يكن كلها إنما كانت أماديج ، وقصائد مثورة ترمي من خلال الأحداث والقصص والأقوال المروية إلى تمجيد صاحب السيرة وتخليله . ولهذا فقد كتب معظمها في عهود أصحابها وقلمها كتب من بعده إلا أن يكون ذلك من قبل بعض الآباء المعجيين أو أقربائه الأقربين ... على أن ظاهرة كتابة السير للحكام لم تظهر إلا في العهود التي ظهر فيها حكام بارزون لا ينحفل الكاتب من أن يخصص لتأريخ حياتهم سيرة يسطرها الناس . فلقد كان في مثل هذا النوع من التاريخ للأفراد من الخرج يأتي من أن السيرة الوحيدة البديرة بالرواية في القناعة العامة هي السيرة النبوية التي لا يمكن لأي سيرة أن تقارنها في الشأن .

ومن نماذج السير الأولى كتاب أفرده بعضهم عن المؤمنون^(١) . والسيرة التي كتبها ثابت بن سنان بن قرة لل الخليفة المعتصم بالله (المتوفى سنة ٢٨٩ / ٩٠٢) ونقل عنها ابن العديم^(٢) والسيرة التي نظمها شعرآ ابن المعتز (المقتول سنة ٢٩٦) وسمها سيرة الإمام في تاريخ ابن عميه المعتصم أيضاً .

ولا نكاد نجد في القرن الرابع سوى سيرة سيف الدولة التي ألفها أبوالحسن علي ابن الحسين الزراد الديلمي وقد أخذت عنها ابن العديم^(٣) كما قد عاصرتها أربع سير كتبها ابن زوالق في مصر لكل من ابن طولون وابنه خمارويه ثم للأخشيد وبلوهر الصقلي .

ثم لا نكاد نجد في القرن الخامس سوى السيرة التي كتبها أبو النصر محمد ابن عبد الجبار العتي (المتوفى سنة ٤٢٧) للسلطان يمين الدولة محمود الغزنوي

(١) ذكره السخاوي في الجواهر والدرر (مخطوط دار الكتب القاهرية) ورقة ٢٩٥ وجده انظر علم التاريخ لروزنثال ص ٧٣٦٥ .

(٢) انظر ابن العديم - بنية الطلب (مخطوط أحمد الثالث) ج ١ ورقة ١٢١ ظهر ج ١ ورقة ١٧٦ ظهر .

(٣) انظر مثلاً المصدر السابق ج ٨ الورقة ١١٣ وجه ، ج ٤ ورقة ١٣ ظهر .

بسط فيها حياته وترجمة أبيه سبكتكين وحربه وأعماله حتى آخر أيامه في أسلوب بلين أسر الكثرين وكان السبب في بقاء الكتاب في عدة نسخ مخطوطة وفي ظهور شروح عديدة له في العصور التالية ، وظهور ترجمة فارسية ... وقد عرفت هذه السيرة باسم اليميني (نسبة ليمين الدولة) محمود سبكتكين الغزنوی (المتوفى سنة ٤٢١ / ١٠٣٠) وفي القرن نفسه كتبت ثلاث سير في مصر للوزير المغربي أبي القاسم الحسين بن علي (المتوفى سنة ٤١٨ / ١٠٢٧) اقتبس منها ابن العديم عدداً من النقول^(١) كما كتبت سيرة رابعة للوزير اليازوري أبي الحسن علي بن عبد الرحمن وزير المستنصر بمصر . ويبدو أن ظهور عدد من الأخطار والأبطال في التاريخ الإسلامي في القرن السادس ومطالع السابع قد فتح الباب لظهور أعداد كثيرة من السير ، إذ ظهر من كتابها :

- أبو الحسن محمد بن عبد الملك الممذاني (المتوفى سنة ٥٢١ / ١١٢٦) الذي ذيل علي الطبرى وكتب عن الوزراء وقد ألف (أخبار دولة السلطان محمد ومحمود) السلجوقيين .
- ابن بنجه الأشترى (من رجال أواسط القرن السادس) وقد كتب سيرة لنور الدين نقل عنها أبو شامة .
- ابن الجوزي الإمام المؤرخ (المتوفى سنة ٥٩٧ / ١٢٠١) وقد كان أنصب المؤرخين جمياً في باب السير : فله - عدا سير رجال التصوف والزهد - سير شئ لرجال السياسة منها كتب : المفاخر في أيام الملك الناصر ، المصباح المضيء للدعوة الإمام المستضيء (أو فضائل المستضيء) ، الأعاصير في ذكر الملك الناصر (وربما كان هذا هو نفسه الكتاب

(١) أصحاب هذه السير الثلاث هم : جلال الدولة أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي ابن عباد وخلف بن عبد الله بن هبة الله السعدي ثم القاضي الجليس عبد القوي بن عبد العزيز بن الجباب ، أما النقل عنها فانظر ابن العديم - بنية الطلب (مخطوط أحمد الثالث) ج ٤ ورقة ٢٩ وجه وظاهر وغيرها .

الأول) ، الفخر التوري ، المجد الاصلاحي ، المجد العصدي (كل واحد من الخمسة في مجلد) ... ويقال أن له : عقد الخناصر في ذم الملك ناصر ...^(١) .

- ابن المارستانية أبو بكر (صاحب تاريخ بغداد الضخم المسماى ديوان الاسلام الاعظم) المتوفى سنة ٥٩٩ / ١٢٠٣ وقد كتب سيرة للوزير ابن هبيرة المتوفى سنة ٥٦٠ / ١١٦٥ .

- ابن مماتي الأسعد بن المذهب بن زكريا (المتوفى سنة ٦٠٦ / ١٢١٠) وهو من كتاب مصر الاقباط وقد كتب بين ما كتب سيرة منظومة لصلاح الدين الأيوبى ، لعلها بعد قصيدة ابن المعتر ثانى السير المكتوبة شعراً . وقد صاعت .

- ابن شداد القاضى بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع الحلبي (المتوفى سنة ٦٣٢) وقد رافق صلاح الدين في القسم الأخير من حياة هذا السلطان ثم كتب سيرته في كتاب « النواذر السلطانية والمحاسن اليوسفية » ويعتبر من أهم المصادر عن حياة صلاح الدين .

- القادسي محمد بن أحمد بن محمد الحنبلي (المتوفى سنة ٦٣٤ / ١٢٣٧) وقد كتب الذيل الأخير للطبرى بعنوان الفاخر في أيام الملك الناصر (وهو ضائع) .

- النسوى شهاب الدين محمد بن أحمد (المتوفى سنة ٦٤٧) وقد كتب سيرة السلطان جلال الدين منكتوبري آخر السلاطين الخوارزميين الذي كان أنهياره أمام المغول أشبه بانهيار السدود أمام السيول (والكتاب مطبوع) .

(١) انظر السخاوي - الجواهر والدرر (مخطوط دار الكتب) ورقة ٢٩٥ ظهر (دوزنثال صفحه ٧٣٧) .

— القبطي جمال الدين الوزير (المتوفى سنة ٦٤٦ / ١٢٤٨) وقد كتب بين توارينيه الكثيرة تاريخ محمد بن سبكتكين (ضائع).

— البصري علي بن أبي الفرج بن الحسين الذي كتب بعد سنة ٦٥٩ وانهيار خلافة العباسيين كتاب : المناقب العباسية والماخرات المستنصرية (وهو مخطوط).

— عبد الدين أبو محمد الحسن بن الملك الناصر داود بن العظيم الأيوبي (المتوفى بعد سنة ٦٦٠) وقد كتب سيرة أبيه في كتاب الفوائد الجليلة في القراءات الناصرية (مخطوط قيد الطبع).

ويتصل بكتابه السير موضوع عن يفرع عن لهـ كـبـير وـهـما كـتابـةـ السـيرـ الذـاتـيـ ، وـكتـابـةـ المـذـكـرـاتـ وـفيـهـماـ الـكـثـيرـ منـ التـعـبـيرـ عـنـ التـمـيزـ الذـاتـيـ وـقـيـمةـ التجـارـبـ الشـخـصـيـةـ . وـلـمـ يـقـصـرـ الكـتـابـ الـاسـلـامـيـوـنـ فـيـ طـرـقـ هـذـاـ الـبـابـ أـيـضاـ مـنـ التـارـيخـ فـيـ تـالـكـ الـفـرـاتـ وـمـاـ بـعـدـهـ . فـأـمـاـ فـيـ السـيرـ الذـاتـيـ^(١) فـيـلـفـتـ الـنـظـرـ خـرـقـ قـدـيمـ فـرـيدـ ذـكـرـهـ الطـبـرـيـ عـنـ الـحـارـثـ بـنـ سـرـيـعـ أـحـدـ كـبـارـ الـمـرـجـةـ الـثـائـرـيـنـ لـلـحـقـ وـالـعـدـلـ فـأـجـابـهـ قـوـمـ كـثـيرـ «ـ حـتـىـ ضـرـبـ بـعـضـ غـلـمـانـ نـصـرـ بـنـ سـيـارـ طـرـيقـ مـرـوـ وـالـمـسـاجـدـ فـأـجـابـهـ قـوـمـ كـثـيرـ »ـ حـتـىـ ضـرـبـ بـعـضـ غـلـمـانـ نـصـرـ بـنـ سـيـارـ الـوـالـيـ قـارـئـاـ مـنـ قـرـاءـ هـذـهـ السـيـرـةـ فـقـامـتـ الـحـصـوـمـةـ^(٢) . وـلـاشـكـ أـنـ هـذـهـ السـيـرـةـ كـانـتـ بـسـطـاـ لـآـرـاءـ اـبـنـ سـرـيـعـ وـعـقـيـدـتـهـ فـيـ الـإـرـجـاءـ وـلـسـنـ نـجـدـ تـكـرارـاـ مـشـلـ هـذـهـ الـمـحاـولـةـ فـيـمـاـ بـعـدـ . وـلـكـنـ نـجـدـ الـوـاقـدـيـ يـرـوـيـ شـيـئـاـ عـنـ تـارـيخـ حـيـاتـهـ^(٣) وـرـوـيـ

(١) كـتـبـ بـرـوـكـلـمـانـ مـقـالـاـ حـولـ «ـ مـاـ كـتـبـهـ الـعـربـ فـيـ أـحـوـالـ أـنـفـهـمـ »ـ نـشـرـ فـيـ كـتـابـ المـشـقـىـ فـيـ درـاسـاتـ الـمـسـتـشـرـقـينـ لـصـالـحـ الدـيـنـ الـمـنـجـدـ (ـ الـقـاـمـرـةـ ١٩٥٥ـ)ـ صـ ٣ـ - ٢٣ـ ، وـكـتـبـ قـبـلـ ذـكـ رـوـزـ نـجـالـ بـعـدـاـ حـولـ الـمـوـضـوعـ نـسـهـ نـشـرـ فـيـ مجلـةـ Orientaliaـ سـنةـ ١٩٣٥ـ وـقـدـ لـصـهـ عبدـ الرـحـمـنـ بـلـوـيـ وـأـضـافـ إـلـيـهـ فـيـ بـحـثـ نـشـرـهـ فـيـ كـتـابـهـ (ـ الـمـوتـ وـالـعـقـرـيـةـ)ـ الـقـاـمـرـةـ ١٩٤٥ـ .

(٢) الطـبـرـيـ جـ ٧ـ صـ ٣٣٢ـ (ـ ١٩٢٠/٢ـ)ـ .

(٣) انـظـرـ طـبـقـاتـ اـبـنـ سـدـ (ـ طـ . سـخـاوـ)ـ جـ ٥ـ صـ ٣١٤ـ وـقـدـ نـقـلتـ هـذـهـ النـصـوصـ فـيـ كـتـبـ شـيـئـاـ بـعـدـ ذـكـ .

ابراهيم الموصلي وابنه اسحق بعض حياتهما ونجد شيئاً مما روي في الأغاني^(١) كما ألف :

- الحكم الترمذى (المتوفى سنة ٢٨٥) في أخبار نفسه ومنها نسخة مخطوطة فريدة في كلية اللغة والتاريخ بأفقرة .
- محمد بن الحسن بن يعقوب المعروف بابن مقسى المقريء (٢٦٥) - كتاب أخبار نفسه^(٢).
- وكتب ابن سينا الفيلسوف (المتوفى سنة ٤٢٨) مختصرأ في تاريخ حياته أكله تلميذه الجوزجاني ، ونقل عنه القسطي وابن أبي أصيبيعه .
- وكتب الإمام أبو حامد الغزالى (المتوفى سنة ٥٠٥) تاريخه الفكري في كتاب (المنقد من الضلال) .
- وكتب البيهقي ابن فندق أبو الحسن علي بن زيد (المتوفى سنة ٥٦٥) شيئاً عن نفسه في كتابه : مشارب التجارب ونقل عنه ياقوت الحموي في معجم الأدباء^(٣) .
- وألف ابن الجوزي أبو الفرج (المتوفى سنة ٥٩٨) رسالة : لفتة الكبد في نصيحة الولد يوصي فيها ابنه أن يقلده في حياته .
- وألف ابن عربي محيي الدين أبو بكر محمد بن علي الحاتمى الصوفى (المتوفى سنة ٦٣٨) رسالة : مناصحة النفس ، ينبعر فيها عن نفسه ورياضته الروحية ...

وتشبه هذه المؤلفات في معناها المذكرات أو السير وكثيراً ما تختلط بها ، فإن كتاب ابن شداد باسم التوادر السلطانية هو نوع من المذكرات عن أيامه مع

(١) انظر الأغاني (ط. دار الكتب) ج ٥ ص ١٦٠ .

(٢) الصندي - الراهن ج ٢ / ٣٣٧ .

(٣) انظر ياقوت - الأدباء ج ٥ ص ٢٠٨ .

صلاح الدين كما أنه سيرة له وكذلك بعض ما نذكر من الكتب التالية فهو تارة من السيرة أو من التاريخ المعاصر أو من الترجمة الذاتية على شكل المذكرات ومن ذلك :

— مذكريات الفضل بن مروان بن ماسر جيس النصراوي وقد خدم الملأون ووزر للمعتصم وتوفي في أواسط القرن الثالث عن ٩٣ سنة . وقد كتب كتاب المشاهدات والأخبار التي شاهدها ورأها^(١) ولعله أول كتاب مذكريات .

— وكتب أحمد بن الطيب السريسي الوزير « أخبار سير المعتصد بالله الخليفة ما بين ٢٧٩ - ٢٨٩) من مدينة السلام إلى وقعة الطواحين بفلسطين ثم انصرافه عنها » وهي الحملة العسكرية التي قادها سنة ٢٧١ / ٨٨٤ ضد خمارويه بن طولون . فكانت هذه المذكريات أساس السيرة التي كتبها ثابت بن سنان بن قرة عن المعتصد وقد دفعها الخليفة إليه لهذا الغرض .

— وكتب أبو الحسن أحمد بن جعفر بن جحظة البرمكي (٢٢٤ - ٣٢٤ / ٨٣٨ - ٩٣٦) كتاب ما شاهده من أمر المعتمد على الله^(٢) كما كتب المشاهدات ، وكتاب ما جمعه مما جربه المنجمون فصح من الأحكام .

— والصاحب أبو القاسم اسماعيل بن عبّاد (المتوفى سنة ٣٨٥ / ٩٩٥) كتب روزنامجة أي يوميات يقيس منها مقتطفات عديدة لدى الشاعري وابن ظافر الأزدي وياقوت^(٣) .

— أبو الفرج محمد بن أحمد بن الحسن الكاتب الوزير (من القرن الخامس)

(١) ابن النديم - الفهرست ص ١٢٧ .

(٢) انظر ياقوت - الأدباء ج ٢٤٢/٢ أوج ٣٨٤/١ وابن النديم ص ١٤٥ .

(٣) انظر الشاعري - يبيبة الدهر (ط . دمشق) ج ٢ ص ١١ ، ابن ظافر - بدائع البدائ ، وياقوت - الأدباء ج ١٥ ص ١١٢ وما بعدها .

كتب روزنامجاً أنشأه لولده المحسن يذكر فيه رحلته إلى الحج من أذربيجان وعبوره بجلب ومعرفة النعمان سنة ٤٢٨ وقد نقل عنه ابن العديم عدة صفحات^(١).

وقد ظهر في القرن السادس عشر كتاب سجلوا المذكرات كل على طريقته فإذا تركنا عمارة اليمني الذي كتب مذكراته في مصر وجدنا :

— أسامة بن مرشد بن منقذ (المتوفى سنة ٥٨٤) وكتابه الاعتبار الذي يأخذ شكل الذكريات لا المذكرات ويروي بعض الطرف التي عرفها في حياته.

— القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني (المتوفى سنة ٥٦٦) وله اليوميات التي تسمى بالمتجددات أو الملاومات أو الدستور وقد ذكر فيها ما مرّ به في مكانه من دولة صلاح الدين من أمور يومية.

— العماد الأصبهاني الكاتب (المتوفى سنة ٥٩٧) وقد كتب سلسلة من المذكرات في مجلدات عديدة هي : (البرق الشامي) الذي روى فيه ما شهد له من أحوال دولة نور الدين وصلاح الدين ما بين سنى ٥٦٣ - ٥٨٩ في سبع مجلدات ، ثم (عقبي الزمان) في تاريخ الدولة الأيوبية منذ وفاة صلاح الدين حتى آخر سنة ٥٩٢ ذيل فيه على البرق الشامي ثم نحلة الرحلة الذي روى فيه مرة أخرى ما شهد له من أحداث العهد الأيوبى منذ وفاة السلطان حتى أواخر سنة ٥٩٣ ثم (خطفة البارق وعطفة الشارق) روى فيه ما شهد له من التاريخ الأيوبى منذ مطلع سنة ٥٩٣ حتى أول رمضان سنة ٥٩٧ ... ويعkin أن يعتبر كتابه : (الفتح القسي في الفتح القدسى) حول حطين وفتح فلسطين من كتب المذكرات أيضاً.

(١) ابن العديم — بنية الطلب (خطوط أحمد الثالث) ج ١ ورقة ٢١٨ وجه وما يعلمه .

وأخيراً كان مما دخل على مادة التاريخ من التطور في القرن الرابع وما بعده
أمران :

(أ) ظهور القصص التاريخي وهي ظاهرة نجمت دون شك عن ازدياد الاهتمام الشعبي بالتاريخ وعن وصول هذا الاهتمام إلى الطبقات الدنيا في المجتمع الإسلامي . وإذا كان الوعاظ من جهة والسمار من جهة أخرى وأنصار الفرق الدينية من جهة ثالثة هم الذين سطوا على المعلومات التاريخية أول الأمر ، واستخدموها في الوعظ والسمر ودعم الآراء الدينية المتاخرة فلا شك أن وجود وتكاثر جمهور التاريخ في ذلك المجتمع هو المسؤول عن اتساع ذلك الاهتمام وعن ظهور العديد من الكتب نصف التاريخية حيث يمتد الوهم بالتاريخ وينتطلخ الخيال والأسطورة بالمعطيات الواقعية . يقول جب :

« ... ولم يكن جل هذه المفتيات محض اختلاف بل كان يستند إلى أساس من الرواية الصحيحة مزج بصنوف الروايات الشعبية والقصص الخيالي ومواد الدعاوة والهزيمة وكان يرمي في الغالب إلى هدف سياسي أو ديني معين . انظر على سبيل المثال مواد ابن اعم وابن قتيبة والمرتضى والأشرف والواقدى . شأنه في كل ذلك شأن مؤلفات سيف بن عمر ... »^(١) .

والواقع أن مادة كثيرة زائفه قوامها الاختلاف والتزيين والإثارة دخلت على مادة التاريخ في هذه الفترة وأصابت بصورة خاصة فترات الفتوح ثم تاريخ الفترة الباهالية وتاريخ الفرس وتركط طابعها المضلل في الواقع التاريخي . وقد أوجدت في الحقيقة لوناً جديداً من الأدب لا لوناً من التاريخ ، هدفه ارضاء تلك الرغبة الغفوية لدى الناس في رواية القصص وشحد الخيال وتركيب الصور والواقع . وقد قدم ابن النديم مسرداً واسعاً من أسماء القصص الشعبية التاريخية

(١) جب - الموسوعة الإسلامية - مادة التاريخ (ج ٤ ص ٤٩٥ من الترجمة العربية) .

ومؤلفيها يطول استعراضه^(١) ولكنه على أي حال يدخل في باب علاقة التاريخ بالأدب .

والأمر الثاني هو أن بعض التاريخ تلوّن في هذه الفترة بألوان الهوى السياسي والطائفي للكتاب . لم يكن ثمة مناص من أن ييلو في رواية الطبقات الدينية وغير الدينية التي تكتب التاريخ ما عرف عنها من تحيز إلى فكرها الخاص واكتفاء بالنظر إلى المسائل السياسية والاجتماعية من وجهة نظر واحدة . وليس يقتصر هذا على فريقي السنة والشيعة ولكن يمتد حتى لظهور فيه التحيزات الفرعية المذهبية ، وأنظر مثلاً ما يكتبه ابن الجوزي الحنبلي عن ابن عساكر الشافعي أو ما يكتبه أبو شامة السنّي عن نسب الفاطميين ، أو ما كتبه ابن أبي طي الشيعي عن نور الدين وصلاح الدين ... الخ . ونستطيع القول أنه ظهرت في بعض الأحيان لكل جماعة دينية أو اجتماعية تواريختها الخاصة التي تعكس آراءها واهتماماتها .

(١) راجع ابن النديم - الفهرست ص ٣٠٤ - ٣٠٨ وسوف نبحث مادة القصص هذه من بعد .

الفصل التاسع

تطور المنهج التاريخي - ١

في التدوين

كان لابد للتاريخ الإسلامي ، بعد أن استقر علمًا بين العلوم ، وفاعلية من فاعليات الفكر الراحلة ، وبعد أن تكاثر عدد العاملين عليه وتضخم مؤلفاته وتنوعت أوسع التنويع مواضيعه ، وبعد أن تنوع الطارقون له والمحاججون إليه فشملوا كافة الطبقات و مختلف نواحي الحياة ، كان لا بد لكل أولئك من أن ينعكس أثره لا في مادته كثرة وألوانها فقط ولكن منهجاً وأسلوباً وهدفاً ومصادر وتنظيمياً أيضاً . وبديهي أن هذا التغير في المناهج التاريخية لا يمكن أن يكون مفاجئاً ، ولا ابن القرن الرابع وما بعده فان جذوره ومطالعه انما تبدأ منذ القرن الثالث أو قبل ذلك إلا أن النضج الحضاري في القرن الرابع خاصة ، و اكمال الفكر التاريخي في هذا القرن وما بعده هو الذي أبرز هذه التغيرات وجعلها من الملامح المميزة لعلم التاريخ الإسلامي من بعد .

ويعكن أن نراقب ما طرأ على مناهج التاريخ الإسلامي من تطور من خلال أمرتين : تدوين المادة التاريخية ، وتنظيم هذه المادة .

١ - في تدوين المادة التاريخية

ثمة عدد من التطورات في تدوين المادة التاريخية يمكن أن نسجل منها :
أولاً : سقوط الإسناد تدويناً وقيمة توثيقية . تلك الزائدة التي كانت تقدم الأخبار مستندة ما فيها إلى روايتها ، راوية بعد راوية فقدت وظيفتها وانقرضت . واقتصر بالفرضياتها أهم صلة تصل التاريخ بعلم الحديث ، وأعلن التاريخ بهذا الشكل استقلاله بمنهجه الخاص . وقد أسمى في الوصول إلى هذه المرحلة عدد من العوامل منها : انتشار الورق والمخطوط المكتوب ثم عدم ترتيب أمور فقهية شرعية أو حياتية هامة على التاريخ المدون (مما كان من قبل يستوجب تحري الدقة في التدوين والصحة) ومنها كذلك الرغبة في الاختصار مع تضخم المادة المتزايد . وعدم مطالبة الناس بسند للحديث التاريخي يوازي تشددهم في تطلب السند للحديث النبوي ... الخ ، على أن هذا كله كان يعني في الوقت نفسه استقرار الرواية التاريخية المستقلة وتوطدها .

وإذا كان الطبراني آخر مثل للطريقة الحدبية فإن المسعودي الذي ظهر مباشرة بعده ومات بعد ٣٦ سنة منه يمكن أن يعتبر أبرز مثل للطريقة التاريخية اللساندية . على أن العدد الكبير من المؤرخين حتى في القرون التالية كانوا يحاولون الإبقاء على إشارة موجزة في مطلع الخبر تشير إلى المصدر . وبينما كان بعض المصنفين المتأخرين يستغنون في معظم الأحيان الاستغناء الكامل عن كشف مصدر أخبارهم (ومن أبرزهم مثلاً ابن الأثير) فإن المنهج الحدبي مع ذلك لم ينفرض تماماً وظل نرى دون انقطاع ظهور السند بكل جلاله وطوله ولا سيما لدى المؤرخين المحدثين وفي الكتب التاريخية التي تستهدف تراجم الرجال ورواية الحديث . وأكثر ما يظهر ذلك في التواريχ البلدانية وغاраж تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (القرن الخامس) وتاريخ دمشق لابن عساكر (القرن السادس) وبغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم (القرن السابع) غاраж كافية واضحة في هذا السبيل إن لم نذكر الكثير من غيرها .

وكان خطوة هامة نحو التوثيق التاريخي المستقل ان يتزعم المؤرخون بذكر المصادر التي نقلوا عنها أخبارهم ونصوصهم . وقد اتبعوا في ذلك طريقين :

- بعضهم ممن استغنى عن الإسناد في صلب الكتاب جمعها جميعاً عند مقدمته في سلاسل وجعلها المصادر الإجمالي لما يرويه كما فعل ابن أثيم الكوفي (ستة ٣١٤) في مقدمة كتابه الفتوح . وكان بعضهم يجمع بدل الإسناد أسماء الكتب التي اعتمدتها ويضعها في المطلع كما فعل المسعودي.

- وبعضهم كان يعزو كل خبر إلى المؤلف أو الكتاب الذي أخذ عنه بشكل موجز قد يقتصر أحياناً كثيرة على كلمتي « قال فلان » . مثال ذلك ما نراه مثلاً لدى أبي شامة في كتاب الروضتين ولدى سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان .

على أن بعض التشذيبين في السندي كانوا بالمقابل إذا افتقروا الرواية الشفهية على طريقة المحدثين ، واضطروا إلى النقل عن الكتب المخطوطة يوتفعون بذلك النقل توثيقاً عجياً في دقة فلا يكتفي أحدهم بذكر اسم الكتاب الكامل واسم صاحبه بالكامل أيضاً ولكنه يضيف إلى ذلك وصف الكتاب المخطوط ومكان وجوده وأحياناً اسم ناسخه ، واسم من يملك الكتاب أو من أهداه ، أو أعاره والنموذج الممتاز في هذا الصدد نجده في ابن العديم . وكثيراً ما نجده يكتب مثلاً : « قرأت الحكاية (حكاية عن الأعسر الكلابي الفارس مع سيف الدولة) في مجموع قديم مكتوب في أيام سيف الدولة أو قريب من عصره وشاهدتها في المجموع على الصورة التي ذكرها بخط بعض الأخباريين في جزء وقفت عليه في وقف الإمام الناصر أبي العباس بالخلافة في الجانب الغربي من بغداد . قال ... »^(١).

أو يكتب : « ... وجدت بخط الشيخ أبي محمد عبد الله بن أحمد بن أحمد

(١) ابن العديم - بنية الطلب (مخطوط أحمد الثالث) ج ٣ ورقة ٢٥٠ وجه و ٢٥٤ ظهر .

ابن أحمد بن الحشاب في أثناء مجموع من تعليقه في دار وقف القرآن بسنجرار ما صورته . أشدني ... »^(١) أو يكتب : « قرأت في تاريخ أبي المحاسن ابن سلامة الحراني ، بحران ، دفعه إلى الخطيب ابن تيمية وذكر أنه نقله من خط المؤلف قال وفي سنة ٥٩٣ ... »^(٢) .

وهذا كله إنما يعني أن التاريخ إن افتقد السند واستغنى عنه فإنه لم يحمل التوثيق وتحري الدقة في النقل وينهج لذلك طرائقه الخاصة . وندر أن أعمل المؤرخون ذكر المصادر أهالاً إلا في الموجزات الحولية وال اختصرات للتاريخ العامة . ويكاد يكون ابن الأثير من الأمثلة النادرة في هذا الباب إذ أهمل ذكر مصادره في تاريخه (الكامل) ولو أنه لم تغب عن الباحثين تلك المصادر التي تبلغ حوالى خمسة وثلاثين مصدراً .

ثانياً - تزايد الاعتماد على الوثائق : ما كانت الوثائق الرسمية (نصوص المعاهدات أو نصوص الرسائل والخطب وغيرها) بالغاية عن التدوين التاريخي الإسلامي منذ مطالعه ولكن الاعتماد عليها ازداد بعد أن عمل على هذا التدوين الكتاب والموظفون الرسميون أيضاً وأدخلوا في مصنفاتهم ما يقع تحت أيديهم من مخطوطات الدواعين وأحياناً من نصوص الكتب التي يكتبوها هم أنفسهم .

وهكذا فإذا كان من النادر أن نجد وثيقة في كتب التراجم ولدى المؤلفين ذوي الثقافة الحديثة إلا ما اتصل منها بموقف ديني أو فقهى شرعى فإننا بالمقابل نجد الوثيقة السياسية (من رسالة رسمية بصورة خاصة ، أو درج نسب أو تقرير أو مرسوم تعيين أو توقيع أو كتاب بولاية ... الخ) قد دخلت في صلب الكتب التاريخية التي ألفها أمثال الروذراوري ، والبيهقي ، والصولي ، والصابيء ، ومسكويه ، وابن القلانسي ، والمبسيحي ، والعماد الأصفهانى ، والقاضي الفاضل ، وابن شداد ، وأبي شامة ، وعمر بن شاهنشاه الأيوبي

(١) المصدر نفسه ج ٨ ورقة ١٦٣ ظهر .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ورقة ٢١٠ وجه .

(صاحب مضمون الحقائق) ويبدو أن هذه الأقلام المتراكمة من هؤلاء على كتابة التاريخ ، قد شعرت بنقص التوثيق في مدوناتها بالمقارنة مع التدوين الحديدي ذي الإسناد فكان عليها أن « توثق » معلوماتها بنصوص أصلية تأخذها مباشرة عن منابع المعلومات وعن محفوظات النواوين . على أنها يجب أن لا نفلن دافعاً آخر أتى بالوثائق إلى كتب التاريخ هو الدافع الأدبي فكثيراً ما كانت الوثيقة تنقل بنصها الكامل أو في معظمها لا لقيمتها السياسية أو الأخبارية ولكن لقيمتها الأدبية . والنصوص التي كتبها كبار الكتاب كانت إنما تنقل كنماذج يختذلها الكتاب الناشئون .

ومؤرخو القرن الرابع وان احتفظوا من المحفوظات الديوانية التي وقعت لهم الكثير من الوثائق بنصوصها إلا أنهم كانوا أحياناً يعتمدون على معلوماتها دون ايراد نصوصها كما فعل أحياناً كثيرة مسكونيه والصولي أو كانوا يوردون بعض الفقرات منها طبقاً لحاجاتهم . وكتب الخراج كانت تحوي الكثير من ذلك . ومع أن هاتين الطريقتين اتبعا من قبل المؤرخين في القرون التالية كالروذراوري والصافيء ، ثم ابن القلانسي ثم أبي شامة ، إلا أنها نشهد في القرن الخامس ظهور النصوص بخدايرها لدى بعض المؤرخين ، إعجاباً منهم بأساليبهم أو بأساليب أساتذتهم كما فعل المسجعي والبيهقي (في تاريخ بيهق) فإذا جاء القرن السادس توسع بعض الكتاب في ذلك ففضحتم مؤلفاتهم أوسع التضخم بما تزول فيها من نصوص الرسائل والوثائق الكثيرة المتدافعه كما فعل العماد الأصبهاني مثلاً وابن شاهنشاه . ويصل هذا المد الوثائقي إلى أوجه لدى القاضي الفاضل الذي طبع التاريخ الأدبي قروناً بطبعه والذي بلغ دون شك من اعجابه بما دיבع من الرسائل والتقارير التي لو جمعت كلها جاءت في ما يقارب مائة مجلد...^(١)

(١) لا شك أن شكله التسيء قد أسمم في تنسيم الآنا عنده . وهي عادة حبذا او درست من قبل الأدباء . وتقدير الرسائل بمائة مجلد ذكره ابن خلkan - الوفيات ج ٣ ص ١٥٨ - ٩ (ط . بياس - بيروت) .

أنه جمع منها مجلدات عديدة وأعطتها اسم «المتجددات» (وتسمى أحياناً بالمليومات أو بالتاريخ) فهي ثالث كتاب تاريخي خالص للوثائق فحسب . لم يتكرر مثال آخر من نوعها في التاريخ الإسلامي .

واهامٌ في كل هذا أن الروح «الوثائقية» قد توطدت باستمرار كطريقة أساسية في المنهج التاريخي الإسلامي ولكن دون أن تحوّل التاريخ مع ذلك إلى «تاريخ رسمي». فالكاتب الذي كان يستعمل الوثائق لم يصبح مؤرخاً «رسمياً» للدولة ولكن مؤرخاً موثقاً واحتفظ رغم ارتباطه الوظيفي بحرفيته في اختيار ما يريد من الوثائق إلا في بعض الحالات النادرة كحالة إبراهيم الصابيء وكتابه التاجي في تاريخبني بويه . وهكذا فإذا انتهى إلغاء السند إلى استقرار الرواية التاريخية واستقلالها ، فقد انتهت الوثائقية فيه إلى إقرار أهم عنصر من عناصر الموضوعية فيه .

ثالثاً : التأثير بالعلوم الأخرى والتاريخ لرجالها : فقد تركت العلوم المختلفة في نوها الواسع أثراًها في التاريخ ، في تلك العصور فإنما نجد أنها أخذت بدورها حيزاً خاصاً من اهتمام المؤرخين لا كعلم ولكن كرجال وحملة فكر وعلم . وقد سجل المؤلفون تطور الثقافة الإسلامية على اختلاف فروعها من خلال التاريخ لرجالها والتسجيل لآثارهم العلمية . فكان العلم عندهم هو رجاله وبهذا الشكل ارتبط التاريخ الإسلامي بالأجيال المتتالية من رجال العلم الذين ظهروا فيه قدر ارتباطه برجال السياسة وال الحرب الذين ظهروا فيه .

وانهالت على التاريخ : من هذا الباب كتب بعد كتب لا تحفظ ذكر الرجال فقط ولكنها تسجل في الوقت نفسه وفي ثانيا الترجم مع مسائلهم وروابطهم دقائق الحياة الفكرية والاجتماعية لعصورهم تسجيلاً جعلها النجم الغني بالمادة الأولية التاريخية . وما من علم من العلوم البارزة في الفكر الإسلامي العربي إلا ولرجاله كتب تتحدث عنهم وعن آلامهم .

وإذا كان علم الحديث هو الذي بدأ «التاريخ» بمعنى تسجيل أسماء رواة

الحدث فطبيعي جداً أن يستمر ذلك «التاريخ» فيما بعد وأن ترتبط كلمة التاريخ ، في هذا المجال خاصة ، بمعنى الترجم وأن ينسحب هذا المعنى أحياناً على تواريخ المدن فتصبح ترجم لرجالها فقط ، وأحياناً لرجالها من رواة الحديث . ولم يكن هؤلاء الرواة في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية بالقليلي العدد. فأنهم يزيدون على ستين بالمائة من رجال العلم والفكر . وقد نستطيع القول أنا لا نكاد نجد «عالماً» لم يشارك من قريب أو بعيد في حمل الحديث وروايته . فقد كان ذلك «فخرآ» علمياً لا يحمله إلا الأقلون وكان لقب «الحافظ» من أجل الألقاب إن لم يكن أجمل الألقاب التي يحملها عالم .

وهكذا وصلت الكتب التاريخية التي تجمع ترجم رجال الحديث في العدد ، إلى المئات العديدة والألاف . وأضحت من الصعب حصرها وغدت زمراً بعضها يحمل اسم الطبقات ، وبعضاً اسم الرواة وبعضاً اسم المعاجم وبعضاً اسم الشيوخ وبعضاً اسم الرجال وبعضاً اسم تاريخ مدينة كلها وبعضاً اسم التاريخ مجرداً .

وتفرعت عنها فروع منها الأنساب (بمعنى الثاني الذي بُرِزَ في السمعاني) ومنها المؤلف والمختلف ومنها كتب الكنى والألقاب ، ومنها طبقات أهل أهل المذاهب المختلفة . ولا ضرورة لأن نأتي بالأمثلة عليها لأنها تفوق الطوق في الحصر والتعداد ولكن لأنها أضحت تشكل أكثر من نصف مادة التاريخ الإسلامي .

وإذا نحن تجاوزنا علم الحديث إلى العلوم والمعارف الأخرى هبط بالطبع عدد الكتب التاريخية لرجالها إلى العشرات وأحياناً إلى الأعداد المحدودة . ومن ذلك الكتب حول المتصوفة والأطباء والحكماء والقراء والتحويين والشعراء والأدباء ...

فاما حول التصوف والزهد وأهله فمن الملاحظ أن التأليف في هذا الباب قد تأخر حتى بلغت الحضارة العربية الإسلامية فترة النضج في القرن الرابع وعند ذلك تبّه المؤلفون إلى هذه الفئة من المتنبيين الذين لم يسجل فهرست ابن النديم (وهو من أواخر القرن الرابع) حولهم أي كتاب تقريباً : بينما سجل للعلماء الزهاد عشرات بعد عشرات من الكتب التي تعلم الزهد وجعل لهم فصلاً خاصاً (هو الخامس) من المقالة الخامسة . الكتابان الوحيدان اللذان ذكرهما :

- كتاب الرهبان لابن الجنيد ، وكتاب المتمين من السياح والعباد والمتصوفين لأبي حمزة الصوфи^(١) . ولا شك أنه قد ألف غيرهما أيضاً ، قبل القرن الرابع الذي ظهر فيه وفي القرون التالية عدد من المؤلفين في تاريخ العباد والصوفية والزهاد منهم :
- أبو زيد أحمد بن سهل البلخي (المتوفى سنة ٣٢٢ / ٩٣٤) وله بين كتبه التاريخية العديدة كتاب العناك والنساك^(٢) .
- أبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد ابن الاعرابي العترى (المتوفى سنة ٣٤١ / ٩٥٣)^(٣) وله كتاب : طبقات النساء .
- المرزباني أبو عبد الله محمد بن عمران (٢٩٧ - ٣٧٨) وبين مؤلفاته الواسعة الكثيرة كتاب الزهد والزهاد^(٤) .
- أبو العباس أحمد بن محمد بن زكريا النسوى (المتوفى سنة ٣٩٦ /

(١) ابن النديم - الفهرست ص ١٨٥ و ١٨٦ .

(٢) المصدر السابق ص ١٣٨ .

(٣) ابن الجوزي - المستقيم ج ٦ ص ٣٧١ ، وكشف الظنون ج ٢ عمود ١١٠٨ .

(٤) انظر ابن النديم - الفهرست ص ١٣٣ .

— (١) صاحب طبقات الصوفية .

— سعيد بن أسد الأموي (ولعله من القرن الرابع) مؤلف : فضائل التابعين وأخلاق الصالحين (٢) .

— عبد الواحد بن سياه الشيرازي (ولعله من القرن نفسه) ، وقد اقتبس ابن النجاشي في ذيل تاريخ بغداد من كتابه ترجمة علي بن محمد الزنجاني (٣) .

وكثرت هذه الكتب في القرن الخامس التالي ، كتبها :

— أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي (المتوفى سنة ٤١٢ / ١٠٢١) .

— وأبو سعيد محمد بن علي بن عمرو النقاش (المتوفى سنة ٤١٤ / ١٠٢٣) .

— وأبو الحسين (أو الحسن) علي بن عبد الله بن جهضم (المتوفى سنة ٤١٤ أيضاً) صاحب : « بهجة الأسرار ولوامع الأنوار في حكايات الصالحين والأخيار والصوفية الحكماء الأبرار » .

— وأبو منصور معمر بن أحمد بن زياد العارف (المتوفى سنة ٤١٨ / ١٠٢٧) وله : طبقات النساك .

— وقد جاء بعد ذلك أبو نعيم أحمد بن عبد الله (المتوفى سنة ٤٣٠ / ١٠٣٨) صاحب تاريخ أصفهان ، فوضع كتاب حلية الأولياء الذي طبع في عشرة مجلدات وصار من أشهر الكتب في تاريخ الصوفية . وقد ذكر فيه أخبار جماعة من الصحابة والتابعين والخلفاء العشرة الأوائل . وقد اختصره ابن الجوزي في كتاب (صفة الصفوة) .

(١) البداوي — تاريخ بغداد ج ٥ ص ٩ ، وينكره بروكلمان (ملحق ١ من ٩٤٩) باسم السوسي .

(٢) السخاري — الإعلان ص ٥٧٤ .

(٣) انظر ابن النجاشي — ذيل تاريخ بغداد (مخطوط باريس Ar ١٢٣١) ورقة ٢٣ وجه .

- وجاء القشيري بعد ذلك : أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن النيسابوري (المتوفى سنة ٤٦٥ / ١٠٧٢) عن ٨٩ سنة . وقد كتب هذا الصوفي كتاباً لا يقل شهرة و شأناً عن سابقه عُرف باسم : الرسالة القشيرية في ٤٥ باباً و ثلاثة فصول .

- وكتب ابن خميس الكعبي مجد الدين أبو عبد الله الحسين بن نصر ابن محمد الجهني (المتوفى سنة ٥٥٢ / ١١٥٧) كتاب طبقات الأولياء وكتاب مناقب الابرار والكتابان من المخطوطات اليوم .

- وألف ابن الأثير مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن عبد الكريم الجزرري (شقيق المؤرخ المعروف) المتوفى سنة ٦٠٦ كتاب : المختار في مناقب الأخيار وهو مخطوط .

- كما ألف في الوقت نفسه مؤلف آخر اسمه جمال الدين محمد بن أبي الحسن المصري الشافعي كتاب أخبار الأخيار .

- وجاء ناصح الدين الحنبلي عبد الرحمن بن عبد الوهاب الأنصاري الشيرازي الدمشقي (المتوفى سنة ٦٣٧ / ١٢٤٠) فألف كتابين هما : الاستسعاد بمن لقيت من صالح العباد في البلاد . وتاريخ الوعاظ .

- وكتب الحسين بن علي بن الحسن بن ظافر الأزدي (ابن المؤرخ المعروف) في أواسط القرن السابع بدوره كتابين أحدهما لابنه في (أخبار الأولياء) والآخر باسم تاريخ الصوفية . والأول مخطوط موجود .

وتكاثرت الكتب المتعلقة بمثل هذه المواضيع فيما بعد . كان عدد من الظروف الحياتية والسياسية ومن المفاهيم الدينية يدعوه إلى جعل التصوف والزهد نوعاً من الحياة المثلث ، ويدعو وبالتالي إلى كثرة الحديث عنها وعن رجالها والتأليف فيهم .

أما الطبع ورجاله فقد ارتبط تاريخهم - بسبب ارتباط العلم نفسه - مع

و رجال الفلسفة والحكمة . كانت علوم الأوائل دائرة علمية واحدة . فاختلطت تواريχ الأطباء والحكماء بعضهم مع بعض ، من جهة كـما كانت أخبار الفلسفة والأطباء اليونان تماماً غالباً القسم الأول من تلك التواريχ من جهة أخرى ... بل كانت الكتب الأولى التي صدرت في هذه المواضيع مجرد تواريχ للأطباء والحكماء الأغريق : وهكذا جاء المؤلفون :

– اسحق بن حنين (المتوفى سنة ٢٩٨) وقد نشر كتاب (تاریخ الأطباء والحكماء) وكان يجب أن يضيف إلى العنوان كلمة الاغريق لأنه إنما تحدث فقط عنهم معتقداً على تاريخ اغريقي في الموضوع نفسه كان كتبه يوحنا الغراماطيقي (يحبي التحوي) . وقد نشر روزنثال هذا الكتاب (مجلة Oriens سنة ٩٥٤) .

– حنين بن اسحق المترجم المعروف (المتوفى سنة ٢٦٠) وترجم عدداً من (نوادر الأطباء) وهي مقتطفات من آداب وأقوال الفلسفة اليونان مع بعض أخبار عنهم وقد جمع مؤلف مجهول من أقوال حنين هذه النوادر في كتاب نجده مخطوطاً في الاسكوريات (رقم ٧٥٦) ولدى ابن أبي أصيبيعة نقول منه^(١) .

– وجاء طبيب مترجم آخر هو قينون الترجمان (من القرن الثالث) – ويرد الاسم أحياناً على شكل فيثون) فوضع كتاباً نقل عنه ابن أبي أصيبيعة كثيراً من تراجم الأطباء في العصر العباسي الأول ونقلها القسطاني كذلك دون أن ينسبها إليه ومتى زأها دقـيـقة تحدد الأخبار بالتواريخ^(٢) .

– اسحق بن علي الراهوي (من أواخر القرن الثالث ومطالع الرابع) وكتابه : أدب الطبيب هو من مصادر أبي أصيبيعة والقسطاني على السواء ،

(١) انظر مثلاً ابن أبي أصيبيعة – طبقات الأطباء (طبعة بيروت ١٩٦٥) ص ٩٥ و ٩٦ .

(٢) انظر ابن أبي أصيبيعة – طبقات الأطباء (ط. بيروت ١٩٦٥) ص ١٨٣ – ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٨ ... الخ .

- نقاً عنه بعض الترجم(١).
 - أبو علي القياني (من العصر نفسه) وله هو بدوره كتاب كان أحد مصادر ابن أبي أصبيعة(٢).
 - ثم وضع أبو بكر محمد بن زكريا الرازى (المتوفى سنة ٣١٣ / ٩٢٥) سيرة الحكماء التي لم تصلنا منها سوى منقولات ابن أبي أصبيعة.
 - وكتب أبو الحسن يوسف بن ابراهيم المعروف بابن الديمة (وهو آخر المعتصم بالرضا) ١٨٠ - ٢٦٥ / ٧٩٦ - ٨٧٨ كتاباً : أخبار الأطباء ، وأخبار المنجمين وينقل ابن أبي أصبيعة(٣) والقططي كثيراً عن الكتاب الأول .
 - أبو القاسم سلمة المجريطي (المتوفى سنة ٣٩٥ / ١٠٠٥) الذي كتب تاريخ فلاسفة العرب . وقد ضاع الكتاب الا من ذكره في كتاب آخر للمؤلف هو (غاية الحكيم - مقالة الطلماسات)(٤).
 - أبو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجزي (السجستاني) المتلقى (المتوفى أواخر القرن الرابع) صاحب كتاب صوان الحكمة الذي وصلنا منتخب له .
 - عبيد الله بن جبريل بن عبيد الله بن بختشوع (المتوفى سنة ٤٥١ / ١٠٥٨) . بيافارقين وهو طبيب معروف ألف (مناقب الأطباء) وذكر فيه شيئاً من أحوال الأطباء ومآثرهم وأخباراً عن أبيه وجده . كتب ذلك

(١) انظر المصدر السابق الصفحات ١٩١ ، ٢٠٧ ، ٢٤١ ، ٢١٥ ، ٢٠٧ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٤ ، ... الخ

(٢) المصدر نفسه ، الصفحات على سبيل المثال : ٢٠٨ ، ٢٢٨ ، ٢٠٨ ، ... الخ

(٣) المصدر نفسه الصفحات : ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، ١٩٨ ، ١٩٨ ، ٢١٦ ، ٢١٦ -

٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ١٥٩ ، ... الخ ، وبعض المصادر تحمل الكتاب لأحمد بن يوسف المذكور مع أنه للأدب (وانظر خاصة ص ١١٧ - ١٢١ من طبقات الأطباء) .

(٤) انظر آغا بزرگ - الترجمة إلى تصانيف الشيعة ج ٣ ص ٢٧٣ والمولى اندرلي ذكرناه للإشارة إلى أنها سترتك ذكر الأندلسيين الآخرين .

- سنة ٤٢٢ ونعرف بعض فقرات الكتاب عن طريق ابن أبي أصيبيعة^(١)
- أبو الحير المبارك بن شرارة الحلبي الطبيب (المتوفى سنة ٤٩٣ / ١٠٩٩) بخلب وقد كتب تاريخ أطباء العصر .
 - البياسي أمين الدين أبو زكريا يحيى بن اسماعيل (المتوفى أواسط القرن السادس) كتب تعليقات حول أطباء عصره .
 - زين الدين عمر بن سهلان الساوي (المتوفى سنة ٥٤٠) اختصر صوان الحكمة وهو مخطوط موجود .
 - الشهريستاني أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد (المتوفى سنة ٥٤٨ / ١١٥٣) صاحب الملل والنحل . كتب أيضاً تاريخ الحكماء ومنه مخطوط في مكتبة أحد المستشرقين وله ترجمة فارسية في الهند^(٢) .
 - ابن فندق ظهير الدين أبو الحسن علي بن زيد البهيفي (المتوفى سنة ٥٦٥ / ١١٦٩) كتب أيضاً تتمة صوان الحكمة وقد طبع في لاهور بالهند بهذا العنوان سنة ١٣٥١ بينما طبع بدمشق بعنوان تاريخ حكماء الاسلام سنة ١٩٤٦ .
 - موفق الدين أسعد بن الياس بن المطران (المتوفى سنة ٥٨٧ / ١١٩١) كتب : (بستان الأطباء وروضة الأباء) ومنه نسخة خطية في مكتبة الجيش الطبية - كليفلاند (تحت رقم ٨) بالولايات المتحدة .
 - الأمير المبشر بن فاتك (المتوفى سنة ٥٨٩ / ١١٩٣) كتب بدوره (مختار الحكم ومحاسن الكلم) ومحظوظه موجود في استانبول (أحمد الثالث رقم ٣٢٤٩) .
 - مؤلف مجهول كتب في أواخر القرن السادس تاريخ الفلسفه السابقين

(١) ابن أبي أصيبيعة - طبقات الأطباء ص ١١١ ، ١١٢ ، ١٥٢ ، ٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٣٠٨ - ٣١٠ - ٣٢١ وترجمة ص ٢١٤ .

(٢) انظر زيدان - تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ١٠٤ .

وهو مخطوط موجود في استانبول (أحمد الثالث رقم ٢٠٥٥) كان قد استخدمناه ابن خلكان وعليه خطه، بذلك .

— أبو الثناء شديد الدين محمود بن عمر بن محمد الشيباني المعروف بابن زقيقة الطبيب (المتوفى سنة ٦٣٥ / ١٢٣٨) كتب (قانون الحكماء وفردوس النداء) الذي نقل عنه ابن أبي أصيبيعة بعض النقول .

— أسد الدين عبد العزيز بن أبي الحسن علي (المتوفى سنة ٦٣٥) أيضاً كتب نوادر الأطباء وهو ضائع بدوره إلا من نقول عنه لدى ابن أبي أصيبيعة .

— جمال الدين علي بن يوسف الققطي الوزير (المتوفى سنة ٦٤٦ / ١٢٤٨) كتب بين الكتب التاريخية الكثيرة التي كتب : أخبار العلماء بأنبصار الحكماء وقد وصلنا مختصر الكتاب على يد الروزفي ، وقد طبع (ليبيزين سنة ١٩٠٣) كما أن في استانبول مخطوطة (مكتبة يحيى جامع رقم ٨٥٤) بعنوان روضة العلماء في تاريخ الحكماء ويدرك عليه أنه من جمع حفيد المؤلف .

— ابن أبي أصيبيعة موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم الخزرجي (المتوفى سنة ٦٦٨ / ١٢٧٠) وقد كتب أوسع وأهم كتاب في هذه السلسلة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء وله طبعات عديدة ... ومع أنه ليس آخر الكتب في هذه المادة إلا أنه يكاد يكون آخرها . فما ظهر من بعده في العصور التالية كان معظمها بالفارسية من جهة كما كان أقل شمولاً وسعة بكثير منه .

ويمكن أن نجد في تاريخ التحويين وطبقاتهم سلسلة ليست أقل طولاً ولا غنى من سلسلة تاريخ الحكماء والأطباء . وهكذا بعد أن ألف أول المؤلفين أمثال محمد بن يزيد المبرد ، وأحمد بن يحيى المعروف بشغلب ومحمد بن عبد الملك التاريخي^(١) ما بين القرنين الثاني والثالث أول الكتب في هذا الموضوع

(١) انظر ياقوت - الأدباء (المقدمة) ج ١ ص ٤٧ .

ظهرت الكتب الواسعة في القرن الرابع كتبها :

– ابن درستويه أبو محمد جعفر بن محمد (المتوفى بعد سنة ٣٣٠) وهو بصري متخصص وقد كتب *أخبار النحويين*^(١).

– أبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي الحلبي (المشتهد سنة ٣٥١ / ٩٦٣ في دخول الدمشق الرومي إلى حلب) وله : مراتب النحويين (ويسمى بها السيوطي مراتب اللغويين) ومنه نسخة خطوظة قديمة في القاهرة (التيمورية رقم ١٤٢٥ تاريخ في ١٦٥ صحفة).

– أبو سعيد الحسن بن عبد الله بن المرزيان السيراني (المتوفى سنة ٣٦٨ / ٩٨٩) وقد كتب طبقات النحويين واللغويين (طبع في بيروت سنة ١٩٣٦) ومنه خطوط في استانبول (شهيد على رقم ١٨٤٢) بعنوان *أخبار النحويين*.

– أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى المرزياني (المتوفى سنة ٣٧٨ أو ٣٨٤ / ٩٩٤ أو ٩٨٨) وله : المقتبس في *أخبار النحاة*^(٢) وقف عليه ياقوت الحموي في ١٩ مجلداً وقال إنه كتاب حفيل ولكنه قليل التراجم بالنسبة لحجمه مخشو بآراء النحويين وينبغى أن يسمى *مسند النحويين* ..

– أبو بكر محمد بن الحسن بن عبد الله الزبيدي (المتوفى سنة ٣٧٩ / ٩٨٩) وقد ألف طبقات النحويين واللغويين الذي نشر في القاهرة (تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم سنة ١٩٥٤) وقد جمع فيه النحاة من صدر الإسلام حتى شيخه الرياحي (المتوفى سنة ٣٥٨).

– أبو محمد عبد الله بن اسماعيل بن محمد بن خزرج اللخمي (من أوآخر

(١) ابن النديم – الفهرس ص ٦٣ .

(٢) انظر ابن النديم ص ١٣٣ ، السخاوي – الاعلان ص ٥٦ ، وانظر ياقوت – الأدباء ج ١ ص ٤٧ .

القرن الرابع) وقد انتهى من كتابي الزيدى^(١) والسيرافي كتاب المتنقى من طبقات النحوين واللغويين^(٢).

- أبو عبد الله محمد بن الحسين بن عمر اليماني (المتوفى سنة ٤٠٠ / ١٠٠٩) وله تاريخ النحاة^(٣). وقد ذكره الققطى وتقل عنده في مواضع كثيرة من كتابه إنباه الرواية على أنباء النحاة.

- أبو المحاسن المفضل بن محمد بن مسمر المغربي النحوي القاضي (المتوفى سنة ٤٤٢ أو سنة ٤٤٣ / ١٠٥٠ - ١٠٥١) وقد كتب أخبار النحاة من البصريين والكوفيين^(٤).

- أبو الحسن علي بن فضال المجاشعي القير沃اني (المتوفى سنة ٤٧٩ / ١٠٨٦) وقد كتب بجانب كتابه الدول (٣٠ مجلداً) كتاب : (شجرة الذهب في أخبار أهل الأدب) وهو على قول ياقوت كثير التراجم ولا يعني بالأخبار ولا يعبأ باللوفيات والأعماres.

- وجاء ابن الأباري بعد قرن : كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن ابن محمد (المتوفى سنة ٥٧٧ / ١١٨١) فكتب تاريخ النحاة منذ أبي الأسود حتى شيخه ابن الشجري المتوفى سنة ٥٤٢ ضمن كتابه : (نزهة الألباء في طبقاء الأدباء) وقد طبع على الحجر في القاهرة منذ سنة ١٢٩٤ وأعيد طبعه في العراق سنة ١٩٥٩.

- ثم جاء الققطى الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف (المتوفى

(١) ابن خير الأندلسى - فهرس ابن خير ص ٣٥١ - ٣٥٢ .

(٢) في هذه الفترة نفسها (النصف الثاني من القرن الرابع) كتب مؤلف أندلسى هو أبو بكر محمد بن الحسن الاشبيلي كتاب طبقات النحوين يؤرخ فيه النحوين في المشرق وصلاحهم بعضهم مع بعض .

(٣) بروكلمان - الملحق ١ ص ٢٠٢ .

(٤) السخاوي - الإعلان ص ٥٦٦ .

سنة ٦٤٦ / ١٢٤٨) فكتب بين ما كتب من التوارييخ : كتاب : (إناء الرواية إلى أبناء النهاة) رتبهم فيه على حروف المعجم وقد طبع الكتاب في القاهرة في ٤ أجزاء (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم منذ سنة ١٩٥٤).

ولم تقطع السلسلة بعد ذلك في العهد المملوكي التالي . وكان أبرز من أنتمها السيوطي في كتابه بغية الوعاة في طبقات اللغرين والنهاة .

ولعل القوائم تطول بنا إن نحن تتبعنا ما كتب حول توارييخ رجال العلوم والفنون المختلفة الأخرى ، وقد يكفينا لخاتمة هذه الجولة الواسعة أن نشير إلى المؤلفات في تاريخ الأدب والشعر وتاريخ الفرق الدينية :

فأما في تاريخ الأدباء والشعراء : فقد كتب الانباضيون والرواية فيضاً هائلاً من الرسائل والكتب منذ القرن الثاني وخلال القرن الثالث منها ما حمل اسم طبقات الشعراء (مثل كتاب ابن سلام الجمحي المتوفى سنة ٢٣١) أو اسم الشعر والشعراء (مثل كتاب ابن قتيبة الدينوري) . واستمر التأليف تحت هذين العنوانين فترة من الوقت ما بين أواخر القرن الثالث ومطالع الرابع . فكان من المؤلفين :

– عبد الله بن المعتز الخليفة القتيل سنة ٢٩٦ مؤلف كتاب طبقات الشعراء .

– أبو عبد الله محمد بن خلف بن المرزبان (المتوفى سنة ٣٠٩ / ٩٢١) له كتاب الشعر والشعراء .

– أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلـي (مطالع القرن الرابع)
الفقيه الأديب الشاعر الرواية ، وقد كتب بدوره الشعر والشعراء في
ـ مصنف كبير ولم يتممه حسب رواية ابن النديم^(١) .

– ابن الحرون محمد بن أحمد بن الحسين بن الأصبهـي (مطالع القرن الرابع)

(١) ابن النديم – الفهرست من ١٤٩ .

وهو بغدادي من أولاد الكتاب وبين مصنفاته العديدة هناك كتاب
الشعر والشعراء أيضاً^(١).

- أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني الخراساني (٢٩٧ - ٣٧٨ / ٩٨٨ - ٩١٠) وهذا المؤلف الخصيبي الذي كتب ما يزيد على خمسين مؤلفاً في حوالى ٥٤ ألف ورقة (١٠٨ ألف صفحة) كتب في تاريخ الأدب العربي^(٢).
- كتاب الموفق (٥ آلاف ورقة) : أخبار الشعراء المشهورين من الجاهلية حتى أول العباسين .
- كتاب المسنين (١٠ آلاف ورقة) : أخبار الشعراء المشهورين والمكررين في العصر العباسي حتى ابن المعتز .
- كتاب المفيد (٥ آلاف ورقة) : أخبار الملوك من الشعراء ، ونعتهم ومذاهبهم ... الخ .

عدا الكتب العديدة الأخرى المفردة لمواضيع شتى في التاريخ الأدبي وفي أخبار الشعراء المقربين ، وقيل أن نلاحق سلسلة يتيمة الدهر في القرن الخامس وما بعده نذكر :

- أبي سعد محمد بن الحسين بن علي بن عبد الرحمن الوزير (المتوفى سنة ٤٣٩ / ١٠٤٧) صاحب طبقات الشعراء . وقد سبقه مؤلف بلغ من قيمة مؤلفه أنه لم يبق حتى الآن فقط ولكنها جر وراءه سلسلة طويلة من الكتب المتممة له جيلاً بعد جيل مدة حوالى القرنين هو :
- الشعالي عبد الملك بن محمد (المتوفى سنة ٤٢٩ / ١٠٣٨) الذي كتب : يتيمة الدهر في ذكر شعراء العصر في أربع مجلدات ثم عقب عليه هو نفسه بذيل اليتيمة ، متمماً له .

(١) المصدر نفسه من ١٤٨ .

(٢) انظر مؤلفاته لدى ابن النديم من ١٣٢ - ١٣٤ .

ثم تالت الزيول على هذا الكتاب وجاء في السلسلة :

- أبو الحسن بن المظفر النيسابوري (المتوفى سنة ٤٤٣) فكتب (الذيل على تتمة اليتيمة) .
- الباحري أبو الحسن علي بن الحسن بن علي (المقتول سنة ٤٦٧ / ١٠٧٤) فكتب مجلدين بعنوان دمية القصر (مطبوع ومحظوظ) .
- وتلاه بعد قرن البيهقي ابن فندق ظهير الدين أبو الحسن علي بن زيد (المتوفى سنة ٥٦٥ / ١١٦٩) فألف : وشاح الدمية (وبعضه محظوظ موجود) .
- وكتب في الوقت نفسه أبو المعالي سعد بن علي بن القاسم الخظيري الأنصاري دلال الكتب (المتوفى سنة ٥٦٨ / ١١٧٢) كتاب : زينة الدهر في ذكر شعراء أهل العصر ، وهو ضائع حتى الآن ، وألطاف شعراء العصر ، وللح الملح (وهو محظوظ في الأسكندرية) .
- ولئن ذيل أسماء بن منقد الأمير (المتوفى سنة ٥٨٤) ذيلاً ضائعاً على يتيمة الدهر فقد كتب :
- العماد الأصفهاني محمد بن محمد (المتوفى سنة ٥٩٧ / ١٢٠١) كتاب : خريدة القصر وجريدة العصر في عشر مجلدات (موجودة طبع معظمها) .
وخلال ذلك كان كتاب آخرون يؤرخون خارج هذه السلسلة للتاريخ الأدبي ومنهم :
- ابن بديع أبو النجم هبة الله بن محمد الأصفهاني (القتيل سنة ٥٠٢ / ١١٠٨) الأديب الوزير بدمشق وحلب ، وقد كتب : صناعة الشعراء وبضلعه الأدباء . في شعراء عصره .
- وألف ابن بشرون عثمان بن عبد الرحيم بن عبد الرزاق الأزدي المهدوي (المتوفى بعد سنة ٥٦١ / ١١٦٦) كتاب المختار في النظم والثر لأفضل أهل العصر . ألفه تلك السنة وقد ضاع .

- وألف القاضي الرشيد أبو الحسن أحمد بن علي بن الزبير (المتوفى سنة ٥٦٢) كتاب جنان الجنان وحدائق الأذهان في شعراء الزمان . وكان عدّة مجلدات ضاعت .

- والشيباني أبو غالب جمال الدين عبد الواحد بن مسعود بن الحسين الكاتب (المتوفى سنة ٥٩٧) والذي ذيل على الطبرى كتب في الوقت نفسه كتاباً في تراجم الشعراء على حروف المعجم .

- وكتب ابن حمدان تاج الدين الحسن بن محمد بن الحسن البغدادي (المتوفى سنة ٦٠٨ / ١٢١١) كتاب (أخبار الشعراء) الصائغ بجانب كتاب آخر بعنوان أخبار العلماء .

- وابن أبي طي بيحيى بن حامد بن ظافر الغساني (المتوفى بحلب سنة ٦٣٠) وهو النساخ المؤرخ الشيعي الذي ضاعت كتبه التاريخية الثمينة : ألف كتاب تراجم رجال الأدب والشعر .

- وظهر في الوقت نفسه تقريباً كتاب أبي الفتوح عبد السلام بن يوسف ابن محمد الدمشقي المسمى : أنموج الشعراء والأعيان . وقد ضاع .

أما الكتاب الضخم الذي ظهر مع هذين الكتابين الآخرين وكان قمة التاريخ الأدبي الموسوعي لعدة قرون فهو كتاب :

- ياقوت الحموي (المتوفى سنة ٦٢٦ / ١٢٢٩) وهو : ارشاد الأريب إلى معرفة الأديب وقد عرف باسم معجم الأدباء (طبع في عشرين جزءاً مرة وفي سبعة أجزاء مرة أخرى) .

ولم تقطع السلسلة من بعده لأن الشعراء والأدباء لم يتقطعوا وهكذا بدأ العصر المملوكي التالي بكتاب ابن أنجبل الساعي حول شعراء زمانه في خمس مجلدات ثم كتاب ابن الفوطي حول شعراء المائة السابعة وهكذا ...

وأما في تاريخ الفرق الدينية فثمة أيضاً سلسلة ليست أقل طولاً لكنها تبدأ متأخرة عن غيرها . منذ أواسط القرن الرابع ويرد فيها :

- حفص بن أشيم من الخوارج (من رجال القرن الثالث فيما نظن) وله كتاب الفرق والرد عليهم^(١).
- أبو القاسم سعد بن عبد اللطيف الأشعري (المتوفى سنة ٣٠٠ / ٩١٢) صاحب كتاب : المقالات والفرق (مطبوع في طهران).
- أبو بشر أحمد بن إبراهيم بن أحمد القمي (المتوفى بعد سنة ٣٥٠) الفقيه الشيعي وله بين كتبه التاريخية الكثيرة كتاب الفرق الذي يقول الطوسي إنه «كتاب حسن غريب»^(٢).
- المرزباني (المتوفى سنة ٣٧٨) وله : أخبار المتكلمين.
- أبو منصور عبد القاهر بن طاهر التميمي البغدادي (المتوفى سنة ٤٢٩ / ١٠٣٣) وقد كتب : «الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية».
- البيروني أبو الريحان (المتوفى سنة ٤٤٠) وله كتاب : أخبار المبيضة والقرامطة^(٣) ترجم فيه بعض الأخبار عن الفارسية وثورة المقنع.
- عبد الرحمن بن محمد الغوراني (المتوفى سنة ٤٦١ / ١٠٦٨) وله : كتاب الفرق الإسلامية.
- أبو المظفر شاهنثور بن طاهر بن محمد الأسفرايني (المتوفى سنة ٤٧١ / ١٠٧٨) وله كتاب : (التبصر في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق المالكين) ، (وهو مطبوع).
- أبو المعالي محمد بن علي الحسيني البغدادي (المتوفى ما بين سنة ٤٦٥ - ٤٨٥) وقد كتب بالفارسية كتاب : بيان الأديان (مطبوع).
- فخر الدين أبو محمد عثمان بن عبد الله بن الحسين العراقي (المتوفى سنة ٥٠٠ / ١١٠٦) وقد كتب الفرق المفترقة بين الزين والزنقة (مطبوع).

(١) ابن التديم - الفهرست ص ١٨٢ .

(٢) الطوسي - الفهرس ص ٥٤ .

(٣) انظر البيروني - الآثار الباقية ص ٢١١ .

— الشهرياني أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد القاضي (المتوفى سنة ٥٤٨ / ١١٥٣) وله أشهر كتاب تقريرياً في هذا الموضوع (كتاب الملل والنحل) المطبوع .

— أبو الفتوح الحسين بن علي بن محمد الخزاعي النيسابوري (المتوفى سنة ٥٣٥ أو ٥٦٠) الفقيه الشيعي الذي ألف : تبصرة الأنام في الملل والنحل .

— الرازى فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين التميمي البكري (المتوفى سنة ٦٠٦ / ١٢١٠) الفيلسوف المعروف وقد كتب أيضاً : كتاب الملل والنحل (مطبوع) .

— ابن أبي الدم أبو اسحق ابراهيم بن عبد الله بن عبد المنعم الجموي (المتوفى سنة ٦٤٢ / ١٢٤٥) وله كتاب الفرق الإسلامية (ضائع) .

— الرسعى عز الدين عبد الرزاق بن رزق الله بن أبي بكر بن خلف الحنفى (المتوفى سنة ٦٦١ / ١٢٦٣) وله كتاب : خنصر الفرق بين الفرق (مطبوع) .

— ابن طاووس رضي الدين أبو القاسم على بن موسى الحسني الحسني الحلبي (المتوفى سنة ٦٦٤ / ١٢٦٦) وقد كتب بدوره كتاب التعريف بمناهج الطوائف (المخطوط) .

ولم تقطع بالطبع هذه السلسلة من بعد ... ولقد نستطيع على النهج نفسه أن نجد سلسلة عديدة أخرى من الكتب التاريخية من مثل كتب المناقب وهي تملأ الصفحات وكتب الطبقات وليس أقل منها بل لعلها أكثر منها بكثير عدداً، وكتب الأنساب ، وكتب الأسماء والكنى وكتب المتفق والمتفرق ، والمختلف والمؤتلف ، وكتب الضعفاء والمتروكين ، وتواريخ القراء ومعاجم البلدان ... وهي إنما تبرهن كلها على الحقيقة التي أردنا من أن تاريخ العلوم قد جاء التاريخ

بُثُرَوة طائلة من المعلومات زادت في سعة أقنيته من جهة وامتداد آفاقه من جهة أخرى .

رابعاً : والتطور الرابع الذي طرأ على التدوين التاريني إنما كان في أسلوب الكتابة :

أوائل الكتابات التارينية لم تكن تأبه كثيراً بطريقة التعبير والأسلوب الأدبي بقدر ما كانت تأبه بالخبر أي القصص وإبراد الشعر المناسب له إن وجد الشعر ، تلكم هي طريقة الأخباريين التي ظلت سائدة حتى أوائل القرن الثالث . ونجد نماذجها الكاملة في ما ألف الطبرى وابن قتيبة والبلاذرى ... غير أن دخول « الكتاب » ميدان التاريخ أدخل على الصياغة بعض التأقق .. وأدخل عليها الشكل الأدبي النمط . على أنه بالرغم من محاولات الكثير من الكتاب جعل التاريخ أحد فنون الأدب فإن الصفة الاخبارية فيه كانت تجره بعيداً عن الصناعة الأدبية باستمرار ولهذا في بينما نجد بعض مؤلفاته يسير إلى ما يشبه الكلام الدارج ويرتكب المؤلفون فيه العديد من الأخطاء التحوية واللغوية (مثل ابن الأزرق الفارقي في تاريخ ميافارقين مثلاً) نجد بالمقابل أن الكتاب الأدباء ظلوا يسرون مع هوايتهم الأدبية للدرجة تسخير التاريخ لبلاغتهم الأسلوبية .

وهكذا لم يبتدع أسلوب خاص للكتابة التارينية وإنما جرى التدوين ضمن أسلوبين :

– الأسلوب المرسل الذي كتب به معظم المؤرخين كتبهم منذ الطبرى إلى المسعودى إلى المعنفى وابن الجوزى والخطيب البغدادى وأبى نعيم وابن الآثير وسبط ابن الجوزى ، وقد يتخلل الكتابة الاستشهاد بأية قرآنية أو حديث أو مثل شائع ، وقد يحيط هذا الأسلوب ليصبح مجرد حديث عادى مكتوب .

– الأسلوب الأدبي المتألق وقد بدأ هذا الأسلوب في بعض الكتابات

المشرفة على أيدي مسكونيه والتنوخي ولكنها سرعان ما غرته أعمال الصنعة البدعية على يد ابراهيم الصابيء في كتاب الثاج والعتي في كتاب اليميني فصار سجعاً بدا أول الأمر نوعاً من البراعة في الجمع بين الأدب والتاريخ ثم ما لبث أن أسرف في الصنعة وثبتت عليه التشور الفظيعة حتى لغيم الفكرة التاريخية أحياناً وراء الكلمات الطنانة المرصوفة رصفاً .
ذلكم كان الأسلوب الذي انتهى إليه العmad الأصفهاني في مجلداته التاريخية التي تصل إلى الثلاثين مجلداً .

الفصل العاشر

تطوّر المنهج التارخيٌ - ٢

في تنظيم المادة

إذا كانت نشأة علم التاريخ الإسلامي حتى القرن الثالث قد حددت بعض
الطرائق لتنظيم مادته فقد تبلورت واستقرت منهاج وطرق تنظيم هذه المادة
العلمية ، فيما بعد القرن الثالث . وإذا كان التدوين التارخي في القرن الرابع
وما بعده قد تابع الطرق والتنظيمات التي عرفها المؤرخون الأولون من قبل فإنه
قد أضاف إليها في الواقع طرائق وتنظيمات إضافية جديدة تبعاً للحاجات التي
كانت تظهر في إطار التاريخ الإسلامي النامي باستمرار والمتجدد التواحي
باستمرار . ولعلنا نستطيع أن نرصد هذه التطورات التنظيمية في النقاط التالية :

«أ» في التاريخ العام . انتهى القرن الثالث وبين يدي الناس ثلاثة نماذج
من التاريخ العام العالمي سجل بها التأريخ العربي الإسلامي تكامله العلمي :

— الأخبار الطوال لأبي حنيفة أحمد بن داود الدينوري (سنة ٢٨٢) وهو

رغم اسمه ، أصغر تلك التماذج حجماً ، ولكن عدم التوازن في أجزاء الكتاب ينبع عن نقص في الفكر التاريخي لدى أبي حنيفة فقد خصص الباب الأول للأحداث التاريخية منذ آدم إلى العرب الباشدة إلى ملوك الحبش والفرس واليمن وبني إسرائيل . وجعل الباب الثاني ل التاريخ الفرس وعرض في الباب الثالث وهو ثلاثة أرباع الكتاب تقريباً حروب العرب مع العجم والفتح الإسلامية وتاريخ الخلفاء حتى المعتصم . وقد سقطت هذه المحاولة لعدم كلامها وانصرافها لوجهة النظر الفارسية ، ولعل عندها أنها من المشاريع الأولى في هذا السبيل .

— تاريخ العقوبي أحمد بن اسحق (سنة ٢٩٢) ، وهو أوسع من الأول وأكثر توازناً ودقة جعله صاحبه في قسمين الأول لتاريخ ما قبل الإسلام مبتدئاً بقصة الخلق ثم الأنبياء والملوك في التعاقب الزمني . وقد اعتمد التوراة والإنجيل في مواضعهما من التاريخ واعتمد المصادر الأصلية فيما عدا ذلك . وكان إذا أعزوه الخبر السياسي سد الشغرة بالأخبار الثقافية وهكذا تحولت أخبار الإغريق والهنود إلى ذكر الفلسفه والأفكار الدينية ، وكذلك فعل في الأخبار الباحالية . أمّا في القسم الثاني الإسلامي فإنه في الوقت الذي لم يتخلّ فيه عن اهتمامه الفكري بالحكيمات والمعرفة أضاف الاهتمام بالروايات الشيعية وأخبار الأئمة وحكمهم المأثورة، وبعد ذكر السيرة النبوية انصرف يعرض تاريخ الإسلام خليفة خليفة في تكثيف وتلخيص دقيقين مع ختام كل عهد بصفات الخليفة وذكر ولاته وكبار رجاله والفقهاء في عهده وأمراء المحج والحملات الخريبة التي كانت في عهده ... وقد مزج تاريخه بالنجوم ، ففي مطلع عهد كل خليفة طالعه عند تولي الخليفة .

— وتاريخ الطبرى وهو أضخم التماذج الثلاثة وآخرها ظهوراً ، اعتبر التاريخ البشري سلسلة من الرسل والأنبياء ، آخذًا عن الإسرائيлик

وبعض تواريχ الروم والتاريخ الفارسي في ما قبل الإسلام ، ثم انصرف إلى السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي بتخيير الأحداث المأمة عند أهم الرواية في نظره فiero بها بتلقيق المحدث وبصيرة الفقيه العملي السياسي وعقلية أهل الكلام وطول نفسهم حولاً بعد حول . غير أنه اختصر الحديث عن عصره واقتصر فيه على وجهة النظر البغدادية الرسمية . ويبدو أن ذلك لم يكن عن ريبة ومسيرة ولكن لعدم وجود مؤلفات يأخذ عنها أحداث العصر لعدم اهتمامه بجمع الأخبار المختلفة عنها لما على بيده من أعمال الفقه والحديث والرواية والتدریس .

غير أن القرن الرابع جاء في التاريخ العام العالمي بخمسة نماذج أخرى تجلت فيها روح العصر وثقافته المتّوسيعة باطراد :

أوها : سلسلة التواريخت الخصبة التي كتبها المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين (المتوفى سنة ٣٤٦ / ٩٥٧) ، ويأتي في مطلعها تاريخه الأكبر : أخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الحالية والممالك الدائرة في حوالي ثلثين مجلداً ، ثم الكتاب الأوسط الذي تلاه ثم كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر (٤ مجلدات ضخمة) الذي اختصر أخبار الزمان ثم كتاب التنبيه والاشراف الذي اختصر المروج في مجلد واحد .

والمسعودي بجانب هذه السلسلة سلسلة أخرى ذكرها أيضاً على الشكل التالي :

فنون المعارف وما جرى في الدهور السوالف - وهو صنف أخبار الزمان .
ذخائر العلوم وما جرى في سالف الدهور - ويعدل الكتاب الأوسط أو المروج .

نظم الجوواهر في تدبير المالك والعساكر - ويبدو أنه في تعليم السياسة .

وأخيراً كتاب الاستذكار لما جرى في سالف الأعصار – وعليه بني التنبيه^(١)

ولو تركنا جانبـاً بقية الكتب الخمسة والثلاثين التي ألفها المسعودي والتي تكشف عنوانـيها عن عقلية جبارـة في التهام المعرفة والفلسفة في التأليف ومنها ما هو في أصول الديانات والمذاهب والتحلـ و منها ما هو في الفلسفة والحكمة والسياسة ومنها ما هو في الأخبار والطرائف (مزاهـ الأخبار وطرائف الآثار) ... لو تركنا جانبـاً هذه المجموعـات الفكرية التي لا شكـ في أن ضياعـها خسارة للتراث العربي الإسلامي فإن المسعودي في السلسـتين اللتين كتبـهما للتاريخ العالمي يبدو نموذجاً فريـداً في التاريخ الإسلامي كلهـ . ليس ثمة في المؤرخـين الإسلامـيين من أصدر سلسـتين معـاً ولا من جعل ل تاريخـه الأكـبر مختصرـاً أولاً ثم مختصرـاً ثانياً ثم موجـزاً أخيرـاً صغيرـاً ...

هذا الإصرار إنما هو تعبيرـ في الواقع عن إدراكـ روحـ العالمية في التاريخـ وترتـابـ الأفـكار والأديـان رغمـ تنوعـها وتوحدـ الإنسـانية أحـداثـاً ومصـائرـ رغمـ تعددـ الشـعـوب واختلافـ الأزـمان والـمـلـوك . وقد مثلـ المـسعـودـي بذلكـ أوجـ ما وصلـتهـ الحـضـارةـ الإـسلامـيةـ فيـ القرـنـ الـرابـعـ (وفيـ كلـ القـرونـ)ـ منـ إـدـراكـ لتـلكـ الرـوـحـ .

لقد بلـغـ منـ شـدةـ النـهمـ للمـعـرـفةـ أنهـ لمـ يـكتـفـ بالـاطـلاـعـ الوـاسـعـ علىـ ماـ كـتبـ

(١) يـبدوـ منـ خـلالـ كـلامـ المـسعـودـيـ فيـ مـقـدـمةـ التـنبـيهـ وـالـاـشـرافـ (صـ ٤ـ)ـ أنهـ يـسـقطـ كـتابـ نـظمـ الـبـواـهرـ فيـ تـدبـيرـ الـمـلـكـ وـالـعـساـكـرـ منـ هـذـهـ المـجـمـوعـةـ وـيـتـبـرـ الـكـتبـ «ـ السـبـعةـ»ـ الـبـاقـيةـ سـلـسلـةـ وـاحـدةـ مـتـكـامـلةـ .ـ ولـكـهـ يـمـوـدـ فيـ نـهاـيـةـ التـنبـيهـ (صـ ٢٤٧ـ)ـ فـيـضـ كـتابـ نـظمـ الـبـواـهرـ مـنـ المـجـمـوعـةـ .ـ عـلـمـاـ بـأنـهـ كـتبـ التـنبـيهـ وـالـاـشـرافـ فيـ نـسـخـةـ أـولـىـ ثـمـ عـادـ فـكـتبـ كـثـرةـ أـخـرىـ فيـ زـيـاداتـ وـتـفـقـحـ .ـ

وألف ولكنه أراد أن يقرن ذلك بالمعاينة المباشرة . وهكذا ساق قدمه في كل أفق فكان كما قال « تارة على متن البحر وتارة على ظهر البر مستعدين بداعم الأمم المشاهدة ، عارفين خواص الأقاليم بالمعاينة كقطعنا بلاد السند والزنج والصنف والصين والزابج وتقحمنا الشرق والغرب فتارة بأقصى خراسان وتارة بواساطة أرمينية وأذربيجان والران والبيلقان وطوراً بالعراق وطوراً بالشام ، نسري في الآفاق سري الشمس بالإشراق ... »^(١) .

وإذا اخذنا كتاب مروج الذهب نوججاً للفكر المسعودي وجدهناه يختص نصف الكتاب تقريباً بتاريخ ما قبل الإسلام من الأمم . بادئاً من قصة خلق العالم ماراً عبر بني إسرائيل إلى ذكر أهل الفترة (من الموحدين) من كان بين المسيح ومحمد عليهما السلام . وبعد أن يذكر جملةً من أخبار الهند الثقافية والدينية يعطى إلى وصف طبيعة الأرض وظواهرها الجغرافية من بخار وأنهار كبار وجبال ثم يعود إلى ذكر ملوك الصين والترك وأخبار الأمم من اللان والسرير والخزر وجبل القبج والبرغر (القوقاز والبلغار) ثم ملوك السريان والآشوريين وملوك بابل الكلدائيين وملوك الفرس الأولى ثم الطوائف الثانية ثم الساسانية ثم اليونان فالروم ثم الروم المتنصرة ثم ينتقل إلى مصر فيذكر أخبار نيلها وملوكها والاسكتدرية ثم يذكر السودان وأجناسهم وملوكهم ثم الصقالبة ثم القرنجة والحلالقة وملوكهم والنوبير وملوكها ليعطى في النهاية إلى أخبار عاد وثوفود وجرهم في مكة وملوك اليمن والخيرة وغسان وتاريخ العرب الثقافي في الجاهلية . ويقف وقفة واسعة عند أسس التاريخ والتقويم عند الأمم المختلفة وعند البيوت المعمدة للديها قبل أن يصل إلىبعثة النبيه فيجوز السيرة ليتقل إلى الخلفاء الراشدين فالآمويين فالعباسيين خليفة خليفة حتى سنة ٣٣٥ سنة تأليف الكتاب . يستوفي المسعودي في تاريخه العالمي ذكر مختلف الأمم وينتتها في نوع من التوازن نصف الكتاب ويؤكد على العناصر الحضارية في تواريختها والعناصر الفكرية والدينية . ورغم

(١) المسعودي - مروج الذهب (ط . بلا) ج ١ ص ١٠ .

صدق إيمانه بدينه فهو لا يتردد في ذكر أخبار الأديان الأخرى ومقالاته بقلم العالم الموضوعي المحايد . وإذا أورد بعض المعلومات الكلامية والفلسفية في ثنایا التاريخ فقد أورد في الوقت نفسه بعض أخبار الخوارق والمعجائب وأحياناً بعض الأساطير ... وعلى أي حال فإنّ مفهومه للتاريخ العالمي هو أوسع المفاهيم حتى عهده كما أن زاوية نظره حضارية لا سياسية ، وفكريّة لا ماديّة وشعوره « بالإنساني » ويتطرّف « الإنسانية » وتوازن الأفكار والعقائد والأمم شعور واضح .

ثانيها : تاريخ صغير ولكن له أهميته كنظرة عالمية من خلال الزمن هو :

تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء . الذي ألفه أبو عبد الله حمزة بن حسن الأصفهاني (المتوفى قبل سنة ٣٦٠ / ٩٧١) وجعله في عشرة أبواب سرد فيها سني ملوك الفرس والروم واليونان والقبط والإسرايليين ثم ساق توارييخ لحم وغسان وحمير وملوك كندة ثم « توارييخ قريش ملوك عرب الإسلام » جاعلاً الكتاب مقدمة مختصرة في توزع الأمم في الأرض في تقوايمها المتعددة . وختاماً الكتاب بفصل سرد فيها توارييخ النيزوز بعد الهجرة ، وبعض الأحداث الطريفة المتعلقة بالترجم و الآثار والكوارث الطبيعية ثم اضطراب أمر الخلافة قبل وصول البوهيمين للحكم (بين سنة ٣٠٨ وسنة ٣٢٠) وأخيراً بذكر ولادة خراسان منذ أبي مسلم حتى الحسن بن بويه وسنة ٣٢٩ ...

وأهمية الكتاب ليست في معلوماته المحدودة ولكن في إدراكه مفهوم الزمن التاريخي وأبعاده وتطبيق ذلك على التاريخ . هذا المفهوم يغمض جداً لدى الطبرى ليصبح مجرد رقم من السنين وهو يزداد سعة لدى المسعودي بما يفتح عليه من الأمم ومن الامتداد الجغرافي ، ولكنه لا يمتد عمقاً في الماضي كما يمتد لدى الأصفهاني . ولعل السبب أن الرجل اعتمد حسابات المنجمين والأزياج الفلكية ونظمها في نسق متصل ليضع الأمم على أبعاد الزمن وهكذا كان في الواقع هدفه . وقد وضعه في العنوان فهو لم يكتب تاريخاً ولكن تاريخ « سني »

ملوك الأرض والأنبياء ... فتارikhه عميق زمي ، كما أنه بسبب ثقافته العلمية الواسعة أغار النواحي الثقافية مكاناً طيباً فهو « مصدر ثمين جداً للأخبار الثقافية»:

ولكن الأصفهاني ضيق النظرة في الشعوب والأرض يختصر الأمم على ست ، ثم انه ينصرف إنصرف إنصرفوا وأضحكاً لتاريخ الفرس وتاريخ خراسان وطبرستان حتى ليخصص ربع الكتاب الأخير لأمور وأحداث إيرانية فهو في هذه الناحية : النسخة المطورة لأبي حنيفة الدينوري ولكتابه الأخبار الطوال .

ثالثها - تاريخ المقدسي : المظفر بن طاهر (من القرن الرابع) والمسمى البدء والتاريخ . وقد ألفه صاحبه سنة ٣٥٥ وينطلق المقدسي في فهم التاريخ العالمي من خلال النظرة المتألبة في الفلسفة . إنه يخصص ربع الكتاب الأول (مجلد ونصف المجلد من ستة) لبحث نظري فلسفـي في العقل والمعـرفة والله والملائكة والسماء والأرض والتاريخ والزمن ليصل بعد ذلك إلى الخلقة . ثم يخصص الرابع الثاني لذكر الفتن والكوارئ حتى قيام الساعة والأنبياء والأديان ثم أقسام الأرض الجغرافية حيث حشر ذكر الأمم من هند وترك وروم وببربر وحبش وغيرها ليصل إلى أنساب العرب وأقسامها ثم يدخل في النصف الثاني من الكتاب في تاريخ الرسالة المحمدية وما تلاها ... ونجده بعكس التواريخ الأخرى يزداد اختصاراً مع التقدم في الكتاب نحو عصره وينحصر أخبار خلفاءبني العباس الآخرين كل الاختصار حتى عهده ...

وإذا عبر المقدسي في تاريخه عن فهم أوسع لمكان الإنسان كله من الكون والوجود في إطار الإلهيات التي عرف فإنه لم يحافظ بالنظره الواسعة نفسها في التاريخ الذي جاء غير متوازن الأبعاد الزمنية ، ولا الاهتمام . وإذا كانت قيمة في أن تاريخه كان « محاولة لاختصار التاريخ للفلسفة ومن الناحية الظاهرية على الأقل ... » - كما قال روزنتال^(١) أو محاولة لإقامة جسر اتصال بينهما فإن هذه

(١) روزنتال - علم التاريخ ص ١٠١ (في الترجمة العربية ص ١٦١) .

القيمة يجب أن تعطى لمجرد المحاولة التي كانت جريئة ومبتكرة دون شك ، أما من ناحية التطبيق فإن التاريخ لم ي الفلسف ولا الحياة والكون وإنما اقتصر الأمر على الصياغ بعض أبحاث الإلهيات بأبحاث من التاريخ وجزء معروفة .

رابعها – كتاب تجذب الأمم لمسكويه أبي علي أحمد بن محمد (سنة ٤٢١ / ١٠٢٩) وهو بدوره تاريخ عام^(١) بدأه صاحبه بما بعد الطوفان وانتهى به إلى سنة ٣٦٩^(٢) ، ويمكن من بعض زوايا النظر أن يعتبر ثالوث السلسلة التي بدأها الدينوري وللقها الأصفهاني . ذلك أنه بحث التاريخ الفارسي خاصةً لاعتقاده أن أقدم وأهم تاريخ مسجل هو تاريخ ملوك الفرس الذين تابعهم حتى سقوط الإمبراطورية الفارسية ذاكراً بعض الإشارات العابرة ، خلال ذلك ، إلى البابليين والإغريق والنصارى والروم وعرب الباهلية وكأنها لإيضاح التاريخ الفارسي نفسه وقد احتل كل أولئك على أي حال عشر الكتاب أو أقل من ذلك (نصف المجلد الأول) بينما تناول في باقي المجلدات تجذب السياسة خاصة في التاريخ الإسلامي فبحث الباحث السياسي من سيرة الرسول والمشاكل السياسية التي نشأت في العصر الراشد وما بعده مقتضراً في ذلك على الطبرى ك مصدر يعتمد بعد حذف الأسانيد واللجوء إلى الاختصار ... ولكن لا يسير على التنظيم الحولي إلا في القسم العباسي والأخير من الكتاب ، أما قبل ذلك وفي

(١) من المؤسف أن الكتاب على شأنه لم يأخذ حقه من النشر الكامل . نشر المستشرق دي غوريه الجزء الأول منه تصويراً (لدين ١٩٠٩ – منشورات جب) وكان دى جويه نشر جزءاً منه من قبل سنة ١٨٧١ وطبعه كرمة أخرى سنة ١٩١٢ ونشر أمدروز سنة ١٩١٤ في القاهرة الجزئين الخامس والسادس . وذكر العقيقي في كتاب المستشرقون أن مرغيليوث أصدر طبعة كاملة من تجذب الأمم متناً وترجمة في سبعة مجلدات (معونة أمدروز في الخامس والسادس) طبع أكسفورد ١٩٢٠ – ١٩٢١ لكنني لم استطع التحقق من صدور هذه الطبعة بعد . وثمة من خطوط الكتاب الأصلي نسخة كاملة في استانبول كان اكتشفها هوروفيتش ١٩٠٦ (أبي سوفيا رقم ٣١١٦ – ٣١٢١) .

(٢) القسم الأخير المطبوع من الكتاب يتتهي به عند سنة ٣٦٩ وأما القسطي فيذكر (في أستبار المحكماء ص ٢٣١) أنه يصل سنة ٣٧٢ .

تاريخ صدر الإسلام فهو يتبع أساس الموضيع في التدوين ...

ومنطلقات مسكونيه في تاريخه إنما تنصبها العنوان نفسه : تجارب الأمم . ولهذا فإنه لم يكلف نفسه لا المنطلق الموسوعي ولا الفلسفى ولكن المنطلق البراغماتي أو السياسي العملي . وهكذا أخرج من الكتاب تاريخ الأنبياء بل والتاريخ الدينى للرسول . وقال في الصفحة الثانية من كتابه : « ... وأنا مبتدئ بذكر الله ومتنه بما نقل من الأخبار بعد الطوفان نقلته الثقة بما كان قبله ولأن ما نقل لا يفيد شيئاً مما عزمنا على ذكره وضمناه في صدر الكتاب (وهو ذكر التجارب التي تؤخذ عبراً) ولهذا السبب بعินه لم نتعرض لذكر معجزات الأنبياء صلوات الله عليهم وما تم لهم من السياسات لأن أهل زماننا لا يستفيدون منها تجربة فيما يستقبلونه من أمورهم إلا ما كان، تدبرأً بشرياً لا يقترن بالإعجاز ... » وهكذا جاء الكتاب مشتملاً - في رأي مؤلفه - « ... على كل ما ورد في التاريخ مما أوجبه التجربة وتفريط من فرط وحزن من استعمال الحزم ». فكأن مسكونيه إنما أراد أن يقدم تاريخاً عاماً منظوراً إليه من زاوية التجربة السياسية العملية لا ليكون درساً في الأخلاق - وان حرص مسكونيه عليها - ولا نظرية في الفلسفة ولا مجمعاً للأخبار والطرائف والأفكار ولكن دراسة في تدبر أمور الحكم والدول وقصص الدهاء والغلبة والفشل . إن مسكونيه ينطلق إذن من وجهة نظر متباينة لا تبحث عن الحق ولا الخلق والدين ولا الفكر . ولكن عن تطور الأحداث التاريخية وتحليل أسبابها وهو يورد قبيل كل جدث قوله : « وأما أسباب ذلك ... » وما التاريخ بالنسبة إليه سوى قصة التجارب والأمثلة على الحزم ومبرجة التفريط وأبعاد المكائد . ومسكونيه يمثل في هذا زاوية هامة من الفكر التاريخي السياسي ربما كانت متأثرة التأثير القليل أو الكثير بعض الأفكار الشيعية الباطنية كالمبادئ الإسماعيلية التعليمية ولكنها على أي حال تعكس في الوقت نفسه الموقف الريفي الواقعي الذي وصل إليه الفكر السياسي الإسلامي في القرن الرابع (العاشر الميلادي) أمام الاضطراب الدائم والقلق المتواتر للأحوال السياسية .

خامسها — كتاب غرر السير المعروف بكتاب غرر أخبار الملوك وسيرهم لأبي منصور حسين بن محمد المرغني^(١) الشعالي (من رجال أو اخر القرن الرابع والعقود الأولى من الخامس) وقد قال في مطلع كتابه : « ... لقد أودعت هذا الكتاب تاريخ ملوك ايران من كيومرث إلى الملك يزدجرد بن شاهريار ثم تاريخ الأنبياء وفراعنة مصر وملوك حمير والروم والهند والترك والصين وبعد ذلك تاريخبني المسلمين والخلفاء الراشدين وبني أمية والعباسيين وأبي مسلم والبرامكة وآل طاهر السجزية (يريد الصفاريين) والسامانيين وآل حمدان وآل بويه وبعد ذلك ذكر تاريخ هؤلاء ... بني سبكتكين ... (الغزنويين) ... » وقد جاء ذلك في أربع مجلدات ضخمة رباعها لتاريخ الفرس ورباعها تقريباً لتاريخ الأمم الأخرى قبل الإسلام والباقي للتاريخ الإسلامي . ويحيل الرجل مع فارسيته فهو حين يصل التاريخ العباسي يقف خاصة عند أبي مسلم والبرامكة ويركز انتباذه في تاريخ ايران وحده لو لا ما يذكره من تاريخبني حمدان ... والكتاب من خلال القطعة الباقية منه^(٢) كتب بروح أدبية طيبة ودرأة حسنة بالتاريخ وثقافه واضحة التأثير ولكنه يكاد فيما عدا ذلك يصبح تاريخياً عادياً . ولو لا أنه حفظ في أوله بعض المقتطفات من بعض كتب التاريخ الفارسي وبعض المعلومات الهامة عن الدول المنقطعة في ايران لما كان فيه جديد في القسم الإسلامي الذي يعتمد أساسياً على الطبرى . ولكنه لا يعتمد طريقة التنظيم الحولي ، ولكن تتابع الخلفاء — كتباً تاريخ ملوك الفرس عنده — وإن كان يضيف في حكم كل خليفة فقرات يخصصها للوزراء وكبار رجال البلاط ... ويهتم بالأمور الثقافية وخاصة في تاريخ ما قبل الإسلام حيث تعوزه الأخبار السياسية .

(١) نشر المستشرق زوتبرغ قسم الفرس من هذا الكتاب (باريس ١٩٠٠) مع الترجمة الفرنسية ، ونبه إلى أبي منصور الشعالي المشهور عبد الملك بن محمد صاحب يتنية الدهر . وقد أعيد طبعه في طهران سنة ١٩٦٣ وذكر مقدم الطبعة مجتبى مبنوي أنه للميرغني وليس لمبد الملك .

(٢) ثمة غير القسم المطبوع قسم اسلامي مخطوط في مكتبة الボدليان — اكسفورد : D'Orv. X₂ (542) Uri 130.

وتقطع سلسلة التوارييخ العامة هذه بعد مسکویه والشاعی قرابة القرنين
إلا من (كتاب الدول) الصبائی والذی کتبه في ثلاثة مجلدات أو تزيد المجاشعی
أبو الحسن (وسوف يأتي ذكره) ...

وعلى أي حال فإن ذلك الأزدهار في النظارات التاريخية العامة والعالمية
التي نسبت في ذلك الجو الثقافي الخصيب من القرن الرابع لم يكن لها غد . وتلك
المحاولات المبتكرة التي حاول فيها المسعودي رسم الخيط الموسوعي في التاريخ
أو المقدسي ربط التاريخ بالحياة والكون عن طريق الفلسفة أو حاول فيها
مسکویه تحويل التاريخ إلى دروس في السياسة العملية . كل أولئك فشل ولم
يجد بعد هؤلاء من يتبع المحاولة خطوة أخرى .

منهج عام واحد في التاريخ العام العالمي هو الذي بقى وانتشر هو منهجه
الطبری منهجه الخبر الحولی ولكن بعد حذف الاستناد ... في نصف القرن
الأخير من هذه الفترة التي ندرس أي ما بين أواخر القرن السادس وأواسط
السابع تظهر هبة أخرى من التوارييخ العامة تطبع الفترة كلها بطابع الاهتمام
التاريخي الواسع على أن أهم ميزاتها أنها مع اتباعها مدرسة الطبری الحولی وسعة
نظر اليعقوبی والمسعودی في الشمول الاممی وأسلوب مسکویه في السرد السياسي
دون السند دون الاهتمام بالجوانب الحضاری قد ضيق مفهوم التاريخ العام
كما أضافت منهجهين جديدين إليه :

أولاً : فاما ضيق المفهوم فتجلى في اقتصارها التاريخ على تاريخ المسلمين العام
وتفصیرها الزمن التاريخي على مدى التاريخ الاسلامي فقط دون
السابق له ، ولعل السبب هو توسيع هذا التاريخ وتزايد مادته من جهة
واعتبار بعض المؤرخین - سواء عن تقى أو عن افتتاح - أن تاريخ
الاسلام هو الذي يهم الناس وهو الجدير بالتدوین والمرفقة وما عداه
مما سلف لا يعدو أن يكون زيادة لا قيمة لها ولا أثر ... ولذلك
كثيراً ما نجد كتب التاريخ العامة إنما تبدأ بعصر الرسالة . وسوف

نرى خلال البحث الأمثلة العديدة على ذلك .

ثانياً : أضافت أهم كتب التاريخ العام إلى مادتها في الحوادث مادة جديدة أخلتها من كتب الترجم . وقد جاءت هذه الاضافة ذيلاً وتنمية للقسم الإسلامي منها .

ثالثاً : فتحت باباً يأتي في نهاية حوادث كل سنة هو باب الوفيات . لقد دمج المؤرخون منذ أو اخر القرن السادس تاريخ الرجال مع الأحداث في كتاب واحد . مفهوم التاريخ العام التقى فيه عندهم لا الأمم المختلفة في المناطق المختلفة فقط ولكن التقى فيه أيضاً فرعاً للتاريخ الداخليان: الأحداث والترجم .

ولا نستطيع أن نحكم في هذه الناحية على مؤلفات التاريخ العامة التي ضاعت إلا في التخمين والمحدس والأرجح أنها تواريخت حوادث فقط ومنها :

– تاريخ محمود الوراق الذي انتهى به إلى سنة ٤٠٩ / ١٠١٨ ذكره أبو الفضل البيهقي في تاريخ بيهق قائلاً : « شرح هذه الأحداث (عن الأسرة الصفارية) الأستاذ محمود الوراق في تاريخه الذي ألفه سنة ٤٥٠ فإنه ذكر الحوادث منذ آلاف السنين حتى سنة ٤٠٩ ... ومحمود هذا ثقة مقبول القول ... وقد رأيت من مؤلفاته النادرة العشرة والخمسة عشر كتاباً في شتى الموضوعات ... »^(١) وهو يدخل في إطار المدرسة الفارسية لأنه كتب على الغالب بها .

– تاريخ المجاشعي أبي الحسن بن فضال القيراني المتوفى سنة ٤٧٩ / ١٠٨٦ وهو كتاب الدول ويزيد على ثلاثين مجلداً قرأ فيها ياقوت في الوقف السلوجوقي ببغداد^(٢) .

(١) انظر البيهقي - تاريخ بيهق (الترجمة العربية) ص ٢٨٧ .

(٢) انظر ياقوت - معجم الأدباء ج ٥ ص ٢٨٩ (ج ١٤ ص ٩١) .

— ياقوت الحموي (سنة ٦٢٦) فإن له عدداً معجميه المشهورين : كتاب الدول وكتاب المبدأ والمال^(١) وبيدو أن الأول تاريخ عام منظم على أساس الدول ولعلها الإسلامية فقط وأما الثاني فقد وصف بأنه تاريخ عام . .

— تاريخ ابن نظيف أبي الفضائل محمد بن علي بن عبد العزيز الغساني الكاتب الحموي (بعد سنة ٦٣١ / ١٢٣٤) وقد سماه الكشف والبيان في حوادث الزمان . كان في عدة مجلدات .

— تاريخ القسطنطي جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القاضي الوزير (سنة ٦٤٦) وله بين مؤلفاته التاريخية التي تزيد على ١٦ مؤلفاً كتاب التاريخ على السنين الذي نلخصه ابن مكتوم بعد قرن^(٢) .

— ابن أبي أصيبيعة موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم الخزرجي (سنة ٦٦٨) وله عدا طبقات الأطباء المشهور كتابان عامان في التاريخ هما : المختار من عيون التاريخ^(٣) ، وكتاب معلم الأمم وأخبار ذوي الحكم^(٤) ولعل الأول في الحوادث والثاني في التراجم .

وقد تلا هذه التوارييخ حتى نهاية القرن السابع تاريخان ضخمان :

أوهما : تاريخ أبي طالب ناج الدين علي بن الحسين بن عثمان ابن أنجب المعروف بابن الساعي (سنة ٦٧٤) المؤرخ المشهور باسم كتابه : (الجامع المختصر في عنوان التاريخ وعيون السير) وكان في ٢٥ مجلداً حتى نهاية الدولة العباسية ، وقد ذيل عليه ابن القوطي في ٨٠ مجلدة

(١) انظر هدية العارفین ج ٢ ص ٥١٤ .

(٢) انظر كشف الظنون ج ١ ص ٣٠١ وقد توفي ابن مكتوم أحمد بن عبد القادر سنة ٧٤٩ .

(٣) انظر ابن الفرات — تاريخ ، مخطوط (فيينا رقم ١١٩) ج ٢ ورقات ١٥٤ ظهر وجه

وج ٤ ص ٦ - ٧ .

(٤) هدية العارفین ج ١ ص ٩٩ .

أخرى . ولابن الساعي كتاب آخر بعنوان سير الملوك ولعله كتاب التاريخ نفسه .

لانيهما : تاريخ الكازروني ظهير الدين علي بن محمد بن محمود (سنة ٦٩٧) وهو تاريخ عام في ٢٧ مجلداً يحمل اسم روضة الأديب . اختصره الكازروني نفسه في مجلد (مطبوع) .

أما التواريخ العامة التي بقيت لنا فثلاثة من أمهاه كتب التاريخ والثلاثة جمعت ما بين الحوادث والترجم :

– المنتظم لابن الجوزي (سنة ٥٩٧) والرجل تحت تأثير الثقافة الحدبية يعطي الترجم حجماً أوسع من الأحداث . ولكنه في هذه وتلك ورغم الزعم بكتابة التاريخ العام لا يكاد يجاوز بغداد وأحداث ورجال العراق .

– الكامل لابن الأثير عز الدين أبي الحسن علي بن محمد الجوزي (سنة ٦٣٠) ويعتبر في توازنه وتركيزه وقلة فضوله واستيفاء أبحاثه وشموله أكمل كتب التاريخ الإسلامي العامة .

– مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي (سنة ٦٥٤) ويقع في أربعين مجلداً في بعض نسخه المخطوطة ، وفي عشرين في بعضها الأخرى ومن المؤسف أنه لم ير حبر المطبعة منه بعد سوى جزء أخير يتناول ما بين سنتي ٤٩٥ ونهاية الكتاب ، وفي نسخة مختصرة منه .

الثاني : التنظيم الأبيجدي وهو ابتكار ظهر في نهاية الفترة أي في النصف الثاني من القرن السابع . ومع أنه نقل عن كتب الترجم إلا أنه يعبر عن فكر موسوعي نما حتى أدخل أحداث التاريخ في إطاره . فان اثنين على الأقل من كبار المؤرخين نظموا حوادث التاريخ على الأساس الأبيجدي ، ولستا ندرى أيهما كان السابق في هذا لأنهما متعاصران :

— ابن أبي طي يحيى بن حامد بن ظافر النجار الغساني (سنة ٦٣٠) وهو المؤرخ الشيعي الحصب الذي لم يبق لنا من مؤلفاته الأربع عشر شيء.
وقد كتب : حوادث الزمان على الأحرف الأبجدية في خمس مجلدات .

— ابن أبي الدلم أبو اسحق ابراهيم بن عبد الله بن عبد المنعم الحموي (سنة ٦٤٢) وقد كتب بدوره عدة كتب تاريخية من بينها التاريخ المظفري وهو أبجدي بدوره . كما أنه اسلامي فقط وظاهرة التنظيم الأبجدي فيه وصفها لنا السخاوي على الشكل التالي : قال : « ابتدأه بسيرة نبوية ثم بالخلفاء ثم بالفقهاء ثم بالمتكلمين ثم بالمحاذين ثم بالزهاد ثم بالتحاة واللغويين والمفسرين والوزراء والمقدمين ثم الشعراء . كل هؤلاء من المحمدين ، ثم سرد الكاتب على الحروف مبتدئاً بالصحابة ثم بالخلفاء على الترتيب المذكور وختم بالنساء في كل حرف وسماء التاريخ المقفى »^(١) ... وهو مخطوط بالمكتبة الأحفافية بميدلر آباد (رقم ١٥١) في ٤٧٣ صفحة .

غير أن هذا النهج الأبجدي لم يلق الصدى في الناس فلم يتبعه أحد . بل ضاعت أو كادت تضيع هذه النماذج الأولى منه .

«ب» مقابل تلك التواريχ العامة الواسعة التي تصل مجلداتها إلى الثلاثين والأربعين : ومن أجمل المحافظ على القصد والاعتدال بما المؤرخون إلى منهجين أوهما : كتابة التواريχ البلدانية والإقليمية (وقد رأينا وسوف نرى الأمثلة الكثيرة عليها) وبها يشعرون تلك الرغبة الملحة للتوسيع والتذوين التفاصيل والدقائق دون الإرهاق للتواريχ العامة من جهة أو التعرض من جهة أخرى للإملال أو لسوء التأليف أو عدم التوازن في المعلومات بين قسم وقسم من المؤلفات وأما الثاني فهو كتابة :

(١) السخاوي - الإعلان (ط. روزنثال) ص ٦٧٤ وهي تسمية الكتاب تصحيح لعله من النسخ والأرجح أنه التاريخ المظفري ، انظر تعليق روزنثال في الصفحة ذاتها .

المختصرات للتاريخ العامة : وهو باب طرقه المؤرخون لمن ي يريد المعلومات السريعة المكثفة . بعض المؤلفين سمي مؤلفه « بلغة المستعجل » أو « بلغة الظرفاء » اشارة إلى هذا المعنى . وبعضهم سماه « جمل التاريخ » أو « جمل تاريخ الاسلام » . ذلك أن حاجة الأمراء والعلماء إلى معلومات سريعة يضيق وفهم عن أوسع منها وتقل حاجتهم إلى أكثر منها ، ثم ظهور المختصرات في العلوم الأخرى ، ثم داعي الهرب والتخلص من نسخ المجلدات الواسعة والصعوبة العملية في اقتناء وفي نقل المجلدات الضخمة التي هي في الوقت نفسه غالبية الثمن وقلما يفهم بها إلا المتخصصون الهوا ، كل ذلك أوجد المختصرات في التاريخ العامة أو للتاريخ الإسلامي . وبعض الكتاب كان يختصر بنفسه تاريخه المطول . ذلك ما فعله ابن الجوزي حين لخص (المستظم) في كتاب شذور العقود وفعله من قبله المسعودي بشكل ثلاثي كما فعله من بعده ابن نظيف وأبن أبي الدم وأبن أبي أصبيعة . ونجده في هذا المجال من الأمثلة الكثيرة فهناك : مثلاً ما كنا ذكرناه من كتب في أخبار الخلفاء وفي الدول .

وهنالك كذلك من كتب التاريخ الجامعات المختصرات^(١) .

— يعقوب بن سفيان الفسوسي الحافظ (سنة ٢٧٧) ، وله كتاب المعرفة

(١) تمر علينا في القرن الرابع خاصة وفي غيره مجموعة طويلة من الأسماء تعزو المصادر إليها كتاباً باسم « التاريخ » أو كتاب تاريخ أو تقول تاريخ فلان ولستا ندرى على القصبه هل هو كتاب ترجم — على طريقة المحدثين — وهو الأرجح أم أنه تاريخ عام أو تاريخ إسلامي فقط . ومن هؤلاء مثلاً :

- ابن الأذھر جعفر بن أبي محمد الاتخاري (سنة ٢٧٩) له كتاب التاريخ وهو من جياد الكتب (ابن النديم — فهرس ص ١١٣) .
- ابن يزداد أبو صالح عبد الله بن محمد (ابن النديم ص ١٢٤) .
- المصري صاحب كتاب زهر العيون وجلاء القلوب من مصادر المسعودي (مروج ١ ص ١٦) .
- الجرجاني السجدي عبد الرحمن بن عبد الرزاق ، من مصادر المسعودي (مروج ١ ص ١٦) .

والتاريخ بقيت منه أجزاء من نسخة مخطوطة في استانبول (في مكتبة ريفان كوشك رقم ١٥٥٤ الأجزاء ١٧-١٠ وفي مكتبة أسعد أفندي رقم ٢٣٩١ الأجزاء ١٨-١٨) وفي الأجزاء الأولى تاريخ عام فقد منه ما قبل سنة ١٢٩٥ وينتهي الجزء ١٧ بسنة ٢٤١ هـ. وفي الأجزاء الباقيه معلومات عن الصحابة، وجميع أجزائه يبلغ مجلدين). وقد طبع الكتاب اخيراً في بغداد (بتحقيق أكرم ضياء العمري).

- داود بن الجراح جد الوزير علي بن عيسى وله التاريخ الجامع لكتير من أخبار الفرس وغيرها من الأمم كما قال المسعودي^(١).

- الباهلي أبو الحسن محمد بن محمد (سنة ٩٣٣/٣٢١) وله تاريخ كبير باسم تاريخ الباهلي^(٢).

- نفطويه ابراهيم بن محمد بن عرفه الواسطي النحوي (سنة ٣٢٣ / ٩٣٥) وله تاريخ قال المسعودي فيه إنّه «محشو من ملاحمات كتب الخاصة مملوء من فوائد السادة». وكان مصنفه أحسن أهل ذهره بالتقى وأملحهم تصنيفاً ...^(٣) ويقع كتابه في ٢٨ جزءاً أي حوالي ٣ مجلدات.

- أبو عيسى بن المنجم وله «التاريخ ... على ما أنبأ به التوراة وغير ذلك من تاريخ الأنبياء والملوك»^(٤).

- الطحاوي الحنفي أبو جمفر أحمد بن محمد (سنة ٢٢٠) (انظر كشف الظنون ج ١ ص ٢٩٨).

- السليل بن أحمد بن عيسى وله تاريخ اختصره الشمشامي ونقل عنه ابن الدبيم (بنية الطالب) مخطوط أحمد الثالث ج ١ ورقة ١١٩ وج ٧ ورقة ٢٩٠ وج ٦ .

- الشجري أبو بكر أحمد بن كامل بن خلف (سنة ٣٥٠) من أتباع الطبرى وكان قاصي الكوفة (انظر ابن النديم ص ٢٢).

(١) المسعودي - مروج ١ ص ١٤ .

(٢) كشف الظنون ج ١ ص ٢٨٦ .

(٣) المسعودي - مروج ١ ص ١٥ ، وانظر فهرس ابن خير ص ٣٩٨ .

(٤) المسعودي - مروج ١ ص ١٤ .

— قدامة بن جعفر أبو الفرج (سنة ٣٣٧) وله كتاب زهر الرياح في الأخبار والتاريخ يقول فيه المسعودي انه « حسن التأليف ، بارع التصنيف ، موجز الألفاظ ، مقرّب للمعاني »^(١).

— المسعودي (٤٤٦) وكتابه التنبية والإشراف معروف.

— الخطبي أبو محمد اسماعيل بن علي بن اسماعيل بن يحيى بن بنان البغدادي (المولود سنة ٢٦٩ والمتوفى سنة ٣٥٠) أستاذ الدارقطني وابن رزقونه . وكان ثقة اخبارياً عالماً بالأدب عارفاً بأيام الناس وأخبار الخلفاء يتحرى الصدق وله تاريخ جامع كبير على ترتيب السنين^(٢) . ذكره ابن الجوزي والصفدي .

— ابن قانع ولعله الحافظ أبو الحسن عبد الباقى بن قانع بن مرزوق البغدادي (سنة ٣٥١) وله تاريخ جامع مرتب على السنين^(٣) .

— ابن سوار أبو عبد الله محمد بن الحسين المعروف بابن أخت عيسى ابن فرخان شاه . وله كتاب الجامع لفنون الأخبار والكتوان في الأعصار قبل الإسلام وبعده بلغ في تصنيفه إلى سنة عشرين وثلاثمائة^(٤) .

وتحتفي هذه التواريخ العامة ما يزيد على القرن (ما بين الرابع والخامس) لأنكاد نجد خلاله منها إلا الترر اليسير ومن ذلك :

— كتاب في التاريخ لأبي الفتح أحمد بن مطرف الكتاني (المتوفى غالباً سنة ٤١٣) قال في تقديمه : « انه اقتبس من تصانيفه كتاباً مجرداً في التواريخ المعينة على الطرق الميسنة مما ينبغي لأهل العلم أن يعلمه

(١) المصدر نفسه ص ١٦ .

(٢) الصفدي - الرواية ١ ص ٥٠ وابن الجوزي - المستجم ٧ ص ٣ - ٤ .

(٣) المصدر نفسه ، وانظر كشف النقون ٢ ص ١٧٣٥ .

(٤) المسعودي - مروج ١ ص ١٤ .

ويستيقنوه ولا يجهلوه ومتى يحتاج إليه أهل العلم بالأديان والسير وأهل
المعرفة بالأيام والغير ^(١)

— كتاب زيج التواریخ لأبي نصر يحيى بن جریر التکریتی الطیب الحلی
(بعد سنة ٤٧٣) ویسمی کتابه أحیاناً الكتاب الجامع للتواریخ . وقد
استخدمه ابن العدیم وابن شداد ^(٢) وذکر کلاماً أنه يتضمن :
«... مبدأ الدول ونشأ المالک ومواليد الأنبياء وأوقات بناء المدن وذكر
الحوادث المشهورة ...» .

— وكتب الحمیدی أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح (سنة ٤٨٨) كتاب
جميل التاریخ أو (جمل تاریخ الاسلام) ^(٣) .

— وكتب مجھول في أواخر القرن الخامس كتاب : جميل التواریخ على
شكل حوليات باختصار على طریقة حمزة الأصفهانی وأضاف إليها
في النهاية بعض المعلومات الجغرافية عن الأماكن المقنسة وخططها
وقد طبع الكتاب في طهران سنة ١٩٣٦ .

— السمنانی أبو القاسم علي بن محمد (سنة ٤٩٩) وله : الاستظهار في معرفة
الدول والأنبار .

غير أن هذا النوع من المختصرات التاریخية يتکاثر في القرن السادس
وما بعده ومن ذلك ما كتبه :

— المقدی أبو الحسن علي بن مرشد بن علي الکنانی (سنة ٥٤٥) وله :
البداية والنهاية ، انتهى إلى ما بعد سنة ٥٣٤ .

(١) انظر السنّاوي - الاعلان (ط . روزنال) ص ٤٤١ ، وانظر ياقوت - الأدباء ج ٥ ص ٦٣ (ج ٢ ص ١١٥) .

(٢) انظر مثلاً ابن العدیم - زبدة الملک ج ١ ص ١٥ ، وانظر ابن شداد الأعلان المطهیرة
(قسم حلب) ص ١٢ .

(٣) انظر السنّافي - الراوندج ١ ص ٥٠ .

— السهوردي وجيه الدين أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله بن عمويه الصفوي (سنة ٥٣٢) وله : التاريخ المجاهدي ألفه لمجاحد الدين بهروز حاكم العراق للسلاجقة في تلك الفترة وجعله على حوادث السنين من ابتداء الدنيا إلى سنة ٥٢٤^(١).

الكرخي أبو طاهر أحمد بن الحسن (توفي بعد سنة ٥٣٢) وله تاريخ نقل عنه ابن الفوطي^(٢).

— ابن حمدون (المنشي) محمد بن الحسن بن محمد البغدادي (سنة ٥٤٥) وله تاريخ الحوادث^(٣).

— ابن حمدون (الكاتب شقيق السابق) أبو المعالي محمد (سنة ٥٦٢) وقد جعل الجزء الثاني عشر من تذكرةه تاريخاً عاماً على الحوادث تارة وعلى السينين أخرى حتى سنة ٥٢٦ . وهذا الجزء مخطوط (أحمد الثالث رقم ٢٩٨١).

— العظيمي محمد بن علي بن محمد التتوخي (بعد سنة ٥٥٨) وقد كتب تاريفتين أحدهما مطول والثانية مختصر باسم تاريخ حلب ولكن النظر في الثانية (المختصر) يكشف أنه تاريخ عام وهو مخطوط في استانبول (مكتبة قرة مصطفى ٣٩٨) نشر الجزء الأخير منه كلوド كاهن.

— الأسفري المديني أبو موسى محمد بن عمر بن أحمد الأصبهاني (سنة ٥٨١) وله : الأخبار الطوال.

— الأصبهاني عماد الدين محمد (القاضي لا الكاتب) وقد توفي بعد سنة

(١) انظر السليمي - طبقات الصوفية ص ١٨٠ .

(٢) ابن الفوطي - تلخيص معجم الألقاب ج ٤ - قسم ١ ص ٥٩٩ (نشر مصطفى جواد - دمشق ١٩٦٢) .

(٣) الصفدي - الرواقي - ج ٢ ص ٣٥٨ .

(٥٩٣) وله كتاب البستان الجامع لتواريخ الزمان . وهو مخطوط في استانبول (أحمد الثالث رقم ٢٩٥٩) .

- ابن الجوزي عبد الرحمن الإمام الواعظ (سنة ٥٩٧) وله بين مؤلفاته بالثنتين : كتاب الذهب المسبوك في سيرة الملوك (مخطوط في استانبول أسعد أفندي رقم ٢٠٦٥ وقد طبع) وكتاب شذور العقود وهو تاريخ عام موجز اهتم بتلخيص معلومات في الفلكيات والجغرافيا وتاريخ بني إسرائيل إلى زمن السيد المسيح ثم يتلو ذلك فصل قصير في ملوك الفرس وموجزات مقتضبة عن الأمم الأخرى قبل أن ينصرف إلى تلخيص التاريخ الإسلامي كله .

- ابن عين أبو المحاسن محمد بن نصر الله الدمشقي الوزير الشاعر (سنة ٦٣٠) وقد كتب للملك العزيز الأيوبي : التاريخ العزيزي .

- ابن نظيف أبو الفضائل محمد بن علي بن عبد العزيز الحموي الكاتب (بعد سنة ٦٣١) وله تاريخ عام واسع أوجزه في كتاب صغير اسمه التاريخ المنصوري (طبع في موسكو) كما أن له موجزاً آخر باسم مختصر سير الأوائل والملوك (وهو مخطوط) .

- ابن سعادة شمس الدين أبو العباس أحمد بن خليل اللبوبي الخويي الدمشقي القاضي (سنة ٦٤٧) وله : الروض الباسم في أخبار من مضى من العالم .

- ابن أبي الدم أبو اسحق ابراهيم بن عبد الله بن عبد المنعم الحموي (سنة ٦٤٢) وله موجز لتأريخه الكبير المففي (أو المظفرى) ، يدعى في المخطوطات أيضاً باسم التاريخ المظفرى ولعل اسمه الشماريخ في التاريخ وهو في تاريخ الإسلام وعلى السينين ومنه مخطوطتان في الهند (مكتبة خدابخش - بتبناه رقم ٢٨٦٨ ورقم ٢٨٦٩) وخطوط في بلدية الاسكندرية (رقم ١٢٩٢ ب) .

- ابن أبي أصيبيعة أبو العباس أحمد بن القاسم الكحال (سنة ٦٦٨) صاحب طبقات الأطباء وله : كتابان لعلهما تاريخ واسع وموجزه : المختار من عيون التاريخ ، ومعالم الأمم وأخبار ذوي الحكم .

- الكازروني علي بن محمد بن محمود (سنة ٦٩٧) وله : مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بنى العباس ومنه مخطوط في استانبول (جار الله رقم ١٦٢٥) بخط المؤلف . كتبه سنة ٦٦٣ وقد اختصر فيه تاريخاً عاماً له كان في ٢٧ مجلداً . وقد طبع المختصر في بغداد .

على أن هذه المختصارات بقيت على أي حال تأخذ شكل التواريخ ، لكن بعض المؤلفين وصلوا في إيجاز كتب التاريخ العامة في القرن السادس والسابع إلى الاقتصار على القوائم المجردة وطريقة البحداول ، ومن ذلك :

- التاريخ المجلد و قد كتبه أبو القاسم محمد بن علي العمادي^(١) (من رجال أوائل القرن السادس / الثاني عشر الميلادي) .

- وتاريخ ابن الراحب الذي لا يجد فيه إلا البحداول المتتابعة لأسماء ملوك الروم وبيزنطة والخلفاء والبطاركة (وهو مطبوع) .

(ج) ومن جهة أخرى فإن المنهج الحولي في التسجيل هو الذي سيطر تقريباً ولكنه بدوره تطور في اتجاهين :

الأول : تطور أحياناً في اتجاه التدقيق الشديد والتقييد بالشهر لا بالحول وأحياناً بالأيام ، ومن الأمثلة على ذلك :

- كتاب الاستظهار في معرفة الدول والأخبار لأبي القاسم علي ابن محمد السمناني وهو في التاريخ على الشهور .

(١) ذكره بارتولدي (تركستان حتى الفزو المنوفي - بالإنجليزية - سلسلة جب التذكارية رقم ٥ - لندن ١٩٢٨) ص ٢٤ .

— وقد ذيل عليه بذيل الاستظهار أبو علي الحسن بن محمد بن اسماعيل القيلوي القاضي (سنة ٦٣٣).

— كما نظم القاضي الفاضل يومياته على شكل تاريخ يومي سمي بال ملياومات ومع أن هذا الاتجاه لم ينتشر بسبب قسوته وعدم توافر المعلومات دوماً فيه إلا أنه مع ذلك سوف يستمر في العهد الملوكى الثاني ويسجل عدداً من المؤلفات التي نجد في بعض أخبارها ذكرآ ل الساعة التي جرى فيها الحادث.

الثاني : الإتجاه المعاكس وهو التحرر من قيد الزمن كله وترك الأخبار حرة مرسلة لا يربط بينها الزمن ولكن الموضوع وأحياناً تداعي الأفكار وحده . وفي هذا المجال كانت الكتب «الحضارية» وكتب القصص التاريخي والحكايات عن : الأذكياء مثلاً ، وعقلاء المجانين ، والطنبوريين والبخلاء والجواري والتراين والظراف والتماجن ، والشجعان ... الخ . كما كانت كتب الحكايات والملح والنواود ... وقد مرّ علينا من هذا وذلك الأمثلة العديدة الواسعة .

د — وعلى سبل التطور ذاتها تطور النهج في كتب تراجم الرجال . لقد كانت هذه الكتب في أول نشأتها تحمل اسم الطبقات وقد توسيع في القرن الثالث حتى انتجت الطبقات الكبرى لابن سعد ، غير أنها لم تكن واحدة النهج أي لم تكن تتبع نهجاً في التنظيم ثابت الأسس يمكن لأي مؤلف أن يسير عليه وإنما تتبع التنظيم الذي يختاره المؤلف من خلال منطلقاته الفكرية والدينية والأوليات أو المبادئ التي يضعها لنفسه ، ولكن هذه الكتب اتجهت منذ القرن الرابع نحو توطيد تنظيمها ضمن عدد من الأسس المنهجية العامة . وهكذا في الوقت التي استمرت فيه كتب الطبقات وتتنوعت ، ظهرت بجانبها كتب أخرى على مناهج عدة .

ولعله من المام أن نشير ، قبل الانطلاق في ذكر النماذج والأمثلة في

تنظيم الترجم إلى الكثرة المائلة فيها مما يضطرنا اضطراراً للاختيار والنقلة من فترة إلى أخرى دون استيفاء الأسماء أو إحصاء المؤلفين الدقيق . لقد عرف هذه المهمة الصعبة من قبل المؤلفين القدامى ومن بينهم الصفدي الذي كتب في مقدمته الواقي : « وأما كتب المحدثين في معرفة الصحابة وكتب الجرح والتعديل والأنساب ومعاجم المحدثين ومشيخات الحفاظ والرواية فإنها شيء لا يحصره حد ولا يقتصره عدد ولا يستقصيه ضبط ولا يستدنه ربط لأنها كاثر الأموال أحوالاً وكابر الأدراج اندراجاً ... »^(١) وهكذا فسوف نكتفي بالصورة العامة للتفرعات والتماذج :

بعض كتب الترجم اتخذ خطة الاعتماد على سني الوفيات في تتابع الترجمة وهي الخطة الأشهر والأقدم والمجموعة الأولى التي فتحت الطريق اقتصرت في المؤلفات التي كتبتها على ذكر « وفيات الشيوخ » الذين أخذت عنهم ومن ذلك :

— البغوي أبو القاسم عبد الله بن محمد بن المرزبان (سنة ٣١٠) وله تاريخ وفاة شيخ البغوي (منه نسخة مخطوطة في دار الكتب الظاهرية بدمشق . انظر فهرس المكتبة — قسم التاريخ ليوسف العش ص ٢٢٥).

— ابن عقدة أبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد (سنة ٣٣٢) نقل عنه ابن نقطة^(٢).

— ابن الفرات أبو الحسن محمد بن العباس (سنة ٣٨٤) وله وفيات الشيوخ نقل عنه ابن التجار محب الدين البغدادي المؤرخ^(٣).

(١) الصفدي — الواقي ج ١ ص ٥٥ .

(٢) انظر ابن نقطة — إكمال الإكمال ، مخطوط الظاهرية بدمشق (رقم ٤٢٩ حديث) الورقة ٧٨ وجه . في الحديث عن وفاة يعقوب بن يوسف بن ثواب .

(٣) انظر ابن التجار — التاريخ المجدد لمدينة السلام — مخطوط الظاهرية بدمشق (رقم ٤٢ تاريخ) الورقة ١٤٥ وجه ، وقد ذكر ذلك الكتاب في ترجمة ابن عصمة .

— الطحان أبو القاسم عبد الباقى بن محمد البغدادي (سنة ٤٣٢) وقد ذكر له الأدفو^(١) كتاباً في الوفيات.

— ابن خiron أبو الفضل أحمد بن الحسن البغدادي (سنة ٤٨٨) ألف « وفيات الشيوخ » من أول السنة التي ولد فيها وهي سنة ٤٠٦ حتى آخر زمانه . وذكر موالدهم^(٢) ونقل عنه ابن نقطة في كتاب التقىد^(٣) . وابن مكتوم في تلخيص أنباء الرواة^(٤) .

— الأنصاري أبو المعمرا مبارك بن أحمد (سنة ٥٤٩) وقد ذكر حاجي خليفة مؤلفه في وفيات الشيوخ .

— القرشي أبو أحمد معمر بن عبد الواحد بن الفاخر القرشي الأصبهاني (سنة ٥٦٤) وقد ذكر ابن نقطة كتابه^(٥) .

— الحاجي أبو مسعود عبد الرحيم بن علي بن أحمد الأصبهاني (سنة ٥٦٦) وقد نشر كتابه في وفيات الشيوخ في بغداد سنة ١٩٦٦ عن نسخة الظاهرية المخطوطة بدمشق .

وفي الوقت الذي استمر فيه هذا النوع من الكتب في وفيات الشيوخ فقد توسع مؤلفون آخرون في مفهوم الوفيات فعمموه في التراجم وكان من ذلك خاصة سلسلة من المؤلفين توالي بعضهم وراء بعض يكملون العمل وفي هذه السلسلة من المؤلفين :

(١) انظر الأدفو^(١) — الطالع السعيد ص ٣٦٣ ، ٣٨٢ .

(٢) الصفدي — الرواني بالوفيات — ج ١٥ (المخطوط المصور في الظاهرية بدمشق) الورقة ١٤٦ ظهر .

(٣) ابن نقطة — التقىد لمعرفة رواة الأسانيد — مخطوط مكتبة الأزهر (رقم ١٣٧) — مصطلح الحديث) الورقة ٧٦ وجہ .

(٤) وابن مكتوم — تلخيص أنباء النحوين والقوين — مخطوط دار الكتب بالقاهرة (رقم ٢٠٦٩ تاريخ ، تيمور) الورقة ١١٤ ظهر .

(٥) ابن نقطة — إكمال الإكمال — مخطوط الظاهرية الورقة ٨٢ وجہ .

- ابن قانع أبو الحسين عبد الباقى الحافظ (سنة ٣٥١) وقد بدأ من الهجرة ثم وصل في الوفيات إلى سنة ٣٤٦ / ٩٥٧ .

- ابن زير أبو محمد عبد الله بن أحمد الربيعى (٣٢٩ / ٩٤٠) البغدادي الدمشقى قاضى مصر ابتدأ كتابه فى الوفيات من تاريخ الهجرة وانتهى به إلى سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة / ٩٤٩ .

ثم جاء على كتاب ابن زير هذا سلسلة من الديول استمرت أكثر من أربعة قرون كان فيها :

- الكتانى أبو محمد عبد العزىز بن محمد الحافظ الدمشقى الصوفى (٤٦٦)
وقد تابع تسجيل الوفيات حتى قريب من وفاته .

- وقد عاصر الكتانى مؤلف آخر على الطريقة ذاتها هو ابن الحبال ابراهيم ابن سعيد النعمانى المصرى (سنة ٤٨٢) وكتابه فى الوفيات ابتدأه من سنة ٣٧٥ وانتهى به إلى سنة ٤٥٦ وقد نشره صلاح الدين المنجدى في مجلة معهد المخطوطات^(١) .

- كما عاصره مؤلف آخر هو ابن متدة أبو القاسم عبد الرحمن (سنة ٤٧٠)
وله كتاب في الوفيات يبدو أنه كان واسعاً إلى درجة جعلت الذهبي
يكتسحه بقوله : « لم أر أكثر استيعاباً منه »^(٢) .

- ابن الأكفانى أبو محمد هبة الله بن أحمد بن محمد الدمشقى (سنة ٥٢٤)
وهو تلميذ الكتانى وقد تابع كتاب أستاذه بذيل امتد عشرين سنة
وصل به إلى سنة ٤٨٥ وسماه جامع الوفيات .

- وذيل على ابن الأكفانى أبو الحسن علي بن المقفل المقدسى الاسكندرانى

(١) انظر مجلة معهد المخطوطات العربية الجزء الثاني من المجلد الثانى ص ٢٨٦ - ٢٣٧ .

(٢) الذهبي - العبر ج ٣ ص ٢٧٤ .

الحافظ (سنة ٦١١) وصل بذيله حتى سنة ٥٨١ وسمّاه وفيات النقلة .

- ثم أكمل المنوري أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي (سنة ٦٥٦) العمل بكتابه : التكميلة لوفيات النقلة وقد طبع نصفه بتحقيق بشار عواد معروض في أربع مجلدات (بغداد ١٩٦٨ - ١٩٧١) .

- ثم تابع أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الحسيني الحلبي (سنة ٦٩٥) التأليف بكتاب صلة التكميلة لوفيات النقلة ...

وإذا استمرت السلسلة بعد ذلك بأعمال الدمياطي (سنة ٧٤٩) ثم العراقي (سنة ٨٠٦) ثم أبي زرعة (سنة ٨٢٦) فإن كتاباً آخر في الوفيات ظهرت كذلك في القرن السابع موازية لعمل المنوري منها : وفيات ابن دحية أبي الخطاب عمر الكلبي المتوفى سنة ٦٣٣ .

وبعض كتب التراجم اعتمد النظام المعجمي والأبيجدي أو كما كانوا يقولون « على الأحرف » وكان هذا فرزة هامة نحو الموسوعية والتنظيم بدأت بدورها بكتب أولية وضعها بعض المؤلفين في تراجم شيوخهم بعنوان : معجم الشيوخ ، ثم ما لبثت « المعجمية » أن أصبحت النهج التنظيمي الأول والأكثر اتباعاً في التأليف منذ مطلع القرن الخامس .

فمن مؤلفي معاجم الشيوخ الأولى مثلاً وهم جماعة واسعة كبيرة :

- أبو يوسف يعقوب الفسوسي (سنة ٢٧٧) ولكنه رتبهم على البلدان التي دخلها .

- المقري أبو بكر محمد بن إبراهيم (سنة ٢٨١ / ٨٩٤ أو بعد ذلك) وله معجم للشيوخ .

- الموصلي أبو علي أحمد بن علي بن المثنى (سنة ٣٠٧ / ٩١٩) وقد ذكره السخاوي ^(١) .

(١) السخاوي - الإعلان (ط . دوزنال) ص ٦٠٧

— الأصبهاني أبو اسحق ابراهيم بن محمد بن حمزة (سنة ٣٥٣ / ٩٦٤) . وقد ذكره أبو نعيم الأصبهاني^(١) .

— الطبراني أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أبوب (سنة ٣٦٠ / ٩٧١) وكان رحالة حافظاً . جمع شيوخه و كانوا ألف شيخ في معجمين : أوسط و صغير^(٢) .

— الإسماعيلي أبو بكر أحمد بن ابراهيم (سنة ٣٧١ / ٩٨١) .
— ابن جمیع أبو الحسن محمد بن أحمد (سنة ٤٠٢ / ١٠١١) وقد ذكره السمعاني^(٣) .

— أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني الحافظ (سنة ٤٣٠ / ١٠٣٨) وله معجم شیوخ بجانب تاريخ أصبهان .

— ابن شاطئ أبو علي الحسن بن أحمد (سنة ٤٢٦) ذكره ابن الجوزي^(٤) .
— المروي أبو ذر عبد الله بن أحمد (سنة ٤٣٤ / ١٠٤٣) ذكره الخطيب البغدادي^(٥) .

— أبو الحسين محمد بن المهدى بالله على العباس (توفي بعد سنة ٤٦٥) ذكره الخطيب البغدادي بين مصادره والسمعاني وابن الجوزي^(٦) .

ويضيق المكان عن متابعة هذه المؤلفات التي تزيد زيادة كبيرة بعد

(١) أبو نعيم — تاريخ أصبهان (ط. ريدرنغ — ليدن ١٩٥١ — ١٩٥٤) ج ١ ص ١٩٩ . والسعاني المصدر السابق .

(٢) السعاني — الأنساب (المخطوط المصور — مرغيلوث) الورقة ٣٦٦ وجه وانظر تهذيب ابن عساكر ج ٦ ص ٢٤٠ .

(٣) المصدر السابق الورقة ٣١٥ ظهر والورقة ٥٢١ وجه .

(٤) الخطيب البغدادي — تاريخ بغداد ج ١١ ص ١٤١ . وانظر السعاني — الاعلان ص ٦٠٨ .

(٥) ابن الجوزي — المستقيم ج ٨ ص ٨٦ — ٨٧ .

(٦) الخطيب — تاريخ بغداد ج ٣ ص ٨ ، ص ٢٣٥ ، ابن الجوزي — المستقيم ج ٨ ص ٢٨٢ . والسعاني — الأنساب الورقة ٣٥١ ظهر .

القرن الخامس حتى تصبح بضاعة كل مؤلف ويرد بينها معاجم شيوخ كل من الشيرازي (سنة ٤٨٦) والحميدي (سنة ٤٨٨) والسعاني (الحد سنة ٤٨٩) (والآب سنة ٥١٠) والأنصاري (أواخر القرن الخامس) والقططي (سنة ٥٠٩) والترسي (سنة ٥١٠) والشوكبي (سنة ٥١٢) وعبد الله بن البناء (سنة ٥١٦) وابن الدقاد (سنة ٥١٦) وأبي غالب أحمد بن البناء (سنة ٥٢٧) واليوناري (سنة ٥٢٧) والمخاف (سنة ٥٤٣) وابن كاهويه (سنة ٥٥٠) ... الخ . وبعد ذلك حتى أواسط القرن السابع ما يزيد على أربعين مؤلفاً آخر ، من أبرزهم ابن عساكر وله عدد من المعاجم والسعاني والسلفي صاحب معجم السفر ، وابن العديم ... الخ .

والتنظيم المعجمي للتراجم منهج قديم لدى المؤرخين المسلمين ، وقد بدأ منذ القرن الثالث على أيدي بعض المحدثين من أمثال ابن ياسين (سنة ٢٣٤) في تاريخ هرة والبخاري (سنة ٢٥٦) في تاريخه لرجال الحديث ، غير أنه اتبع خاصة من قبل مؤلفي التواريخ البلدانية ، ومن هؤلاء المعداني (سنة ٣٧٥) في تاريخ مرو ، وأبو نعيم الأصفهاني في تاريخ أصبهان . وإذا التقى هذه الطريقة فعممتها على (تاريخ علماء الأندلس) أبو الوليد الفرضي الأندلسي المتوفى سنة ٤٠٣ ، فإن الخطيب هو الذي منحها الانتشار الأكبر بكتابه : تاريخ بغداد فصارت النسخة المتبعة في التواريخ البلدانية .

ولعل أول من نقل الطريقة المعجمية إلى التراجم العامة هو :

— المقدسي تقي الدين أبو محمد عبد الغني بن عبد الواحد الدمشقي (سنة ٦٠٠) ، فقد كتب في أربع مجلدات ضخمة (كتاب الكمال في معرفة الرجال) ومنه أجزاء مخطوطة في الظاهرية بدمشق والجامعة الأمريكية في بيروت ، وكان هذا الكتاب نهاية لخط طويل من تطور « علم الرجال » في التاريخ الإسلامي .

وقد لحقه من بعده أربعة كتب من أهم الكتب في جمع التراجم أبجدياً :

— كتاب التقىيد لمعرفة رواة السنن والأسانيد ، لأبي بكر محمد ابن عبد الغني المعروف بابن نقطة الخبلي (سنة ٦٢٩) ولكنه كان يختص برواية الحديث .

— كتاب الكمال في معرفة الرجال لمحب الدين محمد بن محمود بن التجار المؤرخ البغدادي المعروف (سنة ٦٤٣) وهو بدوره خاص برواة الرجال .

— كتاب في سبع مجلدات كتبه مجاهول في أواسط القرن السابع وقد ضاع كله فلم يبق منه سوى فهرسه في مجلد مخطوط يحمل عنوان : (مفتاح تراجم الإسلاميين من بدء الإسلام إلى سنة ستمائة وخمسين) وهو عبارة عن جداول لفهرس مرتب على حروف المعجم يحوي أعلام الإسلام على سنة الوفاة وترتيب الطبقة ذاكراً رقم المجلد والصفحة والرقم المنسق ... والمخطوط موجود في المند بالكتبة الأصفية بميدن آباد (رقم ١٥١ تراجم) .

— كتاب وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان لابن خلكان أبي العباس أحمد ابن محمد بن أبي بكر الدمشقي (سنة ٦٨١) وهو في ست مجلدات تعتبر ، حتى عهدها ، أولى وأوسع معجم بيوجغرافي . وهو ما يزال الأشهر فيها .

(٨) على أن فروعاً عديدة جداً لهذه المعاجم البيوغرافية قد ظهرت في التأليف . وكلها وإن كانت على الحروف الأبجدية إلا أن مبدأ الاختيار فيها هو الذي كان مختلف ، ويختلف معه وبالتالي نوع التأليف . ونستطيع أن نجد على الأقل عشرة أنواع من هذه المعاجم يتفرع من بعضها بدورها فروع أخرى ...

١ — فهناك أولاً كتب معاجم الصحابة (بعد الطبقات الكبرى) .

— تاريخ الإمام البخاري «أول من صنف فيها فيما عُلم» على حد قول ابن حجر العسقلاني وقد جعله على حروف المعجم . وابتدأه

بالمحمددين تيمتاً باسم الرسول .

وهناك بجانبه تاريخ الرمذاني ، وكتاب ابن أبي دؤاد . وتاريخ مسلم (رواية الاعتبار) وتاريخ النسائي (التمييز) ثم هناك كتب :

- عبدان بن محمد المروزي (سنة ٢٩٣) واسمها تاريخ الصحابة .
 - أبي عبد الله بن منهه الأصفهاني (سنة ٣٠١) وكتاب : معرفة الصحابة عليهم السلام .
 - الدغولي محمد بن عبد الرحمن بن عباس (سنة ٣٢٥ / ٩٣٦) وله : تاريخ الصحابة .
 - ابن السكن سعيد بن عثمان بن سعيد (سنة ٣٥٣) وهو على الحروف .
 - وعاصره ابن حيان محمد بن أحمد (سنة ٣٥٤) ولهم معرفة الصحابة .
 - وهناك الطبراني أبو القاسم اسماعيل (سنة ٣٦٠) وكتابه المعجم الكبير في أسماء الصحابة .
 - وكتاب أبي حفص بن شاهين (سنة ٣٨٥ / ٩٩٥) في تاريخ الصحابة .
 - وكتاب أبي نعيم الأصفهاني (سنة ٤٣٠) .
 - وكتاب أبي يعلى الخليل بن عبد الله (سنة ٤٦٦) واسمها معرفة الصحابة .
 - وكتاب ابن عبد البر القرطبي (وهو أندلسي توفي سنة ٤٦٣) ولكنه انتشر في المشرق : الاستيعاب في معرفة الأصحاب .
 - وكتاب أبي موسى السفرايني المديني الأصبهاني (سنة ٥٨١) وقد ذيله على كتاب ابن منهه .
 - ثم كتاب أسد الغابة في معرفة الصحابة للمؤرخ ابن الأثير (سنة ٦٣٠)
- في ست مجلدات كبار كانت أولى المؤلفات .

وتفرع عن معاجم الصحابة فروع تناولت من نزل منهم في بعض المدن كحمص والكوفة ... أو من حضر بدرأ أو المعارك الأخرى ، أو من كان من قبائل محددة ، أو من روى حديثاً أو من شهد كلها وكلها من المشاهد... الخ.

٢ - وهناك ثانياً كتب الأنساب . ومنذ تراجع النسب القبلي القائم على أساس دموي وبرزت بدلاً منه النسبة إلى الأمكانة أو الحرفة أو الشهرة أو المذهب أو الولاء أو الصفات الجسمية والخلقية ... الخ ، ظهرت الحاجة إلى هذا النوع من كتب الأنساب التي كان أبرزها من الكتب الجامعة :

- كتاب الأنساب للسمعاني أبي سعد عبد السليم بن أبي بكر (سنة ٥٦٢) وهو كتاب ضخم طبعه تصويراً عن أجزاء مخطوطاته المستشرق مرغليوث كما طبع نصيفه في حيدر آباد في الهند .

- كتاب اللباب في تهذيب الأنساب ، وقد اختصر فيه ابن الأثير المؤرخ فصول كتاب السمعاني وأضاف إليه نوافقه ...

غير أن كتب الأنساب الجامعة هذه لم تستو بين أيدي الناس إلا بعد أن ظهر قبلها بكثير كتب كثيرة أخرى تشبه أن تكون الفروع لها مع أنها هي الأصل في ظهور الكتب الجامعة فلا تشابه الأسماء أدى منذ مطلع القرن الرابع إلى ما سمي بكتاب « المشتبه » من الأسماء وبعض المؤلفين جعل همه ايفضاح الاشتباه في الأسماء أو الكنى أو الألقاب المتقاربة . وقد أخذ هذا النوع العلمي شأنه ومكانه بسرعة بل وأخذ اسمه الخاص أيضاً منذ ألف فيه أوائل المؤلفين وأعطوه اسم : « المؤتلف والمختلف » أو « المتفق والمفارق » .

وهكذا نجد مثلاً في المؤلفين الأوائل فيه :

- أبو جعفر محمد بن حبيب البغدادي التحوي (سنة ٢٤٥هـ) وقد كتب كتاب المختلف والمختلف في أسماء القبائل الذي طبعه وستفليد سنة ١٨٥٠م.

- أبو الحسن علي بن عمر الدارقطني البغدادي (سنة ٣٨٥) وقد وضع كتاباً حافلاً في (المختلف والمختلف في أسماء الرجال) ومنه نسخة مخطوطة في دار الكتب بالقاهرة (تيمورية ٥٤٦ تاريخ) .

- أبو أحمد الحسن بن عبد الله العسكري (سنة ٣٨٢) ، وله كتاب مشتبه النسبة .

- وقد عاصرهما أبو القاسم الحسن بن بشر الأدمي الأديب المعروف (سنة ٣٧٠) وقد كتب أيضاً كتاب المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم (وهو مطبوع) .

- وهناك الأزدي عبد الغني بن سعيد الحافظ (سنة ٤٠٩) وقد سمي كتابه مشتبه النسبة . ثم زاد عليه وسماه المؤتلف في تكملة المختلف . ومنه نسخة مخطوطة في برلين . أما مشتبه النسبة فطبع في الله آباد بالهند سنة ١٣٢٧ ، بعنابة محمد يحيى الدين الجعفرى الزيني .

- وهناك أبو سعد أحمد بن محمد الماليسي (المتوفى سنة ٤١٢) وقد كتب كتاب المؤتلف والمختلف .

وصنف في الموضوع بالعنوان نفسه :

- أبو القاسم يحيى بن علي الحضرمي المعروف بابن الطحان (المتوفى سنة ٤١٦) .

- وأبو العباس جعفر بن محمد المستغري (المتوفى سنة ٤٣٢) .

- والخطيب البغدادي المؤرخ المعروف (سنة ٤٦٣) وله بين تأليفه كتاب : المتفق والمتفرق . وهو كتاب كبير الحجم في ٧٠٠ صفحة منه نسخة مخطوطة في دار الكتب بالقاهرة . وقد ذكر ياقوت الخطيب البغدادي كتاباً باسم : تلخيص المشابه^(١) .

- ثم جاء ابن ماكولا الأمير أبو نصر علي بن هبة الله (سنة ٤٨٧) فزاد على علي الجميس في كتاب حافل واسع على حروف المعجم سماء الإكمال

(١) انظر ياقوت - معجم الأدباء ج ١ ص ٢٨١ (ترجمة ابراهيم بن عقيل) .

في معرفة الرجال (أو في دفع الارتياب عن المؤتلف وال مختلف في الأسماء والكنى والألقاب) وهو في مجلدات عديدة طبع بعضها في الهند . وقد استدرك صاحبه على المؤلفين الآخرين بكتاب آخر سماه : تهذيب مستمر للأوهام على ذوي التمني والأحلام وهو مخطوط .

— وعاصر ابن ماكولا وألف في الفن نفسه مؤلف أندلسي هو أبو علي الحسين بن محمد بن أحمد الغساني البخاري (سنة ٤٦٨) وقد طبع كتابه في تركيا وهو بعنوان: تقدير المحصل وتمييز المشكل ويعنى بضبط أسماء رجال الصحيحين .

— ثم جاء المقدسي القيسراني أبو الفضل محمد بن طاهر بن علي (سنة ٥٠٧) فكتب كتاب الأنساب المفقمة في الخلط المتiple في النقط والضيبيط ، وهو مطبوع (ويسمى أحياناً المؤتلف والمؤتلف في الأنساب) طبعه دي يونغ في هولندا سنة ١٨٦٥ .

— وكتب الأبيوردي أبو المظفر محمد بن أحمد الشاعر الأموي (سنة ٥٠٧) كتاب ما اختلف واثنى من أنساب العرب .

— وأتى أبو حامد ابن نقطة محمد بن عبد الغني (سنة ٦٢٩) فكتب ذيلاً على ابن ماكولا سماه الإكمال .

— ثم جاء ابن باطيس أبو المجد اسماعيل بن هبة الله الموصلـي (سنة ٦٤٠) فكتب كتاب مشتبه النسبة^(١) .

— ثم لحقه ابن الصابوني أبو حامد محمد بن علي (سنة ٦٨٠) فذيل على ابن نقطة بكتاب (تكمـلة إكمـال الإـكمـال في الأنسـاب والأـسـماء والأـلقـاب) وقد طبع (في بغداد بتحقيق مصطفى جواد سنة ١٩٥٧) .

(١) ذكره له ابن العديم في ترجمته في بنيـة الطلب . انظر الجزء المخطوط في دار الكتب الوطنية بباريس رقم ٢١٣٨ الورقة ١٣٢ وجه .

- ولحق الجميع بعد ذلك ابن القوطي المؤرخ (سنة ٧٢٣) فكتب تلخيص الأفهام في المؤتلف والمختلف .

٣ - وهناك ثالثاً المعاجم البيوغرافية على أساس البلدان وهي التي تحولت إلى توارييخ بلدانية . غير أن عدوى التنظيم المعجمي أصابت الجغرافيا التاريخية فتحولت كتبها إلى شكل المعاجم ومنها مثلاً : معجم البلدان لياقوت وسوف نعرض لهذه الناحية فيما بعد .

٤ - وهناك رابعاً المعاجم على أساس العلوم ، تنظم فيها التراجم لرجال كل علم على الأبجدية أيضاً وقد مر معنا في تاريخ العلوم المختلفة سلاسل بعد سلاسل من هذه المعاجم . غير أنها ندر أن نجد معاجم قد نظمت على أساس المهن والأعمال (القضاء مثلاً أو للوزراء والولاة والمحجوب والكتاب) ولعل السبب في ذلك يعود إلى قلة عدد هؤلاء وتفضيل المؤرخين إثبات أسمائهم وتراجمهم حسب توالي العصور ...

٥ - وهناك خامساً المعاجم على أساس المذهب . وإذا كان الأحناف والشافع والحنابلة والمالكية قد فضلوا في الغالب طريقة الطبقات فإن الشيعة اتبعوا في الرجال غالباً طريقة المعاجم الأبجدية . والمؤلفات التالية التي نذكرها لهم على سبيل الأمثلة ليست كلها على الأحرف أو لستا واثقين بسبب ضياع معظمها من أنها كانت على الأحرف . ومن مؤلفي الشيعة في الرجال :

- كتاب الكتاني أبي محمد عبد الله بن جبلة بن حيان (سنة ٢١٩) وقد وضع كتاب الرجال وهو فيما يذكرون أول من صنف في الرجال قبل ابن سعد والواقدي^(١) .

- التيمي الحسن بن علي بن فضال الكوفي (سنة ٢٢٤) وله مؤلف في تاريخ الشيعة ذكره ابن حجر^(٢) .

(١) ينفي آغا بزرگ الطهراني ذلك ويعطي الأولية لمبدعه ابن أبي رانع كاتب أمير المؤمنين علي (أنظر مصفي المقال ص ٢٥٠) .

(٢) ابن حجر -- لسان الميزان ج ٢ ص ٢٢٥ .

- البرقي أبو جعفر أحمد بن محمد بن خالد الكوفي (سنة ٢٨٠) وله حسب رواية النجاشي كتاب الرجال أو المعرفة بالرجال بجانب كتاب آخر في الطبقات^(١).
- الشيخ الرشيد سفر بن عبد الله القمي (٩١١ / ٢٩٩) وله كتاب في تاريخ الشيعة.
- الدهقان أبو القاسم حميد بن زياد الكوفي (٣١٠) صنف كتاب الرجال أيضاً.
- الكليني أبو جعفر محمد بن يعقوب بن اسحق (سنة ٣٢٩ أو ٣٢٨) صاحب الكافي ، أَجَلَّ كتب الأصول عند الشيعة وقد ذكر له النجاشي كتاب الرجال .
- ابن عقدة أبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد الهمذاني الزيدى البخاروى (سنة ٣٣٣) وقد ذكروا له كتاب التاريخ في ذكر من روى الحديث من الناس كلهم العامة والشيعة وأخبارهم ويسمونه أحياناً كتاب تاريخ الرجال .
- الشيخ الصدوق ابن بابويه أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين القمي (٣٨١) وهو «أوسط المحمدین الثلاثة المصنفین للكتب الأربع التي عليها المدار» لدى الشيعة . وله كتاب المصايح في من روی عن الرسول والأئمة .
- الجوهري أحمد بن محمد بن عبيدة الله البغدادي (سنة ٤٠١) وله كتاب الاشتغال في معرفة الرجال فيه ذكر من روی عن إمام امام .
- الشيخ المقيد محمد بن محمد بن النعمان الشهير بابن المعلم الخارجي (٤١٣) وله كتاب الارشاد في الجرح والتعديل .

(١) ذكر ابن النديم لوالده محمد بن خالد البرقي أيضاً كتاب الرجال (الفهرس ص ٢٢١).

– الكشي أبو عمرو محمد بن عمر بن عبد العزيز (من أواخر القرن الرابع) وله كتاب في الرجال عنوانه : معرفة الناقلين جمع فيه العامة والخاصية . وقد حررها شيخ الطائفة في كتاب سماه اختيار الرجال (مطبوع) .

– الشري夫 المرتضى أبو القاسم علي بن الحسين بن موسى العلوى (سنة ٤٣٦) وله مؤلف في تاريخ الشيعة ^(١) .

– النجاشي أبو العباس أحمد بن علي الأهوازى الزيدى ثم الإمامى وهو صاحب كتاب الرجال الذى يعتبر في نظر أهل المذهب مرجع الأوائل والأواخر وأفضل ما خط في موضوعه ومن أعظم أركان البحر والتعدل .

– الطوسي شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي (سنة ٤٦٠) وتصانيفه في الرجال كتصانيفه في الحديث من أصول الشيعة . له من الأصول الحديثيةاثنان من أربعة (الاستبصار والتهذيب) ومن الأربعه الرجالية ثلاثة (الفهرست والرجال والاختيار) . ويهمنا هنا كتاب الرجال المرتب على الطبقات .

– ابن البطريق يحيى بن الحسين بن الحلى الأسدي (سنة ٩٠٠) وهو صاحب العمدة المعروف بعملة ابن بطريق وله رجال الشيعة الذي نقل عنه ابن حجر والسيوطى .

– ابن أبي طي يحيى بن حميدة بن ظافر الغساني الحلبي (سنة ٦٣٠) وله كتاب رجال الشيعة الإمامية ، بين كتبه التاريخية الصائعة . ويسمى أحياناً طبقات الإمامية ولعله على الطبقات .

– الحلبي أحمد بن موسى بن جعفر بن محمد الطاووس (سنة ٦٧٣) وله

(١) السخاوي – الاعلان من ٥٨٠ .

بين كتبه الكثيرة كتاب : حل الإشكال في معرفة الرجال .

٦ — وهناك سادساً : المعاجم على أساس نوعية الرواية من ثقة وضعف وهو باب هام من أبواب علم الحديث لما يتصل به من تصحیح الأحادیث وتضعیفها حتى لقد أخذ اسماً بخاصها به ، هو علم الجرح والتعديل واختص به جماعة من علماء الرجال . فمن المؤلفین في الضعفاء مثلاً :

— أبو أحمد عبد الله بن عدی الجرجاني الحافظ المتوفی سنة ٣٦٥ بجرجان وقد أقرأ سنة ٣٦٤ كتاباً للناس في ذلك وعنوانه : الكامل في معرفة الرجال . قال السخاوي : هو أکمل الكتب المصنفة قبله وأجلها .

— وقد ذیل عليه أبو الفضل محمد بن طاهر القیسراً (سنة ٥٠٧) بكتاب تکملة الكامل .

ومن المؤلفین في الضعفاء والمتروکین هناك أبو عبد الله البخاري ، وأبو عبد الرحمن النسائي ، وأبو الحسن الدارقطنی صاحب كتاب الضعفاء والمتروکین من المحدثین ، وأبو جعفر محمد بن عمرو بن موسى العقیل (سنة ٣٢٢) صاحب كتاب تاريخ الضعفاء في عشرين جزءاً (مجلدين) وأبو يحيی زکریا بن يحيی الساحلي الفقيه البصري وكتابه : الضعفاء والمتروکین والمنسوبيين إلى البدعة من المحدثین . وأبو الفتاح محمد بن الحسين الأزدي الموصلي وأبو علي سعيد بن عثمان ابن السکن (سنة ٣٥٣) وابن الجوزي ... الخ .

وأماماً في الثقات فهو هناك :

— كتاب أحمد بن عبد الله العجلي (سنة ٢٦١/٨٧٤) .

وهناك أبو حاتم بن حیان وله أحفل الكتب في ذلك وقد جعله على الطبقات ثم جاء محمد بن أبي بکر المیشی (سنة ٧٥٧) فتحوله على الحروف .

وهناك كتاب ابن شاهین ، وأبی العرب التمیمی .

٧ - وهناك سابعاً : معاجم صنفت حسب بعض ميزات الرواية : بطول العمر أو بقصره أو كثرة الشيوخ أو من كان من النساء أو من يحمل اسماءً معيناً أو من كان في قرن معين ... الخ .

وهكذا وجدت فروع معجمية بعضها معاجم للمعمرين أو للشبان (ولابن عساكر مؤلف فيهم) وبعض النساء وهناك عادة كتب حولهم وبعض لم يحمل اسماءً خاصةً فهناك كتاب للطبراني فيمن اسمه عطاء وآخر للمحمديين من الشعراء كما فعل القفطي وهناك كتاب الأفراد لسلم بن الحجاج القشيري ذكر فيه جماعة من الصحابة والتابعين ليس لهم إلا راوٍ واحد ...

٨ - وهناك ثامناً : معاجم كتبت في رواة بعض مشاهير الكتب الحديبية : فرواوة موطاً مالك كانوا موضوعاً لأعداد من المؤلفات ، ورجال البخاري موضوعاً لكتب أخرى . ورجال الصحيحين ألفت فيهم المؤلفات .

فمن المؤلفين في رجال الموطاً : ابن الحذا محمد بن يحيى (سنة ٤١٦) ، والأكفاني هبة الله بن أحمد (تسمية من روى الموطاً عن مالك) .

ومن المؤلفين في رجال البخاري أبو نصر الكلباني أحمد بن محمد (سنة ٣٩٨ / ١٠٠٧) وسماه الإرشاد .

ومن المؤلفين في صحيح مسلم أبو بكر أحمد بن علي بن منجويه (سنة ٤٢٨ / ١٠٣٦) .

ومن المؤلفين في رجال الصحيحين معه هبة الله بن الحسن اللالكائي (سنة ٤١٨) وأبو الفضل بن طاهر المقدسي .

ومن ألف في رجال أبي داود أبو علي الجبائي ، وفي رجال الترمذى وفي رجال النسائي آخرون . كما ألف في رجال الكتب الستة عبد الغنى المقدسي (سنة ٦٠٠) في كتابه الكمال . وابن عساكر (سنة ٥٧٢) وسماته الشيوخ النبل ... الخ .

٩ - وهناك تاسعاً : معاجم جمعت في الأسماء والكنى والألقاب وهي
عديدة كثيرة جداً ومتعددة صنف في هذا الباب :

- علي بن المديني (سنة ٢٣٤) كتاب الكنى .
- أحمد بن حنبل (سنة ٢٤١) كتاب الأسماء والكنى .
- وأفرد محمد بن اسماعيل البخاري (سنة ٢٥٦) جزءاً من التاريخ الكبير
الذي كتبه باسم كتاب الكنى ومعظمها في من عرف بكنته ولم يعرف
باسمها . وقد رتبوا على حروف المعجم . وقد طبع كتاب الكنى على
حدة في حيدر آباد سنة ١٣٦٠ .

- مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (سنة ٣٦١) صاحب الصحيح
وله كتاب الكنى والأسماء ومعظمها في من عرفت كنته واسمها .
وبعضهم كأبي أحمد الحكم النيسابوري يرى أنه منقول عن البخاري .
والكتاب في أربعة أجزاء ومنه مخطوط في دار الكتب المصرية ٢٢١
طليعة) وآخر في دار الكتب الظاهرية بدمشق (٢٥٨٢) ونسخة ثالثة في
استانبول (شهيد علي ١٩٣١) ورابعة هناك أيضاً (أحمد الثالث
٢٩٦٩ - ٣) .

- أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدمي (المتوفى سنة ٣٠١) له كتاب
أسماء المحدثين وكناهم ذكره ابن حجر^(١) .

- أبو عبد الرحمن أحمد بن علي بن شعيب النسائي (المتوفى سنة ٣٠٣)
وكتابه (الكنى) من تبوب أبي عبد الله محمد بن أحمد بن يحيى بن مفرج
القاضي وهو من أطول كتب الكنى وأجلتها فيما يروي الذهبي^(٢) .

- أبو محمد عبد الله بن علي ابن الحارود النيسابوري الحافظ (المتوفى سنة

(١) ابن حجر ، تهذيب التهذيب ج ٥ ص ٣٥٨ .

(٢) انظر كشف الظنون ج ٤ ص ١٤٥٣ .

. ٣٠٧) وله كتاب الكنى في ١٦ جزاء .

- أبو زيد أحمد بن سهل البلخي (المتوفى سنة ٣٢٢) وقد ذكر له ابن النديم كتاب الأسماء والكنى والألقاب^(١) بين عشرات الكتب التي ألف .

- وأبو بشر محمد بن أحمد بن حماد الدوابي (المتوفى سنة ٣٢٠) كتاب الكنى والأسماء .

وهو على حروف المعجم . وقد فصل فيه الصحابة عن التابعين والكتاب مطبوع في حيدر آباد سنة ١٣٢٢ في مجلدين .

- وعبيد الله بن أبي سعيد الوراق (النصف الأول من القرن الرابع) وهو النسابة الأخباري الرواية للشعر وقد كتب كتاب الألقاب بجانب كتبه الأخرى عن المدينة وأخبارها وعن الشعراء .

- محمد بن حيان البستي (المتوفى سنة ٣٥٤) وله في هذا الباب كتابان متكملان : (أسامي من يعرف بالكنى ، وكنى من يعرف بالأسماء) .

- أبو الفتح محمد بن الحسين الأزدي (المتوفى سنة ٣٦٧) وله كتاب تسمية من وافق اسمه اسم أبيه من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من المحدثين . ومنه مخطوط في ليدن (رقم ١٠٨٧) .

- المحاكم النيسابوري أبو أحمد محمد بن محمد بن أحمد الكراibiسي الحافظ (المتوفى سنة ٣٧٨ عن ٩٣ سنة) وهو أحد أئمة الحديث . ولي قضاء الشاش ثم طوس . وقد أكثر الترحال جداً وأكثر التأليف جداً وله بين كتبه العديدة كتاب الأسماء والكنى المجردة . ويعتبره بعض المؤلفين أحسن كتاب الكنى ترتيباً . ومنه قطعة حسنة مخطوطة في مكتبة الجامع الأزهر تشمل ما بين الجزء الثاني والثامن عشر . وقد كان الذهبي

(١) ابن النديم - الفهرست ص ١٣٨ .

اختصره في كتاب سماه المقتني في سرد الكني وقال : « وقد جمع الحفاظ (كتباً) في الكني ومن أجلّها وأطولها كتاب الشنائي ثم جاء أبو أحمد الحكم فزاد وأفاد وعمل ذلك في ١٤ سفراً لكنه يتبع الكشف منه لعدم مراعاته ترتيب الكني على حروف المعجم فربته واختصرته وزدته ... »^(١).

— أبو عبد الله محمد بن اسحق بن محمد بن منده الأصبهاني (المتوفى سنة ٣٩٦) وله كتاب الأسماء والكنى^(٢).

— أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف القرطبي المخافظ (المتوفى سنة ٤٠٣) صاحب تاريخ الأندلس . وهو أندلسي ولكننا نذكره هنا لبيان سابقته في عنوان كتابه الذي سيظهر في المشرق مثله وهو : شجاع الآداب في معجم الأسماء والألقاب .

— أبو عبد الله الحكم البسavori محمد بن عبد الله المعروف بابن البيع (المتوفى سنة ٤٠٥) وله كتاب الكني والألقاب . من مؤلفاته التي تزيد على ٢٠٠ مجلد .

— أبو بكر أحمد بن عبد الرحمن الشيرازي (المتوفى سنة ٤٠٧) وله كتاب (اللقب الرواية) وقد وصلنا نسختان مخطوطةان من مختصر له صسعه ابن الأغاطي واحدة في الظاهرية بدمشق وأخرى في مكتبة كوبيريلي باستامبول.

— أبو بكر أحمد بن عبد الرحمن المعروف بالفارسي الجوال (وماتوفي سنة ٤١١) وله كتاب ألقاب الرجال .

— أبو الفضل علي بن الحسين الفلكي (المتوفى سنة ٤٢٧) وله كتاب متهى الكمال في معرفة ألقاب الرجال وقد أخذ عنه السمعاني أكثر من مرة في الأنساب .

(١) انظر كشف الظنون ج ٤ ص ١٤٥٣ .

(٢) انظر الكتاني — الرسالة المستطرفة ص ١٢١ .

— ونشير هنا مرة أخرى إلى مؤلف مغربي صقلí لإتمام الصورة هو ابن عبد البر القرطبي (المتوفى سنة ٤٦٣) وله كتاب الاستغناء في معرفة الكنى وكتاب (من عرف من الصحابة بالكنية ولم يوقف له على اسم) وكتاب : أسماء المعروفين بالكنية من التابعين ومن بعدهم مع (كتاب من لم يوقف له منهم على اسم ولا عرف بغير كنية) ومن الكتب الثلاثة نسخ مخطوطة في مكتبة جامع القرويين بفاس (رقم ٢٨٧ ق ١٤٣) ضمن مجموع .

— أبو القاسم عبد الرحمن بن منهه (المتوفى سنة ٤٧٠) وله كتاب فتح الباب في الكنى والألقاب منه مخطوط في برلين برقم ٩٩١٧ .

وانحسرت موجة التأليف في الكنى بعد القرن الخامس واحتللت مع فنون المؤلف والمختلف من جهة كما حل محلها كتب الألقاب بسبب انتشار الألقاب المتعددة في الناس وخاصة في المشرق مما يضاف إلى كلمة الدولة أولاً (في القرنين الرابع والخامس) وما يضاف إلى الإسلام (في القرن الخامس) وما يضاف إلى الدين في القرون التالية ... وقد عني بذلك بعض المؤلفين ، أما الذي أوفر على الجميع في التأليف بالألقاب في معجم ضخم فهو مؤرخ جاء في مطالع العصر المملوكي هو :

— ابن الفوطبي أبو الفضل عبد الرزاق بن أحمد الشيباني (سنة ٧٢٣) فقد كتب تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب في خمس مجلدات بقى الرابع والخامس منها فقط . وقد طبع الرابع وحده في أربع مجلدات بدمشق (تحقيق مصطفى جواد) وطبع الخامس في الهند .

١٠ — وهناك عاشرآ : المعاجم لبعض الجماعات الخاصة من ذوي النسب الواحد كالأسراف والطلابين والقرشين والمهالبة ... أو من ذوى الميزات الجسمية الواحدة : كالعور والععيان . أو من ذوى الشمائل الخلقية كالعشاق والشجعان والبخلام والأذكياء ، أو من ذوى المذاهب الخاصة في الحياة كالزهاد والرهبان والتصوفة ... وقد مرت بنا الأمثلة العديدة على مثل هذه الكتب ...

(و) وأخيراً يأتي في باب تطور التدوين التاريخي في هذه الفترة العباسية أن المؤلفين أخذوا يعمدون بطريقة أو بأخرى لقصیر حبل المؤلفات وتضييق رقعتها زمنياً أو مكانياً . بسبب كثرة المادة وصعوبة الحصول على المعلومات البعيدة في الزمان أو المكان أو الاحاطة بها على الوجه الأكمل ، وهكذا ابعت في تضييق رقعة التدوين سبل شتى لن نضرب عليها الأمثلة ففي الذي فات بيان وكفاية حوله وفي الذي سوف يأتي ونكتفي بتحديد معالمها :

- ببعضهم وجد في الكتب الأمهات قمة التأليف فربط نفسه بها في ذيل قد يأتي من بعده ذيل ثم ذيل لتصبح السلسلة متدة إلى عدّة مؤلفين عبر عدّة قرون .. والأمثلة على هذه الذيول في كتاب التاريخ أو الوفيات أو الأدباء عديدة جداً .

- وببعضهم اقتصر في تاريخ الأحداث على تاريخ الخلفاء أو تاريخ العباسيين أو تاريخ بعض الدول أو بعض الأحداث ...

- وببعضهم اقتصر في التراجم على بعض الطبقات مما عاصره أو بعض الشيوخ الذين عرف أو تراجم المعاصرين له . أو الذين توفوا منذ يوم مولده حتى آخر حياته .

- وببعضهم حدد نفسه في إطار بعض السير : لبعض الخلفاء أو الحكام أو الأسر أو الأحداث .

- وببعضهم اكتفى بكتابة مذكرة الشخصية أو مراسلاته التي كتب للدولة أو مشاهداته وما سمع في الناس لمهده مقدماً بذلك نفسه كشاهد للعصر ...

وعلى أي حال فإن هذه الطرق على اختلافها سمحت للمؤرخين أن يكمل بعضهم بعضاً وأن يكونوا أغنی خصباً في العطاء وأكثر دقة وتفصيلاً وأبعد حرية فيتناول المواضيع التي يكتبون عن معرفة دقيقة مباشرة ، مما زاد في تطور التدوين التاريخي من جهة وفي نمو الفكر التاريخي من جهة أخرى .

الفصل الحادي عشر

في تطور الخط الفكري

بعد هذه الجولة التفصيلية الواسعة في رحاب التاريخ والمورخين ما بين القرن الرابع والقرن السابع نحسب أننا في حاجة إلى بعض النظارات الشاملة الختامية وفي هذا المجال قد نستطيع أن نسجل بعض الملاحظات حول الميزات الفكرية العامة للتاريخ في هذا العصر وهي ميزات قد تنطبق أحياناً كثيرة على مسيرة علم التاريخ الإسلامي في مختلف عصوره .

أولاً - أضحتي علم التاريخ جزءاً أساسياً من الثقافة الإسلامية : يتبيّن ذلك واضحأً لا من أعداد المؤرخين بالمئات الكثيرة ولا من المؤلفات التاريخية بأضعاف المئات ولكن من عدد من الطواهر الأخرى :

فقد أضحتي التاريخ لا في جانب التراجم منه فقط ولكن في جانب الحوادث منه أيضاً ركناً أساسياً في « علم » المحدثين ورجال الفقه والدين . بعضهم كان يطالعه ويدرسه وأكثرهم كان يؤلف بشكل أو باخر فيه . وقد كان التدوين التاريخي في هذه الفترة من مهمات ومشاغل أهل العلوم الدينية أنفسهم .

ويجانب هذا فإن جماعة الحياة السياسية من خلفاء وحكام وزراء وكتاب

وحجاب ورجال بلاط عملوا بدورهم في الدارة التاريخية . وببعضهم حتى من المخلفاء كتب التاريخ ، وإذا تميز الكتاب خاصة بكتابه المؤلفات التاريخية فلأنهم كانوا يضعون أيديهم عملياً على « مناجم » التاريخ الأساسية في دواوين الدولة من وثائق ورسائل وغيرها فكان التاريخ أقرب مجالات العلم لعملهم بعد الأدب . هذا بجانب أننا نلاحظ في كتب « التذكريات » والتعليم السياسي وكتب الخراج أن المادة التاريخية قد أصبحت مادة أساسية في ثقافة الجهاز الوظيفي كله من القمة إلى القاعدة . فقد خصص ابن حمدون مجلداً من اثني عشر مجلداً تألف منها تذكرته للتاريخ وحده . وثلث كتاب الخراج لقدامة معلومات تاريخية ...

ولم يكن أصحاب علوم الأوائل – على اهتمامهم العلمي والفلكي
ومathematical والفلسفي – بالبعيدين عن الاهتمام التاريخي وثمة الكثير من الفلاسفة
والأطباء والفلكيين الذين ألغوا في ميدان التاريخ أيضاً كالرازي وأبن جرير
التكريبي وأبن المارستانية وأبن أبي أصيبيعة وغيرهم.

وقد تترّد الاهتمام التاريخي حتى أضحي من اهتمامات الناس العامة ووجد أناس كثيرون جداً يعملون في الرواية التاريخية وإن لم يلدونها ، أو يروون بعض ما شهدوا لمن يؤرخون كما وجدت في الناس اهتمامات بقصص التاريخ عبرت عن نفسها في فيض من القصص شبه التاريخي بعضه للترفيه والتسلية وبعضه للوعظ والإرشاد وبعض لأشباع رغبة النقوس إلى الغريب والخيال ... وفي كل الأحوال كان الفكر التاريخي هو الرابع سعة من جهة وعمقاً في المذور من جهة أخرى .

ولعل من النتائج المأمة لرسوخ « الترعة » التاريخية في الثقافة الإسلامية وتحولها إلى جزء أساسي في كيانها أمرٌ :

الأول : أن البلاد الواقعة على البحر الأبيض المتوسط والتي كانت لها توارثها الخاصة ، سواء في مصر أو في سوريا والعراق ، هذا إذا

لم نذكر اليمن أيضاً، قد أعادت صياغة تواريختها على الأساس الإسلامي «أبدلت الروايات التاريخية القديمة التي نعرفها بغيرها – كما قال جب – أو صاغتها من جديد وفقاً للروح الإسلامية»⁽¹⁾ وهكذا لم تكن الصور التاريخية السابقة للإسلام هي نفسها التي عرفها المسلمون من تواريخت تلك الأمم وخاصة ما اتصل منها باليهودية والمسيحية ولكنها كانت الصور المسلمة ، من خلال معطيات القرآن خاصة ، لتاريخ مصر الفرعوني وتاريخ أنبياء اليهود والنظرة الإسلامية للمسيح .

الثاني : إن استقرار الإسلام في الأقطار الشرقية (إيران خاصة) التي لم يكن لها من تاريخ مكتوب (ومثلها في ذلك أفريقيا البربرية أيضاً) أو كانت نزعتها التاريخية محدودة ولا تتعدى بعض الكتب الملووقة بالحكم والقصص المفردة الراعية الموجهة ، ذلك الاستقرار أدخل معه التزعة التاريخية إليها . وأوجد التدوين التاريخي لدى شعوب لم تكن تعرف التاريخ من قبل . وتحولت إيران خاصة (ومثلها أفريقيا على الطرف الآخر) إلى مصنوع واسع لكتب التاريخ . وقد لا تكون مبالغين إن قدرنا مبلغ مساهمة الشعوب الإيرانية في المؤلفات التاريخية الإسلامية بأكثر من نصف تلك المؤلفات ، في هذه الفترة . كان اندفاعها في هذا الاتجاه نتيجة الرغبة في معرفة هذا الأفق الإسلامي العربي الذي أطل عليها من مكة فحل محل ملوكها ودينها ولغتها وتقاليدها وأعطتها اتجاهًا جديداً . وبعد أن كانت مطمئنة إلى نظامها الإقليمي المتكمّل ديناً ولغة وملوكاً خلال عشرات القرون كان عليها أن تنسى هذا الغزو الغريب من خلال معرفته . وكان عليها أن تبرهن عن انسجامها معه من خلال

(1) انظر جب – التاريخ (الموسوعة الإسلامية – الترجمة العربية) ج ٤ ص ٤٩١ .

تبنيّها لكل أنسه وتأكيدها تلك الأسس . أليس هذا ما يفسر ظهور سيبويه في النحو والطبرى في التفسير والتاريخ والبخارى والترمذى والسعستانى فى الحديث وأى حنفية فى الفقه ؟ وظهور الآلاف بعد الآلاف من المحدثين من إيران ؟

ثانياً - وضعت في هذه الفترة واستقرت معلم الفكر التاريخي الإسلامي :
فلسفة " غایة " وتدوينها .

١ - فقد استقرت لا من حيث الدين ولكن من حيث الصياغة التاريخية صورة العصر الإسلامي الأول (النبي - الراشد) بوصفه العصر الذهبي والعصر المثالي للإسلام والمجتمع الإسلامي . وبالرغم من ذلك الخلاف السياسي المحدود بين النظرة السنوية والنظرة الشيعية إلى طريقة تسلسل الخلفاء الأوائل فإن الطرفين كانوا متتفقين على استلهام ذلك العصر في الأحكام ونصبه نموذجاً و مجال قياس للعصور التالية . وهذا ما جعل السيرة النبوية خاصة أشبه بقطب الدائرة بالنسبة للتاريخ كله . فما قبلها تاريخ ولكنه تاريخ كفار وجموعة من أساطير الأولين . على بُعد مسافة واحدة من الخطأ والصواب ، وسلسلة أنباء كانت محاولاً لهم هي التمهيد والمقدمة للرسالة المحمدية . تاريخ ما قبل الرسالة ليس غير أنواع من الجاهلية . وأمّا ما بعد الرسالة فتاريخ يحاول الوصول إلى مستواها الأكمل ، وإلى مستوى ما دعت إليه . ولأن عهد الرسالة هو أساس القيم فقد كان من لواجد أن يعاد بناؤه التاريخي كاملاً وترمم كل الثغرات فيه بشكل نهائى ، لأن تكتمل المعرفة لأدق الدقائق منه وهو ما كان بالفعل . فجاء البناء التاريخي لذلك العهد متوازناً تاماً التوازن كعصر عظمة واتصال بأمر الله وعدل وحرية وتقى وتوجيه ، أنساه هم النماذج البشرية الأولى وعلاقاته هي القوانين للأجيال التالية . وإذا ألقى الخلاف السني الشيعي بعض الظلال على بعض الخلفاء الأولين فإن الصورة العامة ظلت على حالها من التموذجية الكاملة .

ونكاد نشعر أحياناً كثيرة لدى العديد من المؤرخين ولا سيما في العصور

المتأخرة بمحاولات المطابقة المستمرة التي يحاولون دوماً اقامتها بين عهد التبوة وعهود وأعمال الجماعات التالية من أسر حاكمة أو نخل طائفية أو مذاهب فكرية . إن المقياس الذي ارتفع به عهد كعبه عمر بن عبد العزيز أو نور الدين ابن زنكي إنما هو بمقدار ما اقترب من صورة الخليفة العادل « عمر بن الخطاب » ونضال الطوائف العلوية المضطهدة كان يجد الأسوة الحسنة والعزة في نضال النبي ضد قريش الكافرة الظالمة والنموذج الأكمل لرجل الدين هو الذين يجسد كرهاً أخرى في ذاته سيرة بعض الصحابة الأوائل ... إن سيرة عصر الرسالة التي أخذت شكلها النهائي منذ مطالع القرن الرابع لم تصبح الصورة الوحيدة المكرورة في كافة التاريخ باطارها ومحتوها ولكنها أصبحت أيضاً نموذج المقياس والقيم والحكم .

ويختلف الأمر تماماً بالنسبة للعصر الأموي الذي إنما كتب تاريخه كله في ظل الرقابة العباسية وبأيديها كتاریخ مهزومين . ولما كان كل من العباسين والعلويين - على خلافهما الذابح - متفرقين على كرهبني أمية واعتبارهم الكفرة الغاصبين فإن طول العهد العباسى وانسحابه على مدى خمسة قرون قد سمح للمؤرخين العباسين - مع الموافقة الكلية من قبل الجانب العلوى - بأن يكتبوا تاريخبني أمية على هواهم : تشنيعاً وتشويهاً . محاولات بعض الأمويين في دفع ذلك الظلم لم تفلح إلا في ترك بعض الأصداء الخافتة . والدفاع الذي كتبوه في مؤلفات عديدة غرق في زوابا الإيمان مع استقرار العرش العباسى الطويل ودخوله في وهم الناس على أنه جزء من نظام الكون ... وإذا كان قيام العرش الفاطمي العلوى قد فتح الباب لدخول شيء من التوازن على التاريخ العباسى نفسه وجراح ظاهره المزروق وأبرز النضال العلوى من خلاله فإن سقوط الفاطميين قبل قرن كامل من سقوط بغداد وتولي المؤرخين السنين بعد ذلك كتابة التاريخ الفاطمي نفسه من خلال النظرة العباسية ، علة قرون متالية ، قد ترك بعض الجروح أيضاً في التاريخ الفاطمي محتفظاً على الدوام للصورة العباسية يمكنها المحترم مضيقاً في الوقت نفسه حتى المؤلفات التاريخية الفاطمية نفسها والشيعية . أو ليس هذا هو

الذي يفسر على الأقل ضياع آثار مؤرخين من أعظم المؤرخين في الإسلام : كالمسبحي وابن أبي طي ؟ إن لم نذكر القرطي وابن مسلمة وابن الطوifer ؟

٢ - تحددت الاهتمامات التاريخية ، في هذه الفترة ، أيضاً بعدد من أقطاب الاهتمام كان التاريخ هو الجواب عليها أو مصدر الجواب الوحيد .

فإن انتشار الإسلام وصيروته منذ مطالع القرن الثالث دين الأكثري في الدولة الإسلامية قد دفع الكثيرين إلى التساؤل عن الأسس الأولى التي تقوم عليها الحياة الإسلامية وإلى محاولة التعرف على التجارب الأولى وعلى مصادر القيم والأحكام ونماذج التقليد . كانت الفترة الإسلامية الأولى بالنسبة للأعداد الواسعة من المسلمين الجدد « ميدانًا » مجهولاً تماماً الجهل في الوقت الذي يجدون في أنفسهم كل التوفيق لعرفه لأنهم بدخول الإسلام قد تبنوا التبني الكامل .

وفي الوقت نفسه فإن امتداد العهد الإسلامي قرناً بعد قرن واغتناء الجماعة الإسلامية يوماً بعد يوم بالتجارب والتجربات والأحداث جعل من هذه التجارب جزءاً حمياً من حياة ومصير كل فرد في تلك الجماعة . وبالرغم من أن معظم رعايا الدولة الإسلامية في العهد الأموي ومطالع العباسى لم يكونوا يعتبرون الزراع العلوي مع هؤلاء ولا قصص صفين والحمل ولا أخبار المختار ووقعة الحرة والحجاج أكثر من أخبار « الآخرين » الذين جعلتهم القوة العسكرية حكامـاً إلا أنهم حين دخلوا في الأمة الإسلامية من بعد أصبحت تجارب هذه الأمة وخبراتها وأحداثها قطعة من تاريخهم الخاص أيضاً ملتصقة بهم أشد الالتصاق باعتبارـهم جزءاً منها .

ولم يكن مؤرخ كالطبرى أو هلالى الصابىء أو مسکويه أو المرزبانى ، ليكتب التاريخ الذى كتب لو لا إيمانه المسبق بوحدة تجارب الأمة من جهة وبوحدتها معها من جهة أخرى وبقيمتها المصيرية بالنسبة إليه ، في النهاية من جهة ثالثة .

ولقد شعر الجميع لا بقيمة التجارب فقط ولكن بدورها في صيانة وحدة الأمة الإسلامية وبضرورة صيانة هذه الوحدة من خلاطها ومن هنا فقد حملوا مؤلفاتهم رأي ما يسمى « بأهل السنة والجماعة » بصورة خاصة لا رأي بعض الفرق منها . اتبهوا بجعل تواريχهم تاريخ « المجموعة الأوسع من المسلمين لا تاريخ طائفية محددة أو مذهب معين وهكذا أسهموا في نشر الأيديولوجية السنّية خاصة ، من خلال الإلتحاق على تاريخ الجماعة ، أو على الأصح من خلال إقرار وتبير الواقع الذي ظفر وتحقق واهمال من فشل أو انهزم وحجب الأضواء عنه . وبالرغم من أن الجماعات الصغيرة ، من فرق وطوائف قد كانت لها محاولاتها وقد كتبت دون شك تاریخها وسجلت وجهات نظرها إلا أنها لا نجد في التواريχ الكبیري ولا التواريχ الأخرى المتداولة إلا أخف الظلال منها وأحياناً لا نجد إلا الباحث الأسود من قصتها ، وليس يعني ذلك أن المؤرخين ألغوا الجماعات واستبعدوها . إنهم بالعكس بدلاً من أن يلغوها جمعوا كل الأفكار في ميدان واحد وفي كتاب واحد وكتبوا من خلال وجهات نظر الجماعة تاريخ جميع الفرق والأحداث والأسر والملوك معاً بعد أن وضعوها على صعيد واحد ، وكتبوا في النهاية مصيرها ... وبقاء الجماعة . وإذا صان المؤرخون بهذا الشكل « وحدة » الأمة فإنهم دون شك قد أقرروا إلى حد ما مجموعة الألوان الحقيقة التي تلوّنت بها حياة الجماعة الإسلامية في الواقع الذي كان .

وعلى أي حال فإن التاريخ الذي نظر إليه مؤرخو السنة على أنه استمرار للنظام الإلهي الذي اختاره الله (أي النظام العباسي) فإن الشيعة لم يرفضوا منه إلا القمة نفسها (أي الخلافة العباسية) وذريوها السياسية . ونصبوا من خلال التاريخ الخاص لهم قمة أخرى إلهية الاختيار بدورها تتسلسل فيها القيادة والزعامة هي الأئمة . والفرق الشيعية على اختلاف ما بينها في درجة تصعيد العلاقة ما بين هؤلاء الأئمة وبين الفزة الإلهية لا يختلفون في زاوية النظر التاريخية إلا من خلال تقييم النظم والرجال بالنسبة لنظرتهم وموقفهم من آل البيت .

ولم تظلم من زاوية الحقيقة التاريخية في الحالين إلا الفرق المتطرفة التي غطى السواد الكثيف والكمان معظم نشاطاتها وأعمالها السرية ، رغم خطورها في التاريخ .

وأخيراً فقد أنصب اهتمام المؤرخين على الطبقات العليا في الجماعة : سواء منها الحاكمة سياسياً أو المبرزة دينياً . « العامة » . « الأوباش » . « العيارون » . « النبط » . « العراة » . « الزواقيل » . « الطاردون » . « باعة الطرف » ... الخ . كل من كانت تعبير عنهم هذه الأسماء من الطبقات الدنيا المحرومة ، مضافاً إليهم طبقات العبيد بأجناسهم وأعمالهم لم يكن لهم من مكان على سطور التاريخ . كانوا الهامش بعيد منه . لا تلقى عليهم الأضواء إلا إن دخلوا لسبب أو آخر في الدارة الضوئية لبعض الأحداث المتعلقة بالطبقات العليا .

وهذه الطبقات العليا كانت مجموعتين أحدهما بيدها الحكم والسيف والسياسة والمال ... وتحمل اسم « الناحية » مقابل العامة . ويدخل فيها عدا الخلفاء والسلطانين والأمراء ، جماعة البلاط من موظفين كبار وقواد ورجال دولة وعمال على المال ... كما يدخل فيها التجار والملاك والمتمولون ... وأما المجموعة الثانية فطبقات العلماء الذين كانوا يستمدون أعظم التقدير مما يحملون من علم هو الدين كله ، مصدر القيم . واقتصر التاريخ الإسلامي على الاهتمام بهاتين المجموعتين : ترجمة وعلاقات وحروباً وتقدير فكر وحفظ . حتى الجواري حين يتحدث عنهن التاريخ أو الزنج أو الغلمان أو المغنوون ، فإنما كان التاريخ يذكرهم بمقدار ما لهم من علاقة مع الطبقات العليا ومن خلال نظرة تلك الطبقات إليهم . التاريخ الإسلامي هو ، من هذه الزاوية تاريخ طبقي ولكن هل كان له ، في عهده ، أن يكون غير ذلك ؟

٣ - تحرر التاريخ إلى حدٍ كبير ، في هذه الفترة ، من الوصاية الدينية عليه . طبقة الكتاب التي غزت ميدان التأليف أو وجدت فيه ، بجانب اللون الديني ، اللون الآخر الدنيوي . وانتقال تدوين التاريخ السياسي ، في الغالب ،

إلى أيدي الكتاب ورجال البلاط والعمال ترك أثره العميق في التاريخ سواء في مادته أو في أسلوبه أو في أهدافه . أخذت الأحداث السياسية ، كأحداث قيمتها الخاصة بصرف النظر عن قربها أو بعدها من المفهوم الديني أو عن اتصالها أو عدم الاتصال بالأمور الدينية . لم يعد الحدث السياسي كما كان في عهد النبي والراشدين تشعياً ، ولكن مجرد حدث سياسي في أسبابه ونتائجها وقيمة . وسقط السند لعدم الحاجة إليه لتبرز بدلاً منه الشهادة الشخصية والوثائق والرواية والاستنتاج . ومع تعدد المراكز السياسية في البلاد الإسلامية تعددت وتكاثرت الأحداث ودخل ميدان التاريخ فيض هائل من الأخبار التي تستحق التسجيل ، من كل مكان . وكانت إعادة تكوين الأحداث الخارجية وتسجيلها من الأموريسيرة على الكتاب ، ومن الأمور الملائمة لعملهم وطبعاً لهم كما كانت المصادر التي يستقون منها المعلومات جاهزة تحت أيديهم سواء في الوثائق الرسمية أو في أحاديث البلاط والدواوين ، أو تصرفات الأمير وما يروى عنه ...

ثالثاً - وهكذا اصطبغ التاريخ بالصبغة المدنية ، متحرراً في الطريقة والأسلوب والمهدف من القضية الدينية التي غدت لها كتبها الخاصة . وكان لهذا التحول آثاره الخطيرة في علم التاريخ . وإذا تركنا جانبآً آخره في الأسلوب وفي سقوط الإسناد ، وفي ضعف التدقير المتشدد فإن التاريخ قد تأثر أيضاً في أهدافه وفي مادته :

(أ) حل المدف التعليمي السياسي أو التربوي الخلقي محل المدف الديني في التاريخ . نزل هذا العلم في أهدافه إلى الأرض . وأصبح الفرض منه في معظم الأحيان ، إما تعلم السياسة والحكم بالأمثلة السابقة لأهل السياسة والحكم وإما كشف القيمة الأخلاقية للأفعال وبسط الأمثال النافعة في تربية الأجيال المقبلة . أصبحي التاريخ لدى بعض المؤرخين فرعاً من فروع علم السياسة كما أصبحي لدى بعضهم الآخر فرعاً من فروع علم الأخلاق دون أن يلغوا ، في الحالتين كونه مجال عبرة إلهية وحكمة عظمى . ولعل من أوضح النصوص في هذا المعنى ما كتبه مسكوريه في مقدمة تمارب الأمم وقد يكون من المناسب فراءته قال : «إنني لما تصفحت أخبار الأمم وسير الملوك وقرأت أخبار البلدان وكتب التواريخ وجدت فيها ما تستفاد منه تجربة في أمور لا يزال يتكرر مثلها .

ويتظر حدوث شبهها وشكلها كذلك مبادئ الدول وذكر دخول الخلل فيها بعد ذلك وتلقيه من تلافاه إلى أن عاد إلى أحسن حال وإغفال من أغفله فالامر إلى الأضمحلال والزوال . وذكر ما يتصل بذلك من السياسات في عمارة البلدان وجمع كلمة الرعية وحيل المخوب وذكر الأسباب التي تقدم بها قوم عند السلطان والأحوال التي تأخر لها آخرون . وذكر لسياسات الوزراء وأصحاب الجيوش . ولما كانت أمور الدنيا متشابهة وأحوالها متناسبة صار جميع ما يحفظه الإنسان من أحداث التاريخ كأنه تجرب له وكأنه قد عاش الزمان كله . فيعد لكل شيء عدته ... ووجدت هذا النمط من الأخبار مغموراً بالأخبار التي تجري مجرد الأسماك والخرافات التي لا فائدة منها غير استجلاب النوم بها ... فلذلك جمعت هذا الكتاب بسميه تجرب الأمم . وأكثر الناس انتفاعاً به أو فرهم قسطاً من الدنيا ، كالوزراء وأصحاب الجيوش وسوسان المدن ومدبّري أمر الخاصة والعامة ثم سائر طبقات الناس . وأقل الناس حظاً لا يخلو أن يتفعّل به في سياسة المنزل وعشرة الصديق ودخول الغريب . وأنا مبتدئ بذكر الله ومتنه بما نقل إلينا من الأخبار عن الطوفان لقلة الفقة بما كان قبله ولأن ما نقل أيضاً لا يفيد شيئاً مما عزمنا على ذكره وضمناه في صدر الكتاب ... وهذا السبب بعينه لم نتعرض للذكر معجزات الأنبياء صلوات الله عليهم وما تم لهم من السياسات بها لأن أهل زماننا لا يستفيدون منها تجربة فيما يستقبلونه من أمورهم ، اللهم إلا ما كان منها تدبريراً بشرياً لا يقتربن بالإعجاز ...» .

وإذا صادفت هذه الدعوة قبولاً لدى طبقات الكتاب لأنها حررتهم إلا من المهدف السياسي فقد صادفت مثل ذلك لدى رجال السياسة لأنها أعطتهم الأمثلة والمبررات لما يقومون به من الأعمال والأحداث كما صادفت القبول لدى علماء الأخلاق ورجال الأدب الذين أخذوا يكيفون أمثلة التاريخ بما يلائم أغراضهم ويملأون مؤلفاتهم بما يستحسنون من التوادر والطرف المترفة كما صادفت القبول لدى الوعاظ الذين كانوا في سبيل هدفهم الوعظي ، أكثر الناس تشويهاً لأحداث التاريخ ..

(ب) اتضح في التاريخ أساس جديد من أسس التحليل والتفسير هو العقل . أخذ المؤرخون أو بعضهم على الأقل يعتمدون التعليل والمناقشة المنطقية في سطوره وأحداثه بجانب التسليم الإيماني بأن الأقدار بيد الله . وبالرغم من أن هذا الأساس لم يتطور بشكل واسع ليصبح «مدرسة» فكرية في التاريخ إلا إنما نعد الأمثلة الكثيرة عليه . وأكثر ما ظهر ذلك لدى الكتاب والمورخين ذوى الثقافة الفلسفية لا الحديثية .

(ج) تحرر التاريخ ، نتيجة لهذا وذلك ، من الترافات والأسمار . استقل عنها ليكون له ميدانه الخاص به . وبالرغم من أن مادته ، بما تحمل من الطريف والشير ، كانت تغري على الدوام طلاب المتعة والسمسر أو الوعاظ ، أو أصحاب الأخيلة ، بخلع أحداته من قيود الزمن ، وانتزاعها من إطار الواقع وإطلاقها حررة المصير في موكب القصص والأسطورة والوعظ التهذيب أو التسلية فإن حداً واضحاً قد وضع بين التاريخ وبين القصص ، بين معرفة الواقع كما كان وبين استخدامه أهمية أو حلية أو سوط عذاب أو مصباح هداية ... تحدد ميدان التاريخ في روایة الواقع . ففتح طريقه الخاص كمراة حيادية للزمان والأحداث . شق مكانه الوسط بين الاهتمامات الدينية التي ودعها وبين الميل القصصية التي رفضها ...

(د) اقسام التاريخ ، في شكله التسجيلي ، إلى فرعين : فرع للأحداث وفرع للترجم . وإذا تمحى الفقيه والمحدث لعمال الدواوين عن مكانهما في تدوين التاريخ السياسي فإنهما ظلا على الاستئثار بتاريخ الرجال . وإذا صار التاريخ السياسي « مدنياً » وكان الحفاظ والفقهاء راضين عن تركه وإهماله لما فيه مما لا يرضي الله فإن تمسكهم بعلم الرجال كان جزءاً من علومهم الخاصة برواية الحديث ونقله وقد مارسوا في تسجيله أصولهم وقواعدهم الحديثية بما في ذلك ذكر السندي الشيوخ والتلاميذ ..

على أن ميدان التراجم والرجال لم يبق ، مع ذلك ، ميداناً خاصاً بأهل

الحديث ورجاله . ذلك أن الصفة « الدنبوية » ما لبست بدورها أن لحقت التراجم التي دخلتها بالتدریج أعيان الرجال وكبار القادة وأهل الدولة . و « تحيد » التاريخ الذي نجح أولاً في ميدان الأحداث السياسية عاد فنجح كرة أخرى في ميدان التراجم وكتب الرجال . أدخل الجماعات غير الدينية في دنيا التراجم التي تحفظ وتروى . بل أدخل أحياناً بعض البارزين من غير المسلمين ولاسيما في مجالات التخصص الفكري كالطب والفلسفة أو في العمل السياسي في الوزارة والكتابة والدواوين . ومع أن هذا الاتجاه مشى أول الأمر على الضعف والتزدد في اعطاء الاعتبار لمختلف البارزين في المجتمع بالتوالي مع البارزين في العلم الديني إلا أننا لا نلبث أن نرى هذا التوازي يتتصر في مثل تاريخ بغداد (أواسط القرن الخامس) الذي دخله حتى بعض المغنين والتجار والممالئ ، والجواري ، والقواد والخدم ... فإذا جاء القرن السابع لم يكن كتاب (وفيات الأعيان) حكراً على طبقة دون أخرى من الأعيان كافة .

٤ - ظل التاريخ بصورة عامة ومن حيث الشكل في النطاق الوصفي ، التقريري ولم يصل إلا عند قبضة محدودة من المؤرخين إلى اعتبار التحليل والتعليق من أساليبه المقررة . لم يصبح ممارسة فكرية مستقلة . محاولات أمثال المسعودي ومسكويه والبيهقي لم تتكلّر وبالتالي لم تأخذ أبعادها في التطور نحو تكوين منهجية تاريخية خاصة . المنهجية الكبرى التي تقرر هي تلك التي تناولت حملة الأخبار لا الأخبار نفسها والسد الروايو لا الحادث التاريخي نفسه . وهذا العجز المنهجي أدى إلى الضمور في استقلالية هذا العلم ، وإلى تحديد دوره الفكري . لم يأخذ في بروزه كعلم خاص ، الأبعاد التي يقتضيها استقلاله . وهكذا ظل وسيلة لا هدفاً وظل في نطاق الخدمة للعلوم الأخرى أكثر مما كان عاملاً في تطوير الفكر الإسلامي نفسه ، بما يحمل من الإمكان والمعطيات . يقول فون غرونباوم : « لم يكن علم التاريخ (الإسلامي) وفن كتابته يرغبان في الحكم والتفسير بل كانوا فقط يقدمان المادة ... »^(١) .

(١) فون غرونباوم - اسلام المصر الوسيط (الترجمة الفرنسية) باريس - مايو ١٩٦٢ ص ٣٠٥ .

ويقول و. سميث « لقد عمل التدوين التاريخي العربي (المهستريوغرافيا) بمثابة دفاع أكثر مما عمل بمثابة بحث حقيقي ... »^(١) والحكман يتهمان إلى نقطة واحدة هي ذهاب التسجيل التاريخي الإسلامي سطحاً مع الأحداث والترجم لا عمقاً . ووصفه للأحداث من الخارج لا تفاعله الفكري معها . على أن هذه السطحية والوصفيّة هما لحد ما سماتان ظاهريتان ويجب أن لا تخدعانا عن الواقع الذي يجب أن نقرّر معه أن المؤرخ الإسلامي ، كان ينفي وراءهما ، جهداً كبيراً من الانقاء للروايات ومقارنتها وتفني ما لا يقبله منها أو دمج بعضها في بعض . إن التدوين التاريخي الإسلامي ، في الحقيقة ، إنما يتضمن في شكله الوصفي المعطى تلك العمليات الفكرية من استقراء ومناقشة وتفضيل رواية على أخرى ولكن دون الإعلان أو التسجيل لكافة تلك المراحل التحضيرية السابقة للكتابة والتي قلما يكشف عنها المؤلف ، وندر جداً من المؤرخين من كان كتابه مجرّد سرد ساذج لا يحمل ضمن السطور تأويله الخاص وتفسيره الذاتي . ومع ذلك فإن الموضوعية التي انصبّت لديهم على الاحترام الرائد « للشهادة » و « النص » قد أبعدتهم عن المناقشة المباشرة والكامنة للمحتوى الذي تحمله الرواية التاريخية وهي التي حالت دون تطور المنهجية التاريخية نحو العلمية الكاملة .

٥ - ومن جهة أخرى فإن التاريخ الإسلامي لم يكن كما قد توحّي صورته الظاهرية مجرد أشتات من المعارف وأكداد من المعلومات . لقد قدم ، وخاصة في عصوره الذهبية (ما بين القرن الثالث وأواخر الرابع) قصة تلك المحاولات السياسية والفكرية والاجتماعية والدينية والاقتصادية لإقامة النظام الإسلامي بشكل عملي . قدم القصة كاملة بما لها وما عليها ؛ لم يهمل حتى أفراد الرجال ودقائق الحياة . وإذا كان الجلو السياسي هو الطاغي على مؤلفات التاريخ فإن صورة الجلو الفكري الثقافي ليست أقل وضوحاً ودقة و شأنًا . وحين تحدث التاريخ عن

(١) سميث - الإسلام في العالم الحديث (باريس ١٩٦٢) ص ١٠٩ .

الإمامية والتعليم السياسي والفروسيّة والديارات والمملل والنحل وعن الأغاني والجواري والتوادر والأذكياء والوزراء والمجانين ... الخ فإنما كان يقوم بتقديم حصيلة الصور الواقعية للتاريخ الإسلامي ولنظامه ، بل وحصيلة الأشكال الفكرية الممكنة من خلال الإسلام .

بعض المؤرخين كانوا إنما يصفون ما كان تقريراً لواقع ، وتسجيلاً لتجربة حضارية متنامية مماثلة ب مختلف الأفكار وبألوان الحياة وعواصف السياسة وخصيب النشاط الفكري والاجتماعي . كانوا يرون أنها جديرة بالتسجيل للذاتها . لأنها حضارة الدنيا الأولى في تلك الفترة . على أن بعض المؤرخين الآخرين كانوا يضعون هذه الصورة التاريخية مقابل تلك الصورة المثلث لعصر الرسالة والصحابة . الاهتمام خاصة برجال الحديث وأخبار الزهاد والصوفية والنظم العادلة والفقه إنما هو اهتمام « بحملة » الإسلام واهتمام باستمرارية التاريخ الأول كصورة مثالية تقابل التاريخ الواقعي المتدهور . وإذا كان المؤرخون الأول هم شهدو العصر فهو لاء كانوا بدورهم الشهدو السليبيين . كانت أعمالهم شهادة على مبلغ بُعد الواقع التاريخي الإسلامي عن مستوى عصر الرسالة . كان التاريخ الذي سجلوه تعبيرآً وتسجيلاً لحركة اجتماعية – سياسية فكرية ما تنفك تبادر مع الصورة المثلث . ومن هؤلاء وهؤلاء على السواء نشأ تقليدان في التاريخ يمكن أن يُعتبرا مدرستين فيه : دينية ودنيوية . وإن كان الطرفان شهود عصوبهما ...

٦ - واعترفت الأمة الإسلامية . في هذه الفترة ، عن طريق التاريخ ، بالأمم الأخرى التي تعايشها . وفي القرون الثلاثة الأولى التي نشأ فيها التاريخ الإسلامي كانت الجهود والعيون والأنوار منصبة كلها على تبيين ملامح المعجزة الإسلامية الكبرى : رسالة ونجاحاً وفتحاً ودولة ونظاماً دولياً ... لم يكن للمسلمين لا الوقت للنظر في تجارب الأمم الأخرى ولا الرغبة في الاعتراف بوجودها مع عظمة الواقع الإسلامي العربي .

على أن هذا التجاهل ما انفك يخرب شيئاً فشيئاً سواء من قبل المسلمين الجدد الذين أرادوا أن يثبتوا وجودهم التاريخي السابق تجاه العرب المسلمين أو من قبل العرب أنفسهم الذين أدركوا سعة الشعوب الأخرى في المكان والزمان والعدد والفكر والحضارة . ومنذ أصبح المسلمون هم الأكثريية في الدولة الإسلامية ، في القرن الثالث ، واتجهت الحضارة الإسلامية نحو التمازن بالثقافات الأخرى وانتصرت سياسة العباسين في تعامل العناصر المتعددة وتعايش الأديان وقبول الثقافات كلها على مستوى واحد ، منذ ذلك الوقت أخذت الشعوب السابقة للإسلام أو المعاصرة له مكانها من الوجود « والتحيز » بالنسبة للمسلمين ، وقبلت في السجل التاريخي . كان التسجيل بمثابة الاعتراف المتأخر بها وبمثابة اعطاؤها حقها من « المفاخر » والمجد السابق . شمول الإسلام وتکاثر معتقليه من كافة الأمم وصيروة الأکثريّة العددية والفكريّة إليه في الدولة الإسلامية سمح للتأليف التاريخي بصورة آلية وبالطبيعة العفوية بأن يشمل في سجلاته كافة الأمم ، وهكذا وضعت منذ أو اخر القرن الثالث التواريخت العالمية التي قد تكشف بالكمية العددية المحدودة من الصفحات وبالنسبة التي خصصتها منها للأمم الأخرى مقابل ما كرسه للتاريخ العربي الإسلامي . مدى ذلك الاعتراف المحدود على أي حال . كان الحاضر الإسلامي والماضي الإسلامي بالنسبة للمؤرخ المسلم من التائق ومن الشأن الديني ومن القرب الرمزي ومن الالتصاق الحياني بالناس بحيث كانت توارييخ الأمم السابقة أو الأمم الأخرى المعاصرة لا تشغله إلا أبسط الاهتمام .

٧ — على أن هذا التفسير الأحادي الجانبي قد لا يكون كافياً لفهم السبب في ظهور تلك التواريخت العالمية الموسوعية في فتراتها . إن لها مجالاً آخر للتفسير قد لا تفهم بدونه . إنها على أي حال لا تفهم حين ينظر إليها كركام من المعلومات المجموعة بين دفين ، ولكن كنظام فكري كامل . من تصور وتكوين أولئك المؤرخين الكبار ، مرتبط الارتباط المباشر بنسيج عصورهم السياسي والفكري وبأخطاره الكبرى .

ولعل مما يلفت النظر أن تظهر التوارييخ العالمية الكبرى في الإسلام في أعقاب الكوارث الكبرى وفي العصور التي تهياً لحركة جديدة من النهضة . إن رابطة عميقة من الصلة تربط دون شك ما بين تحطم الخلافة العباسية تحت ضربات الخدم الأثراك منذ مقتل المتوكل سنة ٢٤٧ حتى نهاية القرن ، ثم ظهور البوهين في بغداد سنة ٣٣٤ ، وما بين ظهور التوارييخ العالمية لليعقوبي والطيري والمسعودي والمظير المقدسي ومسكويه ... كانت العيون كلها والتفوس تبحث في كل الأفاق ، وفي « تجارب الأمم » عن أمثلة تفسر هذا الذي ينزل بالخلفاء العباسيين ، رؤوس الدولة دينياً وسياسياً ، من نكال وإذلال . فجاءت التوارييخ العالمية من كل أفق تخبر عن « الملوك » و « الدول » و « الأنبياء » و « البدء والتاريخ » ... كأنما تريد أن تحمل الغراء والتفسير وأن تقول أنه لا جديد تحت الشمس ... أو تفتح الطريق الفكري للتطور السياسي الجديد .

ولذا كان كتاب الدول للمجاشعي هو التاريخت العالمي الوحيد الذي أثاره دخول السلاجقة إلى المسرح السياسي الإسلامي في أواسط القرن الخامس لأن أحداً لم يعتبر هذا الدخول خطراً ولكن راى دعم وعون للخلافة ، فإن دخول الفرنجة إلى الشام بذلك الشكل المسؤول، الساحق وألام البلاد العربية الإسلامية وهي ترمي جبهتها الداخلية أكثر من سبعين سنة حتى استقامت جبهة واحدة في وجه الفرنجة هي التي تفسر ظهور كتاب المتظم لابن الجوزي (وإن يكن اهتمامه الرئيسي ببغداد إنما يعكس واقع انصراف بغداد عن الاهتمام بتلك المحتنة الكبرى إلى شؤونها الخاصة) ثم حين ازدوجت الكارثة على العالم الإسلامي بظهور المغول الساحق من الشرق مع ضغط الفرنجة عليه من الغرب (في مطالع القرن السابع / ١٣م) وتضخمته في الضمائر لحظات الشعور بالخطر المدمر المزدوج ظهرت كنوع من الدفاع الذاتي سبعة توارييخ عالمية على مدى نصف قرن كتبها (ابن الأثير وسبط ابن الجوزي وابن نظيف وابن أبي الدم وياقوت والقططي وابن أبي أصيحة ...) وإن لم يبق منها سوى الاثنين الأولين .

على أن ثمة فرقاً ما بين « عالمية » مؤرخي القرن الرابع ومؤرخي القرن السابع . فالأوائل كانت عاليتهم اعتراضاً بالأمم الأخرى التي دخلت الإسلام ومحاولاً لللاحتجاج على التخريب الداخلي الذي حاولت فيه بعض العناصر من هذه الأمم تهدم النظام الإسلامي القائم من الداخل وتذكير المسلمين بالمهود الناصعة الأولى وبأمثلة الأمم الأخرى التي بادت بسبب العدوان على النظام العام . ومن هنا كانت تلك « الموسوعية » في المعلومات وتلك العالمية لاغراق الحاضر المليء بالتشاؤم والسوء في ماضٍ يعاد بناؤه للناس كتلة واحدة متكاملة . إنها عملية دفاع داخلي يراد بها صيانة استمرارية الأمة . أما عالمية مؤرخي القرن السابع ف مختلفة . إنها محاولة لإعادة ثقة الأمة بذاتها والهرب إلى تاريخ سابق رائع من واقع سيء تحقق الناس منه . إنها استمساك بالعمود الفقري للجماعة الإسلامية المهددة كي لا تنهار أمام الخطط الخارجي وتذكير لها بكافة الأمجاد السابقة التي انتصرت فيها على كافة الأمم الأخرى وورثتها . سبعة تواريخ عالمية كانت سبعة تأكيدات للأمة الإسلامية بأنها هي الوراثة الوحيدة للنظام العالمي وبأن كل الأخطر حتى لو اجتمع (من فرنجة ومنغول معاً) فالله خير حافظاً ... وهو الغالب على أمره .

٨ - توطدت خطوط التاريخ في ثلاثة مسارب : تاريخ الأحداث أو التاريخ السياسي ، وتاريخ الرجال أو الترافق ، وتاريخ الأفكار والعلوم والأداب والمجتمع والنظم أو التاريخ الحضاري . وإذا كان مفهوم التاريخ قد انصب أول الأمر على الترافق وأخبار الرجال وقد حمل المعنى الديني بسبب اختصاصه أيضاً بحملة الحديث فإنه سرعان ما توسع عن هذا المفهوم منذ أو آخر القرن الثالث ليحمل دون أن يتركه ، معنى الأخبار السياسية . ثم فرضت كتب التاريخ الحضاري نفسها تارة بوصفها ترافقاً لرجال العلوم المختلفة والأداب وتارة بوصفها أخباراً عن نواح طريفة أو هامة من الحياة العامة ، ولكن دون أن تحمل إلا في النادر عنوان التاريخ .

وخطوط المسيرة التاريخية بعد ذلك لم تحد عن هذه المسارب الثلاثة وإن زاوجت أحياناً فيما بينها جامعاً الترجمَ مع الأحداث ، منذ القرن السادس أو ناثرةً الأخبار الحضارية في ثناباً التواريخ كما فعل المسعودي والفارقي ، والبيهقي وغرس النعمة وابن منقذ ، ومؤرخو المدن في مطالع المؤلفات الخاصة .

رابعاً - وأخيراً عرف التاريخ أوسع الازدهار في مطلع هذه الفترة التي درستنا وفي نهايتها على السواء .

كان القرن الرابع (العاشر الميلادي) هو القرن الذهبي للتاريخ الإسلامي : سواء في أعداد من عملوا على التاريخ أو في أعداد المؤلفات التاريخية وأنواعها . ولم يقاربه في ذلك إلا القرن السابع الأخير الذي شهد بدوره فيضاً هائلاً من المؤرخين والمؤلفات والاهتمام التاريخي الواسع .

وإذا تحددت في القرن الرابع خاصة معالم علم التاريخ الإسلامي فلم يدخل عليها بعده الا أبسط التعديل سواء في المادة أو الأسلوب أو المنهج أو الفروع التاريخية فقد تجد هذه الظاهرة تفسيرها في رغبة الفكر الإسلامي ، في ذلك القرن ، في تسجيل ملامح وأحداث حضارة كبرى بلغت إذ ذاك أوجهها وبلغ شعورها بتميزها وتقدمها أوجه وبدأت في الوقت نفسه دور المحافظة أي دور الأول والتراجع كأنا أحسَّ المؤرخون بضرورة تسجيل كل شيء من تلك الحضارة لأن لكل شيء قيمته حتى المذكرات الشخصية وحتى أخبار المجانين فهم يمسكون بجميع الخطوط والصور قبل الأضمحلال والصياغ . كانت تلك الحضارة مدركة لتميزها عن غيرها ومعجبة بذلك التميز للدرجة التي وجدت من الضروري معها تسجيل جميع صورها في كل الأحوال . كتب التاريخ بالمعنى الكامل والأوفي هذه الكلمة إنما هي مؤلفات القرن الرابع ... ولا شك أن انطلاق الأفكار ، من خلال نماذج الثقافات المختلفة ، في كل الآفاق وشيوخ الفلسفة والعلوم الشيوخ الواسع ، وانتشار المعارف عن مختلف الأمم واجتماع أبنائها من كل الفجاج في بغداد ، واشتباك العلاقات التجارية وطرق القوافل والاقتصاد في هذا البلد الذي أضحي عاصمة الدنيا وتصادم

التقاليد الاجتماعية لمختلف الأمم في قصوره والأسواق كل ذلك قد خلق نوعاً من « الجموع » العام للمعرفة . والمعرفة لذاتها . وليس من علم يمكن أن تتجلّى فيه الرغبة في المعرفة للمعرفة كال التاريخ الذي لم يكن يطعم خبزاً ولا يؤهل لمقام كبير وليس له حلقاته التدرّيسية في الجموع ولا يعتبر العالم به « عالماً » ما لم يقرنه بأي علم آخر من حديث أو فقه أو أدب وشعر أو فلسفة أو طب أو رياضة ... تلك الفورة من الجموع الثقافية في القرن الرابع ترجمت عن نفسها من خلال التاريخ .

أما القرنان الخامس والسادس فقد اتجهت الأقلام إلى تسجيل استمرار المؤسسات الإسلامية على حالي واستمرار العلوم السابقة على خطها وعلماء الحديث والفقه على سنة السلف وذلك من خلال تسجيل استمرار الخلافة ، وعقيدة أهل السنة والجماعة من خلالها ومن خلال الأسرة السلجوقية التي جاءت فدعمتها ثم الزنكية والأيوبيّة ومن خلال ترافق الرجال والتأكد على أنهم في كل بلد (وذلك عن طريق التواريχ البلدانية) ما يزيدون على النهج القويم التقليدي نفسه يرددون الأسناد عن الشيوخ السابقين ويردون الأحاديث ذاتها في المساجد .. ولقد دعم السلاجقة هذه « التقليدية الاستمرارية » بتلك الشبكة من المدارس التي أنشأوها ما بين أقصى إيران وأدنى الشام لتعليم ونشر ودعم الأيديولوجية السنّية ..

وفي مثل هذه الأحوال تراجع الأحداث السياسية في القيمة لتحل محلها ترافق الرجال المحفوظة للتقاليد . وإذا استثنينا أخبار الهزات السياسية الثلاث التي أصابت المشرق الإسلامي في ما بين القرنين الخامس والسابع (هجمة السلاجقة ، عدوان الفرنجية والمقاومة له ، والهجوم المغولي المدمر) فانا لا نكاد نجد إلاـ الأخبار العادية عن المؤسسات الإسلامية التقليدية منذ قمتها والخلافات حتى أبسط الوظائف بما في ذلك القضاة والكتاب والجيش والخارج ... مما كان في الزمن الأول . على أننا نجد أن ترافق الرجال بالمقابل هي التي تتحل السطور الأولى دوماً

كتنوع من التأكيد على استمرارية المؤسسات الأولى ضمن الخط الإسلامي . وهكذا فالتواريخ الكبرى كانت منذ أواسط القرن الخامس للترجم : تاريخ بغداد للمخطيب . الأنساب للسمعاني . تاريخ دمشق لابن عساكر . حتى المتنظم لابن الجوزي إنما أفرد الباحب الأوسع منه للترجم كأنما أراد المؤرخون أن يؤكدوا أن النظام الإسلامي كله سياسة وعلمًا وتكوينًا ما يزال قائماً كما كان ، مستمر الوجود على عهده الذي سبق . لقد اتصل بهذه العقلية الاستمرارية دون شك ظهور بدعة « الذيل » وتكملاً لللاحق للسابق ، وسلسل المؤلفات المتتابعة التي تکاثرت بوضوح في القرنين الخامس والسادس ، وكتب معاجم الشيوخ التي أصبحت من المؤلفات التقليدية لكتاب العلماء يسجلون بها روابطهم مع أجيال الشيوخ السابقين ...

ولقد اتصل بذلك عصر المحافظة والحمدود وغياب الابداع فضاء « نوع » التدوين التاريخي وجفت مصادره ومعانه . أصبح تقليدياً . حولياته أصبحت من الإملال بحيث استطاع الكثيرون اختصارها في أسطر . وانتهى الانفتاح الموسوعي على الأفكار والحياة . ولم تعد نجد من جديد في كتب التاريخ سوى المحلي اليومي ، أمّا النظارات الأفقية والاتصال بالحياة العادية وبألوان المزاج الاجتماعي مما عرفناه في القرن الرابع ، فقد غاب تمام الغياب . لم يعد في حياة الناس ما يستحق التسجيل ... هم أنفسهم آمنوا بذلك فسكتوا ...

وجاء القرن السابع بنهاية تاريخية واسعة نستطيع معها أن نعد ما يزيد على ٣٢٥ مؤرخاً في مدى قرن (فيما بين أواسط القرن السادس وأواسط السابع) كتبوا ما يزيد على ٦٠٠ كتاب في التاريخ ... وظهر في هذه الفترة ابن الجوزي وابن الأثير وياقوت وابن النجار وابن أبي طي . وسبط ابن الجوزي والعماد الأصبهاني . والقطبي . والسمعاني . وابن أبي أصبيعة . وابن الدبيسي . والمنذري . وابن عساكر . وابن فندق . وابن العديم . والشيباني . وابن حملون . وأبو شامة . أو الطبرسي . والقادسي . وابن ظافر . وابن قدامة . وابن اللباد . وابن اسفنديار .

وابن نظيف . وابن أبي الدم . والبنداري وغيرهم كثیر . ذلك الفيض إنما كان نوعاً من الردة ونوعاً من إثبات الوجود ومن اليقظة الجواهيرية على تحدي الأخطار التي كادت في تلك الفترة تسحق من أقصى الشرق ، بسنايلك المغول ، ومن أقصى الغرب ، بسيوف الفرنجية ، منطقة الشرق الإسلامي كلها . وبالرغم من أن هذه المنطقة أُنقذت في اللحظات الأخيرة من هذه الأخطار وتلك ، إلا أن النظام الذي كان كل ذلك التاريخ وكل تلك الجهود التاريخية السابقة تدافع عنه وتدعمه وتطوف من حوله كان قد انهار مع انهيار بغداد سنة ٦٥٦ / ١٢٥٨ ...

الفهرس

الصفحة

٥

بين يدي الكتاب مقدمة في الأبحاث والدراسات التي سبقت إلى دراسة التاريخ الإسلامي

١١

- ١ - في التراث
- ٢ - الأبحاث والممؤلفات الحديثة باللغة العربية
- ٣ - الأبحاث باللغات الأجنبية
- ٤ - الأبحاث المساعدة والثانوية الأخرى

١٩

٢٩

٤١

القسم الأول : نشأة وتكون علم التاريخ في الإسلام

الفصل الأول :

٤٩

- ١ - الوعي التاريخي والتاريخ عند العرب قبل الإسلام

٤٩

النبر والتاريخ

٥٢

التاريخ العربي قبل الإسلام

٥٧

- ٢ - العوامل الأولى لظهور التاريخ في الإسلام

٥٧

أولاً : « تاريخية الإسلام » ...

| | |
|-----------------------------|--|
| ٦٠ | ثانياً : الحاجات الفكرية (الروحية - الثقافية) |
| ٦٢ | ثالثاً : الحاجات العملية الحياتية |
| ٦٤ | رابعاً : العوامل المساعدة |
| الفصل الثاني : | |
| ٧٤ | أ - بدء التدوين التاريخي الأول (مشكلة التدوين والرواية الشفهية) |
| ٨٣ | ب - ميزات التدوين التاريخي الأول |
| ٩٢ | ج - مراحل التدوين |
| ١٠١ | د - مادة التدوين التاريخي الأول ومواقف التدوين لكل مادة |
| الفصل الثالث | |
| ١١٣ | المدارس الأولى (في الشام واليمن) |
| المدارس الصغرى | |
| ١١٩ | مدرسة الشام |
| ١٣٥ | مدرسة اليمن |
| ١٣٩ | مدرسة فارس |
| الفصل الرابع | |
| ١٤٩ | المدارس الكبرى - مدرسة المدينة |
| الفصل الخامس | |
| ١٦٩ | مدرسة العراق |
| الفصل السادس | |
| ظهور المؤرخين الكبار | |
| ٢٠٢ | ١ - الميزات العامة وجمهرة الماهدين |
| ٢٣٤ | ٢ - المؤرخون الكبار |

**القسم الثاني : التاريخ الإسلامي في المشرق العباسي
ما بين أوائل القرن الرابع وأواسط السابع الهجري**

الفصل السابع

- ٢٦٧ الملامح العامة لرجال التاريخ في المشرق العباسي
التاريخ فيما بين أوائل القرن الرابع الهجري
٢٦٨ وأواسط السابع - الملامح والميزات العامة
٢٧١ رجال التاريخ
٢٧٢ ١ - في عدد المؤرخين وتوزعهم الزمني والمكانى
٢٧٥ ٢ - في الوظيفة الاجتماعية
٢٨٣ ٣ - في التكوين العلمي والاهتمامات الفكرية والمنهجية
٢٨٦ ٤ - في أقاليم المؤرخين (المدارس الإقليمية)

الفصل الثامن

- ٢٩٣ تطور المادة التاريخية
٢٩٣ ١ - تكاثر المادة في الكتبة
٢٩٦ ٢ - تنوع المادة مع الازدهار الحضاري
٣١٣ ٣ - أثر الحاجة السياسية والإدارية
٣٢٦ ٤ - التأثير بمادة العلوم الأخرى ونموها
٣٤٨ ٥ - أثر التزق السياسي
٣٥٥ ٦ - ظهور التواريخ المحلية والخاصة
٣٦٥ ٧ - ظهور السير الفردية والذاتية والمذكرات والقصص التاريخي

الفصل التاسع

- ٣٧٨ تطور المنهج التاريخي - ١
- في تدوين المادة التاريخية

الفصل العاشر

- ٤٠١ تطور المنهج التاريخي - ٢
- في تنظيم المادة

الفصل الحادي عشر :

- ٤٤٥ في تطور الخط الفكري

هذا الكتاب

يوم كانت مادة هذا الكتاب تجتمع على الصمت والتکاثر بين يدي سنة بعد ستة حتى بلغت ما يزيد على خمسة عشر ألف بطاقة ، عدا مئات الكتب ومئات الأبحاث ، ما كان في خاطري أن تأخذ طرقها إلى دراسة كهذه الدراسة في علم التاريخ الإسلامي ولا إلى كتاب من مثل هذا الكتاب .

على أن مصادرة المصادر التاريخية جرتي — دون أن أدرى — إلى النظر في مناهجها ونسيجها الفكرية وتنبيتها العلمية الدافية وخصائصها من خلال تاريخ التدوين وتطوره على تمطي الزمن ، كما جرتي — دون أن أدرى أيضاً — إلى معايشة المؤرخين ، ذلك الرعيل الكبير الذي رافق مسيرة التاريخ العربي الإسلامي كله وأغارنا عيونه والأقلام لنرى ونعرف تلك المسيرة من خلاله ... حيادياً كان أم ذاهباً مع الأهواء ، نافذ البصيرة أو أعمى الفؤاد ، في آلاف المجلدات التي كتب ... ووجدتني بين هذا وذاك أئمّاً موضوع جديد لم يكتب بعد ، وقد تكاملت على أورافي جوانبه « فلم يبق إلا صورة اللحم والدم » ، لم يبق إلا أن توضع له الكلمات ... وهكذا وجد هذا الكتاب الذي يتحدث عن علم التاريخ العربي في مختلف أطواره وعصوره وعن المؤرخين الذين أقاموا ، على الأطوار والمعصور ، هذا العلم .

وهذا الكتاب ليس على أي حال أكثر من محاولة تطمح في كثير من التواضع إلى أن ترسم بعض الخطوط والملامح في تاريخ علم التاريخ جواباً على الحاجتين الأولى والثانية وإلى أن تكون نوعاً من المصاحف الهادي لهم المصادر التاريخية في معارجها والمسالك تلبية للحاجة الثالثة . كما ترجو أخيراً أن تكون إحدى المنافذ للاتصال على الإحاطة والألفة بهذا الفرع من فروع الشاطئ الفكري في الثقافة العربية الإسلامية ، تمهدًا لاستعراض ثمرات ذلك النشاط في الكتاب الثاني القريب : مصادر التاريخ الإسلامي .